الفلسطيني

العدد ١٥ - ربيع ١٩٨٩ - نيسان - أيار - حزيران

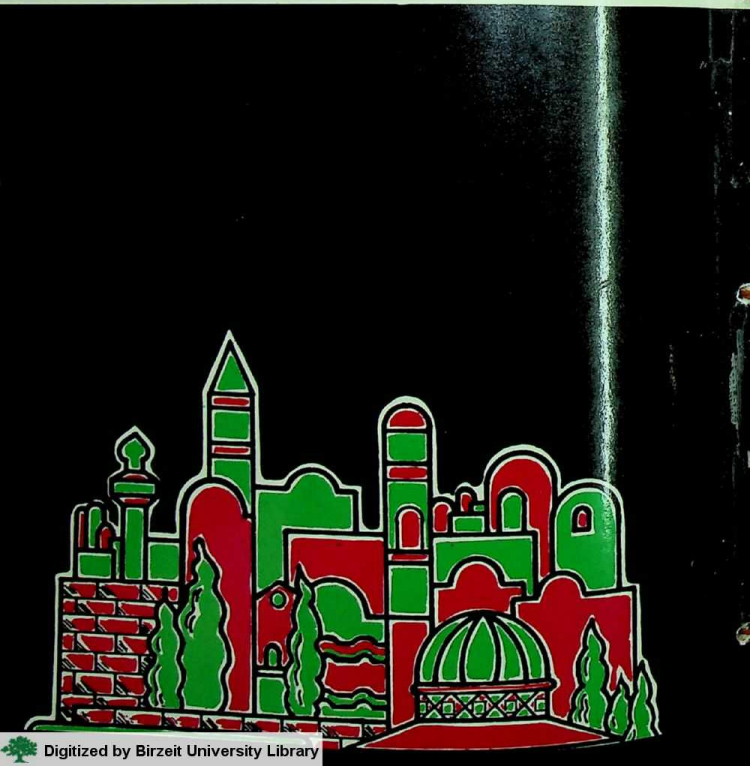

Digitized by Birzeit University Library

25 -01- 1992

الكاتب الفلسطيني

العدد ١٥ ـ ربيع ١٩٨٩ ـ نيسان ـ أيار ـ حزيران

مجلة فصلية تصدر عن

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

لجنة العمل النقابية

الآراء الواردة لاتعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير

ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية

الاشتراكات السنوية

للأفراد: ـ سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س

ـ بقية الاقطار العربية ٢٥٠ ل.س

ـ اقطار العالم ٢٥ دولار

للمؤسسات: ٥٠ دولار

هيئة التحرير:

ـ د. باسم سرحان
ـ جابر سليمان
ـ حمزة برقاوي
ـ خالد ابو خالد
ـ د. صبري حلاوة
ـ عبد الرحمن غنيم
ـ د. عبد الرحمن كيالي
ـ عوني الصادق
ـ غالب هلسا
ـ فايز قنديل
ـ فضل شرورو
ـ د. كمال الخالدي
ـ مصطفى الحلاج
ـ ناجي علوش
ـ نزيه ابو نضال
ـ هاني مندس

الإشراف الفني:
محمود خليلي

Digitized by Birzeit University Library

الفهرست

كلمة الكاتب

- «المأزق الجماعي» والتسوية الشاملة في الشرق الأوسط ..... هيئة التحرير - ٤ -

مقالات ودراسات

- من هجوم «السلام» الكاذب إلى الثورة الجديدة ..... ناجي علوش - ٨ -
- القرار الوطني الفلسطيني والواقع العربي الراهن ..... غالب عامر - ١٧ -
- الذاكرة الفلسطينية ..... غالب هلسا - ٢٧ -
- حوار أم ستار؟! ..... عبد الرحمن غنيم - ٤٢ -
- مدخل إلى نقض فكر التسوية ..... د. أحمد شرف الجباعي - ٤٥ -
- الفكر الماركسي العربي أمام البيريسترويكا ..... منير الخطيب - ٥٥ -
- الحضور الفلسطيني في الادب الألباني ..... محمد موفاكو - ٦٣ -
- دور نظام كمب ديفيد بعد قمة الدار البيضاء ..... عماد لطفي ملحس - ٧١ -
- محمود درويش . . اننا نختلف ..... خالد أبو خالد - ٧٧ -
- أدب المكدين في العصر العباسي ..... أحمد الحسين - ٨٦ -
- مدن فلسطين في رحلات الاقدمين «٢» ..... خير الله سعيد - ٩٦ -

دراسات تاريخية

- حماية احياء مدينة دمشق القديمة ..... د. شوقي شعث - ١٠٢ -

نقد ادبي

- وليد أبو بكر في الحنونة ..... عدنان عمامة - ١٠٨ -

تراث

- فكرة الصراع في الأغنية الشعبية ..... محمود مفلح البكر - ١١٢ -
- الشخصية الفلسطينية في المثل الشعبي ..... عوض سعود عوض - ١٢٠ -

شعر

- الأقحوانة السوداء ..... سليمان العيسى - ١٣٨ -
- العرب ..... اسعاف النشاشيبي - ١٤٠ -
- جيل البطولة والمعالي ..... جميل علوش - ١٤٢ -

Digitized by Birzeit University Library

- المرور من ثقوب الذاكرة ..... خالد محي الدين البرادعي - ١٤٨ -
- الجمرات ..... عبد الكريم شعبان - ١٥٥ -
- تراتيل العودة ..... محمد حديفي - ١٦٠ -
- ولادة ..... خليل بيطار - ١٦٢ -
- قبة الحجر ..... محمد حدان - ١٦٤ -
- وعلى دوي الحجارة ينهض الصهيل ..... محمود حامد - ١٧٢ -
- العام المشؤوم ..... حمر ابراهيم ونوس - ١٧٨ -

قصة

- الارض ترفض الجثث ..... يوسف جاد الحق - ١٨٢ -
- درجال ..... يوسف عزيزي بني طرف - ١٨٦ -
- التبدل ..... ماري رشو - ١٩٠ -
- المحاولة الاخيرة ..... عامر الديك - ١٩٣ -

حوارات

لقاء مع الأديب المؤرخ مصطفى مراد الدباغ ..... يوسف حداد - ١٩٥ -
- حوار مع الفنان العربي علي فرزات ..... محمد البخاري - ٢٠٢ -

شخصيات فلسطينية

- سميرة عزام ١٩٢٧ - ١٩٦٧ ..... نصري الجوزي - ٢٠٨ -

مراجعات

- رسالة من القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني ..... عبد المعين الملوحي - ٢١٥ -

كتب

- فيدل كاسترو والدين ..... عبد الرحمن عبد الله ابراهيم - ٢٢٠ -
- ازمة البرجوازية وطريق الثورة في تونس ..... - ٢٢٩ -

مذكرات

- مذكرات ابو ابراهيم الكبير «١» ..... نزيه أبو نضال - ٢٣١ -

وثائق وتقارير - ٢٤٧ - ٢٦٤ -

Digitized by Birzeit University Library

كلمة الكاتب

«المأزق الجماعي» والتسوية الشاملة في الشرق الأوسط

مر ربيع ١٩٨٩ دون ان تعقد ازهاره ثمراً، فقد تبين ان قرارات المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر الذي عقد في الجزائر في شتاء العام الماضي، بما تضمنته وانطوت عليه من تنازلات، لم تحقق اياً من طموحات اصحابها بالرغم من الحفاوة الدولية الكبيرة التي استقبلت بها تلك القرارات. واتضح ان البرنامج السياسي المتساهل الذي تبناه المجلس وباشرت قيادة م.ت.ف تنفيذه لا يزال يصطدم بالعقبات القديمة التي بدت انها غير قابلة للتجاوز او التذليل حتى الآن.

ومع بداية فصل الصيف، ارتفعت درجات الحرارة بما يكفي لإسالة العرق على الجبين، لكنها لم تكن كافية لإذابة الجليد الذي يحيط بصراع المنطقة. وقد شهدت الشهور الثلاثة الماضية (اواخر نيسان - اواخر تموز) عدة احداث سياسية كانت تبدو في حين حدوثها مهمة على نحو ما، لكنها كانت، ايضاً وبسرعة، تنتهي دون اثر حقيقي على مجريات الأمور، باستثناء انها اكدت المواقع والمواقف السابقة وبشكل اظهر ان هناك «مازقاً جماعياً» تغرق فيه كل اطراف الصراع الرئيسية، إذ انه في الوقت الذي تتحدث فيه كل الأطراف عن «التسوية السياسية الشاملة» للصراع، وتزعم كلها ان ما تفعله هو في سبيل تحقيق هذه التسوية، تظهرالوقائع ان احداً لا يتقدم باتجاهها قيد انملة.

فبعد اكثر من ثلاثة شهور على بدء «هجوم السلام» الذي باشرته قيادة م.ت.ف تنفيذاً للبرنامج السياسي الجديد الذي اقره المجلس الوطني التاسع عشر، ظهر ان هذا البرنامج ينقصه الاجماع العربي، الذي طالما ارادته وطالبت به وسعت إليه الولايات المتحدة، الأمر الذي جعل من مؤتمر

Digitized by Birzeit University Library

قمة الدار البيضاء الطارئة فرصة ثمينة لتوفير المطلب الاميركي، وبالفعل، فقد جاءت قرارات هذه القمة في جانبها الفلسطيني دعماً واضحاً وتاييداً قوياً لسياسة م.ت.ف المقرة في الجزائر، اذ نصت على «تاييد قرارات المجلس الوطني الفلسطيني في دورته التاسعة عشرة... وتاكيد دعمه لمبادرة السلام الفلسطينية المستندة إلى مشروع السلام العربي والشرعية الدولية وترحب بالتجاوب الدولي الإيجابي مع هذه المبادرة».

وكان هذا الهجوم الفلسطيني ـ العربي مستنداً إلى القوة الضاربة التي وفرتها الانتفاضة الشعبية في الأراضي المحتلة، والتي فتحت الباب (بالتعاون مع تنازلات القيادة الفلسطينية) امام بدء الحوار الاميركي ـ الفلسطيني، هذا الحوار الذي بدا للبعض انه شكل من اشكال الضغط السياسي الاميركي على الكيان الصهيوني، وهو في الحقيقة محاولة للإيقاع بالانتفاضة استكملت، بعد ذلك، بما عرف باسم «مبادرة شامير» الخاصة بإجراء انتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة، والتي وافقت عليها قيادة المنظمة وقمة الدار البيضاء شريطة ان تكون «بعد انسحاب الاسرائيلي من الاراضي الفلسطينية المحتلة، وبإشراف دولي، وفي إطار عملية السلام الشاملة...» وبينما تصورت قيادة المنظمة (ومعها الانظمة العربية) انها رمت بالكرة إلى الملعب الإسرائيلي بنجاح، جاء التاييد الاميركي لخطة شامير ليعيد الموقف إلى ما كان عليه قبل مجلس الجزائر وقبل «الهجوم السلمي» للمنظمة وكذلك قبل خطة شامير، اي تقريباً إلى نقطة الصفر!

كانت خطة شامير مناورة لكسب الوقت اللازم للقضاء على الانتفاضة ولم تكن استجابة لهجوم المنظمة السلمي، كمايتوهم ويزعم البعض. لكن الاحداث اظهرت للخبراء الصهاينة ان الوقت اللازم حقاً للقضاء على الانتفاضة هو اطول بكثير مما يمكن لاية مناورة ان توفره. وفي رأي البروفيسور انينا شابيرا (دافار ـ ٨٩/٦/١٣) ان الانتفاضة تمثل التحدي الاخطر الذي واجهته الصهيونية في تاريخها كله. لهذا، كان من المنطقي في اي حساب صحيح، ان تظهر خطة شامير عاجزة عن الإيقاع بالانتفاضة وحتى عن توفير الوقت اللازم للإيقاع بالانتفاضة، مما استلزم بعض عمليات نقل الدم للإبقاء على خطة شامير حية وقادرة على منح القيادة الصهيونية مزيداً من الوقت ومن اللعب. وفي هذا الإطار جاءت الأزمة الداخلية التي شهدها تكتل (الليكود) والتي افتعلها الثلاثي ليفي ـ شارون ـ موداعي، ثم لحقتها الازمة الحكومية التي افتعلتها قيادة حزب العمل، الشريك الثاني في حكومة شامير الائتلافية، لتنتهيا معاً إلى بقاء الحكومة وإلى ما هو اهم من هذا، اي إلى تزكية «خطة شامير الاصلية»! بذلك اصبح في الامكان القول إنه تم شطب الالاعيب التي مورست لاكثر من ثلاثة شهور، كما اصبح في الإمكان ان يبدا اللاعبون انفسهم جولة جديدة ـ او شوطاً جديداً ـ وهم في وضع افضل لصالح خطة شامير والسياسة الاميركية.

ولكن ماذا يعني كل ذلك على المستوى السياسي ومساعي السلام؟!

إنه لا يعني شيئاً على الاطلاق من الناحية العملية. فالولايات المتحدة، وهي «الوسيط المقبول

Digitized by Birzeit University Library

من جانب الخصمين، ترفض وقف الحوار الأميركي مع قيادة المنظمة، ولكنها ترفض الاعتراف الرسمي فيها كما ترفض فكرة «الدولة الفلسطينية» وتؤيد خطة شامير. اما قيادة العدو الصهيوني فهي لاتقدم سوى «خطة شامير» وليس للمنظمة او مؤيديها المعلنين. و بين هؤلاء وهؤلاء واولئك تبقى الانتفاضة. ولكن اي دور تلعبة الانتفاضة في المعادلة غير المتوازنة؟

منذ عام كامل وصلت الانتفاضة إلى نوع من «التعادل» مع سلطات الاحتلال، فلا هي فرضت على قوات الاحتلال الجلاء عن الضفة الغربية وقطاع غزة، ولا قوات الاحتلال استطاعت ان تقضي عليها. وها هي الانتفاضة قد دخلت شهرها الواحد والعشرين ولا يزال الوضع على حاله بالنسبة للموقف السياسي. وقد جاء في محاضرة القاها وليم كواندت، الخبير الأميركي في شؤون الشرق الأوسط، (بدعوة من جمعية الدراسات الدولية في تونس) بتاريخ ٢٧/٦/١٩٨٩، قوله: «لقد غيرت الانتفاضة طبيعة الصراع، كما انها منحت الفلسطينيين ثقة جديدة بانفسهم..» لأن الانتفاضة عبارة عن«مقاومة شعب للاحتلال، ولكنها لا تضع وجود إسرائيل نفسه في الميزان».هذا التقييم صحيح إلى حد كبير، لكنه ليس دقيقاً. فالانتفاضة لم تضع «وجود إسرائيل نفسه في الميزان» لأنها هي نفسها وضعت في اطار ضيق حبس إمكانياتها وحد من آثارها على هذا الوجود، وليس لأن المقاومة الشعبية للاحتلال غير كافية لتحقيق هذا الغرض.

فالقيادة الفلسطينية التي ارادت من الانتفاضة ان تكون ورقة، مجرد ورقة، في لعبتها السياسية حرصت على حبسها وعدم السماح بتطورها على اي مستوى من المستويات، وكان كل ما تريده -ولا تزال- هو استمرارها في الحدود التي انطلقت منها كغطاء لحركتها السياسية عربياً ودولياً، وهو ما فعلته الانتفاضة حتى الآن، دون التقليل مما الحقته بالكيان الصهيوني وقواه القمعية ومؤسساته السياسية من اضرار مادية ومعنوية.

بهذا المعنى، لن نقع في خطا كبير إذا قلنا إن استمرار الانتفاضة في مستواها الحالي (وهو المستوى الذي بدات منه) تسمح للأطراف جميعاً ان تستمر في آلاعيبها السياسية التي راينها حتى الآن، وهو الذي سيسمح باستمرار هذه الآلاعيب فترة اخرى من الوقت، وهو الذي وضع جميع الأطراف في ما يشبه المازق الجماعي الذي اشرنا إليه.

ولان الوضع يتعلق اساساً واصلاً بالصراع العربي - الصهيوني او بما يسمى «ازمة الشرق الاوسط»، كان لابد من ان تنعكس حالة هذا الوضع المتجمد على باقي الأزمات الفرعية المنبثقة عنه في صورة او اخرى.

ويكفي هنا ان نشير إلى الأزمة اللبنانية على سبيل المثال، فبالتوازي مع «الهجوم السلمي» لمنظمة التحرير، تحرك الوضع في لبنان في اتجاه ترك الانطباع بان الوقت قد حان لحلحلة الأزمة اللبنانية، حيث تم تشكيل اللجنة العربية السداسية. ومع تعثر خطوات «التسوية» للصراع العربي - الصهيوني، تعثرت خطوات اللجنة السداسية حيث تم الاعلان عن فشلها مع وفي قمة

Digitized by Birzeit University Library

الدار البيضاء الطارئة، التي قيل إنها انعقدت لبحث الأزمة اللبنانية. وبتشكيل اللجنة العربية الثلاثية وبإعلانها فشلها هي الأخرى، وصل الوضع اللبناني إلى مرحلة تبدو خطيرة بقدر ما تبدو امام حائط او طريق مسدود.

هذا المازق الجماعي الذي يتحدد بانسداد الطريق امام الحلول لكل ازمات منطقة الشرق الاوسط، تغرق فيه كل الأطراف الاقليمية والدولية، المشاركة في الصراع الرئيسي بشكل مباشر والمشاركة فيه بشكل غير مباشر، ويظل منطقياً أن يكون حل القضية الفلسطينية هو بداية الطريق الى حلول القضايا الأخرى في المنطقة، وبالتاكيد لن يكون العكس ممكناً، لذلك يكتسب الموقف الفلسطيني اهمية خاصة، ويكتسب مصير الانتفاضة الفلسطينية معنى نقطة الانصهار.

يقول وليم كواندت، في المحاضرة المشار إليها آنفاً، حول الوضع في الشرق الاوسط، ويجيب عن سؤال: ما الذي نراه الآن في الشرق الاوسط، فيقول: «هناك نشاط ما وحركية، ولكن من الصعب ان نتحدث عن ان تقدماً ما قد تم إحرازه»! و إذا وَضعنا جانباً الموقف الاميركي لانه لن ينفصل عن موقف العدو الصهيوني وإن تظاهر بعكس ذلك، فلا يبقى لدينا سوى مواقف الخصمين المباشرين، وبينما استنفذت قيادة م.ت.ف تنازلاتها دون ان تحقق شيئاً جوهرياً، لم يبق ما يمكن ان تفعله غير الموافقة على كامل شروط اسحق شامير وهو يعني التصفية النهائية للقضية الفلسطينية بلا مقابل... نجد ان العدو الصهيوني في اقل تجلياته عنصرية واكثرها مرونة لا يتجاوز في مقترحاته وعروضه البند الفلسطيني في اتفاقيات «كامب ديفيد» اي انه لا يتجاوز مشروع الحكم الذاتي الاداري. لذلك، فإن مواقف الخصمين المباشرين في الصراع تحافظ على الوضع عند نقطة التجمد حتى اشعار آخر على الاقل.

ولا يبقى للخروج من المازق الجماعي الراهن سوى مخرج واحد هو مخرج الانتفاضة، وذلك من خلال تطويرها ورفع مستوى فعلها في التجمع الصهيوني، وهو امر غير ممكن بدون تغيير وسائل وأساليب المواجهة الحالية. ان انتقال الانتفاضة الى مستوى ارقى من المواجهة قادر على إخراج الجميع من المازق، لانه سيفرض على العدو الصهيوني أن يقدم، ولو على سبيل المناورة، شيئاً يسمح لقيادة م.ت.ف بتبرير تنازلاتها القديمة وما يمكن ان تقدم عليه من تنازلات جديدة، كما يسمح للولايات المتحدة بان تقوم بدورها في المساومة الجارية غير المجزية، ولعل ذلك يفتح الطريق للبحث عن حلول للأزمات الفرعية الأخرى، وإن كانت ستكون حلولاً من نفس النوعية.

ان الارتهان للسياسة الاميركية، في نهاية المطاف، لن يخرج احداً من مازقه، كما أن تحرر الانتفاضة من آفاقها السياسية الراهنة ومن سلطة قيادة م.ت.ف عليها يظل المخرج الحقيقي، لكن هذا وذاك يستلزمان ظروفاً وقوى سياسية غير متوفرة الآن....

«هيئة التحرير»

Digitized by Birzeit University Library

من هجوم «السلام» الكاذب إلى الثورة الجديدة

ناجي علوش*

من يسمع أحاديث القيادة الرسمية الفلسطينية عن «السلام» يبدو له، أنها مقتنعة أن «السلام» أصبح قاب قوسين، أو أدنى، وان الدولة الفلسطينية المزعومة ستقوم قريباً، وقريباً جداً. وهناك تصريحات رسمية، تشير الى ان قيام الدولة قضية عام أو عامين.

ويتواصل هذا «الهجوم السلمي» وسط ترحيب عربي رسمي وتهليل دولي في واشنطن وباريس ولندن وموسكو بما يزيد الاوهام، حول امكانية تحقيق «سلام» في فلسطين.

وتأتي المفاوضات في أنغولا وناميبيا وافغانستان وكمبوديا، لتعزز قبول احتمال «الحل السلمي»، ولتجعل من «هجوم السلام» الفلسطيني المحمي عربياً ودولياً قضية مطروحة للبحث، وحتى مقبولة لدى قطاعات من الرأي العام العربي.

فهل أصبح السلام قريباً فعلاً؟ وعلام يستند دعاة السلام الكاذب؟

---

*كاتب وباحث من فلسطين، له العديد من المؤلفات والكتابات والابحاث.

Digitized by Birzeit University Library

إن الذين يتحدثون عن السلام الآن أنواع. ومن هؤلاء:

١ ـ حكومة الولايات المتحدة الاميركية التي تخطط لتصفية المقاومة العربية المضادة للكيان الصهيوني. لان حكومة الولايات المتحدة الاميركية، ترى في استمرار الصراع العربي ـ الصهيوني تهديداً لمصالحها. ولوجود الكيان الصهيوني عينه. وترى وقف الصراع ضرورياً لحماية القوى العربية الاستسلامية، وتحقيق تعاون فعّال بين الانظمة العربية، وحكومة الولايات المتحدة الاميركية. وترى حكومة الولايات المتحدة الاميركية، ان تطور الصراع العربي ـ الصهيوني، يتضمن احتمالات ثورية كبيرة، تهدد كل النظام الاجتماعي العربي السائد. ولذلك، فان وقف الصراع الآن، يجمد هذه الاحتمالات، ويساعد الكيان الصهيوني على احتلال مكانه، ضمن اطار الواقع العربي، وحل اشكالاته الاقتصادية والسياسية، عبر التغلغل في المجتمع العربي.

وتشارك حكومات أوروبة الغربية حكومة الولايات المتحدة الاميركية هذا الرأي، وان كانت حكومات اوروبة الغربية أكثر استعداداً لقبول حل، يقدم بعض التنازلات للفلسطينيين، لان حكومات أوروبة الغربية، ترى ضرورة تهدئة الصراع من جهة، وتحاول اقامة علاقات اوثق مع الوطن العربي، تضمن لها المزيد من الاسواق، وبالتالي التبادل التجاري. ولكن دول أوروبة الغربية، مازالت تحاول التنسيق مع الموقف الاميركي، وعدم التقدم عليه كثيراً، لأن دول أوروبة الغربية، مازالت ملتزمة بقيادة حكومة الولايات المتحدة الاميركية.

٢ ـ حكومة الاتحاد السوفياتي. وهي تخطط لاعادة البناء في الداخل، وتحتاج الى فترة سلام خارجي. ولذلك فانها، تحاول حل النزاعات العالمية، والتفرغ لحل الاشكالات الداخلية. ولما كان هذا يحتاج الى موافقة حكومة الولايات المتحدة الاميركية، فان حكومة الاتحاد السوفياتي، على استعداد لتقديم تنازلات، تطمئن الطرف الاميركي. ويعرف الطرف السوفياتي أن الكيان الصهيوني موقع مهم جداً في الاستراتيجية الاميركية، وأن اي اتفاق مع الطرف الاميركي. يحتاج الى ضمان أمن الكيان الصهيوني، وفتح باب الهجرة لليهود السوفيات، ووقف التسليح النوعي للعرب..

٣ ـ الانظمة العربية، وهي أنواع، بعضها يريد السلام فعلاً، مع الكيان الصهيوني، لان مصالحه مرتبطة براس المال العالمي، ولان هذه الانظمة ترى في استمرار الصراع تهديداً للنظام الاجتماعي العربي، واثارة للحروب، وهو مادفع اوسع الجماهير لحمل السلاح، فيفلت زمام الامور، وتنتشر الافكار الثورية والديمقراطية الخ.. وبعضها لايرى قضية تحرير فلسطين قضيته، لانه مقتنع بان حدوده القومية هي حدود القطر الذي يحكمه، وبالتالي، فان قضية هؤلاء المركزية، ان يصرفوا جمهورهم عن التفكير بفلسطين..

ان الاتجاه السائد لدى النظام العربي، يقوم على «مشروع سلام» يعترف بالكيان الصهيوني، ويجمّد الصراع العربي الصهيوني، لان مصالح الطبقات السائدة، تتطلب ذلك.

٤ ـ القيادة الرسمية الفلسطينية، وهي قيادة تمثل خط الاستسلام الرسمي العربي، وتعمل لتكريس هذا الخط، لأن هذه القيادة، تستطيع بدورها هذا، ان توجه ضربة قاصمة لقوى التحرير في فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

٥ ـ القوى والاحزاب العربية التي تبنت خط الحل السلمي، لانها هوامش لقوى عربية ودولية، تدعو الى السلام.

فعلام يعتمد هؤلاء جميعاً؟

ان كل طرف له منطقه وأهدافه. فالاطراف المعادية لـ حكومة الولايات المتحدة وحكومات اوروبة الغربية، وقيادات الكيان الصهيوني، ترى في دعوى السلام تصفية للصراع، وقبولاً بوجود الكيان الصهيوني. ولذلك فان سلامها مجرد استسلام، يبدأ من الاعتراف بالكيان الصهيوني، والقاء السلاح، واعتبار التفاوض السلمي وحده أساس الحل. ورغم اختلاف اطراف هذا المعسكر على التفاصيل، فانهم موحدون في الجوهر. ويهمهم أساساً بقاء الكيان الصهيوني. ومنطق هؤلاء جميعاً هو منطق الامبريالية: سحق مقاومة الشعوب، واجبارها على الاستسلام، وتقديم تنازلات جزئية وثانوية، تساعد على تفتيت وحدة الشعب، واضعاف مقاومته.

أما منطق الطرف السوفياتي، فانه مختلف، ولكن صفقات السلام التي تعقدها القيادة السوفياتية، تجعلها ترى قضية فلسطين، ضمن اطار الوضع العالمي القائم، والدور السوفياتي على الصعيد العالمي. ولما كان الوضع السوفياتي يتطلب تقديم تنازلات كبرى، فلا مانع من أن يشمل هذا فلسطين، ولامانع من ان يكون الثمن قبول وجود الكيان الصهيوني والتعايش معه.

ولما كانت حكومة الاتحاد السوفياتي قد اعترفت بهذا الكيان، منذ ١٩٤٨، ولما كانت تدعو الآن الى تكريس الشرعية الدولية، فان ذلك كله، يجعل تكريس الاعتراف، بالكيان الصهيوني جزءً من السياسة السوفياتية.

ولاتقدم الاطراف الرسمية العربية «تبريرات» واضحة ومحددة، وان كان بعضها، يكثر من الحديث عن ضرورة كسب الرأي العام العالمي، وبعضها يشير الى ضرورة اتباع نهج يقنع الحكومات الغربية، اوروبية واميركية.

أما قيادة المنظمة، فانها تعتبر الهجوم السلمي، سيكسب الرأي العام العالمي، وان المنطق السلمي، سيكسب حتى الحكومات الاوروبية، وسيعزل حكومة الكيان الصهيوني. وتطرح قيادة المنظمة مبررات أخرى، مثل عجز الانظمة العربية عن الحرب، ودعوة الصديق السوفياتي للسلام. واتجاه الرأي العام العالمي للحلول السلمية.

وهذا المنطق كله، يتناقض مع المنطق الذي قامت عليه حركة التحرير في فلسطين، منذ سنة ١٩٢٠. كما يتناقض مع منطق حركة التحرير في كل مكان، من العالم، ومنذ بداية عهد الاستعمار الحديث خاصة.

فلقد قام منطق التحرير دائماً على أن تحرير الاراضي المحتلة، لايتم الاّ بالقوة لان القوى الغازية، لاتفهم منطق السلام، ولاتتخلى عن اية منطقة تحتلها بالترجي والمناشدة.

وهذا ماأثبتته تجارب التاريخ القديم والحديث.

وهذا ماحاولت ان تؤكده حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) عند انطلاقتها. ويجدر بنا هنا أن

Digitized by Birzeit University Library

نستعيد بعض ماطرحته فتح في هذا المجال. ففي محاولة لدراسة تاريخ الثورة الفسلطينية، منذ الاحتلال البريطاني اعتبرت فتح: «ان النضال السلبي - المظاهرات والاحتجاجات - لايشكل الا جزءً بسيطاً من النضال ضد مستعمر استيطاني كعدونا، وان النضال الايجابي - الكفاح المسلح - هو الحل الوحيد لتحقيق النصر»[1].

وتؤكد وثائق فتح هذه الحقيقة، منذ انطلاقتها، وحتى سنة ١٩٧٤ دون أية مواربة او ثنائية[2].

فلماذا حدث الانتقال من قتال التحرير، الى أحاديث السلام؟

هل غيّر العدو الصهيوني طبيعته؟ هل تغيرت طبيعة حكومة الولايات المتحدة الاميركية؟ هل اصبحت الأمم المتحدة قادرة على احقاق الحقوق؟

نستطيع أن نقول بلا عناء مايلي:

١ - ان العدو الصهيوني لم يتغيّر، فما زال عدواً محتلا، ومازال احتلالاً استيطانياً، ومازال مرتبطاً بالبرنامج الدولي للولايات المتحدة الاميركية. ولذلك فان هذا العدو غازٍ ومحتل ومعادٍ للسلام، ولايقبل أي منطق سلام بعيد الحق الى أصحابه. لان العدو الصهيوني، سوف يتخلى عندئذ عن احتلاله وعن دوره، وهو مالايمكن ان يحدث دون هزيمته هزيمة ساحقة.

فما الذي تعنيه دعوة هذا العدو للسلام؟ انها تعني:

ا - الاستعداد للاعتراف باحتلاله، ضمن حدود الاراضي المحتلة، قبل عام ١٩٦٧، ومساومته على الضفة الغربية وغزة.

ب - التنازل عن برنامج التحرير، والانتقال الى برنامج المفاوضة، قبل انجاز مهمات التحرير.

جـ - التضحية ببرنامج محاربة الامبريالية الاميركية خاصة، والامبريالية عامة، والتوجه الى حكومة الولايات المتحدة الاميركية خاصة، والحكومات الامبريالية عامة، باعتبارها دولاً، يمكن أن تكون صديقة.

والعدو الصهيوني، يريد ذلك كله، وهو يعتبره «اعتدالاً»، يقود الى تصفية الثورة، وان كان العدو، يظل حريصاً على المطالبة بالمزيد، واتهام القيادات الساعية الى الاستسلام بالارهاب.

ان العدو الصهيوني، مازال حريصاً على موقعه ودوره، ودوره عسكري أساساً، ومعادٍ لوحدة العرب وتقدمهم، وليس هناك مايجبره فلسطينياً أو عربياً أو دولياً، أن يتخلى الآن عن دوره.

٢ - ان طبيعة حكومة الولايات المتحدة الاميركية لم تتغير. ومازال البرنامج الاميركي معادياً للعرب. ومن هذا البرنامج تستمد القيادات الصهيونية قوتها.

وبرنامج السلام الاميركي، يتضمن تصفية المقاومة العربية فقط، ولايتضمن فرض تنازلات على العدو الصهيوني، حتى لو كانت جزئية وهذا ماتظهره المواقف والتصريحات الاميركية. وماتؤكده القيادات الفلسطينية التي تحاور واشنطن.

فما الذي يعنيه التوجه الى حكومة الولايات المتحدة الاميركية؟ انه يعني:

ا - ان منطق الرئيس السادات هو الذي ساد، وان هناك مراهنة على كسب ود حكومة الولايات المتحدة الاميركية.

Digitized by Birzeit University Library

ب ـ ان دعاة هجوم السلام، اسقطوا من حساباتهم اعتبار حكومة الولايات المتحدة الاميركية عدواً، وانهم على استعداد للتكيف مع الموقف الاميركي، حتى تنظر حكومة الولايات المتحدة الاميركية بعين الاعتبار، كما فعل الرئيس السادات.

وفي هذا وذاك تنازل عن فلسطين والحرب والتحرير، وارتباط بالمخططات الاميركية، على أمل أن يؤدي ذلك الى موقف اميركي محايد.

٣ ـ ان الوضع الدولي لا يتغير. واذا كان العرب يجدون مساندة سوفياتية لفرض تراجع صهيوني عن الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ بالقوة. وكان العرب يجدون، وحتى ١٩٧٢، تأييداً صينياً للتحرير، فان العرب خسروا هذا وذاك. فلا مساندة سوفياتية اليوم لغرض اندحار صهيوني بالقوة، حتى عن الضفة الغربية وغزة، ولامساعدة صينية لقضية التحرير. وبالتالي، فان الوضع الدولي اليوم معني بمطالبة العرب بوقف المقاومة المسلحة، ولكن الوضع الدولي غير قادر على الزام العدو الصهيوني بالتراجع، حتى ضمن اطار القرار ٢٤٢.

وهذا يجعل هجوم السلام انهياراً استسلامياً، أكثر منه أسلوباً لكسب الرأي العام العالمي..

ولهذا كله، فان «هجوم السلام» لايعدو ان يكون تكيفاً استسلامياً، تمارسه قيادة المنظمة، للانسجام مع برنامج الاستسلام الرسمي العربي. وهو هجوم يستهدف:

ا ـ التخلي عن برنامج التحرير.

ب ـ تحرير الانظمة العربية من عبء قضية التحرير، وحل عُقَد العلاقات الرسمية العربية ـ الاميركية.

جـ ـ تصفية الصراع العربي ـ الصهيوني، ضمن اطار حل جزئي، ينسجم مع مخططات الامبريالية عامة، والاميركية، ويحقق أهداف الانظمة العربية الباحثة عن حل لمشكل الصراع العربي ـ الصهيوني.

وهذا يعني ان القيادة الفلسطينية التي تبنت هذا الخط قد تخلت عن برنامج التحرير الذي قامت عليه حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ومنظمة التحرير الفلسطينية، واصبحت جزءاً من برنامج الاستسلام الرسمي العربي.

ويعكس هذا التحوّل ثلاث حالات:

الأولى: التحول داخل الوضع الفلسطيني. فعلى الصعيد الفلسطيني كانت هنالك حالة ثورية، تمثل امتداداً لحالة ثورية عربية. ولكن هذه الحالة أخذت تتراجع، نتيجة التراجع العربي العام من جهة، ولأن القيادات ذات التوجهات البرجوازية، والبرجوازية الصغيرة الاستسلامية استطاعت ان تعزز مواقعها، في ظل التراجع العربي العام، وتراجع الحالة الثورية الشعبية. كما أن القيادات الفلسطينية ذات الارتباطات العربية والدولية، استطاعت ان تكشف مخططاتها في ظل التراجع العربي العام.

فمنذ الانطلاقة، وحتى نهاية معركة ايلول، سنة ١٩٧٠، كانت ثورية الجماهير الفلسطينية، وقوة الحركة الشعبية العربية، هي الراجحة. ولذلك، كان خط التحرير حاسماً. وكانت «قوى السلام» تتراجع، حتى اضطر الحزب الشيوعي الاردني، سنة ١٩٧٠، لتكوين قوات مقاتلة. مع انه كان مع التقسيم، منذ اعلانه، سنة ١٩٤٧، ومع القرار ٢٤٢ منذ اقراره.

Digitized by Birzeit University Library

ولكن التحول بدأ، منذ ١٩٧٠ لمصلحة قوى الاستسلام، فبدأ الحديث عن الحل المرحلي. وظل هذا التحول يتعمق ويتسع، حتى اعلن عن نفسه، بعد حرب ١٩٧٣. ومنذ ذلك الحين، بدأ يأخذ وضعه القانوني، وخاصة مع النقاط العشر التي اقرت في الدورة الثانية عشرة للمجلس الوطني، سنة ١٩٧٤.

ومنذ ذلك الحين، اندحر دور القوى الشعبية الفلسطينية، وقامت سلطة بيروقراطية فلسطينية، مرتبطة بالمخططات العربية الرسمية والدولية. وبمصالح اقتصادية غير مصالح الشعب المشرد والمعذب والمقهور في المخيمات ومختلف مناطق الشتات.

وجاء غزو لبنان، سنة ١٩٨٢، لينهي العلاقة مع الجماهير والحركة الشعبية، وليكرس دور البيروقراطية الفلسطينية المرتبطة، وليزيد من تشتت هذه البيروقراطية وارتباطها، وخشيتها على مصالحها الشخصية. ومع الخروج من لبنان، والانتقال الى تونس، تكرس الارتباط مع مشروع ريغان الذي اعلن عشية الخروج من بيروت، ومع مقررات قمة فاس التي استقبلت رئيس م. ت. ف استقبال الفاتحين، وقدمت له في الوقت عينه قرارات قمة فاس التي تكرس الاعتراف الرسمي العربي بالكيان الصهيوني، وتفتح طريق الصلح والاعتراف والحدود الآمنة..

ومنذ فاس تلك، باتت قيادة م. ت. ف مجرد ورقة في مخطط «السلام العربي».

الثانية: التحول داخل الوضع العربي. فمنذ ١٩٧٣، وبعد حرب تشرين مباشرة، رجح دور قوى الاستسلام العربي، على حساب قوى التحرير. وبات خط السادات، هو الخط الرسمي العربي، وان استمرت المقاومة لهذا الخط. ومن قمة بغداد سنة ١٩٧٨، حتى قمة عمان سنة ١٩٨٧، تكرس خط السادات، رغم محاولات مقاومته. وحين عادت حكومة مصر الى الجامعة العربية، سنة ١٩٨٩، سقط الاعتراض الرسمي على كمب ديفيد، وأخذ هذا التحول طابعه الرسمي العربي العلني.

ويعكس هذا التحوّل زيادة الارتباط الرسمي العربي بالمخططات الاميركية، كما يعكس التحوّلات الطبيعة التي حدثت بعد الفورة النفطية، وما انتجته من استعداد لربط الوطن العربي برأس المال العالمي.

الثالثة: التحوّل الذي حدث على الصعيد العالمي، والذي قاد الى ان تستعيد حكومة الولايات المتحدة دورها، بعد هزيمة فيتنام، وأدى الى سياسة الوفاق السوفياتي ـ الاميركي... وهو مالن ندخل في تحليله الآن.

التحوّل اذن، حدث في الوضع الفلسطيني. وبرنامج اليوم، هو ليس برنامج الانطلاقة، وقيادة اليوم ليست قيادة الانطلاقة.

واذا كان حزب الدفاع الفلسطيني[٢] لم يستطع ان يقود الفلسطينيين، منذ ١٩٣٥، فانه يقودهم اليوم.. واذا كانت «فصائل السلام» لم تستطع أن تحكم في تاريخ الشعب الفلسطيني، ان الاّ في الايام الاخيرة لثورة سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، فانها تحكم اليوم..

لذلك، فان الشعب في خطر، والقضية في خطر، وبرنامج التصفية اليوم برنامج رسمي، يتمتع بقوة متحكمة فلسطينياً وعربياً ودولياً..

فهل يعني ذلك ان الاستسلام واقع، وان قوى الاستسلام ستنعم بالانتصار..

Digitized by Birzeit University Library

ان «الهجوم السلمي» الجديد، لايختلف عن الهجمات السلمية التي قامت بها القيادات العربية المسالمة، منذ ١٩٢٠. فهذه القيادات اعتمدت اسلوب المناشدة، منذ وقوع الاحتلال، ولكن اسلوب المناشدة، قاد الى قيام الكيان الصهيوني، سنة ١٩٤٨. وحين واصلت القيادات العربية برنامجها السلمي، بعد ١٩٤٨، قاد ذلك الى احتلال الضفة الغربية وغزة.

ان الهجوم السلمي ليس جديداً، وفشله ليس جديداً، لقد اثبت الهجوم السلمي، امام الصهيونية انه دائماً مشروع خدمة للصهيونية والامبريالية، وانه لايخدم الشعب وقضيته.

ولقد كان للشعب الفلسطيني، منذ ١٩١٧ قيادات مسالمه، و «فصائل سلام»، ولكنها كلها اخفقت، لاأمام الشعب فقط، بل أمام العدو الصلف المتعطش للدم والأرض والضرب بيد من حديد.

وسيكون مصير قيادات هجوم السلام اليوم مصير اسلافهم بالامس، من سماسرة الاراضي الصغار والكبار، الى المراهنين على «حسن نوايا الصديقة بريطانيا».

لماذا؟

سنحاول هنا ان نقدم ابرز الأسباب. وهذه الأسباب هي:

اولاً: ان الاستعمار الصهيوني، ليس امبريالية راحلة مهزومة، انه استعمار استيطاني، يبحث عن الامن والاسواق، ضمن اطار المخطط الامبريالي، ولذلك فان السلام، يعني بالنسبة للقيادات الصهيونية، خضوع العرب في فلسطين، وفتح الاسواق العربية، والتخلي عن أي برنامج لمواجهة الامبريالية والصهيونية. وهذا البرنامج، لايتحقق، بالسلام، بل بالقوة، وحين يواجه هذا البرنامج بمشروع سلام، فانه يستشرس، ويطمع بمزيد من الاحتلال والسيطرة.

ويساعد العدو الصهيوني في تصلبه وتسلطه البرنامج العدواني الاميركي الذي مازال يطمح بمد سيطرته، لاعلى الوطن العربي فحسب، بل على الدول الاشتراكية.

ومازالت الامبريالية الاميركية قوة عالمية راهنة، وأقوى القوى العالمية، ولم تصبح امبريالية عاجزة، تلملم قواتها للرحيل.

ثانياً: ان برنامج الاستسلام العربي، ومنه برنامج الاستسلام الفلسطيني، برنامج معادٍ لاوسع الجماهير العربية. ولقد كانت برامج الاستسلام العربي، تستفز الجماهير العربية دائماً، وتدفعها الى الثورات المسلحة، وهذا ماحدث في فلسطين. فاستحذاء القيادات، حتى سنة ١٩٢٨، قاد الى انتفاضة البراق، واستحذاء القيادات مابين ١٩٢٩ و ١٩٣٥ قاد الى الاضراب الكبير، والثورة الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩. وكان خط هذه الهبات والانتفاضات خط الشعب، بينما كان خط القيادات الرسمية خط مناشدات ومفاوضات. وحين اكتفت القيادة الرسمية الفلسطينية، مابين ١٩٤٩ و ١٩٦٤ بالبيانات والمناشدات، اقتنع الناس بضرورة المقاومة المسلحة. والآن تتجه القيادة الرسمية الى المناشدة والمفاوضة، وسيتجه الشعب الى المقاومة، كما حدث في الارض المحتلة، منذ بدء الانتفاضة.

ان برنامج الاستسلام الرسمي العربي، لن ينهي الحاجة الى الثورة العربية، بل على النقيض من

Digitized by Birzeit University Library

ذلك سيزيد الحاجة اليها. وبرنامج الاستسلام العربي في فلسطين، سيطرح قضية التحرير، كما لم تطرح من قبل، لانه يكشف مدى الاستعداد للتضحية بمصالح الشعب، ومدى الخطر الصهيوني ـ الاميركي، ويظهر مدى تناقض مصالح القيادات مع مصالح الجماهير الواسعة.

وعليه، فاننا اليوم امام واقع جديد، يطرح ضرورة مقاومة جديدة، تعبر عن مصالح اوسع الجماهير في تحرير الوطن والشعب، وفي مواجهة الامبريالية والصهيونية والقوى الاستسلامية العربية.

فهل هذا وارد؟

انه ضروري، وهو واجب على كل ملتزم بالارض والشعب، وكل معادٍ للاحتلال والاضطهاد والاغتصاب.واذا كانت هنالك شريحة اجتماعية، أو حتى طبقة مستسلمة في فلسطين والوطن العربي، فإن هذا طبيعي. ولقد كان هناك مستسلمون دائماً. ولكن وجود هذه الشريحة المستسلمة، وارتباط مصالحها بالامبريالية، واستعداد هذه الشريحة للتنازل عن السيادة القومية والارض والشعب، لايلغي حق الشعب في الدفاع عن أرضه، ومصالحه، ولايجعل الاستسلام قانوناً ابدياً، كما أثبتت تجارب الامم في القديم والحديث.

ورغم ان هذه حقيقة تاريخية، وانها تأكدت عبر التاريخ، فإنها على صعيد فلسطين، تعيد تأكيد بديهياتها. وهنالك حقائق ووقائع تسند هذه الحقيقة التاريخية. وتجعلها حدثاً راهناً ومقبلاً. ومن ذلك:

أولاً: ان نضال الشعب الفلسطيني للدفاع عن حقوقه لم يتوقف، منذ ١٨٩٧. ورغم وجود قيادات وشرائح استسلامية منذ ذلك الحين، فان قضية التحرير ظلت مرفوعة. ونضال التحرير ظل متدافعاً، رغم التراجعات والنكسات. وكان كل اتجاه للتسليم، يواجهه موقف شعبي ثوري، يدافع عن الحقوق القومية، والمصالح القومية، ويعادي الاستسلام والمستسلمين. وهكذا حشدت اللجان القومية سنة ١٩٣٦ كل الشعب حولها، ضد الاستسلام. وتلت ذلك الثورة القسامية المسلحة. التي حشدت جماهير الشعب حولها، ونقلت القيادة الى ابناء الشعب، بعد ان كانت رهينة الوجاهات. وانطلقت المقاومة، سنة ١٩٦٥، لتسقط منطق التسوّل على ابواب السفارات، والتعطي بالمناشدات. وحين رفعت قيادة م. ت. ف غصن الزيتون، وجعلته بديلاً لكفاح التحرير، هبت الانتفاضة، ممثلة كفاح أوسع جماهير الشعب..

والآن، سيظل الشعب وفياً لقضية التحرير، ونضال التحرير، في مواجهة سياسة الاستسلام، فمن حقائق التاريخ ان الشعب لايستسلم، الاّ اذا ابيد كله.

ثانياً: ان وجود الكيان الصهيوني وجود استيطاني معادٍ لكل شعب فلسطين، ومعادٍ لكل الامة العربية، ودور الكيان الصهيوني يجعله في مواجهة الشعب العربي كله. واذا كانت قوى الاستسلام، تريد تصفية الصراع العربي الصهيوني، فان الكيان الصهيوني حريص على وجوده ودوره، وهو لايرضى عن دوره بديلاً، ومادام الكيان الصهيوني كذلك، فانه لايستطيع ان يرحل، وان يسلم طبقة حاكمة تابعة له الحكم في البلاد، كما فعلت الدول الامبريالية في العديد من المستعمرات. ولو حاولت القيادات الصهيونية أن توظف قيادة فلسطينية في حكم الضفة الغربية وغزة، فان هذا لايلغي الاحتلال، ولايعيد للشعب حقوقه، ولاينهي وجود الكيان الصهيوني ودوره. ولذلك فان الكيان الصهيوني سيظل معادياً، وسوف لايقدم التنازل

Digitized by Birzeit University Library

الرئيسي الذي يسمح بتصفية الصراع معه.

ثالثاً: ان تناقض جماهير الامة العربية مع الامبريالية عامة، والاميركية خاصة تناقض سيظل رئيساً ومحتدماً، ولايستطيع الكيان الصهيوني ان يكون خارج هذا الصراع. ومادام الامر كذلك، فان الصراع العربي مع الوجود الصهيوني سوف يستمر، حتى لو صالحت هذا الكيان كل الحكومات العربية.

وتدلنا تجربة المصالحة التي اقدم عليها نظام السادات، أن مثل هذه المصالحات معادية لمصالح الشعب، وللسيادة القومية، وبالتالي، فانها لن تصبح حقائق مقبولة، ولن تنجح في إجبار الشعب على قبول اعدائه.

رابعاً: ان العالم كله يسعى نحو مزيد من التحرر. واذا كانت القوميات، في كل العالم، تنهض من جديد، والافراد يطالبون بالمزيد من الحقوق والحريات: فكيف يمكن ان يسلم شعب كامل لاعدائه..

ان الايرلنديين مازالوا من مائة عام يرفعون راية العصيان، وهاهم الباسك ومختلف اشكال الاثنيات، تطالب بحقوقها. اما شعب جنوب افريقيا، فمازال يناضل لاسقاط حكم الاقلية البيضاء. وفي كل مكان من العالم ترتفع رايات الديمقراطية.

ان العالم يتقدم نحو الخلاص، ولذلك، فان قرار القيادة الفلسطينية برفع راية الاستسلام، يأتي ضمن اطار الانضمام للقوى التي انتهى دورها، ولايأتي ضمن اطار الاتجاه التاريخي..

واذا كانت هنالك اتجاهات عالمية لتسويات راهنة، فان هذه الاتجاهات، تمثل مصالح القوى الامبريالية، ولاتمثل مصالح الشعوب. وسيحبط نضال الشعوب هذه الاتجاهات الاستسلامية، حتى لو أيدتها القوتان العظميان لاسباب مختلفة.

لذلك كله، ان المقاومة سوف تستمر. ويجب ان يزيدنا برنامج الاستسلام اصراراً، وان يدفعنا الى التعلم من التجارب السابقة. ومن أخطر الدروس التي يجب أن نتعلمها أن الشعب المناضل من أجل حقوقه القومية، بحاجة الى قيادة منه، تمثل ارادة الصمود والقتال، وتناضل لاحقاق هذه الحقوق.

إننا اليوم بحاجة الى المقاومة، والى المقاومة الشعبية التي تحشد كل جماهير الشعب، والتي ترفض خط الاستسلام، وترفع راية التحرير، لان هذا وحده هو الذي يضمن حقوقنا ومصالحنا، ويعبر عن مطامحنا في الكرامة والحرية، فلنرفع راية المقاومة والتحرير في وجه الصهيونية والامبريالية، وكل قوى الاستسلام.

الهوامش

١ - حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) مكتب الاعلام والتوجيه دراسات وتجارب ثورية كراس يضم عدة دراسات منها دراسة تاريخ الثورة الفلسطينية منذ الاحتلال البريطاني. ص ٦٣

٢ - يمكن هنا قراءة فلسطيننا وكراسات فتح الاثني عشر

٣ - حزب الدفاع انشىء سنة ١٩٣٤ كان معادياً للحركة الوطنية وقد اسهم في انشاء فصائل السلام. سنة ١٩٣٨ لتصفية الثورة

Digitized by Birzeit University Library

القرار الوطني الفلسطيني والواقع العربي الراهن

غالب عامر*

كثيراً ما يتناول الحديث السياسي، في لجّة الأحداث وتطورات الصراع في المنطقة، موضوعة استقلالية القرار السياسي، هذه الموضوعة المرتبطة أصلاً بمفهوم السيادة، وتعبيراً عن الارادة الوطنية المتحررة من مجموعة القيود الذاتية والموضوعية والضغوطات الخارجية، التي تجعل من القرار في أحيان عدّة مرهوناً بإرادة غريبة عن طبيعة الهدف الجماهيري، الذي يتم اعتماده أساساً لحيثياته التاريخية.

ولا يقتصر الأمر على هذا المفهوم، المعبّر عن طبيعة العمليات الإجرائية، وما يمكن أن يدور على السطح السياسي، وانما يتعّداه، إلى بحث ومناقشة ماهية القرار وحيثياته، والعوامل الرئيسية الداخله في صياغته، ومدى قدرته على التعبير عن المواقف الثابتة والمبدئية، إضافةً لمجموعة الأساليب والوسائل الناظمة لديناميكية التحرّك الوطني لتحقيق الطموحات والأهداف المرتسمة في أفق المستقبل.

ويبدو الموضوع، في إطاره العام وشموليته، شائكاً ومعقداً وممتلكاً لأبعادٍ متعدّدة، وخاصة أن مبدأ التمييز بين الآني المرحلي والاستراتيجي، وتحديد الأولويات، لم يجد تحققاته العملية في صيغةٍ واضحة، سواء كان ذلك على المستوى الرسمي العربي، فيما يخص القضية الفلسطينية، أو على ساحة القضية نفسها.

وفي مقاربة للواقع، نستطيع القول بدايةً، أن مسألة القرار الوطني الفلسطيني المستقل، تتبدّى كواحدة من أهم الاشكالات الناشئة من طبيعة الواقع العربي الذي يعاني من علاقات سياسية متخلفه، تعزز مجموعة من القيود والضغوطات التي أصبحت واضحة ومعروفة على مواقع اتخاذ ذلك القرار.

وحتى لا نقع في شباك الأحكام الجاهزة، والمسبقة، حيث يقود ذلك إلى سيادة المنطق التبريري على الذهن، وتأتي الممارسات المنبثقة منه سلسلة من ردود الافعال يقتضي تحديد المقومات الذاتية والموضوعية، التي تشكّل في تفاعلها فيما بينها، ومع الأحداث، القاع أو الارضية التي يتم اعتمادها أساساً لاستصدار

---

* باحث من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

القرارات وتطوراتها اللاحقة.

١ ـ لا ريب أن طبيعة العلاقات الاجتماعية والسياسية السائدة بين مجموعة الفصائل الفلسطينية، وماهية نسيجها التنظيمي، وأشكال ارتباطاتها الوطنية مع الجماهير تعتبر إحدى أهم المقوّمات الذاتية الفاعلة، في التقدّم لصياغة القرارات السياسية، التي تعكس التلاوين الواضحة لهذه العلاقات، وابعاد تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة.

ولا يمكن فصل نسيج العلاقات هذا ومؤثراته، عن واقع الدائرة العربية، وما يعتمل داخلها من حركة سياسية محكومة بالوضعية العربية الراهنة، وما يتجلى على ساحتها من واقع اقليمي، وما يمور داخلها من تياراتٍ سياسية متباينه.

٢ ـ إن البحث الدقيق، في طبيعة هذه العلاقات ومضامينها السياسية والاجتماعية يقود، الى تحديد ما هو واقع من تأخر تاريخي، يحمل مشكل الديمقراطية والممارسة التي تعترف بالتعددية السياسية، هي الصوت المدوّي، لا على السّاحة الفلسطينية وحسب، وإنما في معظم ساحات السياسة العربية، حيث تسود ممارسات التفرّد والانفراد في اتخاذ قرارات مجانبة لطموحات الجماهير، وتعبيراً عن رؤيا فئوية أو قيادية مقطوعة الجذور عن الأصول الجماهيرية والوطنية في معظمها.

٣ ـ ولعلّ البعد الأساسي في المقومات الذاتية للقرار الوطني، يتمثل في المنظومة الفكرية والمعتقدات السياسية والاجتماعية، حيث تتموضع على قاعدته طبيعة الرؤى للاطار العام والشامل للقضية الفلسطينية، وفقاً لمفهوم جيوسياسي لأبعاد الصراع العربي الصهيوني، وآفاق التحوّلات السياسية والاجتماعية التي تؤدي إلى حسم هذا الصراع انتصاراً للحق القومي العربي.

٤ ـ ما يضاف الى ذلك ويرتبط به، ما هو في واقع التفاعلات على السّاحة السياسية العربية، والموقف الوطني الفلسطيني منها في مستوييها المتباينين:

ـ المستوى الرسمي العربي، وبحمل السياسات الاقليمية المعبرّة عن مصالح من بيدهم الأمر من فئات اجتماعية متمركزة في مركز القرار السياسي العربي.

ـ مستوى التفاعل مع الجماهير العربية، وقواها الوطنية والقومية التقدمية، والاتجاه العام الأساسي للجماهير وهذه القوى من القضية الفلسطينية.

المحددات الخارجية للقرار الوطني الفلسطيني:

إن نظرةً نقدية لما يمكن اعتباره في إطار المقومات الموضوعية، ليس في المحصّلة إلّا حدوداً ومحددات، تخلق مجموعة من الظروف والعوامل الضاغطة على القرارات التي تستهدف تحقيق التقدم الفاعل على طريق الأهداف المرسومة.

١ ـ إن أولى هذه المحددات وأساس العديد منها، ما هو في طبيعة الوضعية العربية الراهنة، في سيادة الاقليمية وروّاها المحاصرة والمغتربة عن طبيعة القضية الفلسطينية وجذورها، وابعاد المشروع الصهيوني على الارض العربية، الذي يرسم خوراً رئيسياً للعديد من التحدّيات التي تواجه الأمة العربية، في بناء

Digitized by Birzeit University Library

وجودها المجتمعي والحضاري على أرضها.

ان الفهم الجيوسياسي لهذا المشروع، ما يزال غائماً، أو بالأحرى مدفوعاً بقوّة المصالح الاقليمية الضيقة، ومرتكزاتها الفكرية التخلّفية، خارج إطار الرؤى الرسمية العربية وتجلياتها العملية في الممارسة السياسية، والعلاقات العربية ـ الدولية للقوى المهيمنة على مركز القرار السياسي العربية.

٢ ـ وفي غياب الفعل العربي الموحّد والمؤثر على السّاحة الدولية، ونتيجة للحضور الاعلامي المركّز والكثيف للّوبي الصهيوني، والمشوّه للحقائق والوقائع التاريخية، إضافة لتموضع المصالح الامبريالية وامتداداتها في المنطقة العربية، استطاع المشروع الصهيوني أن يتخذ موقعه في العقل الاوروبي الامبريالي، وان يكون الأساس للكثير من مواقف الدول، ازاء قضية الشرق الأوسط، على قاعدة أن الصهيونية هي في اطار دولة قائمة كأصلٍ وأساس، ولدى هذه «الدولة» فقط مجرّد مشاكل حدودية مع جيرانها العرب!! ومشكلة أخرى هي «حق اللاجئين الفلسطينيين؟!!»

ان هذا القلب لمعادلة الصراع وحيثيتها التاريخية، يهدف الى تثبيت الوجود الصهيوني المستلب للحق العربي، باعتباره «وجوداً شرعياً» يمتلك مقومات «الواقع الدولتي بشرعيته التاريخية»، بحيث تصبح القضية الفلسطينية برمتها قضية عارضة في حياة هذه «الدوله»!!

٣ ـ إن الدافع الأساسي لسياسة قلب المعادلة، في الذهنية الغربية، يتمثّل في الخصوصية المميزة للقضية الفلسطينية، في واقع الاستعمار الاستيطاني المستلب لكامل التراب الوطني الفلسطيني، وواقع التشتت والتبعثر على امتداد الارض العربية، المحكومة بكيانات متحصنة خلف حدودها الاقليمية..

إن هذا التشظي الديمغرافي وخاصة بعد حرب حزيران 1967، وفقدان الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن ثمّ الاجتياح الصهيوني للبنان، وخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت 1982، أدى الى غياب التواصل والتفاعل بين الجماهير الفلسطينية كضرورة موضوعية لتجسيد الرأي الوطني في قرارات سياسية، يتم متابعتها ليس جديداً، أن نذكر، أن طبيعة العدوان الصهيوني، وأهدافه التي تتضمن القضاء على الوجود القومي والحضاري العربي، تختلف عما هو معروف في التاريخ من صراعات وعلاقات عدائية، نشأت عبر التاريخ بين دولٍ أو شعوبٍ متجاوره أو متباعدة.. إذ أن تلك الصراعات في معظمها، لم تكن تستهدف اقتلاع الوجود الانساني وتدميره للأمة الأخرى، كما هي الحال في واقع المشروع الصهيوني وأبعاده العنصرية التدميرية. لذلك فإن الحق القومي العربي يتجاوز حدود الأرض وحدود الصراع على «الوطن الاقليمي»، الى حق الدّفاع عن الوجود الانساني المهدّد في مشروع الدولة التوراتية النابذه لكامل الوجود العربي..

إن الوعي العميق بطبيعة هذه التحدّيات، والتدقيق العلمي بأبعادها ومضامينها لايدفع إلى التراجع والارتداد عن الخط الوطني ـ القومي، في اتجاه طرق ابواب التسوية، والبحث عن الحلول التصفوية للحق المستلب بقوة العدوان الامبريالي الصهيوني، فمواجهة المعادلة المضادّة، يتم ابتداءً من تحديدها، وليس ابتداءً من الخضوع والاستسلام لها، وابتداءً من بلورة الخط الناظم لتحرير كل القرارات الوطنية المتخذة من المؤثرات والضغوطات الخارجية، وتوظيف كل الامكانات المادّية والمعنوية لدعم وتحقق المسار النضالي في اتجاه وطيد وثابت، ارتقاءً نحو المبادىء والاهداف المرتسمة في استراتيجية النضال العربي عامةً، والنضال

Digitized by Birzeit University Library

الوطني الفلسطيني خاصة في كلٍ متكامل، وليس الضياع والتيهان في أطر التخلف العربي وقواه الاقليمية.

ثمة، إذن، ضرورة ملحّة تتمثل في البحث في جذر القضايا وتحديد ماهيتها، ودرجة تأثير كل من العوامل الداخلية والخارجية، وصولاً الى اعادة انتاج التمفصل العضوي بين الثوابت والمتغيرّات، والارتباط الوثيق بين ما هو مرحلي وما هو استراتيجي، بحيث يأتي الأول موظفاً تماماً في مجال الآخر، ورافعاً له وليس ناسفاً لمقوماته أو الانحراف عنه.

أ ـ في العلاقات الداخلية:

لا ريب أن الملاحظة المنهجية التي يجب أن تكون حاضرة في مركز الاهتمام، تتمثل في ذلك الارتباط الجدلي الوثيق بين ما يعتمل على الساحة الوطنية الفلسطينية من أحداث وتطورات وما يجري على السّاحة العربية في ارتسام مسار الارتداد والنكوص محققاً لابعاد الانهيار العربي الذي نعيش. إضافة إلى التحولات البارزة في طبيعة العلاقات الدولية بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي، وانعكاسات ذلك كلّه على واقع وآفاق الصراع العربي ـ الصهيوني.

وذلك لا يصادر على أهميّة تقصيّ واقع الأرض التي يتحرك عليها النضال الوطني الفلسطيني، لتشكيل الوعي المطابق بين ما هو نظري، وما يمكن أن يتحقق في الأفق المنظور.

وفي هذا الصّدد، ليس جديداً أن نذكر، ونذكّر بواقع المعاناة الناتجة عن النسيج التركيبي للاشكالات على السّاحة الفلسطينية، والتي كوّنت معابر أساسية للنفاذ الى داخل الصفّ الوطني، ومحاولة العمل الدائم على شرذمته وتفجيره داخلياً.

والبارز في مقدمة هذه الاشكالات، تلك المحاولات المستمرة لعمليات البلعمة والاحتواء، ومن ثمّ الهيمنة داخل م.ت.ف وفقاً لعقلية التفرّد والانفراد، في عدم الاعتراف على الصعيد العملي بالتعددية السياسية، وتعدد وجهات النظر.

وباختصار فإن جذر الاشكالية يكمن في عدم اشاعة المناخ الديمقراطي، ومحاولة نبذ الرأي الآخر، وتهميش دوره في الاطار العام والشامل.

ان العقلية التخلفية في اعتمادها على الطبيعة الاستبدادية الموروثة تاريخياً والنزوع المستمر في اتجاه الشمولية، قد وصلت في سنواتها الأخيرة، لا إلى محاولة انتزاع قرارات تتفق وآفاقها الضيّقة وحسب، وإنما إلى ممارسة التهرّب من تنفيذ القرارات التي لا تلائم طبيعتها، والتي تعتبر عقبات جدّية في طريقها المرسومة نحو تسوية تصفوية للقضية برمّتها، على قاعدة العمل وفقاً للمعادلة المقلوبة التي تعتبر أن الكيان الصهيوني هو الأساس، والقضية الفلسطينية مجرّد مشكلة يعاني منها ذلك الكيان!!

إن غياب الديمقراطية، ونسف مبدأ المحاسبة، وعدم الالتزام باللوائح الداخلية، أو بمقررات المؤتمرات النابذة لنهج التسوية، تعتبر الأسس والمقدمات الموضوعية لارتسام خط التسوية على السّاحة الفلسطينية، حيث تمّ تموضعه بارزاً في المسار السياسي للعديد من القيادات، وخاصةً بعد الخروج من بيروت، ورفع شعار «تنشيط العمل السياسي» الذي أدّى في ظل التشظيّ الديمغرافي لـ م.ت.ف إلى تثبيت نهج

Digitized by Birzeit University Library

التسوية، وتوالي حلقات السقوط من خلال البيانات والتصريحات، وذلك النشاط المحموم والاتصالات، المشبوهة التي أخذت اتجاهاً علنياً واضحاً.

ويمكن التدليل على ذلك بالعديد مما حدث من مثال الحوار مع القوى الصهيونية، واللهاث خلف المؤتمر الدولي، والاستعداد للتفاوض مع العدو والاعتراف المتبادل على قاعدة القبول بالقرار 242، والارض مقابل السلام، من الذي يقوّض اركان السلام في هذه المنطقة من العالم؟؟؟ واتفاق عمّان وبيان القاهرة بإدانة الارهاب والعمليات الفدائية التي تصيب المدنيين الصهاينة، والعلاقة الوثيقة بنظام كامب ديفيد، وتأييد قرارات مؤتمر قمة فاس... الخ.. من نقاط لبرنامج التسوية، حيث يقوم أصحابه بتزويد الذاكرة العربية دائماً بالمزيد منها[1].

ومن خلال ذلك، يبرز التساؤل الجماهيري المنطقي، واضحاً عن طبيعة ذلك القرار السياسي، الذي يمكن أن نعتبره بحق قراراً وطنياً يجب الدفاع عن استقلاليته..

إن عملية التأثر بالواقع العربي الرسمي، برزت واضحة في الارتداد عن المواقع والمواقف القومية، الى التحرك تبعاً للعقلية الاقليمية التي تمت ووصلت الى موقع الهيمنة في امتلاكها للاستعداد المسبق لذلك عندما تتاح لها الفرصة.. كما هي عليه في الحالة الراهنة.

ولعلّ التعبير الواضح عن هذا الاستعداد، ما هو في واقع المنحى العام للنشاط السياسي، في الابتعاد عن الجماهير وقواها القومية التقدمية، وتوثيق العلاقات مع الانظمة التقليدية والرجعية، والتشبث بالخط السياسي الذي يهدف الى بناء كيان اقليمي متراصف مع الكيانات العربية القائمة، وعلى شاكلتها التقليدية المناهضة لحركة نهضوية تشمل الوطن العربي بأسره.

وفي ذات المستوى، فإن الأدلجة الاقليمية للصراع مع الصهيونية، تحيل القضية من كونها صراعا ضد استعمار عنصري استيطاني، أو صراعاً بين الوجود ونقيضه، إلى تسطيح غائم في اتجاه كونه مجرّد نزاع على مساحة من الارض، يتم اللهاث للحصول عليها، واقامة كيان اقليمي يختزل الحق العربي ويمسخه استراتيجياً.

وتعتمد هذه الأدلجة الزائفة، في نجاحها في بعض المواقع، على هشاشة التكوّن البنيوي في جانبيه الايديولوجي والتنظيمي، والتي برزت واضحة عندما تمت الدّعوة لنزع البندقية الفلسطينية، والتخلي عن الاستمرار في الكفاح المسلّح، سبيلاً لولوج باب التسوية، حيث ادى ذلك الى خلق حالة من التفكك والتشرذم، وصولاً الى الاقتتال المدمر بين الفصائل الفلسطينية، وتمادي قيادات معينة بالاستهتار بالمواثيق ومقررات المؤتمرات للمجالس الوطنية الفلسطينية.

على المستوى القومي:

الصراع العربي - الصهيوني، صراع حضاري، ذلك أن الهزائم المتكررة التي أصيبت بها الامة العربية في مواجهة العدوان، كانت نتيجة لمجموعة من العوامل، في مقدمتها وأساسها عامل التخلف الحضاري

Digitized by Birzeit University Library

والتأخر التاريخي منذ انحلال الدولة العربية في القرن الخامس عشر.

لذلك فان مقوّمات القضاء على هذا العدوان، وكنس آثاره المدمّره، مرتبط بالتقدم على طريق تحقيق عملية استبدال تاريخي لكامل البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية القائمة، واعادة هيكلة المجتمع العربي في اطار معركة تحديث شاملة.

ان هذا المشروع النهضوي، هو الذي يحدد ابعاد حركة الثورة العربية، ومسارها والاطر المرحلية والاستراتيجية التي تحدّد هذا المسار، والمسألة المحورية في العلاقة القومية التي يمكن الانطلاق منها، في سياق البحث، تتمثل في واقع انتماء الثورة الفلسطينية باعتبارها جزءاً أساسياً في حركة الثورة العربية. وبدون تحقيق هذا الانتماء من خلال الربط العضوي، وارتباط العمل النضالي الشامل، تبقى الثورة الفلسطينية محاصرة بالأفق الاقليمي الضيق الذي ينسف مقوماتها الرئيسة، كثورة تهدف الى تغيير جذري، لمعادلة الصراع مع الكيان الصهيوني.

انطلاقاً من هذا الفهم لطبيعة العلاقات القومية، وساحة العمل الوطني ـ القومي، يمكن البحث فيما تمّ بناؤه من علاقات، ووضع اليد على الثغرات والممارسات الخاطئة، فالصوت يرتفع يوماً بيوم في الدعوة لتحديد مواقف أعمّ واشمل واكثر جذرية ووضوحاً.

فالثورة الفلسطينية منذ انطلاقتها 1965، ماتزال محكومة بواقع الدائرة العربية وتفاعلاتها، وماتضمه من تيارات سياسية تتسم حركتها بالتباعد والتشرذم بدرجة أقوى من محاولات بناء التحالفات فيما بينها، وأنظمة تحكم باسم الجماهير لتفترق في مسارها عنها، وحصون اقليمية تتمركز خلفها قوى وفئات اقليمية تنطلق في رؤاها ومسارها السياسي من خلال مصالحها الفئوية الضيقة، وارتباطاتها الخارجية المتناغمة مع آلية الامبريالية في المنطقة العربية.

ولاريب أن مجموعة من الظروف الموضوعية حدت بفصائل المقاومة منذ البداية أن تبني علاقاتها مع النظم العربية، على قاعدة التصالح مع الوضعية العربية القائمة. ولكن عملية الفصل الميكانيكي المصحوبة بنزعة اصلاحية، بين ثنائية التكامل المترابطة جدلاً، والمتمثلة في مهام الثورة القومية الديمقراطية عربياً والثورة الفلسطينية ومهامها في التحرر والتحرير، سواء تم ذلك بوعي أو بدون وعي، أدى الى فقدان الجانب العربي الفلسطيني لزمام المبادرة في المساهمة الفاعلة لصياغة أسس النضال الوطني، القومي، وفق ثوابت مبدئية من جانب، والى تهميش علاقة كان يجب أن تكون الأولى لضرورتها الموضوعية والتاريخية مع الجماهير العربية وقواها الوطنية والقومية التقدمية من جانب آخر. والعقلية الاقليمية التي تخشى على مواقعها، هي التي تدفع في اتجاه وضع القيود والحدود أمام التحالفات الوطنية والقومية، تحت شعارات وصيغ مختلفة من مثال «عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدولة الاقليمية» هذا الشعار الذي اسقطه عبد الناصر من منظوره وموقعه القومي، ليعود مرة أخرى عنواناً بارزاً للمحافظة على الوضع العربي الذي يتردّى وينهار.

إن عمليات التراجع المستمرة، أمام مهمات الاقليميين العرب، لتحقيق أمنهم الاقليمي أولاً، وتوثيق الارتباطات المشبوهة مع الغرب الامبريالية، **وضع العديد من قادة الفصائل المقاومة في بوتقة الانظمة،**

Digitized by Birzeit University Library

وفي ساحتها السياسية، وفق مسارٍ منسجم مع الطبيعة البنيوية الاقليمية، وتعبيره السياسي والايديولوجي في القضية الفلسطينية هو فكر التسوية ومقولاته التي يتم تنظيرها وأدلجتها..

وهكذا، تقود النزعة التوفيقية الى الرضوخ للمعادلة المقلوبة، حيث تصبح الاقليمية ومصالح أصحابها هي الاصل والأساس والمرتكز، ومجموعة المهام الوطنية والقومية التحررية، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، خارج حدود الهم الاقليمي، اللهم إلاّ مايهدد تلك المصالح الفئوية الضيقة.

وعلى قاعدة النسيج التركيبي للوحة العلاقات المرتسمة هذه، تنسف مقومات استقلالية القرار الوطني الفلسطيني، ليصبح هذا القرار «رهين المحبسين»: أغلال نظم الارتداد وممارسات القمع المتوالية، دفعاً باتجاه أن يتخذ الخط السياسي الفلسطيني نهج الارتباط والتبعية، وفق أقنية محددة ومرسومة بقوة الاستبداد الشرقي من جانب، واشكال الهيمنة والوصاية الداخلية لهواة التسوية، الذين ظنوا أن نزع البندقية الفلسطينية يؤدي الى بقاء غصن الزيتون مخضراً، ناسين أو متناسين أن اخضرار الغصن أصلاً كان ومايزال مرتبطاً ببقاء هذه البندقية مشرعة في وجه العدوان القائم.

ونعود الى القول، أن التموضع الديمغرافي للشعب العربي الفلسطيني على امتداد الارض العربية، يمتلك جانباً ايجابياً في امكانية اقامة علاقات اجتماعية ـ سياسية بأبعادها الكاملة على المستوى القومي.

ولاريب أن القيود المحاصرة، والتحذيرات المتكررة، من أصحاب النزعة الاقليمية، تدفع الى تجنيب هذا الشعب المزيد مما يحتمله من الوان القهر والعسف والمعاناة، ولكنّ ضرورة النضال الوطني في ابعاده المستقبلية والحضارية، تقتضي حضوراً مكثفاً ودائماً للهم الوطني الفلسطيني في أذهان الجماهير العربية، اضافة الى أنه لايمكن للثورة الفلسطينية أن تحيا في جزيرة معزولة.

والجماهير العربية، في علاقة الحاكمين بها، ليست أحسن حالاً، والموقف العربي الرسمي من سياسة التحالفات الوطنية والقومية يشمل جميع القوى على حدٍ سواء.. والعسف لايطال موقعاً من مواقع حركة الثورة العربية، ليغفل موقعاً آخر ويبقى بناء العلاقات القومية وتوطيدها أساساً وركيزة لدعم وحماية القرارات الوطنية وانتزاع استقلاليتها.

الانتفاضة الوطنية: انعطافة تاريخية:

في محصلة التراكمات لسنوات طويلة، في التأرجح والغوسان بين قطبي المواقف القومية المبدئية، والممارسات الاقليمية والفئوية، وفي اشكال التردّد بين المضي في تعميق وتجذير نهج الكفاح المسلح، وبين الارتداد الى الموقع السياسوي تحت مظلة التسوية وفي كنف أنظمتها. ونتيجة لسنوات طويلة من الاقتتال والمجازر، بدءاً من ايلول الأسود في الاردن، وصولاً الى ماحدث بعد الخروج من بيروت في صبرا وشاتيلا، وماأعقب ذلك من تشظي وتشتت في اصقاع الوطن العربي.. كانت معادلات التسوية ترتسم في الانتقال من كامب ديفيد الى قصور العديد من الانظمة العربية لتخترق البيت الفلسطيني، وسط تراكمات على الساحة العربية والدولية، كادت أن تنقل المنطقة العربية نحو الانهيار الكبير.

Digitized by Birzeit University Library

وتأتي الانتفاضة الوطنية العارمة، داخل الارض المحتلة لتخترق كل المقاييس، وتجمد جميع الحسابات، وتمزق مقولات عديدة لمعادلات السياسة اليومية. وتذكر المجتمع العربي والدولي بمقولة تاريخية، تتمثل في أن ارادة الشعوب هي التي تضع المقاييس وتحدّدها وليس العكس.

اللاعقلانية في السياسة العربية، تتهاوى أمام المقولات الحقيقية لبناة التاريخ الانساني على الارض العربية. ولاعقلانية الوجود الصهيوني تتعرض لأعنف هزّة تستهدف مقوّمات وركائز هذا الوجود العدواني بذاتها. والسياسة الامبريالية الامريكية في المنطقة العربية، ترجم بحجارة الاطفال كزانية مبتذلة.. والصمت العربي، موقف نابع من الخشية أن تمتد الانتفاضة خارج حدود الارض المحتلة لتشمل المنطقة العربية، ويتجسد هذا الموقف واضحاً في الابتعاد عن تقديم الدعم المادي والمعنوي، والانتظار الحذر الى أن «تنطفىء الشعلة المتوقدة؟؟»

وعلى الرغم من الحركة الدورانية التي يشوبها الارتباك لقادة التسوية، إلّا أن مجمل القرارات الصادرة ماتزال هزيلة قزمه أمام سيل الحجارة، والزجاجات الحارقة، والمظاهرات واشكال المقاطعة، وقوافل الشهداء العابرة، لتثبيت اركان الحق العربي على أرضه.

ويعبر قادة التسوية في مواقفهم وتحركاتهم عن المضي في التفرد والانفراد في اتخاذ المواقف السياسية، ومحاولة فرض الوصاية على الانتفاضة، وتجيير الاحداث والنضالات الوطنية للنهج السياسي التسووي الى جانب محاولة تأطير هذه الاحداث والنضالات بإيتلاءم مع مادعي «بالاستحقاق السياسي» لوقف الانتفاضة الشعبية عند حدود الاوهام الاقليمية: «الأرض مقابل السلام».

ولكنّ وقائع التاريخ، وايقاع الارادة الوطنية الناظمة لتلك الوقائع، لايمكن ان تتساوق والمعادلة المقلوبة، التي تمثل نقيض تلك الارادة في عملية اجتزاء واختزال ابعادها ومضامينها.

لذلك، نلاحظ أن تسريع وتائر الحركة التسووية، وتكثيف النشاطات السياسية في اطار انعدام الدعم المادي والمعنوي للانتفاضة الشعبية، ليست في الحقيقة إلّا شكلاً من أشكال اجهاض العمل الثوري والالتفاف عليه، وايقافه عند حدود لايتعداها، نحو مايمكن أن يخلقه من مناخٍ ثوري عام يكنس واقع الاستنقاع والركود السياسي الذي تعيشه المنطقة العربية منذ سنوات **ومالاحداث الاخيرة والتحركات الشعبية على الساحة الاردنية إلّا خير دليل على ذلك**. وبذلك فان الانظمة العربية كانت محقة في تخوفاتها وحساباتها، لأنها تدرك تماماً، واكثر من أيّ مراقبٍ خارجي، طبيعة العلاقة بينها وبين الجماهير التي تتحكم بها، وموقف هذه الجماهير وقواها الوطنية منها.

ومن هنا، كانت مقررات مؤتمر القمة العربي في الجزائر لدعم الانتفاضة، والتي لم تجد طريقها الى التنفيذ مجرّد موقفٍ اعلامي، ارتسم على ارضية الخوف الاقليمي من حركة التاريخ في لحظة حضور المحرّك لها بوتائرها الحقيقية.

ومايشكل افتئاتاً على الانتفاضة الباسلة، ويفت في عضدها، ماهو واقع في مسار السياسة العربية المتخاذلة، وتوالي حلقات السقوط، مشكلة مجموعة من الاحباطات، حيث تسهم في تكوين الظروف الموضوعية التي تدفع العدو الى المراهنة على اخماد الانتفاضة وتوقفها في الافق المنظور، مستخدماً لتحقيق

Digitized by Birzeit University Library

هذا البرهان كل اشكال القمع الوحشي المعبرّة عن طبيعته البنيوية.

واذا كان الصمت العربي كموقف رسمي لم يكن مفاجئاً، فمايزال الأمل معقوداً على تحرر البيت الفلسطيني من مجموعة القيود المحيطة، وفي مقدمتها اختراقات نهج التسوية، وصولاً الى مستوى الموقف الجماهيري الصامد داخل الأرض المحتلة، أو بالأحرى الى مستوى المشروع الوطني والقومي النابذ لنهج التنازلات والتصرف غير المسؤول بالحقوق الوطنية الثابتة.

١ ـ ثمة، مسألة محورية، تتمثل في ضرورة تحديد ماهية المنظور الذي يتم وفقاً له اتخاذ القرارات السياسية على الساحة الفلسطينية، اذ أن هذا المنظور هو الذي يحدد بعدها الوطني. وامتلاك هذا البعد يعتبر الركيزة والأساس لانتزاع استقلاليتها وحمايتها من الضغوطات التي تتعرض لها.

فالقضية الفلسطينية، في بعدها الوطني، ليست قضية اقليمية معزولة عن مجموعة القضايا القومية للامة العربية، وانما تقع في صلبها وأساسها، بما هي قضية قومية عليا. اضافة الى ان العدوان الصهيوني لم يكن يوماً موجهاً الى الشعب العربي الفلسطيني وحسب، وان اتخذ من فلسطين منطلقاً له وقاعدة، وانما هو عدوان يستهدف الوجود القومي العربي برمته.

٢ ـ مايرتبط بالمنظور القومي وينبثق منه، في نفي لضياع الهوية فيما هو مجرّد، والانتقال بها الى الواقع المشخص، في اطار عام وشامل يتضمن التعددية في الكل المتكامل، بلورة وتحديد الهوية الوطنية الفلسطينية، كيانية تمتلك شرعيتها التاريخية، التي تنفي الكيان الصهيوني المصطنع والعارض، وفق نظرية الحق الطبيعي والسياسي التاريخ لسيادة الشعوب على أرضها.

ان هذا التحديد المشخص للهوية الوطنية، ينأى بها من مغبة السقوط في مستنقع الاقليمية المحاصر لها، ولتحققها على قاعدة الوعي العميق لمعادلات الصراع في العصر الحديث، تلك المعادلات التي لم تعد تتضمن احتمالات وجود وتحقق مستمر للكيانات الهشة الصغيرة.

٣ ـ ان استقلالية القرار الوطني الفلسطيني، تعني أول ماتعنيه، وضع حد حاسم للهيمنة الاقليمية في المعادلة السياسية العربية، على مجمل القرارات للنظم نفسها، ولكل المنظمات التي ترتبط بعلاقات معينة بهذه النظم فالمصالح الاقليمية والفئوية المضادة للحرية والديمقراطية، تعزز صيغة معينة من العلاقات التي تنال من استقلالية المنظمات، وفي مقدمتها م.ت.ف التي تنال دائماً الغرم من هذه العلاقات المشروطة بشروط سياسية مجحفة، فلايمكن والحالة هذه التصالح مع العقلية القمعية المتسلطة، التي تنفذ من خلال الثغرات والاخطاء لتصطاد القرار الوطني وتحاول افراغه من مضمونه.

٤ ـ وفي كل الدول والمنظمات والتنظيمات التي تحترم الارادة الوطنية، نجد للشرعية وصوت الاغلبية، حقّ طبيعي وسياسي في الالتزام به، وعدم الخروج عنه، كما أنه لايمكن ان يكون مجالاً للتلاعب به او الانحراف عنه.

وسياسة الانفراد والتفرد في اتخاذ القرارات، وتنفيذ النشاطات السياسية، أصبحت ظاهرة بارزة، في الخروج على الشرعية، وانتهاك لذلك الحق الوطني في ذمة القيادات التي تعتبر نفسها ممثلة للاغلبية.

ان ذلك يطرح، ضرورة اعادة النظر في النسيج التركيبي، والعلاقات الداخلية ونظام التمثيل للفصائل

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينية داخل م.ت.ف، وتدقيق كامل لممارسة الديمقراطية، وابراز دور المؤسسات واطلاق قدراتها وفاعليتها، من قيود النوازع الذاتية والممارسات الخاطئة التي ادّت الى ضرب وحدة م.ت.ف وحدوث الانشطارات المتوالية.

٥ ـ ان الزخم الثوري المتعاظم، الذي تميزت به الحركة النضالية داخل الارض المحتلة، يفترض ان تكون القرارات الوطنية ممتلكة لمصداقيته وابعاده وفي مستوى الاحداث والتطورات على ساحة النضال الرئيسة، وأن تخترق كل القرارات الناتجة عن الحوارات المشبوهة، والبيانات التي تعبر عن التهافت واللهاث خلف المشاريع التسووية، اذ أنه «لايحق لأية جهة من أي جيلٍ من أجيال الشعب، مهما تألبت عليه الظروف، أن تتنازل عن أي حقٍ من حقوقه الثابتة والطبيعية» وعودة الى الكفاح المسلح بكامل ابعاده ومداه، والى التقاط البوصلة، بعد مرحلةٍ طويلة من الضياع والتيهان، هو الطريق الى تفعيل الصراع وتنظيمه، والتقدم به على طريق التحرير.

٦ ـ والقرار الوطني الذي ينبثق من طموحات الجماهير، معبراً عن فعلها وتفاعلها، انما يستمد قوته ومنعته من وجدان الامة، حيث يجد معقله في الجماهير وقواها على امتداد الساحة القومية. وبذلك فان أرضية صياغة القرارات، لاتتمثل في تلك السياسات الخاضعة لمجمل الضغوطات الخارجية والنوازع الذاتية، وانما تتمثل في تحقيق علاقات وروابط وطيدة مع الجماهير العربية.

٧ ـ لقد وضعت الانتفاضة الوطنية، الرأي العام العالمي من جديد، أمام الحقائق التي كان اللوبي الصهيوني يعمل جاهداً لاخفائها، حيث تكشفت أمامه الطبيعة العنصرية للدولة التوراتية، بعد أن اوضحتها سابقاً هيئة الامم المتحدة في قراراتها وقد آن الأوان لاستيعاب وتنفيذ ديناميكية المواجهة الفاعلة للعدو ومرتكزاته على الصعيد العالمي، وتوظيف الامكانات المتاحة لتحقيق عزل عالمي ودولي للكيان الصهيوني ونقاط استناده ومواقع دعمه المادّية والمعنوية.

وفي المحصلة، ان أزمة الفكر السياسي العربي عامة، وانحباس هذا الفكر في أطر تشكو معظمها من حالة التخلف الحضاري الراهنة، تشكل انعكاسات سلبية على القرار الوطني الفلسطيني ومواقع اتخاذه. ولاريب أن التصدي لهذه الانعكاسات، انما يتم من خلال التمسك بالمبادىء والمواثيق الاساسية التي حددت محاور النضال الوطني الفلسطيني، بما هو نضال لثورة فلسطينية تقودها منظمة للتحرير وليست منظمة للتسوية.

الهوامش:

١ ـ انظر بهذا الصدد: نزيه أبو نضال: المرتكزات المادية لفكر التسوية مقال في مجلة الوحدة، العدد ٤٤ أيار (مايو) ١٩٨٨ ص ٨

٢ ـ انظر البرنامج السياسي الذي اقره المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الحادية عشرة نيسان ـ ابريل ١٩٧٢

٣ ـ أهم هذه القرارات: القرار ٣٣٧٩ تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٧٥ والذي أكد أن الصهيونية «شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري».

Digitized by Birzeit University Library

الذاكرة الفلسطينية

غالب هلسا

- ١ -

أذكر أنه خلال حصار بيروت كنت في حارة التراشحة، أهلها من سكان ترشيحا، الواقعة في منطقة الجليل. الحارة كانت الهبوط الاقصى لمخيم برج البراجنة، وبداية بيروت. السيدة التي قالت لي أن لها صلة قربى بالشهيد ماجد أبو شرار ـ لا أذكر اسمها الآن ـ عرّفتني على أبنائها وبناتها الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة. قالت لي: انهم يعرفون كل شيء عن فلسطين. اسألهم.

كانت ذاكرة آلية تحفظ أسماء المدن وبعض القرى، وتضاريس المناطق، وشيئاً من التاريخ. تاريخ حروب واحتلال وثورات ومذابح.

قالت السيدة، في الليل، قبل أن يناموا احكي لهم عن فلسطين: الناس والحكايات والاقارب وعن كل ما أتذكره.

كنا نجلس في حوش بيت من طابق واحد، مبلّط، ومسوّر ومحاط بشجر غير مثمر، نخيل، ورقه فاتح الخضرة، رقيق، يكاد يكون شفافاً.

قال أحد الحاضرين:

- هل رأيتم الشيخ؟.

وحين أجبنا بالنفي، قال الشاب:

- تصوروا أنه يرفض أن يبني له بيتاً.

- لماذا؟.

- يقول: سأبنيه في بلدي.

روائي وناقد من الاردن

Digitized by Birzeit University Library

ارتسمت في ذهني صورة لشيخ مضحك، ضيق الافق، عصبي، عجوز جداً، قلت:

ـ أحب أن أراه.

ناده. كان طويلاً، مستقيماً، يسير بوقار من يسيطر على حركته، وعلى انفعالاته. سألته عن السبب الذي يمنعه من بناء بيت له، فقال دون أن ينظر الي:

ـ سأبنيه في بلدي.

ـ بلدك؟.

ـ فلسطين. هدمه اليهود وسوف أعيد بناءه.

قلت:

ـ ما دمت مقيماً هنا...

قاطعني وهو ما يزال يحتفظ بهدوئه:

ـ الارض تنادي أهلها.

قلت:

ـ مش فاهم.

قال:

ـ عندما تبني بيتاً، وتتزوج وتنجب أطفالاً خارج فلسطين، فان ذلك النداء يتوقف.

عند كل اجابة من اجاباته كان الحاضرون يهمسون برؤوس محنية، صحيح في اليوم التالي، ساعة الضحى، عدت الى حارة التراشحة. كانت مدمرة تماماً بالقصف المدفعي الاسرائيلي. فوجئت بالكمية الهائلة من الواح الصفيح المتناثرة في كل مكان. أين كانت؟ علمتني خبرة الايام السابقة أن دمار منطقة ما لايعني أن أهلها ماتوا تحت الحطام. لقد تعلم الناس كيف يحمون أنفسهم من القصف.

رأيت شاباً يتنقل قافزاً بين الحطام. عندما رآني استدار وسار نحوي. قلت:

ـ دمروا الحارة كلها.

قال:

ـ شفت المعجزة؟.

لم أفهم. أضاف:

ـ الشيخ.

ـ ماذا حدث؟.

قال اتبعني. سرت وراءه. سرنا ببطء بين أكوام الدمار. قال. وهو يسير أمامي، ودون أن يلتفت الي:

ـ كل البيوت تهدمت ما عدا المكان الذي يسكن فيه الشيخ. سقطت عليه قنبلة فسفورية فلم يحدث له أي شيء.

اقتربنا من مسكن الشيخ. كان ثلاثة جدران من الطوب النيء، مغطى بقماش أبيض من قلوع

Digitized by Birzeit University Library

المراكب. دخلنا من مدخل في الجدار. أمسك الشاب صينية طعام فيها خبز مقطع قطعاً صغيرة مغطاة بذرات من البولبين. قال:

- انظرا كما هي. كان قد أعدها عشاء للقطط.

ثم أشار الى عامود قصير من كاسات الشاي الموضوعة في قلب بعضها، ثم الى صينية فوقها بعض فناجين وبكرج ممتلىء بالقهوة. وقال: كل شيء بقي على حاله. كان الشيخ يستعد لشرب القهوة. الفناجين مازالت مستعدة لتقبل القهوة، والقهوة جاهزة.

قلت:

- والشيخ.

قال ان النار قد علقت بملابسه، فيخلعها، وأخذ يتدحرج على الارض الترابية، ثم أسرع عارياً الى أقرب مستشفى. قال: إنه زاره في المستشفى، وهو في صحة جيدة، وسوف يخرج غداً أو بعد غد.

- لم يصب بحروق؟.

- حروق بسيطة.

- ٢ -

كنا أربعة، فتاتين والمصور وأنا، نرتدي الملابس العسكرية، وننهبط من قمة التل الذي يقوم عليه مخيم برج البراجنة. طائرة اسرائيلية تطير فوقنا. لم يكن هنالك مكان نلجأ اليه. البيوت على جانبي الطريق مهدمة أو نصف مهدمة، وقد قذفت بأحشائها الى الخارج، ومعظم ما تقذفه كان كتباً. عندما تنهدم البيوت تذهل لكثرة الكتب التي تحتويها.

قالت احدى الفتاتين:

- مابدها تغور عنا الطياره!.

كانت تجذب ياقتي قميصها العسكري لتخفي نحرها. عندما تكون طائرة معادية فوقك، فانك تشعر بالعري. قال المصور ان الطائرة تحمل صواريخ ارتجاجية لهدم البنايات. قالت الفتاة وهي تحكم ملابسها حول جسدها:

- بس تغور عنا.

بدت الفتاة، في جو تموز الملتهب، وكأنها في موجة باردة لم تلبس لها الملابس المناسبة. في تلك اللحظة سقطت قذيفة مدفعية على بعد حوالي عشرة أمتار منا. قالت الفتاة بعصبية:

- مش قلت الكوا!.

وكأننا مسؤولون عما حدث. قالت الفتاة الاخرى التي كانت تبدو مستغرقة في أفكارها الخاصة قبل قليل أن تلك قذيفة بحرية أطلقتها البوارج الاسرائيلية بعد أن حددت لها الطائرة التي فوقنا الاحداثية. قالت الفتاة الاولى:

Digitized by Birzeit University Library

ـ شفت؟.

وهي تنظر الي بغضب.

اختفت الطائرة ولكن قذائف البوارج الاسرائيلية ظلت تلاحقنا. وصلنا الى ساحة دائرية في طرفها ملجأ للجبهة الشعبية. كانت مجموعة من الناس تقف أو تجلس في ظل بيت لم يلحقه أي دمار، القينا التحية على الحاضرين، فجاءوا لنا بكراس من الداخل.

اجتذب انتباهي رجل أخذ ينظر الي بحزن وقور، وكأنه يشهدني على تحقق فاجعة كان قد تنبأ بها. كان الرجل متوسط الطول، يرتدي بنطلوناً رمادياً، وجاكتة بيجامة بيضاء تتخللها خطوط عريضة سوداء، ولحيته التي خطها الشيب بدا أنها لم تحلق منذ أيام. كانت عيناه أغرب ما فيه. ورغم أني لا أستطيع معرفة الفروق بين العينين الانثويتين والعينين الذكريتين، ولكن عينيه كانتا انثويتين. كانتا واسعتين، بياضهما مشوباً بحمرة قاتمة، والقرنيتان بنيتين، لهما أهداب طويلة، غزيرة.

كان في عينيه نظرة تعّرف أدهشتني وأربكتني. ودون أن يحوّلها عني قال بصوت مرتفع، مخاطباً الآخرين:

ـ والله لكلّمه أكثر ما كلّمه موسى

ارتفعت أصوات متعددة: ليس وقته الآن. عندنا ضيوف حرام عليك احنا في رمضان.

علا صوت الرجل فوق الضجة:

ـ ضيوف ما ضيوف لازم اكلمه. رمضان ما رمضان لازم أكلمه. لازم اكلمه أكثر ما كلمه موسى.

ـ عيب!.

ـ عيب ما عيب لازم أكلمه.

وهو خلال ذلك يلقي نظرات متواطئة نحوي. دعوته الى الجلوس بجواري، فجلس، قلت:

ـ بدك تكلّم مين؟.

رفع سبابة يده اليمنى نحو السماء وقال:

ـ هوه.

قلت:

ـ وشوبدك تقول له؟.

قال:

ـ بدي اسأله.

والقى أسئلته: لقد طردني اليهود من بيتي في فلسطين، وها هم يريدون أن يطردوني من بيتي في المخيم. هذا حلال أم حرام؟ ذبح الاطفال. حلال أم حرام؟ جمعت خمسة آلاف ليرة، شقاء عمري، فجاءت قنبلة فسفورية وحرقتها. هذا حلال أم حرام؟. وأسئلة وأسئلة لا حصر لها. والله لاكلمه أكثر ما كلمه موسى.

سألته ان كان قد أجاب على أسئلته. قال أنه لا يحب أن يسأل. قال لي الدكتور شاتيلا: تعلم

Digitized by Birzeit University Library

الصبر. تذكر أيوب. صبر فعّوضه الله عن صبره.

ثم نظر الي، كأنه يتحداني. قلت:

- ايش رديت على الدكتور شاتيلا؟.

قال:

- قلت أيوب ما صبر. لو صبر ما حد سمع فيه. أيوب سأل وزعل ورفع صوته، أيوب احتج، منشان هيك صار مشهور وأخذ حقه. أيوب ما صبر.

وسألته، رغبة في مواصلة حديثه:

- يعني ما جاوب على أسئلتك؟.

قال انه كان يرسل له مجموعات من الجن ليلعبوا بعقله، فكان يمسك بهم ويقتلهم بيديه. في كل يوم يقتل ثلاثة على الاقل. يأتون متظاهرين بالادب والمودة، مدعين أنهم جاءوا للزيارة، فيتظاهر بتصديقهم، ثم يفاجؤهم ويخنقهم بيديه.

أخذ القصف على المنطقة يتزايد، وتوجه بعض الحاضرين الى الملجأ. أما صاحبي فقد كان مستغرقاً في أفكاره الخاصة. امرأة تقف مستندة الى جدار المنزل، وفقدت ساعدها الايسر، قالت أن القصف استمر بالامس أربع ساعات، ولم يقتل الا بعض القطط. وأضافت أنها ستبقى في بيتها ولن تغادره الى الملاجيء التي في حارة حريك أو قرب البنك الفرنسي. كانت احدى مفاخر سكان بيروت في تلك الفترة أنهم ظلوا في بيوتهم رغم الحصار العسكري والتمويني، ورغم انقطاع الماء والكهرباء.

أخذ الرجل ينظر الى المرأة بتدقيق، ثم التفت الى توقعت أن يقول لي شيئاً عنها، ولكنه قال: ثم جاؤوا مرة. . .

نسيت حديثنا السابق فقلت:

- مين هم اللي اجو؟.

قال:

- الجن. كنت نايم. فلعبوا في مخي، ومرضت.

قال انه ذهب الى الدكتور شاتيلا. فتح له الدكتور رأسه ورأى دماغه، فقال: ماشاء الله، نظيف، بس فيه، حدا لعب فيه شويه. قلت له: عارف.

بعد عدة أيام كنت أصعد مخيم برج البراجنة. كان يرافقني جميل هلال ومراسل صحيفة اللوموند الفرنسية. التدمير أصبح شاملاً. كنا نقفز من حجر الى حجر، لان الطرقات اختفت تحت ركام البيوت المهدمة محاولين الاحتماء خلف أكوام الحجارة من رصاص الرشاشات الاسرائيلية التي كانت تنطلق بكثافة لدقائق ثم تتوقف، عندما كانت تصطدم بالحجارة تتطاير قطع صغيرة في الجو. كان مراسل اللوموند ينحني كثيراً عندما تنطلق الرشاشات، رغم أننا كنا نقف وراء سواتر أكثر ارتفاعاً من قاماتنا.

ثم توقفنا أمام مشهد فريد. على قمة أحد الاكوام الحجرية كان يجلس رجل قد فرد ساقيه الممتدين على استقامتهما، معرضاً نفسه لرصاص القنص. فاجأتني نظرة التعرف في عينيه، وكان وجهه مألوفاً: وجه

Digitized by Birzeit University Library

حزين حد البكاء، مأساوي، يقول: لقد حدث ما توقعت. اليس كذلك؟.
اقتربت من الرجل محاولاً أن أتذكر أين رأيته قبل ذلك، أين رأيت تلكما العينين الكثيفتي الرموش؟

قلت:
ـ اليهود هدموا بيتك؟.

قال:
ـ اليهود؟!.
وأخذ يهز رأسه بحزن: «اليهود؟» قال. قلت:
ـ أنت؟.

ـ ٣ ـ

في دراسة لي عن مجموعة الشهيد ما جد أبو شرار «الخبز المر» كتبت: هذا الفلسطيني ـ في هذه المجموعة ـ المعبأ موتاً: ذاكرة وذكرى ومصيراً، وفي أحيان، توقاً، هل يعيش تلك اللحظة المخيفة، حيث حسب المصطلح الفرويدي ـ حيث انتصرت غريزة الموت في داخله، وأصبح شخصية نيكروفيلية (أي عاشقة للموت) تسعد بانطفاء الحياة؟.... ان دفع الوجود الى قلب مأزق العدم يحمل دلالته. انه رفض لكل عزاء فردي وخاص. ان الفلسطيني، وقد اقتصرت خياراته على خيار وحيد: أن يختار الموت الذي يعجبه، قد وضع الاسس النفسية للعنف الثوري... لن تتخلص الثورة الفلسطينية من أشباح الموتى الا بالعنف..

وكما ذكرنا، فان الاموات الشهداء، أو الضحايا ـ الشهداء، يلقون ظلالهم بكثافة على الاحياء في هذه المجموعة. انهم يرسمون، على نحو ما، طريق الاحياء. «محمد اسماعيل» ثبت عند رؤية واحدة: استشهاد زوجته وولديه، و «كمال» النجار الصغير، قد تحددت حياته سلفاً: أن يصبح نجاراً كأبيه الشهيد. لذا يثور ويحطم أطباق المطعم: «وغادر كمال المطعم... واتجه بجذل وأمل الى الدكان المقابل.... دكان أبي محمد النجار».

وأنا قد التقيت بهذه الظاهرة في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. كان ذلك خلال حوارات أجريتها مع بعض أهالي هذه المخيمات، امتدت زمناً، وذلك في عام ١٩٨٠، وأعيد ما قلته عن واحد من تلك الحوارات:

«حديث الام عن الشهيد يبدو، في الظاهر متناقضاً. فهي تنكر أن الشهيد يموت، ولكنها تتحدث، في الوقت ذاته عن موته. هذا ما لاحظته عند العديد من أمهات الشهداء اللواتي التقيتهن. لم أستطع أن أنفذ تماماً إلى عمق هذا المعتقد الشعبي. كل ما استطعت فهمه أن للشهيد موتاً خاصاً، يتضمن حياة خاصة. وان استشهاد الابن بالنسبة للام له حزنه الخاص وفرحته الخاصة.».

Digitized by Birzeit University Library

تحكي أم العبد عن زيارتها لمقابر الشهداء، ومن ذلك يتضح ذلك المعتقد المبهم:

«يشهد الله أني فتت، الدنيا غروب، القبور بلاقيهم خضر، خضر.. وقفت أنا. قلت:

- انتو أبناء فلسطين، ليش بتخوفوا بنت فلسطين! طيب، طيب، ما أنا بنت أكبر واحد فيكم - واخت إلكبير فيكو.

يشهد الله القبور ساعتها تحركت. القبور بتتحرك لان شهداءنا بدافعوا معنا، بحاربوا عدو فلسطين. تفكرش بالشهيد انه ميت، لقيتهم بتحركوا وهمه بتحركوا لان روح الشهيد بتحارب. البنت هاي كانت معاي. قلت اليها:

- هيها (ها هي). القبور بتتحرك.

قال لي أبو صطيف (حارس المقبرة):

- انتي مطوله؟.

قلت:

- على مهلك. أنا بشوف القبور بتتحرك.

قال:

- لا حول ولا قوة الا بالله».

وتحكي أم العبد أنها رأت ابنها الشهيد يلتف حول قبره، وأنه سألها عن أبنائه فطمأنته عليهم. رأته كذلك في الحلم يحمل في يده قطعة من اللحم ويقول لها: انها هي التي تسببت في استشهاده. وككل أمهات الشهداء رأت جثة ابنها وهي مخرجة من الثلاجة التي كان محفوظاً بها، وكان جسده حاراً كالنار، وقد مال برأسه الى اليمين، ثم الى الشمال. هذا ما تكرره أمهات الشهداء كلهن.

«ان علينا أن نتذكر هنا، أن قصص ماجد قد كتبت قبل هذا الحديث بعشرين سنة تقريباً. ولكن الاثنين يقتربان من الحقيقة النفسية ذاتها في الشخصية الفلسطينية: ان فعل الاستشهاد هو مثال يطرحه الشهيد للاحتذاء.

لقد استطاع ماجد - وعلى حد علمي انها المرة الاولى في الادب الفلسطيني - أن يلمس عمق ذلك التكوين النفسي للشخصية الفلسطينية، ويكشف عن مكوناتها: ذاكرة الموت، الشهيد الحي الميت، الموت الذي يرسم طريق الحياة. وهو بهذا طرح واقعاً اجتماعياً وتكويناً نفسياً جاهزاً للعنف الثوري».

- ٤ -

شاهدت فيلمين لميشيل خليفة علقا بذاكرتي بتشبث غريب. الفيلمان هما «الذاكرة الخصبة» و «عرس الجليل». أتساءل: لماذا يلتصق هذان الفيلمان بالذاكرة بكل هذه القوة والعناد؟ لماذا يصبحان كذكريات الطفولة المؤلمة، يستعادان ولا تخف حدتهما؟ الاغلب أن ذلك يعود الى كونهما قد لمسا ذكريات طفولتي القروية المنسية، نعشا ذاكرة علاقة طفلية بالمحارم. بالطبع الاتقان والمستوى الفني العالي للفيلمين

Digitized by Birzeit University Library

لها دور في هذه الحياة الخاصة التي يعيشانها.

أتذكر في «الذاكرة الخصبة» مشهد الخالة، وهي تسير بجوار أرضها، التي تسعى الى استعادتها، وتقول أنها ذهبت الى الخوري بشأن هذه المسألة، نفحة مجتمع قديم، تذكر قديم، تهب علي، مجتمع المحارم حيث يصبح للرجل وللدين قدرات كلية. المرأة تشقى ليل نهار ولكن الرجل، خاصة ذاك المحاط بتابوديني، يقول الكلمة الصحيحة والحاسمة. الرجل يمتلك بعض سمات آله سامي قديم.

وأتذكر بنات الخالة، احداها، غاضبة تشكو من حياتها الزوجية. ترسخ تلك الصورة بعمق. ان الاطار المرجعي لهذا الغضب واجبات وقيم مفترضة. ان غضبها يمتزج بحياد رصين، عابس وكفؤ في التعامل مع الاطفال والملابس. انها جيل آخر يعرف أن له حقوقاً ويعيش مأساة المعرفة العاجزة عن تحقيق نفسها في الواقع. ان لغة هذا المشهد هي لغة عالم المحارم عندما يعاد انتاجه عبر وعي الطفل، الذي لا يفهمه تماماً ولكن حساً فجائعياً يتسرب يصبح حاضنة للمشهد.

ثم سحر خليفة وهي تتحدث. التعبير المدهش لليدين الكبيرتين، يدا أم تنبعث منهما لمسات مكهربة، لدنة تبعث السكينة في نفس طفل قلق، خائف. أشعر كأن حديثها امتداد، بدرجة أدنى، لحديثها. الحديث متردد يقتصر على حيوية اليدين. عندما تصمت اليدان. يصبح وجهها مستعداً للاجابة. وجه متحفز للقول: يصغي بعينين واسعتين ـ لونهما يغيب عني الآن ـ ولكن الكتفين ومنبت الرقبة يوحيان، يهددان، بالاقتراب من محدثها. حركة تحفز.

انها جيل آخر. لا يوحي بالمحارم. توحي بالضيفات القادمات من المدينة، تلك العذوبة المحصّنة بأسرار عالم آخر، تخفي قوة مجللة بنعومة مراوغة. ماذا كانت تقول؟.

لا أتذكر. شاهدت الفيلم منذ ثماني سنوات. حديث لا يستقر في العمق لانه لا يتصل بالمحارم، ولا بالارض. الاغلب أنه حديث سياسي يغلب الطابع العقلي. حديث مثقفين، له ايقاع حديث الرجال، يميزه فقط يدا أم، وعذوبة مدينية.

أذكر لقاء واحداً وقصيراً ووحيداً مع سحر في بيروت عام ١٩٨١، في بيت ماجد أبو شرار، قبل أن يستشهد كانت تتحدث عن قمع المرأة اذا مارست أدنى قدر من حريتها، بطريقتها المحايدة. قالت ان المرأة موضوعة دائماً في دائرة الاتهام. قلت:

ـ لماذا المرأة وحدها؟.

وعندما طلبت ايضاحاً قلت:

ـ كلنا ندفع ثمن الحرية التي نمارسها.

قالت شيئاً كهذا: هنالك فارق. القمع ضد المرأة موجه ضد وجودها بالذات.

ثم انتقل الحديث الى النقد المكتوب عن رواياتها. قالت ان النقد لم يضف اليها رؤية جديدة، أو معرفة. ولكنها عندما تجمع كل ما قيل تخرج برؤية ما في عبارتها الاخيرة وسّعت ما بين كفيها المفتوحتين، وأخذت تحركهما وكأنها تقوم بجمع تلك المقالات المتناثرة، وتضعها فوق المائدة الصغيرة التي أمامها، والتي كانت تستقر عليها فناجين القهوة التي انتهينا من شربها. ثم اقترب الكفان المفتوحان، واتجه باطنها نحو

Digitized by Birzeit University Library

الارض، كأنها تسوي تلك الاوراق التي جمعتها دون ترتيب.

نفس الملاحظة التي رأيتها في الفيلم: حركة يديها أعلى من صوتها، وأكثر حماسة.

«عرس الجليل» الفيلم الثاني لميشيل خليفة. وكما حدث مع الفيلم الاول «الذاكرة الخصبة» أصنع فيلمي الخاص عبر «عريس الجليل» اذ حرّض ذاكرتي. يتم ذلك من خلال عمليات اسقاط وتقمص. الجدة الكبيرة الحجم، مصمتة، صامتة، في وجهها غياب الجنون الهادىء، لا ترى فيما يحدث أمامها سوى اعادة انتاج لحياتها المديدة. أدركت بحدس انثوي عريق أن الشاب ـ نسيت اسمه ـ قد حط عينه على حفيدتها. هي أيضاً، وهي في مثل سن حفيدتها، حطّ أحدهم عينه عليها، ولكن الجد، زوجها الحالي، تزوجها الجد من أصل تركي، لا يزال يحمل احتقار التركي للفلاحين.

طفلات بأسنان مفقودة ـ هن في سن تغيير أسنان الحليب ـ يضحكن لانهن عاجزات عن الغوص في عمق ذاكرة الجدة، يشعرن ببذاءة الجدة. المرأة الكبيرة تستعيد ذكرى ومجموعة قيم انثوية. عندما يحط الرجل عينه على فتاة فهو يعبر عن رغبة عميقة، ملتاثة، ورغبة الرجل تتجاوزه، تهبط عليه من منظومة القدر، فهي لهذا رغبة مقدسة. تلمسها هذه الرغبة كروح شرير وكقدر الهي، عليها أن تخضع اليه.

الذاكرة، هنا، مجانية. الحفيدات يضحكن منها، والدين يقول إن هذه المرأة قد خرفت. تتواصل مع الحفيدة الملتاثة بالرغبة، ولكن لا أحد يفهم الاثنتين. تجلس مع زوجها في شبه خلوة. هنا يبدو العالم مفهوماً وراسخاً. لذا تقوم بطرد الاطفال بعيداً عنها.

الذاكرة تصبح حياة. من الخارج تبدو مجموعة طقوس فارغة. ولكنها تتكشف عن خصوبة تتجاوز منجزات التكنولوجيا. من هنا نلمس المضمون السياسي للفيلمين: الذاكرة قادرة على هزيمة المحتل المدجج بأكثر منجزات التكنولوجيا تقدماً. ان مشهد المهرة وهي تدخل حقل الالغام قد كشف عن رؤيتين للعالم: واحدة تتعامل مع الكائن العضوي كما تتعامل مع آلة، وأخرى تراه عضوية ودودة، يتم التعامل معها بالحب.

هذا المشهد يكشف مضمون علاقتين مع الارض: علاقة ابنها بها، وعلاقة الغازي بأرض غريبة.

و أعود الى ذاكرتي، الى حوار الانسان مع الفرس الاصيل:

ومهرتك يا فلان تومي بيدها
مكسور خاطرها وميّت سيدها

«بكائية أردنية»

الفرس مربوطة في الجهة الشرقية من الحوش، تقف رافعة الرأس كأنها تصغي لحديث يدور خلفها. ثم تحني رأسها كأن ما سمعته قد أسلمها الى حالة من الموافقة الحزينة. ترتفع قدمها اليمنى، تثنيها عند المفصل الاول القصير، وتدق الارض دقات متتالية، عصبية. وجه المرأة ـ امرأة غير محددة ـ يرتفع من الذاكرة، وجه مغسول، رائق، قطرات الماء لاصقة باطار الشعر المحيط بالوجه. الوجه فجائعي، فايماء الفرس بيدها نذير بالموت. تقول: «الفرس». لمن؟ لا أدري. ولكن صوتاً خشناً يقول أنه المطر، الفرس

Digitized by Birzeit University Library

تخبرنا بقدوم المطر.

تلك الاستعدادات العصبية: نقل الخراق الى الرواق المسقوف، ادخال الابسطة الى الدار، تنظيف المكان المحيط بالبئر، وجرف الحجارة والتراب من القناة المؤدية اليه. . . . الخ. تلك الاستعدادات هل حدثت فعلاً، أم أنني أصطنعها؟ لست متأكداً. مالنا متأكد منه أن الفرس الاصيل لا تكذب عندما تقول شيئاً فعلينا أن نأخذ ما نقوله بجدية.

قرأت مقالاً، لا أذكر في (أية مجلة أو كتاب) يقول أنه قبل سقوط المطر بساعات طويلة يحتشد الجو بشحنات كهربائية تثير الخيول الاصيلة وتوترها. المعلومة باهتة. تصبح الفرس فأر تجارب، وتلغي تراثاً عريقاً من التواصل - من الشعر والحكايات، من البطولة والحب والمغامرات. . . . الخ. - بينها وبين الانسان، تحيلها الى شيء، وتخرجها من ذلك الانخراط الجميل والودود في الحياة الاجتماعية للبشر.

ولكن هل تعرف الفرس صاحبها وترتبط به بتلك الصلة الشبيهة بالعشق الذي يجعلها تومىء اليه خلف قبره، داعية اياه للعودة؟.

الفارس البدوي الذي دخل من بوابة الحوش الكبيرة، راكباً فرسه، وهبط من فوقفها أمام باب الدار ثبت في مخيلتي. كان كثيفاً، جهماً. كان طويلاً عريضاً، له وجه ثقيل قاتم. أستعيد بريق الثوب الابيض تحت عباءته. يسير بخطوات الفارس، تلك التي شاهدت انتوني كوين يسير بها في فيلم «الرسالة»: قدمان متباعدتان تدبان ببطء، دون أن تقترب المسافة بينهما، وجسد متصلب كأن أعضاءه كلها مصابة بالروماتيزم. يستعيد سيطرته على جسده عندما يكون فوق فرسه.

سحرتني الفرس. كانت ذات كبرياء. قلت:

- عموه! اسقيها ميه؟.

انحنى من تعامده المتجبر ليراني. تأملني كما يتأمل عالم يضع نظارة طبية على عينيه حشرة ملصقة بدبوس على لوحة، وقال:

- ايه، اسقيها.

ثم رفع سبابته محذراً وقال:

- احرص تركبها.

- طيب.

أمسكت بالرسن، وأخرجتها من الحوش. قدتها الى جوار دكة حجرية ملتصقة بدكاننا، صعدت الى الدكة، ووضعت قدمي في الركاب واستقريت فوقها. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. سارت الفرس خطوات قليلة، ثم لقيت نفسي على الارض. لم أشعر بأي ألم، فلقد أوقعتني الفرس بحنو، ودون أن تسبب لي أذى. كان مجرد درس تلقنني اياه: ان راكبها فارس وليس طفلاً يغافل صاحبها ويركبها.

أم العريس تتخلى عن دور المرأة التقليدي، لتكتسب مهابة عبر الملابس الفلسطينية والطقوس. ملابس مصاغة بتراث فني عريق، زخرفها ممتد الجذور الى زخارف عصر هرم سقارة، ملابس مسحورة. عبر الملابس والطقوس تعيد صياغة العالم الذي حولها بلمسات أصابعها الطويلة، اللدنة. لا تفقد تلك

Digitized by Birzeit University Library

الصلة بين حركة اليدين والصوت، كما حدث مع سحر. يكفي أن تشير حتى يستجيب العالم، المرهون بايماءة من اصبعها بحركة مقتصدة للغاية من تلك الاصابع يتراجع المجند الصهيوني من باب الحجرة التي تستلقي فيها المجندة الصهيونية التي غابت عن وعيها بفعل السكر.

الام تعيد المجندة الى الوعي بالثوب الفلسطيني وبلمسات خفيفة من الاصابع على جسدها.

وهي كالجدة تعرف أن العلاقة بين النساء والرجال منغمسة في سياق التاريخ. ان اقتضاض البكارة ليس متعة يباشرها مكبوت، بل تغوص في عمق ذلك التعاقد الذي يقيم علاقة ثابتة بين الرجل والمرأة. انها كرامة الرجل وشرف البنت. من يغيب عنه هذا العمق في الموقف، سيبدو له قلق الام، لان الشرشف الدامي لم يخرج من حجرة العُروسين كوميدياً.

أما ما كان يتم خلال الحجرة بين العروسين فقد بدا لي مفتقداً للروح التي كانت تسود المشاهد الاخرى، كانت الرموز شديدة الوضوح، الى حد أنه لم يوجد غيرها. كانت كل عبارة تقال، وكل ايماءة تحمل دلالتها وتكشفها على الفور، حتى تحوّل المشهد الى صياغة ذهنية. لقد توقفت، في هذا المشهد، الذاكرة عن العمل، وأصبحنا أمام حاضر مبتور الجذور، نقاش عن الدلالة حيث الفعل لا يكتفي بذاته، بل يكشف دلالته المباشرة ليكتمل.

ولكن الذاكرة، هنا، في مواجهة ماذا؟.

ان تكشف الذاكرة يتم أمام شاهد اسرائيلي. الاسرائيلي جاء ليراقب أولاً، ليتأكد أن العرس لن يتحول الى عمل جماعي ضد سلطة الاحتلال. وجاء، ثانياً، ليراقب طقوس تخلف. جاء محتمياً بتكنولوجيا متقدمة وأدوات حرب فعالة، ولكن الذاكرة الفلسطينية احتوته، حاصرته، ثم أخرجته مطروداً من القرية. ان مشهد طرد الاسرائيليين من القرية بدا ملتبساً. القوات العسكرية الاسرائيلية تبتعد عن الاضاءة القوية المسلطة على القرويين، وتدخل في عتمة شفافة وكأنهم يتجهون الى الفضاء الخارجي.

- ٥ -

«أطفال الندى» رواية غير منشورة لمحمد الاسعد يسميها بسبب غير مفهوم نصاً، أي لا شيء على التحديد. رواية ذات فرادة في لغتنا العربية، لان موضوعها الذاكرة الفلسطينية فقط، تكشف محتوياتها وتقنياتها باعتبارها ما يميز الفلسطيني ويحدد هويته. وهي تفعل ذلك على نحو مميز.

بعد أن تحدد الرواية موقع القرية التي عاش فيها الراوي طفولته «أم الزينات» والاماكن والقرى المحيطة بها، ومختلف الطرق المؤدية اليها والخارجة منها.. بعد هذا يقول أن المكان يوجد لان له ذاكرة مديدة محتشدة:

«كل هذه الطرق والاماكن يرتبط بالاحداث. فليس هناك مكان لا يرتبط بالذاكرة بحدث ما.. ولو أتيح لنا أن نرصد تفاصيل الاحداث والاماكن عبر زمن يمتد الى أبعد من جيل أو جيلين.. الى مئات الاجيال لكانت من كل هذا ملحمة تشهد بأن التاريخ الانساني موجز الى حد كبير في كتب المعلومات

Digitized by Birzeit University Library

والموسوعات».

وطبقاً لقرار هيئة الامم الخاص بتقسيم فلسطين أضيفت هذه القرية الى اسرائيل، وقد «جاء القرار ليطمس كل تفصيل وكل ملمح انساني خاص بهذه البقعة الصغيرة». هنا تأتي الذاكرة لتعيد للمكان الذي تم مسح تاريخه، كما يتم ازالة عقبة من الطريق، حياته المهددة بالاستلاب:

«جاء القرار ليطمس التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل. أي حتى تلك التي التقطتها. أنا الصغير، كما يلتقط الانسان حلماً، فلا يجد في يده الا صوراً.. ولا حركة. صورة من هنا، وصورة من هناك. ولكنني أستيقظ بعد كل هذه السنوات وتتحرك فيّ قرية كاملة بكل طرقها»..

هنا يمسك باحدى أهم تقنيات ذاكرة الصور. صور الذاكرة ثابتة، لا تتحرك، كل شيء يستعاد كمشهد سينمائي توقفت فيه آلة العرض عن العمل، أو كصورة فوتوغرافية. انها ذاكرة أخرى، لا تملك دقة الذاكرة الاولى، هي التي تحرك الصور وتحكي ما حدث.

الصور تثبت أيضاً في الزمان:

«وأكذب تخيلاتي عن الذين سكنوا فجأة وكأنما قيدهم سحر ساحر، في مدينة مسحورة، فتحول بعضهم الى تماثيل والبعض الى أسماك ملونة»..

هؤلاء هم سكان الغابة الحجرية، يبدون وكأنهم قد ثبتوا عند هذه الصورة الى الابد، دون أن يحدث جديد في حياتهم، أو في هيئاتهم، أو مصائرهم:

لا أحد ينمو حتى الآن من سكان الغابة الحجرية، أو أنني لم أجد الوقت الكافي لاجعلهم ينطلقون باتجاه المستقبل، أو الجهات الاربع، باتجاه مصائر لم تتحقق، لقد توقفوا عند اللحظة التي كانت الاشد تأثيراً»..

أعرف تلك الصور الثابتة في الذاكرة، يبدو لي ثباتها منفصلاً عني، متجاهلاً حضوري. وجوه شاخصة العيون، تستقل عن سياق الزمان والمكان، أو وجوه مقنعة العيون، لها صمت وسكون التماثيل. اقترب منها فلا تتعرف علي. كيف أحركها، أعيدها الى دينامية الحياة البشرية حين أكتب أو أتحدث؟ كيف أزيل بعدها المرعب الذي يجعلني أشعر أنني كنت مرفوضاً دائماً؟.

ما أستعيده هو ما يستعيده أهل قريتي من ذكرى الاموات، الاموات، حتى الاحياء الاحياء يزاولون موتهم بصمت الغابة الحجرية، لذا يظهرون للاحياء محاطين بهالة من العنف الصامت المنذر. انهم يقفون معلقين بين العدم والتجسد مخلدين صور لحظتهم الاخيرة، أو موتهم الاول:

هيل البلا ما أكثر عدمكو
حجاج مكه خير منكو
شهرين والثالث لفوا

«بكائية أردنية»

Digitized by Birzeit University Library

وكصورة زيتية مفعمة بالحياة، يبدون مهددين بحركة عنف لا تأتي ولا تنتهي. محكوم عليهم بالحركة الابدية عبر صمتهم وسكون حركتهم.

ولكننا نحرّك هذه الصور. كيف؟.

نفعل ذلك عبر المخيّلة.

أستعيد صورة تلك المرأة. كانت قصيرة نحيلة، وكانت تعتقد أنها أكثر النساء عقلاً وحكمة. كانت شديدة التفاهة، وجادة في تفاهتها الى الحد الاقصى. أستعيد صورتها وجسدها مائل الى الامام، ووجهها أكثر ميلاً، ساقها اليمنى ترتفع في الهواء لتكمل خطوتها، ولكنها - في ذاكرتي - لا تصل أبداً الى الارض.

كيف أحرّكها؟.

أستعيد صوتها المتعجل، المختنق قليلاً، أحاول أن أعيد بناء كلماتها حتى تصبح جملاً. ثم أتذكر حكاية روتها امرأة أخرى. قالت: ان سبب موت ابنها البكر، انها في ليلة ما مارست الجنس مع زوجها طويلاً جداً، فانزاح الغطاء عن ابنها وأصيب بالبرد، ثم أصيب بالاسهال الذي لم يشف منه أبداً.

أستعيد مفهوماً. عندما تستمتع الام، فانها تحنون الابناء، وأتذكر أنني كنت أقف بجوار هذه المرأة، وهي تحمل الفرشات والالحفة وتضعها فوق مخازن القمح. قلت لنفسي: ها هي امرأة ضاجعت رجلاً، لم أكن أعرف بعد أن ذلك يتم بين الزوجين، ثم ركضت مسرعاً، وخرجت من الدار خوفاً من أن تقرأ أفكاري.

ثم أتذكرها، وهي تتحدث الى أخيها الذي قضى معظم حياته في مدن فلسطين وعمان. كان ينام في دارنا، وجاءت اليه وهو مايزال في فراشه يشرب قهوة الصباح. أخذت تحكي بصوت فجائعي مختنق، وكنت أتوقع أن تموت مختنقة، عندما كانت تتحدث كنت أشعر باختناق ثم قالت لها أمي شيئاً كهذا: أنك تملأينه بالالم دون فائدة. حياتك هي حياتك ولن يستطيع أحد أن يغير منها شيئاً. ولكن الاخ أخرج جنيهاً وأعطاه لاخته، فقبلته وصمتت. قالت أمي:

- مش ناوي على الجواز؟.

قال شيئاً كهذا: انه عزم على الزواج بالفعل وخطب فتاة، وكاد كل شيء أن يتم لولا أن أهلها اشترطوا عليه أن يتكلل في كنيسة الكاثوليك. قال: أغير ديني منشان مرة شخاخه؟.

كنا ارثوذكس.

هذه كانت أرضية ملائمة لان تبوح الاخت بأعمق أفكارها حول مسألة تغيير الدين. كان لها جولات مشهودة ضد الكاثوليك، ودفاعاً عن الارثوذكس.

ها هي عناصر الذاكرة تتجمع وتنتظر دفعة واحدة ليعاد بناء الصورة كجزء من حياة دينامية، متصلة ومتغيرة، وكذلك ليعاد بناء الموقف والانسان. انها عملية صهر وولادة جديدة غير مفهومة، نطلق عليها أسماء اعتباطية. قد ننسبها الى دينامية اللاوعي، الذي لا نعرف عنه شيئاً، أو إلى ما يمكن أن نسميه الموهبة الروائية لدى الانسان، والتي تتمايز لدى الروائي، ولكن ذلك كله غير واضح وغير مفهوم.

تقنية أخرى من تقنيات الذاكرة في هذه الرواية عندما نسمع أخباراً كثيرة ومثيرة عن انسان ما، فاننا

Digitized by Birzeit University Library

نتصور أنه سيطلق تاريخه وتفرده كله بمجرد أن نراه. لهذا يحدث أننا عندما نرى انساناً سمعنا عنه كثيراً أو أعجبنا به كثيراً فاننا نصاب بخيبة الامل، أو بالنفور. هنالك سلسلة تداعيات في جهازنا العصبي، تجعلنا نتوقع الخطوة التالية، وعندما لاتجيء نصاب بالضيق، للمرأة التي تبحث عن قاتل حبيبها أو أخيها سلسلة تداعيات، قد تكون بدايتها اسطورة ايزيس وجليلة. ولكننا، هنا، نواجه بصدمة: الباحثة عن الثار ليست رجلاً ولا انثى.

«كانت زائرة ذات أهمية غير عادية قد جاءت من بعيد.. طويلة بحجم يكاد يكون هائلاً ترتدي ملابس ثقيلة.. وتشد على يدي بقوة.. أشعر معها وكأن حجراً أطبق على يدي. كانت مثل خيمة تسير.. بعينين قويتين.. وحواجب كثيفة.

«وتسألني الزائرة كيف فكرك ببلاطات (الشقاق)»... فأقول: راحت على الذين راحت عليهم».

«ربما كان امتحاناً.. ذلك أنها أطلقت اشارة.. وتلقفتها فوراً.. ولكن جوابي لم يكن صادقاً، ولا نابعاً مما أريده أو أعتقده.

«وعادت تقول «يعني... راحت».

واصر على القول «نعم».

«وينقطع الحديث.. وتتحول الزائرة عني.. ولكن بعد أن انتصبت في ذاكرتي بهذا الاقتضاب الموجز الذي اختصرت فيه سؤالها عما فعلته. وعما أفعله.. وعما أفكر فيه.. وما هو أنا تحديداً. وأشعر أني لمحت في عينيها نظرة ساخرة وهي تستدير عني.

«قالت أمي عنها، هي ليست رجلاً ولا أنثى.. انها كما يسمونها «رجالية كانت تخرج مع الحراثين».. وتذكرت الحجر الذي أطبق على يدي.. وأسألها.. ماذا تفعل هنا؟ فتقول أنها تبحث عن شخص قتل أخاها منذ أيام البلاد، وكلما سمعت أنه في بلد سافرت بحثاً عنه!. ويضاف إلى الدهشة شيء من الرعب الهادىء. وأسأل أمي وإذا وجدته ماذا ستفعل؟.

«لاتتعب أمي.. وهي تعيد رواية القتل... كما سمعتها.. ولا تجيب على سؤالي.

«هاهو حزن هائل تختزنه هذه المرأة ـ الرجل.. لم يعد حزناً بل رغبة صامتة في العثور على قاتل أخيها.. وهي تلتف بعباءة سوداء وتشد رأسها بما يشبه العمامة التي لايظهر تحتها شعرها الاشيب. هي في الخمسينات من العمر، وربما تجاوزتها قليلاً.. أما الآن.. فأين تكون؟ وماذا فعلت؟ وهل وجدت ماتبحث عنه؟ انها تضيع في تضاريس أيامي مثل بذرة صلبة لاتنمو. ويطالبني الخيال أن أطلقها من التربة وأنميها... لتستوي شجرة.. أو شيئاً مفهوماً... ولكنني أفضل معها، شأني مع الكثيرين أن أبقيها بذرة «غامضة وصلبة».

ماهي الرافعة التي تقيم هذه الرواية وتوحد سياقها؟.

انها رافعة ظاهراتية: يوجد المكان والتاريخ عندما نكون شهوداً عليهما. اذا ابتعد الشاهد، أو أدار ظهره، اختفى المكان والتاريخ. الذاكرة هي التي تحافظ على المكان والتاريخ، وبالتالي على الوطن. افتقاد الذاكرة يعني افتقاد الهوية، وبالتالي الانتماء. اذا عاشت أماكننا واحداثنا، هلوساتنا وأحلامنا، معاركنا

Digitized by Birzeit University Library

وأفراحنا وبانتمائنا الى وطننا.

هنالك غزاة قد جاءوا غير منتسبين إلى الارض، لم يعيشوا تاريخ هذه الارض الا كجزء من التاريخ العام، المكتوب عبر عموميات كتب المؤرخين: هذه الارض: ليست جزءاً من ذاكرة الغزاة، فلن يكونوا أصحابها.

ولكن الذاكرة في خطر:

«سنحول العالم الى قصة اذن لاحتمال ألم لا يخفف من حدته الا الشعور بأنه عابر. . ولكن مثل هذا الامر بحاجة إلى ذهول عن ملمس الحجارة الغريبة. . والمياه التي تجمعت حولها خيم القرويين، ذهول عن ملمس العالم الذي يطل من بيوت أصحاب الارض الذين لم تبتلعهم الهوة التي أخذت معها قرانا وحواكيرنا. . . ولن يدرك هؤلاء الذين أطلوا خلال وجوهنا على اتساع الهوة المظلمة، انها من النوع الذي يتمدد ويتسع، ويتآكل وتنهار الحواف التي تشبثوا بها». .

الغربة هي الخطر على الذاكرة، وما يتبع الغربة من اندماج، ومن مشاريع للتوطين. ها هو الراوي يشعر بالنذر، فقد أخذت الاماكن والازمنة تختلط في ذهنه، وبهذا تفقد ذاكرة الصور وثوقيتها. لن يستطيع الفلسطيني أن يحتفظ بذاكرته الا اذا تحولت «الى قصة». الفن وحده هو القادر على المحافظة على الارض والتراث. اما كتب التاريخ فهي تنسى التفاصيل وتفاصيل التفاصيل ولهذا فهي عاجزة أن تكون غذاء للذاكرة.

تتطابق هذه الرؤية مع وظيفة الفن ـ بما فيه الادب ـ كما يحددها علم الجمال: الفن. والادب خاصة، بعيد لنا لحظات حياتنا، يستنقذها من العدم ويثبتها أن تجاربنا وتاريخنا معرضان للضياع، ولا نستعيدها الا عندما نضعها في سياق الشكل، سياق تغريب التجربة، واعادة تمثلها عبر التقمص.

نقول عندما نقرأ الادب المتميز، نقول بدهشة: هذا صحيح ونعني بذلك أن ما تم من العمل الادبي قد حدث لنا، ولكننا نسيناه. الآن نفهمه ونستنقذه من النسيان.

Digitized by Birzeit University Library

حوار أم ستار ؟!

عبد الرحمن غنيم*

عقب إقدام الولايات المتحدة على استخدام حق النقض «الفيتو»، ضد مشروع قرار وافقت عليه بقية الدول الاعضاء في مجلس الامن، بما فيها الحليفان الرئيسيان لواشنطن البريطاني والفرنسي، يدين اجراءات «اسرائيل» القمعية ضد عرب الاراضي العربية المحتلة، خرج ياسر عرفات أثناء زيارته للقاهرة. يؤكد التقدم في الموقف الاميركي، من خلال الحوارات القائمة بين ممثلي القيادة الرسمية لمنظمة التحرير وبين الادارة الاميركية.

هذا الموقف جاء ليصادق على المبررات التي استخدمها مندوب واشنطن في مجلس الامن، وهو يستخدم «الفيتو». ان المندوب الاميركي لا يريد اتخاذ مجلس الامن لقرار من شأنه أن يعرقل التقدم الحاصل في خطوات السلام.

أما الرد الاميركي ـ الفلسطيني الاصل على منطق واشنطن، وقيادة م.ت.ف. من هذه المسألة، فجاء على لسان البروفسور ادوار سعيد الاميركي الفلسطيني الاصل، وأحد المستشارين البارزين الذين أشاروا على عرفات أصلاً.. بالسعي وراء الحوار مع واشنطن، ورشح مرات عديدة ليكون المفاوض الفلسطيني المقبول من الطرفين الامريكي والاسرائيلي. ففي حديث ادلى به ادوار سعيد لمجلة «المجلة السعودية»، اتهم واشنطن بأنها تقدم الغطاء لجرائم «اسرائيل»، المتصاعدة ضد شعب فلسطين، وقال ان إطالة الحوار

---

* كاتب من فلسطين، له عدد من المؤلفات والكتابات.

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطيني - الاميركي، تساعد على تمكين «اسرائيل» من مواصلة حملتها القمعية، دون إثارة ردود فعل على جرائمها في العالم الغربي.

وما قاله ادوار سعيد حقيقي وأكيد.

ان التغطية على المؤامرة القائمة ضد انتفاضة شعبنا، انما تقف على ثلاثة قوائم:

أولها: الحوار بين م.ت.ف. وأميركا.

وثانيها: مشروع شامير.

وثالثها: التبني الاميركي لمشروع شامير.

فالذين يمارسون القمع ضد شعبنا، يقولون للعالم ها إن هناك مشروع سلام موضع البحث، وهو مقبول من واشنطن كأساس، وليس مرفوضاً من الفلسطينيين بشكل نهائي، والحوار حوله يدور عبر الحوار الفلسطيني - الاميركي، وما على الاطراف الاخرى في العالم سوى الصبر والانتظار، ولا يجوز لهذه الاطراف أن تفكر في ادانة «اسرائيل»، أو فرض عقوبات عليها طالما أن جهود السلام قائمة. وحين يأتي عرفات ليقول ان تقدماً قد أحرز، فانه يعطي للادعاءات الاميركية مصداقية من شأنها أن تقلل اكتراث الاخرين بحقيقة ما يجري عملياً في الارض المحتلة، مما هو نقيض كلياً لهذه الادعاءات. كما أن ادعاء التقدم في الحوار، يجيء ليشكل غطاء على الموقف السلبي المطلق الذي حجب عن «اسرائيل» ومسانديها امكانات الانتقام الفلسطيني، فباتوا يمارسون القمع دون خوف أو وجل، مطمئنين الى كون العامل الفلسطيني خارج الارض المحتلة، لن يبادر إلى الانتقام، ولن يروّع سلامهم الخاص، وأمنهم الخاص بضربات غير محسوبة، وذات قدرة على الايذاء..

ان الذي يراهن على نجاح الحوار مصمم على تقديم كل الاثباتات الدالة على حسن نواياه.. ومنها تخليه عن المقاومة التي باتوا يطلقون عليها اسم «الارهاب»، بينما ما تفعله «اسرائيل» في الضفة والقطاع هو مجرد قمع للشغب، يتوقف بتوقف الشغب، أي بتوقف الانتفاضة. فتكون رأس الانتفاضة هي التي تجري المساومة عليها عملياً.

ان سياسة قيادة م.ت.ف. المتجاوبة مع منهج السياسة الاميركية، والحريصة على استمرار الحوار مع واشنطن، ووقف عمليات المقاومة ضد «اسرائيل» ومسانديها، تشكل تفريطاً سياسياً وعسكرياً واعلامياً في وقت واحد. فالحوار على قاعدة قبول واشنطن وتبنيها لمشروع شامير هو حوار مرفوض، لان أساس أي حوار يجب أن يكون قرارات الامم المتحدة، وتبني واشنطن لمشروع شامير يعني أنها اتخذت موقف الانحياز لاسرائيل منذ البدء. وبافتراض أن لدى قيادة م.ت.ف. مبرراتها لمواصلة الحوار رغم ذلك، فقد كان عليها بعد استخدام واشنطن لحق النقض (الفيتو) وللمرة الثانية خلال شهر واحد ضد مشروع قرار يدين جرائم «اسرائيل» أن تعلن من جانبها وقف الحوار مع واشنطن، نظراً لان الطرف المحاور لا يقتصر على تبني وجهة نظر العدو السياسية فقط، ولكنه يؤيد ويساند جرائمه ضد شعب فلسطين، ويعرقل الاجماع الدولي على ادانة «اسرائيل»، مما يشجع «اسرائيل» على مواصلة ارتكاب هذه الجرائم. ان على واشنطن أن تثبت حسن نيتها تجاه شعب فلسطين لتكون طرفاً مؤهلاً للحوار.

Digitized by Birzeit University Library

ان موقفاً كهذا كان سيضع الادارة الامريكية موضع الحرج أمام شعب أميركا قبل كل شيء، فان ترفض منظمة التحرير - رغم حاجتها الماسة لتعديل موقف واشنطن من الصراع - محاورة واشنطن، معناه أن الادارة الامريكية قد تجاوزت على الحق أكثر مما يحتمل، وبالنسبة للادارة الامريكية فان كبر المستكبرين سيجعلها تشعر بحجم اللطمة الفلسطينية لسياستها، بدل أن تتظاهر بمظهر من يحسن التصرف سعياً وراء السلام، بينما هي تنفذ على الصعيد العملي، وبالتواطؤ مع اسرائيل خططاً لذبح الانتفاضة.

ولاشك أن الدكتور ادوار سعيد وأمثاله من الاميركيين ذوي الاصل العربي أو العربي الفلسطيني كانوا يتمنون أن تعلن م.ت.ف. وقف الحوار مع واشنطن، لان ذلك كان سيوقف اللوبي الصهيوني الذي كان منشغلاً في جمع توقيعات أكبر عدد من أعضاء مجلس النواب الاميركي مطالباً بتبني الادارة الامريكية تبنياً مطلقاً لمشروع شامير وفرضه فرضاً على العرب!. فالادارة التي تفقد صفتها كطرف محاور لـ م.ت.ف. تصير عاجزة عن تمثيل مسرحية سلامية أمام العرب والاخرين، ويتوجب عليها عندئذ أن تعلن أنها تطلق يد «اسرائيل» أو أنها لا تقر «اسرائيل» على ما تفعله، أو تضطر لاعادة النظر في سياستها تجاه المشكلة.

ان الفيتو الاميركي لا يعود عندئذ مبرّراً بالحوار الفلسطيني - الاميركي، بل يصير عملاً عدوانياً أميركياً الى جانب «اسرائيل» ضد العرب.

وحين يكون الامر واضحاً على هذا النحو، فان أحداً لا يلوم الفلسطينيين اذا هم واجهو جرائم «اسرائيل» بأعمال انتقامية ضدها وضد مساندها. ويكون على أميركا أن تعيد النظر في سياستها اذا أرادت أن تتفادى هذا التطور.

باختصار شديد، فانه في الوقت الذي يضع فيه شعبنا داخل الارض المحتلة كل فعاليته الثورية في سياق الانتفاضة العظيمة، فانه لمن العار أن تجمد فعاليات شعبنا خارج الارض المحتلة بانتظار نتائج حوار يرى فيه البعض مكسباً في حد ذاته، وما هو بالمكسب بل الستارة التي ينفذ من ورائها الجزار جرائمه ضد شعبنا.

واذا كانت هذه الستارة ممسوكة من طرفين، فان أحد هذين الطرفين يفترض أنه فلسطيني حقاً، وعليه أن يرخي الجانب الذي يمسكه من الستارة لتكشف جرائم «اسرائيل» وأميركا البشعة أمام العالم.

Digitized by Birzeit University Library

مدخل الى نقض فكر التسوية

د. أحمد شرف الجباعي*

عندما تشرف مرحلة تاريخية على لفظ أنفاسها الأخيرة، ويبدأ جنينها، ونقيضها الجدلي بالتكون والتشكل، ملمحاً إلى آفاق وإرهاصات المرحلة المقبلة، ومقدماً احتمالات وامكانات يتوقف تحقيقها، على التناغم بين ميول الواقع، وبين الفعالية الثورية، تختلط الأوراق ويصبح نقاش المسلّمات واجباً، في زمن عربي صار التراجع الفكري والسياسي فيه يطال المسلّمات والمبادىء، ويطوّح ببعض الثوابت التي تربّى عليها الفكر القومي والتقدمي الحديث.

والصراع العربي الاسرائيلي، بوصفه التجسيد الحي لحركة الصراع التاريخي بين مشروع امتنا للتقدم. والنهضة (مشروع الثورة القومية الديمقراطية المتحولة/ والصائرة الى ثورة اشتراكية بقيادة طلائعها القومية الديمقراطية والاشتراكية ممثلة لأوسع الطبقات الشعبية صاحبة المصلحة الرئيسية في هذه الثورة، وبين الحلف الامبريالي - الصهيوني وركائزه وأدواته، وآليّات فعله في المجتمع العربي، هذا الصراع في اطاره

---

* كاتب من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

الفكري والسياسي طالته مسيرة التراجع والانهيار فأصيب بتشوهات جلّى، نظراً للهزائم المتتالية عسكرياً واقتصادياً وسياسياً.

فمنذ هزيمة ١٩٦٧، ورغم المحاولات الجدّية التي بذلتها مصر الناصرية لدرء آثار الهزيمة(١) واعادة بناء ردّ استراتيجي عربي مناسب تمثل في تطوير البنية الداخلية للمجتمع المصري وللنظام الناصري على حدّ سواء، بما يتلاءم مع مستلزمات استمرار الصراع، ورفض الهزيمة، وفق شعارات «تصفية آثار العدوان» واللاءات الثلاث «لا صلح، لا تفاوض، لا اعتراف»

وكان من الممكن لهذه الاجراءات أن تثمر، لولا غياب عبد الناصر الذي افسح المجال أمام الثورة المضادة التي عاشت في ثنايا القصور والضعف في التجربة الناصرية، لتنقض أولاً بأول على رموز إنجازات الناصرية، وتقود البلاد بحكم الشرائح الطبقية الطفيلية التي حسمت ميزان القوى الطبقي سياسيا لصالحها، في طريق «الانفتاح الاقتصادي» على السوق الامبريالية بكل مايستتبعه ذلك من نسق متكامل من الاجراءات والتوجهات. فمن تصفية الدور القيادي للقطاع العام في الاقتصاد، وتشجيع القطاع الخاص الطفيلي وفتح الأبواب أمام الاقتصاد الرأسمالي ومؤسساته الاقتصادية والمالية، لتقود الاقتصاد المصري في طريقه الانهيار التدريجي، الذي تمثل في انخفاض مذهل لدخل الغالبية الشعبية، والصعود الخرافي في دخول شرائح طبقية نهابة وسمساره أطلق عليها لقب «القطط السمان»(٢) الى فك التحالف الاستراتيجي مع الاتحاد السوفييتي والانتقال الى دائرة الهيمنة الامبريالية كلياً، الى السعي لتصفية الصراع العربي ـ الاسرائيلي الذي تمخض من اتفاقيات «كامب ديفيد» سيئة الصيت.

لقد فتحت اتفاقيات «كامب ديفيد» باب الانهيار العربي على مصراعيه، فتعمق الاستنقاع الاقليمي العربي، واشتعلت الحروب المدارة امبريالياً، حروب التدمير الذاتي (الحرب العراقية الايرانية، الحرب اللبنية ـ التشادية، حرب الصحراء المغربية، النزاعات العربية ـ العربية، الحرب اللبنانية الطائفية)، وانهارت آخر الآمال التي أطلقها جيل الخمسينات والستينات بالتنمية والتحرر والتقدم والوحدة.

ومع انسحاب مصر من دائرة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، بوصفها مركز الثقل الستراتيجي العربي، (والقطر ـ المركز)(٣) أو (الاقليم ـ القاعدة) في سيرورة النهضة والوحدة، انعقد لواء القيادة للبداوة النفطية، التي بدأت تلعب دوراً متزايد الأهمية على الصعد الاقتصادية والثقافية والسياسية، عقب فورة النفط، لاسيما منذ منتصف السبعينات. وغرق المجتمع العربي النفطي / وغير النفطي بدرجة أقل/ في بحر الاستهلاك والافساد الترفي، وتطورت آلة الدولة القطرية بفضل عوائد النفط، لتصبح الغول الذي يجثم على المجتمع ويفترس حرّياته، ويقمع دون هوادة القوى الحية فيه، وكانت النتيجة تعمق الهيمنة الامبريالية. ومزيداً من نهب الثروة النفطية العربية والمالية، ومزيداً من التشتت والعجز، فحصل الغزو الصهيوني للبنان ١٩٨٢ الذي عبّر بشكل مأساوي عن العجز الرسمي العربي، وعن غياب دور الجماهير، التحرير الفلسطينية، واخراجها من لبنان لتبدأ رحلة منفى جديدة ودرب آلام آخر.

ومنذ أوائل الثمانينات بات واضحاً، ان «الازدهار» النفطي لم يكن سوى السراب الذي يغطي على واقع

Digitized by Birzeit University Library

الخراب الاقتصادي والسياسي والتبعية، بعد انهيار اسعار النفط، وبات واضحاً اكثر مأزق الدولة القطرية سياسياً واقتصادياً، فانفجرت وبشكل متتالٍ انفجارات العنف العفوية الشعبية، احتجاجاً على تدهور الاوضاع المعاشية للطبقات الكادحة. وقد شملت معظم الاقطار العربية، وكانت فاتحتها احداث يناير في مصر ١٩٧٧، وخاتمتها الأخيرة وليست النهائية احداث الأردن نيسان ١٩٨٩. ان انسداد آفاق الدولة القطرية من جهة، وتصاعد الغضب الشعبي العفوي من جهة أخرى، يشير الى وجود ازمة ثورية محتجزة ومأزومة بسبب ضعف العامل الذاتي الكفيل باطلاقها.

في هذا السياق التراجعي كان من الطبيعي ان تصاب منظمة التحرير الفلسطينية بالتراجعات التي اصيبت بها حركة الثورة العربية»[1] بمختلف فصائلها، وبعض هذه التراجعات السياسية والفكرية باتت تهدد ليس الميثاق الوطني وحسب، بل تهدد ثوابت وأسس الصراع العربي - الاسرائيلي.

واذا كنا لانشكك بالنوايا «فجهنم مبلطة بأصحاب النيات الحسنة»، بل نؤكد على ماهو أوسع وأعمّ من الخطأ السياسي، أو تراشق التهم بالانحراف والخيانة، هذا الاعم والاشمل هو لا عقلانية السياسة في تعاملها مع معطيات الواقع، وطريقة فهمها لهذه المعطيات، وطريقة تحديد اهدافها ووسائلها، فتصاب على الدوام بالتفارق بين الاهداف والواقع، بين النوايا والنتائج، ويصبح حساب الحقل مخالفاً لحساب البيدر.

هذه اللا عقلانية تشكل نهجاً، ليس لأشخاص بعض قادة منظمة التحرير، أو لقيادتها، بل هو متجذر كتيار فكري وسياسي. في عدد من الحركات التقدمية العربية، ويلقي تأييداً من قطاعات شعبية لابأس بها، أوصلتها ممارسات النظم وعجزها، وحالة الانهيار المتلاحق، الى حالة توهم التسوية كمخرج وكطريق، لذا يصبح التراشق بتهم الانحراف او الخيانة، صراعاً في غير سياقه، ان لم يخدم في شق صفوف منظمة التحرير، في وقت هي بأحوج ماتكون فيه للوحدة، درءاً لتبعيتها واحتوائها من قبل المحاور الاقليمية، وهي بأحوج ماتكون للاستقلالية عن هذه المحاور، والارتباط، بحركة الجماهير الشعبية وقواها المتقدمة.

ان التصدي لنهج التسوية في الظرف العربي الراهن، يقتضي تفنيد دعاويه في معركة ايديولوجية تؤسس للمعركة السياسية التي تصوّب الرؤى والبرامج وتعيد اصلاح الخلل او الانحراف.

من المناسب في البداية ان نحدد مفهوم التسوية ونهج التسوية. ليست التسوية، أية تسوية، مرفوضة مسبقاً، لكن هناك تسوية وتسوية هناك تسوية يكون الاقدام عليها خيانة، تسوية يكون الابتعاد عن تحقيقها انتحاراً وخطأً سياسياً يصل حد الخيانة.

وحركات الثورات على مرّ التاريخ مارست تسويات مختلفة، وبعضها مذلّ، لكن الذي يميز التسوية الصحيحة من تلك الخيانية، هو التحليل الدقيق للشروط والملابسات التي تتم خلالها، ومدى تقاطعها مع الاهداف الستراتيجية أو تناقضها معها.

ان دعاة التسوية علا صياحهم الذين الآن من مواقع معظم النظم الرسمية ومن بعض مواقع اليسار للأسف، يمشون، وبغض النظر عن نوايا البعض في التسوية الخيانية، وتفنيد هذا الخط هو المدخل

Digitized by Birzeit University Library

الحقيقي للتداخل معه بفعالية، وهذا يحتاج الى عمل كبير ودؤوب. لكن حسبنا هنا ان نتداخل مع بعض أهم الأفكار والمنطلقات التي يستند عليها هذا النهج.

● العامل الدولي، والعامل المحلي:

ان الانفراج الدولي الذي دشنته البريسترويكا في الاتحاد السوفييتي، والهادف الى تقليص الأسلحة النووية، وتخليص البشرية من خطر كارثة الدمار الشامل، وتلوث البيئة الذي يهدد الحياة على الكوكب الذي نعيش عليه، يمارس نوعاً من الابتزاز على الوعي العربي اليساري منه بخاصة.

فالاتحاد السوفييتي في ظل إعادة البناء الداخلية التي يقوم بها، وفي ضوء حرصه على تخفيض نفقات التسلح التي ترهق الاقتصاد الاشتراكي، يسعى لتقديم بعض التنازلات الاقليمية امام الامبريالية. وهذا ماتستغله الامبريالية والصهيونية بشكل واضح الآن في الساحة العربية، لفرض هيمنتها على المنطقة في ضوء التوجه السوفييتي - الامريكي لتخفيف النزاعات الاقليمية (في جنوب افريقيا - وأفغانستان، وأمريكا اللاتينية، والشرق الاوسط). من المفهوم والمبرر أن يبني الاتحاد السوفييتي سياسته كدولة عظمى لها همومها الاستراتيجية، على أسس عامة، قد تلقي بظلال سلبية على مصالح شعوب بعض المناطق الاقليمية المشمولة في هذه السياسة، رغم أن سياسة الانفراج تخدم في المدى الاستراتيجي البلدان الاشتراكية وشعوب العالم الثالث، وشعوب البلدان الرأسمالية، وتتناقض مع مصالح الاوليغاركيات الحاكمة صاحبة المصالح العسكرية والاقتصادية المستفيدة من سباق التسلح والابقاء على تأخر العالم الثالث وتبعيته.

لكن من غير المفهوم ان تبنى الفصائل اليسارية العربية سياساتها وتوجهاتها، كنسخة طبق الاصل عن السياسة السوفياتية، حيث تغيب الاستقلالية التي تعتبر الشرط الاساسي لعلاقة التحالف مع المنظومة الاشتراكية.

ان القضايا العربية، هي بالدرجة الاولى قضايا العرب، وليست قضايا حلفائهم أو أصدقائهم، وبقدر مايتمسكون بهذه القضايا، ويتمسكون باستقلاليتهم، بقدر مايخدمون قضاياهم من جهة، ويخدمون اصدقاءهم وحلفاءهم من جهة أخرى.

ان توظيف الانفراج الدولي، كمظلة لنهج التسوية، يعكس الآية، ويضع العربة أمام الحصان. فالتوازن الدولي هو محصلة قوى، بين قوى الثورة والتحرر والاستقلال وقوى النهب والتبعية والاستغلال على الصعيد العالمي، كما على الصعيد المحلي، والتوازن الدولي هو المحصلة الجبرية، وليس الحسابية، والتقدم(*)، والعكس صحيح.

واكثر مايضعف هؤلاء الحلفاء توظيف سياسة الانفراج الدولي لالغاء الصراع بين القوى الثورية والقوى الرجعية والمحافظة، بين حركة الثورة وحركة الثورة المضادة، والتصور الخاطىء الآخر الذي يفترض أن ضعف العامل الذاتي يمكن أن يعوضه أو ينوب عنه الانفراج الدولي، متجاهلاً أن أية تسوية تبنى في

Digitized by Birzeit University Library

التحليل الأخير على موازين القوى المحلية بتحالفها وتشابكها مع الموازين الدولية، ويبقى للأول الدور الرئيسي، لذا يبدو مستهجناً الى ابعد حد نهج التسوية السائد، والذي يلخصه منطق: مفاده: اذا فشلنا بالحرب فلنجرب السلام، ومادمنا غير قادرين على الهجوم بالحرب والقوة، فلنهجم بالسلام والمفاوضات. فقط الامة القادرة على الحرب، هي القادرة على انجاز تسوية لصالحها، او لاتتناقض مع مصالحها الستراتيجية على الاقل. والامة في حال تراجعها وانهيارها، وفي اقدامها على تسوية في ظل تدهور موازين القوى لغير صالحها، انما تسعى الى تكريس هزيمتها الفعلية بهزيمة سياسية موثقة، تأخذ صفة الشرعية الدولية ويصبح التراجع عنها اكثر صعوبة. ان نظرة واقعية لموازين القوى القائمة في المنطقة العربية الآن، تؤكد ان هناك رجحاناً واضحاً في ميزان القوى لصالح الحلف الامبريالي الصهيوني، وهو الآن اكثر رجحاناً من ميزان القوى قبيل اتفاقيات كامب ديفيد.

(تكبيل مصر بكامب ديفيد وخروجها من دائرة المواجهة، استنزاف طاقات العراق في الحرب العراقية ـ الايرانية، وتدهور امكانية قيام جبهة شرقية، طرد المقاومة الفلسطينية من لبنان بعد غزو ١٩٨٢، ومأأعقبه من حروب المخيمات، استمرار الحرب الاهلية اللبنانية، انهيار التضامن العربي في ظل غياب قطب قومي متقدم قادر على بلورته وسيادة سياسة المحاور الاقليمية وصراعاتها المنظورة وغير المنظورة، والتدهور الاقتصادي الذي أصاب البلدان العربية والبلدان المواجهة تحديداً، في ظل نهج تغييب الشعب واستبعاده)..

وتشكل الانتفاضة الشعبية المجيدة في الاراضي المحتلة، استثناء للانهيار العربي، وأحد الردود الاكثر جذرية عليه، لكنها لاتنزال عاجزة، اذا لم يسندها نهوض عربي شامل، عن تعديل ميزان القوى، بحيث تجبر المعسكر الامبريالي ـ الصهيوني على تقديم تنازلات جدية فاذا كانت محصلة ميزان القوى في اواخر السبعينات، رغم أنها افضل من المحصلة الراهنة، قد انتجت اتفاقية كامب ديفيد سيئة الصيت، فان أية تسوية في الوضع الراهن، ستكون نتائجها اكثر اذلالاً ومأساوية، حتى ولو تزينت بمختلف الاثواب والبافطات (كالسلام العادل والشامل) او السلام الاتي من «مؤتمر دولي كامل الصلاحيات». الخ

الستراتيجية والتكتيك «التكتكة»

ينطلق نهج التسوية من حجة اخرى هي المرحلية، او التاكتيك، حيث ينظر للتاكتيك كلحظة نافرة في غير سياق الاستراتيجية، ومقطوعة عنها في النهاية فالتاكتيك اذا لم يحمل في كل لحظة من لحظاته الرئيسية خصائص الستراتيجية، ينحرف الى مناورات بهلوانية على حبال السيرك السياسي دون ضابط او ضامن.

الستراتيجية تحدد الهدف، والطرق العريضة الموصلة اليه، وتحدد الهامش او المجال الذي تتحرك فيه التاكتيكات، بينما يحدد التاكتيك محطات الطريق والسبل الفرعية الموصلة اليها، والذي يضبط حركة التاكتيكات ليس مدى تعارضها الظاهري مع الهدف الاستراتيجي، بل مدى تحركها في مجال الستراتيجية، ومدى خدمتها لها بالمحصلة. في الوعي التسووي العربي، توضع المرحلية في مواجهة الهدف النهائي،

Digitized by Birzeit University Library

يوضع التاكتيك في مواجهة الاستراتيجية، ويصبح هذا الاخير لحظة يتيمة، بلا تاريخ، وبلا تواصل مع الهدف الاستراتيجي، ان لم يكن في النقيض التاريخي لهذا الهدف.

وهنا ينحط التاكتيك الى «تكتكة»، والمرحلية الى براغماتية بائسة تخفي الانتهازية السياسية وعقلية المناورة، التي ركبت السياسة العربية المعاصرة بحدود كبيرة، ولعبت بالنهاية الدور الاكثر كؤداً في سقوط اعتبار السياسة كهم شعب، وكحركة معبرة عن مصالحه التاريخية، تقوده قوى سياسية تعبر عن وتتفاعل مع هذا الشعب ديمقراطياً.

ان عقلية المناورة هي البنت الشرعيّة لاحتقار الجماهير، والنتيجة المنطقية لتغييبها عن دائرة الفعل السياسي، والشكل السياسي لممارسة نخب منفصلة عن الجماهير ان لم تكن راكبة عليها.

ان التاكتيك الذي ينبغي اتباعه الآن في هذا الفصل الدقيق من فصول الصراع العربي الاسرائيلي[٦]، هو انتزاع كل مايمكن انتزاعه وبكل الطرق والوسائل الممكنة في ضوء معطيات الانتفاضة الشعبية، والاستفادة الممكنة من الرأي العام الدولي، والمساندة السياسية للاصدقاء في العالم. في حدود عدم الصلح وعدم الاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني، والتمسك بالانتفاضة وتطويرها، والعمل على مدّها وتوسيعها، تشكل فرصة تاريخية لاعادة بناء النهوض الشعبي العربي على أسس كفاحية جديدة. وبذلك يشكل أي مكسب تكتيكي دفعاً على الطريق الستراتيجي، وفتحاً جديداً في أفق الصراع.

أما «الاستثمار»! المتسرّع لمعطيات الانتفاضة، والانزلاق في سلسلة مناورات دبلوماسية هدفها تقديم التنازل تلو الآخر، للحصول على «دولة»، يسعى نهج التسوية لتكييف شروطها وملامحها، بحيث تصبح مقبولة اسرائيلياً وامبريالياً، ناسياً او متناسياً ان شعار الدولة الفلسطينية المستقلة بقيادة م.ت.ف (وهو شعار صحيح ومشروع شرط ان يوضع في سياقه التاريخي الشعبي) سيكون بالضرورة ضد الصهيونية والامبريالية، وسينتزع انتزاعاً عن طريق تصعيد الكفاحية الشعبية الفلسطينية والعربية، وليس بالتسابق للتكيف مع شروط الانهيار الرسمي العربي، التي لن تنتج اية دولة، في ظل موازين القوى الراهنة، بل قد تنتج مسخاً هزيلاً للحكم الذاتي، أو التقاسم الوظيفي، او دويلة هزيلة منزوعة السلاح ملحقة بالاردن، «تشكل حصان طروادة» في الجسم العربي للتغلغل الامبريالي الصهيوني، ان المكر الذي يتعامل به نهج التسوية بات مكشوفاً، فهو يطرح شروط دولة مثالية وصحيحة مبدئياً، لكنه يتوسّل وسائلاً، وينهج نهجاً لن يقود البتة الى هذا الطرح وبذلك يمرّر تنازلاته، ويبرّرها شعبياً.

تلك التنازلات المتتالية في ظل التعنت الامبريالي - الصهيوني لن تقود الا الى المزيد من احباط حركة الشارع الشعبي العربي والفلسطيني، وتلحق أفدح الاضرار بقضاياه المصيرية.

● الواقعية والثورية

ثالث حجج تيار التسوية الواقعية التي ينظر اليها بمعزل عن الثورية من جهة، ووفق رؤية سكونية للواقع وموازين القوى القائمة فيه من جهة أخرى، ان الواقعية شيء أساسي، في مواجهة النزعة الرومانسية

Digitized by Birzeit University Library

الرغبوية، لكي تبنى السياسة على اسس متينة وعقلانية. لكن أية واقعية؟ وأي واقع؟

الواقع ليس معطى بدهياً، يمكن ادراكه مباشرة، الواقع كما يقول المفكر العربي البارز الاستاذ الياس مرقص «مفهومي فكري، مثلي، نزوعي، امكاني، علاقاتي، تناقضي، الواقع عقلي»[٧]

ضد الذين يستسهلون كلمة الواقع والواقعية، وضد الذين يبشرونها، نقول، ان الواقع يحتاج الى عقل واعقال، يحتاج الى اكثر بكثير من الرؤية الحدسية الحسية المباشرة، يحتاج الى جانب ذلك طبعاً، الى التحليل لكشف مكوناته التناقضية، المتغيرة، بوصفه لحظة من لحظات الحركة الاجتماعية الدائمة، هذه الحركة التي تنتج في كل لحظة تاريخية نقيضها الجدلي والتاريخي»[٨] كإمكانية وكاحتمال للتطور ضمن احتمالات وخيارات متعددة، لكن سلوك احد هذه الخيارات او الاتجاهات هو محصلة موازين القوى المؤثرة. ومن هنا ينشأ التدخل الثوري الفاعل في التاريخ، عبر التواصل بين ميول الواقع التي يبديها موضوعياً وبين دور الذات الفاعلة. او يترك في حال ضعف الذات (الوعي ـ الارادة ـ التنظيم) الى مسار تعرجي صدفي واحتمالي في اطار قانون حركته وتطوره العام.

ان الفهم احادي الجانب للواقع، رؤيته «كموضوع» محايد، ساكن، وسلبي يقود الى «الفهم» المحافظ، وهو مايجد تعبيره في الوضعانية في الفلسفة، واليمينية في السياسة. اثناء رؤية الواقع، يجب ان يرى بكليته، وقديما قالوا: «لا علم الا بالكليات» يجب دراسة وتحليل موازين القوى القائمة بالفعل، والقائمة بالقوة (الممكنة)، وان يفهم في صيرورته التاريخية ومنحى تطوره. وهكذا يصبح الفهم الواقعي (بدون مزدوجين) فهماً ثورياً بالضرورة. أصحاب فكر التسوية يبررون منطقهم (بالواقع) واقعهم الذي يرون، واقع التراجع الرسمي والشعبي، وازدياد هيمنة الحلف الامبريالي الصهيوني وركائزه وأدواته، لكنهم لايرون نقيضه الجدلي، لايرون طاقات الجماهير الهائلة المختزنة في الواقع نفسه، فيصلون نتيجة تحليلهم الاحادي الى العبارة المأثورة «ليس بالامكان افضل مما كان» لكن تجربة التاريخ تثبت أنهم لايفهمون بالامكان، او يخافون ويتهربون منه، ومن تحمل المسؤوليات الجسام التي يتطلبها.

ففي كل واقع، وفي كل لحظة تاريخية، يوجد حلقة ثورية، ينبغي التمسك بها والعمل على تطويرها وانضاجها. التقصير عن فهم ورؤية هذه الحلقة، او الشطح الرغبوي فوقها يميز الانحراف يميناً، والانحراف يساراً، الملازمين لكل حركة اجتماعية رئيسية، يميز بين الانقياد، الذليل لشروط الواقع الموضوعي، الذي يبدو مستعصياً على الفعل والتغيير الثوري «فقط صاحب الارادة القوية، يستطيع التعرف على العناصر الموضوعية اللازمة لتحقيق ارادته» كما يقول غرامشي. وبين القفز الذهني عن هذه الشروط في لفظية يسارية تستر واقع العجز وتبرره في النهاية. وبين هذه وتلك، يصبح تحليل وفهم الشروط الموضوعية في صيرورتها التاريخية، وتحليل التمسك الثورية وتصليبها، والعمل الثوري في سياقها، واقعية ـ ثورية تستحق اسمها.

هؤلاء الذين لايرون آفاقاً أخرى للنهوض الشعبي العربي، بعد هذه المرحلة الانهيارية، ويسعون للتكيف مع هذا الانهيار، انما يلقون بضيق افقهم ليس إلّا على حركة الواقع، ويسقطون ضعف ارادتهم على الواقع الذي يرونه جبلاً من الجليد، لايستطيع احد أن يفعل حياله شيئاً سوى الاختباء من البرد.

Digitized by Birzeit University Library

مع تراجع المد القومي العربي، الانهيارات المتتالية التي اصابت مشروع النهضة والوحدة والتقدم، تعمقت الدول القطرية، وتركزت أركانها واعمدتها وسط ضرائب الامة وعلى اشلاء هذا المشروع، وباتت بآليات عملها في الواقع، وفي علاقتها بشعوبها، بغض النظر عن النوايا والشعارات، عقبة كأداء في طريق الوحدة، وكان من الطبيعي في هذا السياق الانهياري، أن يصيب الفكر القومي الديمقراطي الوحدوي، تراجعات وانزلاقات نحو المواقع القطرية أو دونه القطرية، وتكرس هذا التراجع في ممارسات النظم الرسمية، وامتد للأسف ليطال القوى الثورية العربية بدرجات متفاوتة. وحركة الثورة الفلسطينية اصيبت في هذا المناخ شأنها شأن غيرها من الحركات الثورية العربية بعدوى النزعة القطرية، وبات النفس القطري والاقليمي واضحاً في الساحة الفلسطينية السياسية، والشعبية الى حد ما، بعد سلسلة الخيبات التي أصابت الوضع العربي عموما، واصابت بدرجة أشد وأكثر ايلاماً الشعب العربي الفلسطيني، بدءاً من انسحاب النظم الفعلي من دائرة المواجهة، واستعداد غالبيتها للانسحاب نهائياً ورسميا، وصولاً الى محاولات احتواء وشرذمة المقاومة واحتوائها بدعاوى «قومية»، مروراً بالتآمر والحروب التي استهدفت رأس المقاومة من الاردن الى لبنان، الى كل المنافي.

وساعد في ذلك ضعف وتراجع الحركة الشعبية العربية، وتراجع قواها وطلائعها القومية الديمقراطية والاشتراكية.

لقد شكلت الردة الساداتية في مصر، اولى الثمار الرسمية لهذا النهج، فتحت مظلة ان الشعب المصري يتحمل نفقات المواجهة العظمى وهو فقير وجائع، بينما ينسحب العرب الآخرون بشكل أو بآخر، وهم الأغنى، فلماذا يستمر الشعب المصري في دفع الضريبة نيابة عن الآخرين.

واستطاع النظام في فترة الركود ان يقنع المواطن المصري نسبياً، وان يخدعه لفترة ليست طويلة طبعاً، ان الهم القومي هو سبب جوعه ومصائبه، فشن حملة دعائية واسعة وقذرة طالت كل المسلّمات الوطنية والتقدمية (قيادة عبد الناصر، والقطاع العام والعداء للامبريالية وقيم الاستقلال، والوحدة القومية. . الخ) لكن الشعب المصري وبعد تجربة مريرة مع كامب ديفيد والانفتاح، وبالمقارنة السليمة، ادرك خلال هذا النهج، ومدى تأثيره المدمّر على الاستقلال والتقدم، وبات يتلمس بقيادة طلائعه الثورية، ان خلاص الشعب المصري غير ممكن، الا على الارضية القومية، ارضية الثورة القومية الديمقراطية ذات الافق الاشتراكي، والتي شكلت المحاولة الناصرية، خطوة واسعة في طريقها، استطاعت عوامل التآمر الخارجي بالتساند مع عوامل الضعف البنيوي ان تغتالها، دون ان تحقق اهدافها، ولاتزال هذه الاهداف برسم الانجاز.

والنزعة القطرية تتمثل الان في الساحة الفلسطينية، بمحاولة قطع الصراع عن كلّه العربي، وتصويره كصراع (فلسطيني - اسرائيلي)[٥١] اي كنزاع اقليمي، تمهيداً لاعتباره نزاع حدود، وصولاً لاعتباره مجرد

Digitized by Birzeit University Library

صراع سيكولوجي.

وبعد قطع الصراع عن افاقه القومية، ينفتح باب المساومات، والتفريط واسعاً، ومانسمعه مؤخراً من دعوات لاقامة كونفدرالية بين الدولة الفلسطينية في حال قيامها والكيان الصهيوني ودول عربية أخرى، نموذج لهذا التفريط الذي وصل الى حدّ لايمكن السكوت عنه.

أما ضعف القوى الثورية العربية، الذي يتستر خلفه النزعة القطرية الفلسطينية، فلا يبرر الانسحاب من الدور القومي، بل يؤكد بالعكس على هذا الدور. ففي غياب قوة استقطاب قومي رسمي (مصر الناصرية) وفي ظل ضعف معظم التيارات الثورية العربية، يصبح من واجب منظمة التحرير بوصفها الفصيل الاقوى والاقدر على لعب دور القيادة) التصدي لقيادة هذه التيارات وتعميق التحالف الاستراتيجي معها. والخلاص من نهج المراهنات على الدبلوماسية الدولية، أو اللعب على محاور النظم العربية، كطريقة رئيسية للعمل»[١٠]

في حمى التراجعات والمراهنات والنهج القطري بات من المفيد فعلاً اعادة التأكيد مجدداً على طبيعة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، بوصفه صراعاً تاريخياً بين مشروعين متنامين ومتناقضين جذرياً، مشروع الثورة القومية الديمقراطية العربية ذات الافق الاشتراكي، الهادفة الى التقدم والتحرر والوحدة، والمساواة، وبين المشروع الامبريالي الصهيوني وركائزه الطبقية في الداخل العربي، والرامية في هذا الفصل من فصول الصراع الى فرض التسوية الامريكية ـ الاسرائيلية على المنطقة، بحيث تصبح «اسرائيل» كياناً شرعياً، هو الاقوى، بوصفه خندق الامبريالية ورأس جسرها المتقدم بين هياكل وشخوص «دول» وطوائف وعشائر متقاتلة جائعة ومقموعة، تشكل سوقاً للهيمنة الامبريالية وخزاناً لاينضب لحروب التدمير الذاتي المدارة امبريالياً.

ان تشابك مفاعيل التأخر التاريخي العربي، والهيمنة الامبريالية، وتمدد المشروع الصهيوني. يجعل من الرد الثوري البديل رداً قومياً بالضرورة، في الاهداف والوسائل فلقمة عيش المواطن وحرياته، وطموحه من اجل النهضة والتقدم لاتنفصل عن النضال ضد المشروع الصهيوني والهيمنة الامبريالية وركائزها في الداخل.

وهذا الرد قائم بالامكان في الواقع العربي، وما ان ينطلق مارد الحركة الشعبية من قمقم العزوف والقمع والاستلاب، حتى ينهار المسرح فوق رؤوس الممثلين ودماهم الهزيلة. وينفتح واسعاً افق جديد للصراع العربي الاسرائيلي، وينفتح فصل جديد من فصوله، وتتبلور معالم الرد الشعبي، بتناقض على طول الخط مع الردود السائدة، الهادفة الى خنق الانتفاضة، وتحويلها الى مهماز للتسوية الاستسلامية بدل أن تكون فاتحة الرد على نهج التسوية برمته، والى تحويل منظمة التحرير الفلسطينية الى نظام يشيد الى حد بعيد سمات الانظمة السائدة، بدل ان تكون ممثلة الجماهير وقائدة نضالهم.

يرتسم الآن في الأفق خطان رئيسيان، الخط الرسمي التسووي والخط الشعبي الجذري الكفاحي، والسيادة الآن للخط الاول. وعلى قوة وصحو طلائع الثورة العربية ومن ضمنها فصائل منظمة التحرير والثورة الفلسطينية يتوقف المستقبل.

Digitized by Birzeit University Library

تياران في ساحة واحدة، والوقت لايحتمل التأجيل او عدم الانحياز، فهل ستثبت قوى الثورة العربية مقدرتها على التصدي لقيادة التيار البديل؟ ام ستعجز عنه وهذا يعني مزيدا من التفكك والضياع والدوران العقيم في حلقة التبعية.

● (١) يمكن تلمس ذلك بوضوح من خلال مذكرات محمد فوزي، وزير الحربية المصري السابق حرب الثلاث سنوات.

● (٢) التعبير للمفكر المصري (د. سمير امين)

● (٣) راجع ياسين الحافظ - الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، مقال تطور فكر عبد الناصر الوحدوي - دار الطليعة بيروت.

● (٤) نعتقد ان مفهوم «حركة التحرر الوطني العربية» بات غير دقيق وغير مطابق للمرحلة بسبب تعقد النضال الوطني وتشابكه مع النضال الاجتماعي، لذا يبدو مصطلح «حركة الثورة العربية اكثر دقة»

● (٥) السياسة السوفييتية في الشرق الاوسط عرفت قوة أثناء المد الناصري. وتعاني الان من الانكفاء بسبب ضعف وتراجع قوى الثورة العربية.

● (٦) لقد طبقت مصر الناصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ شعارات تكتيكية حقه للرد على الهزيمة، فطرحت شعار « تصفية آثار العدوان» دون صلح او اعتراف. وبدأت ببناء الرد الستراتيجي الحقيقي والتهيؤ للمعركة.

● (٧) راجع مجلة الواقع - العدد الأول - (ص١٠)

● (٨) تشكل الانتفاضة الشعبية في الارض المحتلة، والانتفاضات العربية احد اشكال التعبير عن هذا النقيض.

● (٩) من المؤسف ان هذا المصطلح بدأ يأخذ طريقه الى التداول في صفوف قوى فلسطينية معروفة تاريخياً بمشروعها القومي. من يراجع مجلة الهدف لسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اعدادها الاخيرة، يلمح تكرر هذا المصطلح، رغم قناعتنا ان استخدامه يتم في غير سياق الترويج لنهج القطرية.

● (١٠) نحن لانعترض على مثل هذه الاشكال، شرط ان تكون تكتيكية وليست استراتيجية، ووسيلة ثانوية للعمل وليست رئيسية، وهذا ماتفرضه شروط وأوضاع المقاومة الفلسطينية وخصوصية نضالها الذي ترفض رفعه الى مصاف التمييز القطري.

Digitized by Birzeit University Library

الفكر الماركسي العربي أمام البيريسترويكا

منير الخطيب*

ان عملية اعادة البناء التي يشهدها الاتحاد السوفياتي الآن، والتي أقرها المؤتمر السابع والعشرون للحزب، أطلقت حالة من الشك والتساؤل والجرأة والعلانية في طرح القضايا، ليس على مستوى الحزب الشيوعي السوفييتي فقط، بل شملت الحركة الشيوعية العالمية، ومنها بالطبع الحركة الشيوعية العربية.

وفي سياق هذا الاختراق الذي أحدثته البيريسترويكا لحالة الركود الستاتيكي السابقة، أصبح بوسع المرء ـ الذي كان يعتبر بالامس القريب في نظر الشيوعية المحلية، «مارقاً» أو «عميلاً للمخابرات المركزية الامريكية»، أو «شوفينياً» أو «تروتسكياً»... الخ، ـ أن يطرح الكثير من القضايا الجذرية المتصلة بالفكر السياسي العربي عموماً، وبالفكر الماركسي منه خصوصاً، دون الخوف من أن يتهم بتهمة من التهم الآنفة الذكر.

ان البيريسترويكا، في ظل العلاقات العالمية التي تحكم عالمنا المعاصر أولاً، وفي ظل ثورة البث الاعلامي والاتصال المعلوماتي التي يشهدها كوكبنا ثانياً، ونظراً لطبيعة العلاقات التاريخية التي تربط الحزب الشيوعي «المركزي» بالاحزاب الشيوعية «الطرفية» ثالثاً، ليست شأناً سوفياتياً فقط، وبما أنها كذلك فقد أحدثت مناخاً من الصحوة على مستوى الحركة الشيوعية العالمية، وفي هذه الغمرة آن الآوان للفكر الماركسي العربي أن يراجع حساباته، ويتخلص من نهجه الدوغمائي واستلابه الايديولوجي وعجزه السياسي، ويباشر طرح الاسئلة النقدية على نفسه التي تتناول صُلب تاريخه السابق:

---

* كاتب من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

لماذا بقي الفكر الماركسي العربي برانياً ولم يستطع التغلغل في ثنايا المجتمع؟.
لماذا تخلف هذا الفكر عن قيادة حركة النهوض الوطني والقومي في خمسينات هذا القرن؟.
لماذا فوّت هذا الفكر الكثير من الفرص التاريخية التي وفرتها له حالة النهوض الشعبي في مرحلة الاستقلال السياسي؟.
لماذا مارس هذا الفكر دور «المفتي» لسياسة الدولة القطرية؟.
لماذا؟.. لماذا؟....؟ أسئلة كثيرة وكثيرة جداً مطروحة أمام الفكر الماركسي العربي، وهو مدعوّ للاجابة عنها، اذا أراد ان يخرج من دائرة العجز التاريخي الذي أسر نفسه فيها.

إن البيريسترويكا التي هي قفزة نوعية في تاريخ الثورة الاشتراكية، وعودة لاحياء روح الماركسية ومنهجها لايجاد التطابق ما بين الوعي والمستجدات الكبرى التي أفرزتها حركة التاريخ الواقعية، ترتدي أهمية مضاعفة على مستوى بنية الفكر الماركسي العربي لسببين اثنين:

أولاً: نتيجة لحالة دمج المجتمعات المتخلفة بالمركز الامبريالي بسبب عالمية الرأسمالية وشموليتها، لم تعد البروليتاريا الاوروبية هي المصدر الاساسي لفضل القيمة، بل أصبحت شعوب المستعمرات هي المصدر الاساسي لهذا الفضل، وبالتالي فان الامبريالية باتت = اضطهاداً قومياً لدرجة كبيرة.

وفي ظل الخصائص النوعية لعصرنا، عصر توازن الرعب النووي الذي لم تعد فيه مقولة كلازوفيتس «الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى» لها قيمة عملية على صعيد الصراع العسكري في الحرب النووية المدمرة، وفي ظل اندماج بروليتاريا المركز الامبريالي في اطار هيمنة البرجوازية السائدة، نتيجة الرشوة الامبلايالية لها، انتقل مركز الصراع الرئيسي بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي الى طرف العالم، فتحول هذا الطرف الى حلقة الصدام الاولى مع النظام الامبريالي الذي يسعى جاهداً الى دمجه تماماً في بنيته وشبكة علاقاته بجعله القسم المكمل له، حيث يصدر المواد الاولية ويستورد المواد المصنعة.

ان هذا التبدل البنيوي في طبيعة المركز الامبريالي جعل منطقتنا العربية عمقاً استراتيجياً له، وبالتالي عقد المهام التي تواجه المشروع النهضوي العربي وأفرز مسائل نوعية جديدة، لم يعد الفكر الماركسي قادراً على استيعابها بمقولاته الكلاسيكية التجريدية العامة التي هي نتيجة دراسة تطور المجتمعات الاوروبية.

إن المهام النوعية الجديدة التي طرحها - تراكب ميكانيزمات السياسة الامبريالية مع التأخر التاريخي العربي - على الفكر السياسي العربي عموماً والفكر الماركسي خصوصاً، يتطلب «بيرويسترويكا عربية» مضاعفة لايجاد التطابق التاريخي ما بين الوعي وحاجات التغيير.

ثانياً: السبب الاخر الذي يجعل البيريسترويكا مطلوبة بشكل مضاعف عربياً. ليس جسامة المهام التي تواجه المشروع الثوري العربي فحسب، بل الانحطاط المضاعف الذي شهدته الماركسية العربية التي دخلت الى مجتمعنا بصيغتها الستالينية والتي انحطت بدورها على يد «التلاميذ المحليين»، وبذلك لم تعد منهجاً جدلياً، مادياً، خلاّقاً، للماركسية في مجتمعنا وتحليل الواقع، وبالتالي الانتقال الى تغييره، هذا الانحطاط المضاعف للماركسية في مجتمعنا العربي يحتاج الى بيريسترويكا مضاعفة.

ان البيريسترويكا كمنهج بتأكيدها على أهمية الديمقراطية وعلى العلانية كضامن للديمقراطية وعلى دور

Digitized by Birzeit University Library

الجماهير في صنع القرار السياسي، وفي تحطيم حالة الركود الاقتصادي، وعلى دورها في الخلق والابداع من خلال الديمقراطية، فان هذا النهج هو ادانة قاطعة للمرحلة الستالينية التي ألغت دور الجماهير، اذ أصبح الحزب وصياً عليها وأصبح السكرتير العام وصياً على الحزب.

عودة الى البدايات التأسيسية للماركسية العربية

ان الفكر الماركسي العربي الذي وفد الى مجتمعنا بصيغته الستالينية، واجه بنية مجتمعية وفكرية ما قبل قومية، تعاني الكثير من الاشكاليات الوسطوية[1] التي تتناقض مع جذر الماركسية الليبرالي.

ان الماركسية التي هي بنت الغرب الصناعي، البرجوازي، ونقيضه الجدلي في آن استندت في نشأتها على التراث البرجوازي العظيم، الذي أحدث زلزلة في أسس ومؤسسات المجتمع الفيودالي الاقطاعي الوسطوي وأرسى قواعد المجتمع العصري الحديث المتحرر من اللاهوت والميتافيزياء والذي يتسم بمجموعه من الخصائص النوعية المميزة أهمها: العقلانية، العلمانية، الديمقراطية... الخ. وإن الماركسية في حيزها النظري أتت استناداً الى ثلاث انجازات كبرى في تاريخ المجتمع البورجوازي: ١ ـ الاقتصاد السياسي الانكليزي، ٢ ـ الفلسفة الكلاسيكية الالمانية، ٣ ـ فلسفة عصر الانوار والتطورات السياسية التي أرست مفاهيم العقلانية والديمقراطية والانسانوية... الخ. مجتمعيا لذلك فهي نفي جدلي لليبرالية تأسست على أرضيتها وتمثلت عناصرها الايجابية وتجاوزتها نحو الفعل الثوري في (الطبيعة، المجتمع، الكون... الخ)، لذلك من الطبيعي أن تصاب الماركسية بانتكاسات بهذه الدرجة أو تلك عندما تفتقد هذه الاصول الليبرالية.

لذا فان انتصار الماركسية في بلد اقطاعي كروسيا، لم يشهد ثورة بورجوازية كلاسيكية كالتي شهدتها أوروبا على يد البورجوازية الصاعدة، ويفتقد ذلك التراث الليبرالي الهائل الذي عرفته المجتمعات الاوروبية، كان له الاثر الكبير فيما بعد في نشوء الظاهرة الستالينية والتضخم الاداري والبيروقراطي الذي شهدته الدولة السوفياتية.

إذا كان هذا الحال بالنسبة لمجتمع أوربي ـ آسيوي نصف متقدم، فكيف كان بالنسبة لمجتمع تابع متأخر كمجتمعنا؟

إن الماركسية التي وفدت الى المجتمع العربي بصيغتها الستالينية، بوصفها نصوصاً جاهزة لابوصفها منهجاً، مادياً، تاريخياً، جدلياً، لدراسة وضعية مجتمعية · قد واجهت مجموعة من المسائل المطروحة امامها، لم تنطرح عليها اثناء نشأتها الاوربية او اثناء دخولها الى روسيا أهمها:

اولاً: فشل المحاولات «النهضوية» التي بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، في انجاز الثورة الثقافية وارساء المقدمات الليبرالية للمجتمع العربي.

ثانياً: انتقال التشكيلات الاجتماعية ماقبل القومية من حالتها السكونية في حقبة الاستعمار العثماني، الى مرحلة البناء والهجوم الايديولوجي بفعل الصدمة الكولونيالية.

Digitized by Birzeit University Library

ثالثاً: فشل البورجوازيات العربية بحكم طبيعتها التكوينية اولاً، وبحكم آلية العمل الامبريالية ثانياً، التي منعت تكوين بورجوازية عربية، قومية، مفترسة، على النمط الاوروبي في انجاز المهام التاريخية الملقاة على عاتقها التي هي من حيث طبيعتها مهام بورجوازية، كالقومية، العلمانية الديمقراطية.

رابعاً: تحول المجتمع العربي الى الجزء الضعيف والتابع في البنيان الاقتصادي العالمي بتأثير العالمية التي نشأت نتيجة لتحول المشروع البورجوازي الغربي من مشروع ليبرالي الى مشروع متربولي.

خامساً: افتقاد مجتمعنا في سيرورة تطوره التاريخية الى نمطية المراحل الخمس في التطور والتي كانت الماركسية بصيغتها الاوروبية هي التجريد العظيم لهذه السيرورة.

سادساً: الضعف الهائل للطبقة العاملة العربية الكمي والنوعي التي هي الوليد التاريخي للبورجوازية العربية الرثة والتابعة، وضعف الفرز والتبلور الطبقي وسيادة مناخ الاختلاط والسديمية بتراكب التشكيلات الافقية مع الاطر والعلاقات ماقبل القومية.

سابعاً: التجزئة القومية التي بدأت تسير «بالاتجاه الامريكي اللاتيني»(*) وتتجذر على الصعد الاقتصادية والايديولوجية والسياسية مع ازدياد تبعية الاقطار العربية الى متربولاتها الخاصة، وسير اقتصادات هذه الاقطار باتجاه التكامل مع اقتصادات المتربولات الامبريالية والتعارض فيما بينها.

ثامناً: التأخر التاريخي العربي الذي يتجلى اقتصادياً بكون الاقتصاد العربي تابع للخارج، وسياسياً بغياب الرأي العام وسيطرة روح الرعوية والعزوف، ويتجلى ايديولوجياً بسيطرة ايديولوجية تقليدية في نظرتها للكون الطبيعة، المجتمع.. الخ).

تاسعاً: المشروع الاستيطاني الصهيوني المتعارض بشكل مطلق مع محاولة الامة العربية للنهضة وتأكيد «ذاتها» القومية في عصر الامم والكتل الاقتصادية العملاقة.

إن الماركسية في مجتمعنا العربي التي لم تستطع تجاوز حدودها النصوصية وترتقي الى روح الماركسية بصفتها منهج «التحليل الملموس للواقع الملموس»، لم تجد حلاً لهذه الاشكالات، فحاولت لي عنق الواقع وحشره في المفهوم المستنبط من دراسة بنى مجتمعية مختلفة بدلاً من تحليل البنية المجتمعية العربية واستنباط قوانينها ومفاهيمها وادواتها المعرفية الخاصة على ضوء المنهج الماركسي، لذلك فان الماركسية لم «تتعرب» ولم تتكون «كماركسية لينينية عربية»، فظلت محشورة في هامش المجتمع، ولم تستطع احتلال مواقع في متنه ومفاصله الرئيسية. فعلى ضوء البيريسترويكا مطلوب من الفكر الماركسي العربي، اذا اراد ان يصبح «جوانياً» ويتخلص من حالة غربته التاريخية، ان يعيد النظر بمجموعه من القضايا الهامة ابرزها:

أولاً: الثورة القومية، العلمانية، الديمقراطية مقدمة الثورة الاشتراكية وبدوتها، والتي تشتمل على عدد من المهام انجزتها البورجوازية القومية في الغرب، لكن في مجتمعنا نظراً للطبيعة الرثة والتابعة للبورجوازيات العربية، تخلفت عن انجازها، ولاتزال هذه المهام تكتسب راهنية تاريخية ملحة في ضوء حالة العلاقات ماقبل القومية التي تخترق المجتمع العربي حتى النخاع.

ازاء الاخفاق البورجوازي العربي في انجاز المهام القومية العلمانية الديمقراطية، وفي ظل تجذر واقع التجزئة القومية وتحوله الى مرحلة خطيرة في عصر الهيمنة الامبريالية الشاملة، وانعدام الديمقراطية بشقيها

Digitized by Birzeit University Library

السياسي والاجتماعي، وانبعاث التشكيلات الاجتماعية ماقبل القومية يصبح انجاز هذه المهام التاريخية اللحة بقع على عاتق الفكر الماركسي، والقوى القومية الديمقراطية.

إن المسألة القومية في مجتمعنا ليست نافلة بورجوازية كما يقول التعريف الستاليني لها المستنبط من دراسة تشكل القوميات في اوروبا.

إن المسألة القومية في مجتمعنا تكتسب طابعاً ثورياً هائلاً وينطبق عليها تحليل «لينين» لعصر الامبريالية والقوميات المضطهدة، وتأكيده المستمر على دور «الشرق القومي والثوري» بتأثير التحليل الستاليني لتشكل القوميات في أوروبا، ونتيجة تبعية الفكر الماركسي العربي الايديولوجية، وقف هذا الفكر موقف المتوجس من المسألة القومية، وبذلك فوت كثيراً من الفرص التاريخية التي كان بامكانه من خلالها ان يصبح قائداً لعملية النهوض الشعبي في خمسينات هذا القرن.

ان الحركة القومية العربية التي تبلورت في البدء ضد محاولات التتريك العثمانية اولاً وضد محاولات الهيمنة الغربية اقتصادياً وسياسياً ثانياً، وضد المشروع الاستيطاني الصهيوني ثالثاً كانت تحتوي ولازالت على مضمون جماهيري شعبي، يزداد او يتقلص تبعاً للقوى والشرائح الطبقية التي تتصدى لقيادتها.

وترتدي اليوم اهمية حاسمة، حيث عجزت البرجوازيات التقليدية، ومن ثم الفئات الوسطى عن السير بالمشروع القومي (تحرير، توحيد، تحديث) الى نهاياته، فاشتدت الهيمنة الامبريالية متمفصلة مع واقع التجزئة القومية والتأخر التاريخي والاستعمار الاستيطاني الصهيوني، مما يحتم على الطبقات صاحبة المصلحة الحقيقية في اكمال المشروع القومي الديمقراطي، وعلى طلائعها السياسية ان تحتضن وتقود هذه الحركة وتعيد انهاضها مجدداً على اسس جديدة.

ان الحركة القومية العربية بحكم طابعها الجماهيري المعادي لكل اشكال الهيمنة والاستبداد اولاً، وبحكم انتقال مهمة انجازها من يد البورجوازيات العربية الى يد الطبقة العاملة وطلائعها السياسية ثانياً، يجب ان ترتبط جدلياً بعلمنة المجتمع ودمقرطته فالعلمانية[٢] في مجتمعنا ضرورة تاريخية تمليها ظروف التكسير المجتمعي الذي تشهده جميع الاقطار العربية بدرجات متفاوتة، هذا التكسير العامودي الى متحدات اجتماعية ماقبل رأسمالية يمنع اطلاق سيرورة الديالكتيك الاجتماعي والصراع الطبقي.

إن العلمانية هي المصهر الذي يقع على عاتقه صهر المجتمع المنقسم الى (طوائف، وعشائر، وعائلات) ويعيد انتاجه بشكل معافى وسليم، بمعنى آخر يعيد انتاجه بحيث يكون منقسماً افقياً، هذا الانقسام وحده فقط هو الذي يولد التقدم، وهو الذي قال عنه ماركس في البيان الشيوعي انه محرك التاريخ.

ان حركة العلمنة هذه مرتبطة اشد الارتباط بدمقرطة المجتمع العربي وتحديثه، فلا يمكن ممارسة الديمقراطية الا في مجتمع علماني حديث، كما لايمكن للعلمانية ان تتحقق الا في مجتمع ديمقراطي يؤمن بالتعددية، سواء الاجتماعية منها او السياسية، ويعترف بالآخر، فالعلمانية هي الديمقراطية على الصعيد الاجتماعي، اي انها تحقيق (المجتمع المدني) الذي هو القاعدة الموضوعية لممارسة الديمقراطية السياسية (حرية الرأي، حرية الاحزاب، حق الاضراب، حرية الصحافة.. الخ).

إن الثورة الديمقراطية هي مقدمة الثورة الاشتراكية وهي ضمانة الا تتحول الاشتراكية الى فاشستيه

Digitized by Birzeit University Library

«تقدمية» خاصة في مجتمع متأخر كمجتمعنا يُدين التعددية تاريخياً ولايؤمن بنسبية الحقيقة، وتسود فيه الايديولوجيا الكتلوية ذات البعد الواحد، والتقليد الديمقراطي تقليد وافد وغريب بالنسبة اليه.

إن «الاشتراكيات» العربية «والأدق تسميتها نماذج رأسمالية الدولة القطرية التابعة» تعثرت وتحولت فيما بعد الى مشانق وسياط للجماهير الشعبية ونمت بهذا الاتجاه الفاشي على قاعدة التأخر العام لمجتمعاتها، وعلى غياب التراث الديمقراطي الذي استبعد مشاركة الجماهير الشعبية في السلطة وفي التحولات الاقتصادية التي جرت.

كما ان الستالينية كظاهرة في الاتحاد السوفياتي ماكان لها ان تأخذ هذا المنحى لولا (الفترة القصيرة) ـ قياساً بالغرب ـ التي تم فيها تحقيق المهام الديمقراطية من قبل البلاشفة. فالاستبداد القيصري التاريخي في روسيا وغياب التراث الليبرالي، هو الذي مكن الستالينية من أن تنمو بهذا الزخم.

ان انجاز مهام الثورة القومية، العلمانية، الديمقراطية ضرورة تاريخية ملحة في مجتمعنا، كونها تشكل بدوة الثورة الاشتراكية ومقدمتها، ومطلوب منها تصفية كل اشكال التأخر العربي ماقبل الرأسمالية، واعادة انتاج المجتمع العربي وصراعاته وعلاقاته بشكلها الحديث والعصري، والذي يكفل للمجتمع العربي بناء اشتراكية انسانوية هدفها ومركزها الانسان وليس بناء الانسان من اجل الاشتراكية.

ثانياً: على الفكر الماركسي ان يعيد النظر «بتصخره الايديولوجي» وايمانيته المقلوبة التي ترجع كل البلايا الى «الامبريالية والصهيونية»، ولاتعترف بنسبية الحقيقة وتعددية الآراء، وتعتبر كل ماهو مخالف «للماركسية النصوصية» (باطل، ورجعي، يميني.. الخ) هذا النهج الدوغماتي الذي كان سبباً وراء الانشقاقات في الاحزاب الشيوعية العربية التي لم تأخذ طابعاً غرامشياً له صبغة التجاوز الديالكتيكي.

ففي مناخ التعددية، واحترام الرأي الآخر، وتصارع الآراء على قاعدة الديمقراطية ـ المركزية المفهومة فهماً صحيحاً، بحيث لاتطغى المركزية على الديمقراطية، فتشكل قاعدة التسلط وفرض الرأي الارهابي المستبد، ولاتطغى الديمقراطية على المركزية فتفسح المجال أمام الفوضى والتسيب الليبرالي. في هذا المناخ يمكن ان تتعايش وتتصارع تيارات مختلفة في سياق صعودي نحو الافضل وليس في سياق دوراني وتراجعي.

ثالثاً: في مجتمع متأخر وتابع افرزت حركته الواقعية مسائل لم تنطرح على الماركسية في صيغتها الاوروبية، تتجلى ضرورة امتلاك الماركسية كمنهج للتحليل وليس كمقولات جاهزة «مسبقة الصنع» ومفاهيم مستوردة لاتمت الى خصوصياتنا العربية بصلة.

بمعنى آخر يجب على الماركسية ان «تتعرّب» هذا مافعله لينين عندما أخرج الماركسية من صيغتها الاوروبية وامتلكها كمنهج حلل على ضوئه بنية المجتمع الروسي الفلاحية ونظامه الاوتوقراطي المستبد، وخرج بنظريات جديدة عندما ادخل الفلاحين في حساباته، اضافة للبروليتاريا في مرحلتي الثورة، المرحلة البورجوازية والمرحلة الاشتراكية، وبذلك اضاف ابداعات جديدة الى التراث الماركسي.

اي ان الماركسية على يد البلاشفة قد «تروست»، وكان هذا عاملاً حاسماً في انتصارها. ان امتلاك الماركسية كمنهج للتحليل الواقعي، يمنع تحجر الفكر وتخلفه عن حركة الواقع، ويضمن نظام التطابق

Digitized by Birzeit University Library

ماين الفكر وصيرورة الواقع المتغيرة باستمرار.

ان عدم امتلاك الماركسية كمنهج من قبل الشيوعيين العرب، كان سبباً مركزياً في عدم مطابقة الكثير من نظرياتهم لمتطلبات التغيير، ولهاثهم وراء حركة الواقع والجماهير، وانخاذهم بعض المواقف المعادية لمصالح الجماهير الشعبية مثلاً (موقف الحزب الشيوعي السوري من الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨).

رابعاً: ان مشروع الثورة العربية، مشروع مستقل ايديولوجياً وسياسياً، فهو على المستوى الايديولوجي يعتمد بالدرجة الاولى على فهم وتحليل الخصوصية العربية استناداً الى المنهج الماركسي، فالآخرين لايمكن ان يفكروا نيابة عنا، ولايمكن ان تكون نظرياتهم التي قدموا تاريخاً مليئاً بالدماء والآلام والدموع في سبيل الوصول اليها منقذاً لمواقعنا.

وعلى الصعيد السياسي يجب الحرص على استقلالية مشروع الثورة العربية عن الصراع العالمي بين الدولتين العظميين.

فالاتحاد السوفياتي ولاعتبارات مشروعة بالنسبة اليه، وبفعل عامل المنفعة القومية يمكن ان يختلف بهذه الدرجة او تلك مع مطالب قوى الثورة العربية، مثلاً (قضية الصراع العربي - الاسرائيلي وموقفه من مسألة السلام والمؤتمر الدولي. وقضية الوحدة العربية)

طبعاً هذا لايغير من كون الاتحاد السوفياتي هو الحليف الاستراتيجي لقوى الثورة العربية في صراعها ضد الامبريالية والصهيونية والاستبداد

فالخلاف في وجهات النظر امر مشروع فكرياً وسياسياً واخلاقياً وموضوعياً. فلكل طرف حساباته الخاصة في تقرير سياسته وتحديدها.

خامساً: في مجتمع متأخر لم تصف فيه العلاقات ماقبل الرأسمالية، ولم ينطلق فيه ديالكتيك الصراع الاجتماعي بصورته المثلى، ومستباح خارجياً من قبل الامبريالية والصهيونية، وداخلياً من قبل الاستبداد، ولانزال الثورة الديمقراطية تكتسب راهنية تاريخية، فان مقولة الحزب الواحد مقولة تمثل مصادرة غير مشروعة فكرياً وسياسياً وتنظيمياً ولا حتى ماركسياً. فحسب غرامشي للطبقة حزب ايديولوجي واحد ولكن لها اكثر من حزب تنظيمي.

لذا فانه في دول العالم الثالث يرتدي العمل الجبهوي اهمية كبيرة، اذ إنه الاطار الاسلم في العمل السياسي، خاصة في مرحلة الثورة الديمقراطية، حيث يمكن ان يضم قوى ماركسية وقومية ومثقفين وشخصيات وطنية، لها جميعاً مصلحة في تحقيق الديمقراطية.

سادساً: يجب أن يولي الفكر الماركسي الاهمية التي تستحق للمسألة الدينية في مجتمعنا الذي هو مهد الديانات الثلاث، وعليه أن يميز بين الجماهير الشعبية المتدينة وبين منتجي ومنظري الايديولوجيا الدينية، ففي اطار تصوره الاستراتيجي طويل الامد ونزوعه الى الهيمنة الفكرية واكتساب الشرعية التاريخية، عليه ان يخضع افكار الجماهير التقليدية لخدمته عبر حرب مواقع (حسب غرامش ايضاً) ومن خلال فرز مثقفين عضويين يمثلون مراكز اشعاع حقيقية تمارس عملية الهيمنة على الفكر التقليدي. وفي صفوف منتجي الايديولوجيا على الفكر الماركسي ان يميز بين الحركات الفاشية الرجعية (كالاخوان المسلمين) وبين

Digitized by Birzeit University Library

المفكرين المتنورين الذين يساهمون في عملية تثوير الدين عبر ربطه بالمفاهيم العصرية، هؤلاء المفكرون الذين يقومون بدور تقدمي في المرحلة الديمقراطية، وفي سياق نزوع الفكر الماركسي للهيمنة واكتساب الشرعية عليه ان يحدد صيغ التعامل مع هؤلاء المفكرين.

ان مهمة عظيمة تنتظر الفكر العربي، وهي مهمة تحديث الايديولوجيا الدينية عبر ربطها بالمفاهيم العصرية، خصوصاً ان الفكر الاسلامي لم يشهد ثورات من داخله كالتي تمت في عصر النهضة الاوروبية.

سابعاً: على الفكر الماركسي العربي ان يعيد النظر بتحالفاته ومواقفه السياسية السابقة، والاحرى بالاحزاب الشيوعية العربية كما قال - (ابو بكر الامين ممثل الحزب الشيوعي السوداني في ندوة مجلة النهج عن البيريسترويكا)[٣] ان تقدم اعتذاراً للجماهير عن سياساتها السابقة وتبريراتها للانتهاكات التي تمت بحقها تحت شعارات مختلفة.

واخيرا اذا كانت الاحزاب الشيوعية العربية قد أيدت البيريسترويكا في الاتحاد السوفياتي، فان هذا التأييد لامعنى له، اذا لم يترافق مع تمثل لروح البيريسترويكا بصفتها ثورة في تاريخ الاشتراكية، وتضع تاريخها السابق بكل ميزاته ومستوياته موضع النقد والتساؤل وتعيد بناء وعيها وسياستها على ضوء المنهج الماركسي ومتطلبات الواقع العربي.

لقد تأخرت البيريسترويكا في الاتحاد السوفياتي، ودفع الشعب السوفياتي وشعوب العالم قاطبة ثمن هذا التأخير.

ان التاريخ لايرحم احداً وان الفرص الثورية التي يوفرها تفرض على الثوريين اتخاذ القرارات المصيرية بسرعة كبيرة وفي الوقت المناسب، وان ثمن التأخر عن اتخاذ هذه القرارات يكون غالياً، فهل تباشر الاحزاب الشيوعية العربية البدء ببيرويسترويكاها؟

---

١ - الوسطوية: من القرون الوسطى

٢ - العلمانية من العالم secular، وليست من العلم وتعني فصل ميدان الدنيا عن ميدان المقدس، فصل الدين عن الدولة.

٣ - انظر مجلة النهج العدد ٢٣/ ٢٤ السنة السادسة ١٩٨٩ (ص ٣٣ - ٣٤)

* الاتجاه الامريكي اللاتيني: اي تعمق النزعات القطرية وتطورها باتجاه حالة «تقومن ذاتي».

Digitized by Birzeit University Library

الحضور الفلسطيني في الادب الالباني

د . محمد موفاكو*

١

في كل ادب هنا ما هو لحظي وادعائي وهناك ما هو ثابت وأصيل . ان هذا الامر بطبيعة الحال يشمل ايضاً الادب الالباني . الا ان الحضور الفلسطيني في هذا الادب ليس شريحة لحظية او ادعائية ، بل انه تعبير عن الموقف المتميز للشعب الالباني ازاء فلسطين والفلسطينيين . وفي الحقيقة ان الشعب الالباني قد يشكل استثناء في المحيط الاوروبي من حيث ارتباطه بفلسطين ، الشيء الذي يبدو بوضوح في ادب هذا الشعب ، ولا شك ان هذا الارتباط بفلسطين يمكن ان يفهم فقط بالاستناد الى الروابط التاريخية من ناحية ، والى مغزى المصير الفلسطيني للشعب الالباني من ناحية اخرى .

فمع توسع الامبراطورية العثمانية نحو الشمال (البلقان) ونحو الجنوب (المشرق العربي) اصبحت المناطق الالبانية لعدة قرون جزءاً من الشرق ، سواء بالمفهوم الجيوبوليتيكي او بالمفهوم الثقافي ـ الحضاري . وفي اطار هذا « الشرق » ، وبالتحديد هذه الدولة الواحدة ، تقاسم الالبانيون العيش مع العرب ومع غيرهم من الشعوب عدة قرون ، حتى مطلع القرن العشرين . وخلال هذه القرون الاربعة الاخيرة اختلط الالبانيون بالعرب الى حد ان كثيراً من الالبانيين بقوا في البلاد العربية ، وبالتحديد في فلسطين ، حيث استقروا هناك . ومع هذا الاختلاط كان من الطبيعي ان تنشأ مشاعر جديدة وان ينظر الالبانيون

---

* كاتب ومترجم يوغسلافي.

Digitized by Birzeit University Library

الى فلسطين نظرة خاصة ، لاعتبارات دينية وغير دينية ، اي كمكان مقدس يمكن ان يضحوا بحياتهم في سبيله . ويكفي ان نذكر هنا ما فعله نابليون بونابرت مع الالبانيين الذين كانوا يدافعون عن يافا خلال حصاره لها . فقد كان قد اعتقل بعد احتلاله للعريش ثم لغزه عدة آلاف من الالبانيين وأطلق سراحهم على شرط الا يعودوا لقتاله ، ولكنهم ذهبوا الى يافا وحاربوا هناك الى ان فُرض عليهم الاستسلام . وقد أمر نابليون حينئذ بقتلهم ، وكان عددهم حوالي ثلاثة آلاف الباني ، في ١٠ آذار ١٧٩٩ ، وتركهم في العراء طعاماً للجوارح مما اثار عليه نقمة التاريخ . وقد تكرر هذا الموقف بعد قرن ونصف حين اصبحت فلسطين مهددة بالخطر الصهيوني . ففي ذلك الحين هب الالبانيون القاطنون في فلسطين ، بالاضافة الى المتطوعين القادمين من سوريا وحتى من تركيا ، في مشاركة اخوانهم العرب في الدفاع عن فلسطين من الخطر الذي يتهددها . وربما تجدر الاشارة هنا الى ان اول رئيس للحكومة الفلسطينية التي أعلنت حينئذ في غزة ، احمد حلمي ، كان من الالبانيين الذين استقروا في فلسطين .

وبالاضافة الى تأثير الحياة المشتركة ، او الى ذكريات تلك الحياة التي انتقلت من الاباء الى الابناء ، كانت فلسطين تشد انتباه الالبانيين لسبب آخر ، الا وهو مغزى المصير الفلسطيني بالنسبة للالبانيين . فمن المعروف ان الالبانيين يعشقون الحرية والاستقلالية ولذلك فقد كافحوا وعانوا كثيراً للحفاظ على حريتهم واستقلاليتهم . ومن هنا فان الالبانيين يقدرون كثيراً كفاح الشعوب الاخرى ، سواء المجاورة او البعيدة ، في سبيل الحرية والاستقلال . ومن المعروف هنا ان الالبانيين شاركوا بحماس كبير في الحركة القومية التحررية سواء في اليونان او في ايطاليا خلال القرن ١٩ . ولهذا فانّ مصير الشعب الفلسطيني يبعث في وسط الالبانيين ذلك الذي عانوه وعايشوه في الماضي .

٢

تمتد الدياسبورا الالبانية عبر القارات الاربعة ، الا ان الادب الالباني الآن يعتمد على منبعين كبيرين ، البانيا ويوغسلافيا ، حيث يتوزع الالبانيون تقريباً بالتساوي . ومع ان الادب الالباني يعتبر وحدة لا تتجزأ الا ان كل فرع في الواقع يتميز بنكهة خاصة . فالادب الالباني في يوغسلافيا يتميز من حيث المضمون والشكل عن الادب الالباني في البانيا ، وذلك لخصوصية التجربتين في هذين البلدين . وفي الواقع ان التجربة الغنية للشعب الالباني في يوغسلافيا أدت الى ان يغتني هذا الفرع من الادب الالباني بالموتيفات الخارجية . فمن المعروف ان الشعب الالباني في يوغسلافيا عايش خلال ١٩١٨ ـ ١٩٤١ وضعاً لا يحتمل بعد ان مورست ضده كل وسيلة لاقتلاعه من ارضه ورميه خارج الحدود . ولكن مع انتصار القوى الديمقراطية التقدمية ، تحت قيادة تيتو ، التي كانت ترفض ذلك الارهاب الموجه ضد الالبانيين ، فقد اتيح للالبانيين اخيراً في يوغسلافيا الجديدة ان يتمتعوا بحقوقهم القومية الاساسية . ومن ذلك كان يكفي ان يتمتع الالبانيون بحق تعلم اللغة الالبانية والتعبير بهذه اللغة عن ادبهم الجديد ، الشيء الذي كانوا

Digitized by Birzeit University Library

محرومين منه تماماً في العهد الملكي ١٩١٨ - ١٩٤١ . ومن هنا ليس من المصادفة ابداً ان تبرز فوراً في هذا الادب الجديد خلال الخمسينات الموتيفات الجزائرية التي تعبر عن تضامن الالبانيين مع اخوانهم الجزائريين في كفاحهم لاجل الحرية والاستقلال ، وهو الشي الذي كان له مغزاه بطبيعة الحال بالنسبة الى الالبانيين في يوغسلافيا .

وفي منتصف الستينات (١٩٦٥ - ١٩٦٧) لا نستغرب في هذا السياق ما نجده من بروز للموتيفات الفلسطينية في محل الموتيفات الجزائرية ، بعد ان احرز الجزائريون حريتهم واستقلالهم . وقد كان لهذا التحول ايضاً مغزاه . فقد كان الالبانيون حينئذ (١٩٦٦) قد تحرروا من « القبضة القوية » ، التي هي تعبير يوغسلافي عن « دولة اجهزة الامن » بقيادة أ . رانكوفيتش التي كانت تتحكم في الواقع بالدولة الشرعية التي كان يمثلها في الخارج تيتو ، وأصبحوا منذ ذلك الحين يتمتعون بوحدة فدرالية متساوية مع بقية الوحدات الفدرالية السبعة في يوغسلافيا . وبالاضافة الى هذا تجدر الاشارة الى الموقف المبدئي للرئيس تيتو من القضية الفلسطينية ، الذي ساهم في خلق مناخ مؤيد للفلسطينيين في يوغسلافيا . ومع ذلك يمكن القول بحرية ان اي ادب في يوغسلافيا لا يمكن ان يقارن ، من حيث انتشار الموتيفات الفلسطينية ، مع الادب الالباني . ان هذا يدل على ان الالبانيين ، مع انهم يتمتعون الآن بالحرية والمساواة ، ما زالوا يشعرون بأحاسيس خاصة ازاء الفلسطينيين لانهم قد خبروا بأنفسهم « المصير الفلسطيني » خلال سنوات ١٩١٨ - ١٩٤١ .

٣

يتميز الادب الالباني في يوغسلافيا من حيث ان الموتيفات الفلسطينية تنتشر في كل اتجاه ، اذ انها تواجهنا في الشعر كما في النثر ، ونجدها في شعر الاطفال كما نجدها في شعر الكبار ، ونجدها في قصائد الشعراء الشباب كما نجدها في قصائد الشعراء المعروفين . والاكثر من هذا ان الموتيفات الفلسطينية نجدها حتى في الشعر الذي يكتبه الاطفال في جرائدهم ومجلاتهم ! وهكذا لدينا في هذا الادب ما يشبه « السيل الشعري » : احياناً يسيل بهدوء واحياناً بعنف ، الا ان منبعه لا ينضب ابداً . وفي هذا « السيل الشعري » لدينا ابداعات متفاوتة بطبيعة الحال طالما انها صدرت عن اجيال مختلفة في لحظات مختلفة . فلدى الشعراء الشباب لدينا احياناً او غالباً صياغات شعرية للاحداث اليومية ، للمآسي المؤثرة التي تحدث من حين الى آخر في الجانب الفلسطيني ، ولردات الفعل التي لا يمكن او لا تريد ان تنتظر طويلاً ، وبعبارة اخرى لدينا هنا « شعر فلسطين » لا يختلف كثيراً عن شعر « الرومانسية الثورية » الذي يبدعه بعض الشعراء الفلسطينيين . ولكن في الجانب الآخر ، لدى الشعراء الكبار ، لدينا معاينة شعرية اعمق للمصير الفلسطيني ، وهي تعبر عن نفسها بقيم فنية اكبر ، بحيث ترفع مأساة الشعب الفلسطيني الى المستوى الانساني باعتبارها مأساة تقلق كل انسان يتمتع بضمير .

Digitized by Birzeit University Library

طالما ان الموتيفات الفلسطينية تنتشر بهذا الشكل في الادب الالباني فليس من السهل بطبيعة الحال التعريف بها في مجال محدود كهذا . وفي هذه الحالة لا بد من الاختيار ، في مجال الشعر مثلاً ، وحتى بين قصائد الشعراء المعروفين الذين نجدهم عادة في المختارات التي تمثل الشعر الالباني .

من هؤلاء الشعراء لدينا شاعر مخضرم ، انور جرتشيكو Enver Gjergeku (١٩٢٨) ، الذي كان ممن عايشوا كل التحولات التي لحقت بيوغسلافيا . وكان هذا الشاعر قد كتب قصيدة عن تل الزعتر وشارك بها في « مهرجان الشعر الثوري » في جنوب يوغسلافيا خلال ١٩٧٩ قبل ان تنشر في عدة مجلات ومختارات . وفي هذه القصيدة الطويلة يرسم جرتشيكو بحزن بالغ كأي فلسطيني مرارة الوضع الفلسطيني ولكن سرعان ما يأخذ منه الرمز بالنسبة للمستقبل الفلسطيني :

تل الزعتر
انت شاطىء بحر دون نهاية
دون صخور ، دون رمال ،
انت وطني المصغر
الذي ترسمه اصابع وايادي الاطفال

انت من اكثر الاغنيات حزنا
التي تغنى للطفل
المولود بين الحب والحقد
للطفل الذي لم يتعلم بعد نطق أسم امه .

انت السورة الاولى والاخيرة
لقرآن جديد ،
لقرآن محفور على الجماجم . .

ومن الشعراء المعروفين الذين كتبوا عن فلسطين لا بد ان نذكر المرحوم آدم غيطاني Adem Gajtani (١٩٣٥ - ١٩٨٢) ، الذي كتب عدة قصائد عن فلسطين وعن الفلسطينيين . وفي قصائد هذا الشاعر نجد كل شيء يتميز بلون فلسطيني ، او ان كل ما يخص فلسطين والفلسطينيين له بالضرورة لون خاص يميزه عن ما عداه في العالم . ففي قصيدة « حب فلسطيني » مثلاً نجد ان حتى الحب بالنسبة للفلسطيني يختلف عن حب الآخرين ، بل ان الفلسطيني لا يمكن ان يحب سوى فلسطين ولذلك لا يمكن ان يحب

Digitized by Birzeit University Library

كما يجب اية امرأة قبل ان ينتهي من حبه الاكبر :

لا ،
ليس لدي وقت
والنظرات
الرفاق ينتظروني
تحت زهرة الدم ،
ليس لدي وقت للمهمات
ولضوء القمر . .

وفي هذا السياق الذي يصطبغ فيه كل شيء فلسطيني بصبغة متميزة تبدو قصيدته الاخرى « رثاء أم فلسطينية » :

يا فلسطين ،
لن ينتزعك احد من حلمنا
لا الليل ولا الطاعون
الآن استريحي على صدري الاسود
واحلمي بطائر العودة
روحك الآن في كفي الحمراء
يا زهرة قطعت بمنقار غراب ،
لا الليل ولا الطاعون
سينتزعانك من حلمنا . .

ولدينا قصيدة اخرى تحمل هذا الواقع ـ الرمز الفلسطيني ، اي الام الفلسطينية ، الا وهي قصيدة « حكاية أم فلسطينية ، للشاعر يعقوب سرابا Jakup Caraja (١٩٥٣) ، حيث يتداخل فيها الماضي مع الواقع والمستقبل بشكل أخاذ :

في تل الزعتر ، في ليلة مظلمة مع ثلاثة اطفال
مع ثلاثة آمال لاغنيتنا التي لم تنشد بعد
أحدهم اصبح يلفظ أمي
والثاني اصبح يعرف ما يعني هذا الاسم وما لا يعني
اما الثالث فأصبح في وسعه ان يحميني
وأنا اصبحت للبكاء فقط
ولكن الآن يقولون لي بألسنتهم وعيونهم :
أماه ، يا أماه ، غني ولا تبكي
غني للمقاومة

Digitized by Birzeit University Library

التي ستحيينا وتنقذنا .

ومن ناحية اخـرى نجـد الشـاعـر محمـد كرفيشي Muhamed Kerveshi (١٩٣٥) في قصيدة « فلسطيني » يرى الليل كرمز للتبشير بالنهار طالما انه لا بد ان ينجلي بحكم قوانين الطبيعة :

النار تمتد على دروبك الطويلة
الا ان النجوم ترشد الليل الى طريق عودته ،
أحصنة طروادة الباهتة تحني رؤوسها
والغبار في اعينهم المغلقة
يرقص رقصة فراقهم الباردة .

ومن الشعراء الذين كتبوا كثيراً عن فلسطين بدري هيسا Bedri Hysa (١٩٣٥) التي تمثل حالة من الذوبان في الذات الفلسطينية . ففي لوحة شعرية مكثفة بعنوان « فلسطين » يعبر هيسا عن هذه العلاقة الخاصة التي تربط ما بين فلسطين والفلسطينيين ببساطة وعظمة في آن واحد :

بين فلسطين والفلسطيني عشق
يفوق كل عشق
بين فلسطين والفلسطيني حب مجنون
ربط بينهما على مر القرون

وعلى الرغم من كل ما حدث حتى الآن
لم تركع فلسطين بعد
ولم يركع الفلسطيني الى الآن .

وفي قصيدة اخرى بعنوان « متى سيأتي فصل الربيع » يسحبنا هيسا وراءه لنتخيل ماذا يعني ذلك اليوم الذي ستفرح فيه فلسطين اخيراً ، بل الذي ستكون فيه أسعد بلد في العالم :

حين يأتي ذلك الفصل
فصل الربيع
مرة والى الابد
ايتها الغالية والمقدسة
للقرابين الكثيرة
وللعمالقة

وحين يلتقيان
ويتعانقان
فلسطين والفلسطينيون

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطينيون وفلسطين
وتشهن فلسطين
ويبكي الفلسطينيون

من بحر دموع الفرحة
ومن بحر اللوعة
ستكون فلسطين اسعد بلد في العالم

آه يا فلسطين ، متى سيأتي ذلك الربيع .

وبالاضافة الى امثال هذه القصائد التي تختزن الموتيفات الفلسطينية ، التي لا يمكن التعريف بها في مجال كهذا ، لدينا عدة قصائد ملحمية مطولة ، حيث ترتفع فلسطين الى مستوى متميز يعبر عن الهم الانساني برؤية فنية خاصة ذات قيمة كبيرة . ومن هذا لدينا عمل بشير موصلي Begir Muusliu (١٩٤٥) « آه يا فلسطين » الذي يتمد عبر مئات الابيات . وفي هذا العمل نجد ان الشاعر موصلي يربط بشكل ناجح بين الادعاء الحديث للشرعية اليهودية على فلسطين بادعاءٍ اقدم ، الا وهو الشرعية اليهودية على سلالة آدم وحواء ، ولذلك يقوم الشاعر هنا بفرز جديد بين ذريّتيْن لادم وحواء ـ ذرية شرعية لـ « آدم البريء وحواء المقدسة » وذرية اخرى غير شرعية لـ « آدم الخاطىء وحواء المذنبة » :

يا ابناء آدم الخاطيء وحواء المذنبة
من حملكم الى هذا السهل الذي ليس سهلا ؟

لنبعث الموت
الذي حملناه على ظهورنا عبر العالم .

ماذا حل بكم
يا ابناء آدم وحواء
من اين جئتم الى هذا السهل الذي ليس سهلا
كنتم ألما على رؤوس الاصابع
ونحت الاظافر منذ آلاف السنين
كنتم حملاً لا يطاق على ظهر كل انسان
وما زلتم تبحثون عن الظلال الضائعة
التي تجدونها فينا
نحن ابناء آدم البريء وحواء المقدسة .

Digitized by Birzeit University Library

وعلى نمط آخر لدينا قصيدة ملحمية طويلة من مئات الابيات بعنوان « فلسطين » للشاعر عمر شكريلي Ymar Shkreli (١٩٤٥) الذي يصور فيها بشكل مؤثر « الوطن » الفلسطيني الذي لا نجد له مثيلاً في العالم :

نحن مثل الطيور المحنطة
ليس لها تراب تمسه باقدامها وليس لها ارض خاصة باسمها
فوطنها الريح والزقزقة
نحن لنا لساننا وعيوننا
نحن مثل الطيور
التي تطير في عكس الرياح
والرياح لا تتوقف لبرهة
نحن ايضاً ليس لنا اعشاش
فأعشاشنا الانقاض الفحمة
وسماؤنا دخان البارود
نحن لا نعيش فوق الارض للموت
ففي الموت يسكن اطفالنا
نحن لا نملك شيئاً الا السماء
ففي السماء لنا الحقول والبيادر
لنا قطرات المطر وقنابل المدافع
في السماء يصفر لنا الرصاص
باسم الفناء والشتاء
نحافظ على العظام والبنادق
لنبني بها البروج والحصون

(*) القي هذا البحث تحت العنوان ذاته في ندوة علمية حول الادب الالباني بتنظيم من « معهد الالبانيات » في مدينة بريشتينا - يوغسلافيا خلال ١٩٨٤ ، وهو يُنشر هنا لأول مرة باللغة العربية .

Digitized by Birzeit University Library

دور نظام كمب ديفيد بعد قمة الدار البيضاء

عماد لطفي ملحس*

هل عاد العرب الى مصر، ام عادت مصر الى العرب؟

سؤال تردد على السنة المحللّين والسياسيين والكتـّاب قبل قمة الدار البيضاء وبعدها، ومايزال مطروحاً وبقوّة حتى الآن، ومن عجب أن تتفاوت الاجابات عليه، بل أن تتضارب وتتناقض في بعض الأحيان، خاصة في صفوف القوى الوطنية العربية، وفي صفوف القوى الرافضة لاتفاقات «كمب ديفيد» تحديداً. وليس هدف هذه المقالة تفنيد الاجابات المختلفة، والوقوف على مضامينها ومدلولاتها، وخاصة «اليسراوية» منها، فهذا له مجال آخر، ولكنا هنا سنحاول وضع السؤال في صيغته التي ينبغي أن يطرح فيها، والاجابة عليه من وجهة نظرنا. . والأهم من ذلك أن نحلل مغزى عودة النظام في مصر الى جامعة الدول العربية، وماسيترتب على هذه العودة من نتائج وخطوات، وماستضفيه من تأثيرات على «النظام العربي».

---

* كاتب ومترجم من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

ولنعد الى السؤال السابق، وهو سؤال يتسّم بعدم الدقة، بل وعدم التحديد. ولعلّ طرحه بهذه الصيغة غير المحدّدة وغير الدقيقة، لم يأت عبثاً بالنسبة لبعض الذين يطرحونه.. فهم يبتغون من وراء ذلك أحداث المزيد من الخلط والتشويش والتشويه للمفاهيم السياسية، وارباك الجماهير الشعبية، بهدف التهيئة للاجابة «البراغماتية» عليه.

من هم «العرب» الذين نتحدث عنهم، ومن هي «مصر» المقصودة بالسؤال، وما معنى «عودة» احدهما الى الآخر؟

اذا كنا نعني بالعرب هنا «الانظمة الرسمية العربية»، واذا كانت «مصر» تعني «النظام في مصر»، فان السؤال يصبح غير ذي جدوى، لأن النظام الحالي في مصر ما هو الاّ امتداد لنظام السادات الذي زار القدس، ووقع اتفاقيات «كمب ديفيد» مع العدوّ الامريكي ـ الصهيوني، مادام هذا النظام مايزال متمسكاً بهذه الاتفاقيات، مدافعاً عنها، ومادام العلم الصهيوني مايزال يرفرف في سماء القاهرة، ومادام هذا النظام يسعى بكلّ قوته لتعميم «كامب ديفيد» عربياً، بدلاً من شطبه والغائه.

أما الأنظمة العربية، فغالبيتها العظمى قد أيدّت مبادرة روجرز، ثم اتفاقات فك الاشتباك الثاني في ايلول ١٩٧٥ الذي كان يعني بوضوح الاعتراف بشرعية الوجود الصهيوني وكيانه المسمى «اسرائيل»، هذا الاتفاق الذي هيأ لاتفاقات «كامب ديفيد».. وهذه الانظمة هي التي وافقت على القرار ٢٤٢ الذي كان الأسّ الذي استندت اليه اتفاقات فك الاشتباك، ومن ثم اتفاقات «كمب ديفيد». وهي الانظمة عينها التي ضربت بقرارات قمة بغداد عرض الحائط، فاقامت علاقات متنوعة ومتباينة مع نظام كامب ديفيد، سراً وعلانية، طيلة السنوات العشر الماضية، وهي التي فرضت الحصار على الجماهير العربية في مصر، وقمعت كل من اراد أن يمدّ يد العون لها ولقواها الوطنية. وهي التي أجهزت في قمة عمّان على قرارات قمة بغداد اجهازاً نهائياً، وعلنياً، حينما اطلقت يد كل نظام في تحديد خياراته السياسية و ير السياسية، وخاصة تجاه نظام كمب ديفيد، واعتبرت ذلك «عملاً من اعمال السيادة!».. فكان من نتيجة ذلك أن أعيدت العلاقات الرسمية العلنية بين الانظمة العربية جُلّها، وبين نظام كمب ديفيد، وضمن فترة قياسية! وعادت أجهزة هذا النظام تمارس دورها في كل المؤسسات العربية السياسية والاجتماعية والثقافية والنقابية والرياضية..

فعن أية «عودة» نتحدث، اذا كانت القطيعة لم تكن موجودة أصلاً قبل قمة الدار البيضاء، واذا كانت قرارات قمة بغداد قد ظلت طيلة عقد من الزمان حبراً على ورق، واذا كانت عزلة نظام كامب ديفيد لاتختلف عن العزلة التي عانى ويعاني منها كل نظام عربي؟!.

لقد ثبت بما لايدع مجالاً لأي شك، ان الخلاف داخل النظام العربي ـ ان جازت تسميته بالخلاف ـ لايعدو أن يكون خلافاً حول صيغة انهاء الصراع العربي ـ الصهيوني، وتصفية القضية الفلسطينية، وحول دور كل نظام في ذلك. ولانغالي ان قلنا ان غالبية الانظمة العربية، ترى في استمرار العلاقات بين النظام في مصر والكيان الصهيوني عاملاً ايجابياً، بل وضرورياً، لاستمرار خطوات التسوية التصفوية القادمة، سواء تمّ ذلك عن طريق مؤتمر دولي، أو من خلال أية صيغة تفاوضية مع العدو الصهيوني، ثنائية

Digitized by Birzeit University Library

أو خماسية، أو غير ذلك.

أما اذا كان المقصود بـ «العرب»، الجماهير العربية عامة وبـ «مصر» الجماهير العربية في مصر، فكلاهما ليس بحاجة «للعودة» للآخر، فالجماهير العربية في مصر جزء من جماهير الأمة العربية، ولاعلاقة لها باتفاقات «كمب ديفيد»، ولم يستفتها أحد بشأن هذه الاتفاقات، ولابغيرها من السياسات والخطوات.. ولقد اثبتت هذه الجماهير قولاً وفعلاً أنها ضد «كمب ديفيد»، وضد سياسة الاستسلام للاعداء عامة، وخاضت نضالات مشهودة ضدّها، رغم القمع الشديد والتنكيل المتواصل. واذا كان قسم من هذه الجماهير العريضة قد ضلّلته تبريرات نظام كامب ديفيد، حينما أوهمته بأن سبب مشكلته المعاشية المتفاقمة يعود الى «التضحيات» التي تبذلها «مصر» في محاربة «اسرائيل» ومايستلزمه ذلك من امكانات هائلة، ستتحول لمصلحة المواطن في حالة وقف حالة الحرب والعداء مع الكيان الصهيوني، فسرعان ما اكتشف هذا القسم الحقيقة، لأن «كامب ديفيد» لم تحلّ المشكلة، بل زادت من تعقيدها الى حدّ الانفجار.

لهذا كله، فان السؤال الذي ينبغي التركيز عليه هو: ما الذي سيترتب على فتح ابواب جامعة الدول العربية لنظام كامب ديفيد من نتائج، وما هو الدور المطلوب من هذا النظام ان يلعبه على صعيد «النظام العربي» العام، وفيما يتعلق بقضية الصراع العربي ـ الصهيوني، الذي أصبح يُسمّى باللغة العربية الرسمية «نزاع الشرق الاوسط!»؟

لاشك مطلقاً في أن أخطر مدلولات فتح أبواب جامعة الدول العربية امام النظام في مصر، بالصيغة التي تم فيها، تكمن في تكريس اتفاقات ونهج كمب ديفيد، وتعميمها لتصبح نهجاً عربياً رسمياً، والانتقال من خلال ذلك الى خطوات استسلامية جديدة، ينتظر ان تتبلور بمزيد من الوضوح في القمة العادية المرتقبة. ممّا يسقط نظرياً وعملياً قومية الصراع ضد الامبريالية الاميركية والعدو الصهيوني، ويجعل سياسة التصالح والتوافق مع معسكر الأعداء القوميين والطبقيين، السياسة السائدة التي لابديل عنها، ويجعل من سياسة التضامن العربي مظلّة لتكريس القطرية، والكيانية الاقليمية، وتعميق التجزئة في الوطن العربي.

واذا كان بامكان نظام كمب ديفيد أن يعود معززاً مكرّماً الى «حظيرة» النظام العربي، بعد كل الذي ارتكبه بحق القضية القومية، فذلك يفتح المجال واسعاً أمام اي طرف عربي، وبخاصة أمام الطرف الفلسطيني، لاتخاذ المنحى عينه دون خوف من النتائج، ودون أن يتعرض لاية قطيعة أو حتى لأي نقد، خاصة وان الانظمة الرسمية العربية قد أصبحت الآن مهيأة تماماً لقبول ذلك، ان لم نقل أنها تدفع الامور بهذا الاتجاه..

من هنا، جاء ترحيب واشنطن وتل ابيب، والدوائر البرجوازية الرجعية العربية المستسلمة، بـ «عودة» نظام كمب ديفيد الى جامعة الدول العربية، بعد ان بات واضحاً ان هذا النظام مكبّل تماماً بهذه الاتفاقات، وبمفاعيلها السياسية والاقتصادية التي تراكمت خلال العقد المنصرم، وأنه لن يتمكن من التنكّر لها، أو التراجع عنها لسنوات طويلة مقبلة، لو افترضنا أنه سيفكّر بذلك، وهو ما لايفكّر فيه بطبيعة الحال.

Digitized by Birzeit University Library

ويعيدنا هذا الموقف، الى ماكان قد قاله «مناحيم بيغن» عقب توقيع اتفاقات كمب ديفيد، تعليقاً على ما أسماه بالمجهود الرائع لما حدث في الخلوة الدولية: «ان مافعلناه أكثر أهمية مما قام به أجدادنا بُناة الأهرام»! كما يذكرّنا بنبرة التفاؤل التي كان يتحدث بها كل من السادات وكيسنجر، حول انضمام الانظمة العربية الأخرى لنهج كمب ديفيد، والتحاقهم الحتمي به. اي التحاقهم بركب «السلام الاسرائيلي» الذي يقوم على عناصر أساسية ثلاث: التفوق العسكري، والشرعية الاقليمية، والتحكمّ المطلق في المنطقة!

ويعكسّ هذا الترحيب الامبريالي - الصهيوني - الرجعي (- أو عدم الممانعة على الأقل)، طبيعة المخطط المعادي، الذي يقوم على تصفية القضية القومية العربية، وقضية تحرير فلسطين في البؤرة منها، واستثمار الانفتاح الرسمي العربي على نظام كمب ديفيد، باعطاء هذا النظام دوراً أكبر في «تجسير الفجوة» بين الكيان الصهيوني والانظمة العربية، بعد أن تمكنت الامبريالية الاميركية من وضع نفسها خارج دائرة العداء مع الانظمة، والتحوّل للعب دور «الشريك»، أو «الوسيط»، أوحتى «الحكم»، بينما هي في الواقع العدو الرئيس الأشد خطورة، الذي يحمي الكيان الصهيوني ويدعمه ويموّله ويسلحّه.

ولم ينتظر نظام كمب ديفيد طويلاً بعد قمة الدار البيضاء، للاستمرار بدوره المرسوم، حيث واصل اتصالاته بالعدو الصهيوني، فاوفد وزير خارجيته بطرس غالي الى تل أبيب، والتقى كبار المسؤولين الصهاينة، وعدداً من الشخصيات الفلسطينية العاملة من أجل التسوية التصفوية.. وكان الهدف الرئيس لزيارة غالي ولقاءاته، بحث مشروع شامير للانتخابات في الضفة الغربية وقطاع غزة، تحت ستار استجلاء تفاصيل المشروع الخطير، الذي يشترط اول مايشترط وقف الانتفاضة العظيمة للشعب العربي في فلسطين المغتصبة، ويتضمّن صيغة أدنى مما تضمنته اتفاقات كمب ديفيد في شقّها الفلسطيني. ولن ندخل هنا بالطبع في بحث تفاصيل المشروعين، ونقاط اللقاء والاختلاف بينهما، لاننا ان فعلنا ذلك، فسنسهم في انجاح خطة القوى المعادية لامتنا العربية التي تريد خلق جوّ من الحوار حول مثل هذه المشاريع المرفوضة جملة وتفصيلاً، ومن حيث المبدأ، للوصول في النهاية الى صيغة تحقق للعدو الصهيوني ماعجز عن تحقيقه حتى الآن.

وتزامنت زيارة بطرس غالي لتل ابيب، مع زيارة قام بها ياسر عرفات الى القاهرة، ومع اعلان نظام كمب ديفيد استعداده للعب دور الوسيط بين قيادة عرفات وجارته «اسرائيل»! وهو الأمر الذي رفضه المسؤولون الصهاينة، انطلاقاً من الثوابت التي حددّوها مراراً، والتي جرى التوافق عليها بين تكتل الليكود وحزب العمل الصهيوني، وهي تنصّ على رفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، والتفاوض مع «فلسطينيين من المناطق»، والمقصود بـ «المناطق» هنا باللغة «الاسرائيلية»: الضفة الغربية وقطاع غزة المغتصبين.. وكذلك على ضرورة انهاء الانتفاضة الباسلة، واستبعاد سكان القدس الشرقية من الانتخابات في حال حدوثها..

وخلال ذلك وبعده، صدرت تصريحات رسمية عربية، تعلن صراحة أو ضمناً استعداد هذه الأطراف التنازل عن الشرط الذي حددّته قمة الدار البيضاء، والذي ربط بين موضوع الانتخابات، والانسحاب «الاسرائيلي» من الضفّة والقطاع.. واستبدال الانسحاب المسبق بفكرة اشراف القوتين

Digitized by Birzeit University Library

العظمين، او الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، أو مراقبين من هيئة الأمم المتحدة على هذه الانتخابات. . وان مجرّد قبول مبدأ بحث تفاصيل مشروع الانتخابات الصهيوني، يؤشر الى بداية العدّ العكسي للتنازلات المقبلة، وفي تقديري أن ذلك سيقود حتماً الى القبول بهذا المشروع بشكل من الاشكال. . لأن ماكان مرفوضاً قبل عدة سنوات أصبح الآن بالنسبة لخط التسوية ورموزه ليس مقبولاً نحسب، بل وأساساً من أسس التحرك. من كان يتصور أن يصبح الاعتراف بوجود الكيان الصهيوني مسلّمة لانقاش حولها، وان يُتّهم الرافضون بالاعتراف بوجوده بأنهم «لاواقعيون» و «جهلة» و «مغامرون» بل وحتى «ارهابيون»؟!

وانسجاماً مع هذا الاتجاه التصفوي، اعلنت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تشكيل «مجموعة عمل» خاصة لدراسة مشروع الانتخابات، ومتابعة مواقف الاطراف المختلفة منه، كذلك أكدّ ياسر عرفات بعد زيارته للقاهرة، واطلاّعه على ما في جُعبة بطرس غالي القادم من تل أبيب، انه عرض تشكيل وفد فلسطيني من داخل الاراضي المحتلة وخارجها من أجل التفاوض مع الكيان الصهيوني حول خطته اجراء انتخابات محلية في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، لاختيار مفاوضين فلسطينيين حول الحكم الذاتي. (السفير - ٢٤ حزيران ١٩٨٩).

وفي السياق عينه، صدرت تصريحات سوفياتية لم تبتعد كثيراً عن الموقف الذي اتخذته المجموعة الاوروبية في قمتها بمدريد بشأن مشروع الانتخابات، حيث اعتبرته مشروعاً «مفيداً» ولكن في حالة الاستجابة لشروط ثلاث هي:

«ان تكون الانتخابات جزءً من عملية سلام شاملة، وأن يسمح للناخبين العرب في القدس الشرقية بالمشاركة في الانتخابات، «الاّ تستبعد عملية الانتخاب اي حلول للصراع العربي - الاسرائيلي مثل التخلي عن الارض المحتلة في مقابل السلام» (الوطن الكويتية - ٢٨ حزيران ١٩٨٩). ومعلوم أن هذه التصريحات والمواقف قد لقيت ترحيباً شديداً لدى دوائر منظمة التحرير الفلسطينية والدوائر البرجوازية العربية الحاكمة. وقيل أن النظام في مصر لعب دوراً مهماً لدى الدول الاوروبية «لتطوير موقفها» الذي اتخذته في عام ١٩٨٠ فيما اسمي «باعلان البندقية».

وهكذا، تمضي قيادة منظمة التحرير في تنازلاتها، عاملة يداً بيد مع نظام كمب ديفيد، الذي تحظى مواقفه وسياساته بموافقة عربية رسمية، وهذا ما عبرّ عنه قادة دول «مجلس التعاون العربي» الاربع لدى اجتماعاتهم في الاسكندرية، وماتعبرّ عنه بقية الانظمة العربية يومياً، وباشكال مختلفة.

ان نظام كمب ديفيد الذي حاول خنق الانتفاضة الباسلة في فلسطين المغتصبة، وهي ماتزال في شهرها الاول، حينما اقترح مشروع «الهدنة» لستة أشهر، وفشل في مسعاه ذاك، مطلوب منه اليوم، وبعد قمة الدار البيضاء خاصة، أن يعاود الكرّة من جديد، من خلال تسويق مايسمى بـ «خطة السلام الاسرائيلية»، أو «مشروع الانتخابات»، والتي هي في الاساس خطة أمريكية - صهيونية، جرى التوافق عليها بين الحليفين الاستراتيجيين، على ارضية اتفاقات كمب ديفيد، والقرار ٢٤٢. وهي في جوهرها تهدف الى ضرب الانتفاضة الباسلة واجهاضها: باسم «السلام» و «التسوية»، والمحافظة على المصالح

Digitized by Birzeit University Library

الامريكية ـ الصهيونية في الوطن العربي، والمنطقة، دون تقديم أية تنازلات جوهرية . .

والملفت في هذه الخطة، انها لاتعطي النظام في مصر الاّ دوراً هامشياً في حلّ «نزاع الشرق الاوسط» حتى في المرحلة النهائية للمفاوضات التي تفترض الخطة انها ستأتي بعد مرحلة انتقالية مؤقتة مدتها خمس سنوات. وبهذا يتحدد دور النظام في مصر بدور المراقب، انطلاقاً من أنّه لامشكلة له مع الكيان الصهيوني، وانه في حالة سلام معه. لكن الدور الابرز لهذا النظام في اطار الخطة المذكورة، يكمن في الترويج للخطة على الصعيد العربي عامة، والفلسطيني خاصة، وفي «تجسير الفجوة» بين الكيان الصهيوني، والانظمة العربية كما ذكرنا آنفاً.

فهل ينجح نظام كمب ديفيد في مهمته هذه؟

قد يبدو الانهيار العربي أكبر من قدرتنا على التفاؤل الموضوعي، وقد يظنّ البعض أن التسوية قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى، وان الطوق قد أحكم حول رقاب القوى المناضلة، وان لامفرّ من قبول الواقع الجديد الذي فرضه معسكر القوى الامبريالية ـ الصهيونية ـ الرجعية وعمل من اجل خلقه عقدين من الزمان. . غير ان هذا كلّه لايشكل الاّ جانباً واحداً من جوانب صورة الوضع العربي المأزوم. لأن الأزمة تطال أساساً بنية «النظام العربي» برمته، كما تطال الامبريالية الامريكية التي ثبت فشل سياستها في منطقتنا حتى وهي تهاجم بقوتها المسلّحة أجزاء من وطننا العربي، وتطال العدو الصهيوني الذي اربكته حجارة الجماهير العربية الفلسطينية، بل ووضعت وجود كيانه ومستقبله في مهب الريح.

لن نغالي في التفاؤل، لكننا موقنون من الانتصار الحتمي لارادة جماهير الأمة العربية التي لابدّ ان تنتفض في وجه كل اعدائها القوميين والطبقين، حتى لو حققوا انجازات محدودة. . وحينما تتحقق الشروط الموضوعية والذاتية لانتصار هذه الارداة، فستسقط حتماً كل مخططات الأعداء، وستمتلك الجماهير أمرها بيدها، وتستعيد كل حقوقها.

Digitized by Birzeit University Library

محمود درويش.. اننا نختلف°

خالد ابو خالد*

عندما بدأ العدّ التنازلي باتجاه يهدد بالخطورة، القضية الوطنية الفلسطينية، والثورة، وتحديداً منذ بدأ تداول اطروحات سياسية، اتسم طرحها، كما اتسمت مناقشتها، بأقل قدر من الجرأة، بسبب مما واجهته من ردود فعل حادة، على مستوى المثقفين الفلسطينيين، الذين كان لهم دور فعال في البنى التنظيمية للفصائل الفلسطينية التي ينتمون اليها، بسبب من كونهم خارج الحالة الهامشية آنذاك، وإن دانوا عملياً، خارج سياق المعارضة الوطنية الجذرية، بفعل عوامل موضوعية، جعلتهم خارج سلطة القرار، فيما يتعلق بكثير من القضايا، والمهام المطروحة لاعادة بناء البنية العامة للثورة، إثر ما تعرضت له من تشتت وانهيار في أعقاب أيلول ١٩٧٠.

غير أن الذاكرة الفلسطينية، مازالت تحتفظ، بأن بعضاً من الفصائل، الاساسية في الساحة الفلسطينية، قد أخذت موقفاً اتسم بالمعارضة، كما سجلت مواقف نوعية ايجابية، فيما يتعلق بثوابت العمل الفلسطيني الستراتيجية على الصعيد النظري، هذه المواقف التي استقطبت أيضاً بعض المثقفين الذين كتبوا حول ضرورة التصدي لاي خروج على بعض هذه الثوابت، التي تضمنتها المنطلقات الاساسية لحركة فتح، كما تضمنها الميثاق الوطني الفلسطيني، مما بلور ما اصطلح على تسميته «جبهة الرفض الفلسطينية»، خاصة اثر صدور البرنامج المرحلي «برنامج النقاط العشر» الذي سقط بالتصويت داخل المجلس الثوري

---

* شاعر من فلسطين وله عدة مجموعات شعرية.

° جميع الاقواس من وضع الكاتب.

Digitized by Birzeit University Library

لحركة فتح، لكنه نجح على صعيد المجلس الوطني الفلسطيني بمعارضة قليلة، وهو البرنامج الذي مهد عملياً، وطوال سنوات لحالة من «الاصطفاف الفلسطيني» الراهن، والذي أدى الى صدور قرارات مجلس الجزائر الاخير، بلورت خروجاً كاملاً على هذه الثوابت، على الصعيدين النظري والعملي.. بالرغم من أن الظروف الموضوعية للنضال الفلسطيني - خاصة على صعيد الانتفاضة الباسلة والمجيدة - كانت تتطلب المزيد من التمسك بهذه الثوابت، لا التراجع عنها أو الارتداد عليها.. وهنا لابد من الاشارة، بأن سنوات السبعينات قد شهدت صراعاً متصاعداً أحياناً، وخافتاً أحياناً أخرى، أدى في محصلته الى نوع من الترويض للساحة الفلسطينية، ومن ثم الى انهاء «جبهة الرفض» بسبب التغيير الذي حدث في برامج بعض التنظيمات، بحيث أقرت جميعها، علناً، أو بالمواربة، البرنامج المرحلي، فلم تعد هناك عملياً معارضة جادة، متمسكة بالثوابت.

واتسمت ملامح بعض هذه المعارضة بمعارضة حول التفاصيل، أو المخالفات التنظيمية، لكنها أيضاً لم تكن جادة بالقدر الذي يتيح لها أن تؤثر في مجرى وسياق الخطوات التي مهدت بعد عام ١٩٨٢ لاعادة ترتيب «البيت الفلسطيني»، بما يخدم النهج الراهن لمنظمة التحرير الفلسطينية كمؤسسة، غدت ترتدي طابع «الدولة» القادرة على القمع، بمقدار ما هي قادرة على تعميم صورتها كمؤسسة ديمقراطية، بينما احتفظت الذاكرة الفلسطينية بالكثير مما كتب حول نذر الخطر، المحدقة بالساحة الفلسطينية من داخلها. وكان مما احتفظت به آنذاك: . وبعدها افتتاحية محمود درويش في مجلة شؤون فلسطينية. تحت عنوان «الارهاب الأسود» (العدد ٨٠ تموز ١٩٧٨) كما احتفظت لمحمود أيضاً بقصيدته التي نشرها في منفاه «باريس»، والتي كان عنوانها «المتنبيّ»، بحيث بدا المتتبع درويش الشاعر أنه في النثر كما في الشعر، ينذر بما هو أعظم وأخطر، حتى أنه لم يكن يتحفظ شفاهة، تجاه ماكان يروّج حول مؤتمر جنيف، ويحذّر من شراك عديدة - احدها مؤتمر جنيف - تستهدف القضية الفلسطينية والثورة عن طريق المشروعات الخلّبية، مؤكداً أنه يصدر في كل ماكتبه، ومايقوله عن معلومات حصل عليها بفعل، وبحكم علاقته بالداخل..

وبعيداً عن سرد المسافة بين أواخر السبعينات ونهاية الثمانينات التي قطعها محمود درويش على الصعيد السياسي، كما على الصعيد النقابي السياسي، واقتراباً من محصلات التفكير لديه، نشير إلى تلك المقابلة التي جرت بينه، وبين موفد من جريدة «يديعوت أحرونوت» الصهيونية، والتي سجلها الموفد بصيغة مقالة تتضمن نصوصاً قالها محمود، والتي أكد فيها مقولات جديدة، ومختلفة على لسان درويش، دعا فيها إلى لقاء أدبي فلسطيني يهودي - عقب عليها الفنان الشهيد ناجي العلي في حينه - حيث أورد موفد يديعوت أحرونوت قول درويش «إنني أطرح اقتراحاً عملياً - بصفي شاعراً فلسطينياً - وبصفتي مسؤولاً عن الشؤون الثقافية في منظمة التحرير الفلسطينية لاقامة لقاء أدباء وشعراء «اسرائيليين وفلسطينيين»، ونجري حواراً مفتوحاً، في أي مكان يختاره «الاسرائيليون». وأناأطالب فقط بشرط واحد من نظرائي «الاسرائيليين»، هو أن يعترفوا بقيامنا، وبحقوقنا، وباستثناء هذا الشرط، لايوجد أي حاجز، أو أي قيد، وأساس اقتراحي هو الاعتراف الذي أطلبه من نظرائي «الاسرائيليين»، حيث أن الطرفين موجودان في أزمة، وبحاجة للسلام».

Digitized by Birzeit University Library

وكان مثيراً للدهشة، أن يبادر محمود إلى دعوة كهذه، مساوياً الجلاد بالضحية. وهي دهشة تدعو إلى علم التصديق، وإلى القناعة بأن الصحفي الصهيوني، لايعدو كونه ملفّقاً كبيراً، يستهدف تشويه رمز ثقافي من رموز الثقافة الوطنية الفلسطينية، يؤكد ذلك نوع من السخرية، والتهكم اللذين سجلهما الصحفي الصهيوني في نهاية مقاله بالقول «عندما سألته، ماهو مصدر هذا التطور؟ التسامح؟ أم الكرم؟ أم الانهزامية الفلسطينية»؟ مسجلاً إجابة درويش على هذا التساؤل المتهكم.. «إن مصدر ذلك يكمن في وجهة النظر الثقافية، وللثقافة كما هو معروف يوجد جانب تسامحي، ومصدر آخر كامن في أحلامنا».

وكان الصحفي الصهيوني قد سجل لدرويش في بداية الحوار مانصّه: «إن للأدب قوة، فالأدب يقرب بين الشعوب وبين الثقافات، والأدب «كالسلام» يبحر من فوق المحيطات».

وكم هو مثير للاستغراب مثل هذا النص، ذلك أن درويش الذي يعرف تماماً الفرق بين الأدب والأدب الانساني، بين الأدب التقدمي، والأدب الرجعي، بين الأدب الوطني، والأدب العنصري، لم يأت في هذا النص على هذا التفريق، مما قاد إلى القناعة، بأن الحديث بمجمله لم يتجاوز قدرة صحفي صهيوني على الاختلاق والتلفيق بهدف تشويه صورة درويش لدى قارئه العربي..

ولم تتغير هذه القناعة، حتى بعد أن صرح «الطاهر بن جلّون» - الذي تربطه بدرويش علاقة خاصة - للصحافة الصهيونية، بأن الصراع العربي الصهيوني، والقضية الفلسطينية من الممكن حلها بالمحبة والأخوة بين الشعبين.

وما زلت أذكر، أنني، ويوم قرأت الترجمة العربية لما كتبه الصحفي الصهيوني، والذي اقتطفت منه الجمل السابقة، قررت أن أكتب مقالاً أناقش فيه كل هذه المقولات التي وردت، اخترت له مدخلاً آخر غير الهجوم على درويش، ومن منظور يشكك بمصداقية الصحفي الصهيوني.. لعدة أسباب أهمها مايلي..

أولاً: لأنني كنت مقتنعاً بعدم مصداقية أي صحفي صهيوني..

ثانياً: لأنني لا أميل إلى هذا النوع من المناقشات التي ترتدي طابع المهاترة.. لا المناقشة الموضوعية التي تستهدف الوصول إلى الحقائق.

ثالثاً: أن المهم هو مناقشة المقولات التي وردت، وإضاءة الخلل الذي تعبرعنه في الساحة الفلسطينية بغض النظر عن صاحبها.

رابعاً: أزعم أنني كنت ومازلت مقتنعاً أن هذه الطروحات غريبة عن قصيدة درويش، وتاريخه - تحت الاحتلال الصهيوني -..

ولهذا فقد كتبت تحت تأثير هذه الاسباب والاعتبارات مختتماً مناقشتي بانتظار أن يكذب الشاعر الفلسطيني محمود درويش، ما ورد في الصحيفة الصهيونية. لكنه لم يفعل.. والمؤسف أن اشارة واحدة وردت في مجلة ٤٨ في عددها الأول، وهي المجلة التي يصدرها كتاب فلسطين المحتلة، ويرأس تحريرها سميح القاسم، أكدت أن ما قاله محمود في هذا اللقاء لم يكن تلفيقاً، أو اختلاقاً صهيونياً، حيث ذكر مدير تحرير المجلة في الصفحة «١٩٠»، وتحت عنوان قضايا ثقافية، بأن درويش قد دعا بالفعل لمثل هذا اللقاء

Digitized by Birzeit University Library

بين الكتاب العرب واليهود . . كما أورد تحت العنوان ذاته ما نصه معاتباً الصحف العبرية «حين قتل الفتى اليهودي» رامي حبش» في إحدى المستوطنات القائمة على الأراضي المحتلة في الضفة الغربية بسقوط حجر على رأسه، كتب اميل حبيبي أنه اذاثبت أن فلسطينياً قتل هذا الفتى بهذه الطريقة فانه يعتبره عدواً للشعب الفلسطيني، وعدواً شخصياً للكاتب. ولم تنقل صحيفة عبرية مثل هذا التصريح» . .

يجيء هذا التصريح، لكي يكامل المشهد التهافتي كله، اذ لم تمض أسابيع قليلة على بشر لقاء «يديعوت احرونوت» الصهيونية، حتى طلعت علينا بعض صحف الارض المحتلة، بوثيقة . . . وخبر. . .

أما الخبر، فهو اجتماع لجنة الكتاب، والفنانين والاكاديميين «الاسرائيليين» والفلسطينيين، ضد الاحتلال ومن أجل السلام، وحرية التعبير في «بيت أغرون» في القدس الغربية، بينما جاءت الوثيقة تحت عنوان «اتفاق سلام اسرائيلي فلسطيني» والتي صيغت بحضور اميل حبيبي، ووقعها نفر من الكتاب الفلسطينيين والصهاينة ونصت في بندها الرابع على «القدس مجردة من السلاح وبحدود مفتوحة»، باعتبارها عاصمتين في مدينة واحدة لكل من الكيان الصهيوني والدولة الفلسطينية».

وبالرغم من أن الخبر، والوثيقة قد نشرا أيضاً في بعض الصحف العربية خارج فلسطين، وبالرغم من أن الانباء الواردة من تونس، ومن أوساط الكتاب الفلسطينيين هناك، قد أكدت أن مشروع الوثيقة هذا، إنما جاء نتيجة سلسلة من الاتصالات، والترتيبات، وأن العمل على إخراجها قد بودر به قبل أكثر من سنة من تاريخها، وأن أوساط تونس الفلسطينية تستهدف أن تحمل الوثيقة أكثر من الف توقيع، غير أن ذلك لم يحدث، بسبب من إحجام الكثيرين من الكتاب، والادباء والشعراء الفلسطينيين عن توقيعها. . لكن صدورها لم يثر ضجة، لان الموقعين عليها، لا يملكون أي رصيد أدبي يوحي، أو يتمتع بالاهمية. وكان بسام الشكعة هو الوحيد من الشخصيات الوطنية في فلسطين المحتلة ـ على ما نعلم ـ الذي علق عليها، وشجبها، كما شجب وثيقة أبو شريف بالاشارة لا بالنص بقوله: «ان مثل هذه القضايا والتصريحات والاتفاقيات لا تعني الاهل في الداخل، لان الموقف السياسي للمواطنين، واضح تمام الوضوح في القضايا المصيرية». ومضى الشكعة يقول: «ان أية خطوة أخرى تخرج عن هذا المفهوم، وهذه الاسس ستكون في خدمة الخط الامبريالي، ومنسجمة مع مخططاته». وقد أدلى الشكعة بهذا التصريح في الحادي و العشرين من حزيران عام ١٩٨٨.

أما الذي حدث بعد ذلك، فهو أن دماً كثيراً قد تدفق . . كما سال حبر كثيراً أيضاً، وتبين للمتتبع، أن مجريات الساحة الفلسطينية على صعيد الانتفاضة الباسلة على أرض فلسطين، أصبحت مصدر قلق واقعي أكثر فأكثر للعدو الصهيوني، كما للامبريالية الاميركية، والرجعية العربية، وقوى الردة في المنطقة، وأن المؤشرات التي تولدها الانتفاضة، تشير الى أن حالة الصراع على الارض الفلسطينية مرشحة للتصعيد، أكثر مما هي مرشحة للانهاء. . أو التلاشي، وأن اطروحات التفاوض، والاعتراف، والتعايش مع العدو الصهيوني تلتقى ـ بوعي أو بدون وعي . . بقصد أو بدون قصد ـ ببرنامج أعداء الشعب الفلسطيني في تصفية الانتفاضة، وأن هذه الاطروحات بحاجة الى نوع من الرفد الثقافي، وأن على البعض أن يواصل ما بدأه، لكن على صفحات الصحف العربية والفلسطينية تجنباً للالتباس، أو سوء التأويل هذه المرة. .

Digitized by Birzeit University Library

ويبدو أنه كان من الضروري أن تطول هذه المقدمة، حتى يتضح السياق، وتتوضح المحصلات في الحوار الذي أجراه عادل الجوهري في القاهرة مع محمود درويش، والذي نشرته مجلة «الازمنة العربية» على الصفحات «٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧» تحت عنوان مقتطف من الحوار «القصيدة تعبير عن الضمير أما الخطاب السياسي فتعبير عن الواقع».

وحتى تكون مناقشة ما جاء في هذا الحوار خارج أية متاهة، وخارج أية اعتبارات تعسفية، لابد من تثبيت بعض مقولات درويش كما وردت، ومناقشتها مقولة مقولة..

يقول درويش:

- «نحن لا نتعجل الحلول... لكننا أيضاً لا نبدد الفرص، ويكفي أن العرب بددوا الكثير من الفرص التاريخية..
- الانتفاضة في معناها السياسي، هي التفاوض مع «الحكومة الاسرائيلية» أياً كان نوعها أو شكلها «ليكود» «حزب عمل» متدينين لا يهم لكن الاطار الذي تتم تحته المفاوضات هو المؤتمر الدولي.
- أي «أن» قبول الاسرائيليين للوجود الفلسطيني، وحتمية الانسحاب من الاراضي المحتلة، والاعتراف بحق الفلسطينيين في وطن مستقل، لن يأتي الا بالتفاوض بين «الشرعية الاسرائيلية»، وبين الشرعية الفلسطينية، أي منظمة التحرير الفلسطينية.
- هناك خاتمة لكل صراع، وهناك سلام لاشك فيه. وليس أمامنا الان سوى السلام الواقعي.
- القصيدة تعبير عن الضمير، أما الخطاب السياسي فهو تعبير عن الواقع.
- تطور موقفنا إلى التخلي عن الشروط الايديولوجية، وليس شرطاً أن نتحاور مع من يؤمن بالمشروع الصهيوني، ليس هناك مانع طالما أن هذا «الاسرائيلي» يؤمن بحقنا في الوجود والتعايش على أرض فلسطين - و «درويش هنا يعني شامير تحديداً لان الاجابة كانت على سؤال حول شامير- ..
- الانتفاضة هي محصلة كفاح أربعين عاماً، وأعظم ما أحدثته أنها غيرت الوعي الفلسطيني، وانتقلت به من الميتافيزيقيا الى الواقعية

تلك هي بعض مقولات الشاعر الفلسطيني محمود درويش في حواره المنشور على صفحات «الازمنة العربية»، وهي المقولات التي نعتقد أنها يجب أن لا تمر بدون مناقشة، خاصة أنها تأتي في سياق نهج ثقافي تابع لسياسة يومية متهافتة، منذ لقاء «بديعوت احرونوت»، وصولاً الى هذه المقولات، مروراً بوثيقة «سلام اسرائيلي فلسطيني» التي أشرنا اليها..

وهي مناقشة مشروطة بأكبر قدر من الهدوء، لانها تأتي على أرضية فهمنا لحقائق الصراع العربي الصهيوني جذوره، وأبعاده، والاحتمالات التي ينطوي عليها، فيما هو مقبل من مراحله.

ولنبدأ من المقولة الاولى حول الفرص المبددة.. ذلك أن المتتبع لمجريات الصراع العربي الصهيوني يدرك بالوثائق، وبتحليل الاحداث، أن فرصة واحدة لتسوية هذا الصراع لم تكن متاحة، حتى عندما

Digitized by Birzeit University Library

كانت المشاريع المطروحة وعبر أكثر من خمسين عاماً، تأخذ في اعتبارها مصالح الغزاة الصهاينة بالدرجة الاولى، ذلك أن الجانب العربي الرسمي، كما هي الحال فيما يتعلق بالجانب الفلسطيني الرسمي - اذا صح التعبير - كان دائماً يسعى الى الوصول لتسوية، حتى لو كانت على حساب الحق العربي والحق الفلسطيني - وقد كانت كذلك بالفعل - ومن هنا، فان التأكيد على «الفرص التي بددها العرب»، يغدو نوعاً من التضليل، حتى عندما تكون الاشارة الى مشروع تقسيم فلسطين ١٩٤٧ لا يجوز تجاهل أن العدو الصهيوني قد رفض هذا المشروع في حينه، كما يرفضه الان، وأن رفض العرب، والشعب الفلسطيني لهذا المشروع، إنما هو التعبير السياسي الصحيح عن التمسك بالوطن، والتأكيد على عدم شرعية الغزو الصهيوني، للسيطرة على جزء منه لتأسيس كيانه. . هذا بالاضافة الى أن هذا التضليل يغدو أكثر خطورة، عندما يصدر عن شخص يعرف تماماً هذه الحقيقة. . . وينحي جانباً، أن لدى الفلسطينيين الان فرصة وحيدة بالفعل، تتيحها الانتفاضة على الارض الفلسطينية، لكي يقوم لدينا نوع من مراجعة التجربة، واستخلاص الدروس، بهدف تطوير أدوات نضالنا وأساليبنا، ووسائل عملنا، ولكي نصب كل جهد مخلص وممكن، وكل جهد ثوري، في سياق هذا التطوير، لان الانتفاضة الشعبية الشاملة لمعظم الارض الفلسطينية. . .والتي يشارك فيها عملياً، ونظرياً. . مليونان من الفلسطينيين من الجليل شمالاً. . الى الخليل والنقب جنوباً. . مروراً بالشرق والغرب، من القدس الى المدن والمخيمات الفلسطينية، حيث تطرح علينا هذه الانتفاضة فرصة تاريخية فريدة فعلاً، لكي نقدم لها الدعم بكل الاشكال المادية الممكنة، وأن نرفدها بالامكانات من الكوادر الى الاسلحة، الى العمليات العسكرية، الى اشعال الجبهة الثقافية لكي تتطور باتجاه حرب الشعب طويلة الامد، والتي - لاشك - سوف تحدث من التأثيرات الايجابية على الواقع العربي المحيط، ما من شأنه أن يسقط الحصار من حول الثورة الفلسطينية، بمنطلقاتها وثوابتها الاستراتيجية، لان أي استثمار آخر بعكس هذا السياق، هو الذي يبدد الفرص، نعني فرص تطوير الانتفاضة، والفرص التي يشير اليها درويش هي فرصة تصديق الوهم، ورفعه الى مرتبة الحقيقة، لانه وكما يرى. . أوكما نرى - إذا شاء - من الواضح أن العدو الصهيوني يصعد وتائر القمع، والقتل والابادة ويمارس عملياً تصفيتها، بينما يسترسل البعض في الحديث عن الفرص التاريخية - لتسوية الصراع - التي يجب أن لا تبدد، مما يساعده بالفعل على مواصلة برنامج التصفية الذي يطبقه على الارض في الوقت الذي يواصل فيه نشر دعواته الخلبية «للسلام» التي تعودناها في ظروف مماثلة أو غير مماثلة منذ ما بعد عام ١٩٤٨، وها هو حتى عندما يتحدث عن الفلسطينيين، فانه يتحدث عنهم في اطار مشروعه الصهيوني للحكم الذاتي. وهو ما اتفقت عليه مؤخراً الاحزاب الصهيونية مجتمعة، بما فيها حزب «المابام» الذي يعتبر نفسه على يسار الحركة الصهيونية.

أما مواصلة الحديث عن أن العرب قد بددوا الكثير من الفرص التاريخية، فهو حديث مردود، يؤكده درويش في حديثه المشار اليه الى «يديعوت احرونوت» بالقول بأن «اليهود متخصصون بتبديد الفرص» فهو يعرف، أنه ومنذ العشرينات، وبسبب من كون الانظمة العربية التي عاصرت النكبة منذ حركة الاستيطان الصهيوني، وحتى النكبة وبسبب من ارتباطها بالاستعمار والصهيونية ارتباط مصلحة ومصير، قد حاولت

Digitized by Birzeit University Library

بالفعل ـ أن تصل مع الحركة الصهيونية الى «حل وسط» غير أنها لم تفلح، لان للحركة الصهيونية برنامجها القائم حتى الان، والذي مازالت تضعه في الممارسة اليومية والمرحلية «من القتل الى التوسع، الى ابادة الشعب العربي الفلسطيني داخل وخارج فلسطين المحتلة، بهدف الوصول الى اسرائيل كبرى تتجاوز فلسطين الى الارض العربية، يبرهن على ذلك اعلانها ضم الجولان واحتلال المزيد من الاراضي اللبنانية.. بحيث يغدو الحديث عن الفرص التي بددها العرب.. أو يبددونها نوعاً من العمى السياسي، ـ بالنية الحسنة ـ والتضليل الذي لا يضع في اعتباره حقائق الصراع على الارض، وهي الحقائق التي تتناقلها وكالات الانباء، منذ ما يزيد على سبعين من السنوات.

وحول المعنى التفاوضي للانتفاضة مع العدو الصهيوني، فنحن نسأل، هل الحوار الدائر بين آلاف المعتقلين الفلسطينيين وسلطات الاحتلال، بالاضافة الى الحوار الدائر بين الاطفال والرجال والنساء من جهة وبين قوات القمع الصهيوني من جهة أخرى، هو نوع من التفاوض؟ أم أنه الحوار بالنار بين البطل الفلسطيني وعدوه الصهيوني، والذي يأخذ صيغة الانتفاضة؟ من الشارع الى المخيم الى المدينة والقرية والسجون، والمعتقلات، وأن هذا الحوار، هو الذي يؤسس لحالة من المناطق الفلسطينية المحررة، وينهي سلطة العدو الصهيوني المحتل، ليؤسس سلطة الشعب الثورية بلا قيد، ولا شرط، ولا طاولة مفاوضات.

ان الوقائع كلها تشير الى ذلك... كما تشير الى أن هناك في فلسطين مفاوضين من نوع آخر، وهم في حقيقتهم لا يمثلون الانتفاضة، وليسوا جزءاً من جسدها.. أو عقلها، ذلك لانها وكما نرى، انما تفعل شيئاً آخر، هو في حقيقته، حوار بينها وبين العدو بالحجارة والنار، وكل الاسلحة التي تجرح، وباشارة النصر، وبترسيخ سلطة الشعب الفلسطيني في مناطقه المحررة، وأن العدو الصهيوني بالنسبة لها، من شامير الى رابين الى الصهيونية الجديدة، ما هو الا مجرم مدني.. ومجرم حرب، تعد لمحاكمته، كما حوكم مجرمو النازية، بعد الحرب العالمية الثانية..

نأتي الان الى مقولة درويش حول «الشرعية الاسرائيلية» هذه الشرعية التي سعت الحركة الصهيونية دائماً، ومنذ نشوئها للحصول عليها تحديداً من الشعب الفلسطيني. فاذا تذكرنا ناحوم غولدمان، أحد مؤسسي الكيان الصهيوني، ورئيس المؤتمر اليهودي في حقبة من تاريخه، نتذكر، أنه نصح الكيان الصهيوني دائماً، بضرورة الحصول على الاعتراف الفلسطيني «بشرعيته» على الارض الفلسطينية، لانه، وان لم يفعل ذلك، فسوف يكون الدمار الحتمي مصيره. وهنا يطرح السؤال نفسه، لماذا يتطوع شاعر فلسطيني كمحمود درويش، ليمنح هذه الشرعية لعدو شعبه، وعدو وطنه، وعدو الانسانية؟. كما أجمعت على ذلك كثير من دول العالم، ومنذ سنوات عندما وصمته بالعنصرية، ووضعته في اطار واحد، وفي سياق واحد، مع نظام بريتوريا العنصري، كما نص على ذلك قرار الأمم المتحدة ٣٣٧٩ حول عنصرية «اسرائيل».

ثم أين هو «هذا السلام الواقعي» الذي يتحدث عنه الشاعر الفلسطيني درويش، والذي يرى أنه «ليس أمامنا سواه»، ويتحدث عنه بلهجة توحي بأنه قاب قوسٍ وأدنى ولا ترد في المقابلة «الأزمنة العربية» أية كلمة أو إشارة الى مصطلح «العدو» حتى ولا كلمة، أو اشارة الى المجزرة المستمرة، التي يتعرض لها شعبنا، وكأن الواقعية تعني اسقاط «صفة العدو» عن العدو، خاصة اذا كان موضوع الحديث هو

Digitized by Birzeit University Library

«السلام»، مما يناقض مجمل مضامين قصائد الشاعر حول هذا العدو بينما نتذكر ونذكر بالمجزرة المستمرة منذ دير ياسين، وكفر قاسم وبقية المذابح القديمة والجديدة، وصولاً الى نحالين والتي يمارسها العدو الصهيوني بدم بارد صباح مساء وما بينهما، بحيث يغدو أي حديث «عن السلام الواقعي» حالة ذهان خارج الواقع، ودمه الذي هو في حقيقته وصورته القديمة، والراهنة دم البشر والشجر، والدور والاغاني، وهي مصطلحات أصبحت شعراً في ديوان الشعر الفلسطيني النازف، وهي المصطلحات التي تعبر عن حالة انسانية تتعرض للقتل والابادة هي حالة شعبنا العربي الفلسطيني.

ثم ألا يدرك محمود أن القصيدة الفلسطينية، التي كتبها والتي نكتبها، هي تعبير عن الواقع، اذ يأخذ صيغة صوت الضمير، الذي هو تعبير عن مجمل الوقائع القائمة في مجريات واطار الصراع بين شعبنا وعدوه الصهيوني، كما أن الخطاب السياسي الذي تعبر عنه هذه القصيدة، أو الذي يجب أن نطلقه بالنثر، ليس سوى الوجه الاخر للقصيدة، ولكنه الوجه الذي ينسجم معها لا يناقضها ولا ينقضها، لئلا تغدو القصيدة وكأنها تعبير عن حالة من الفصام العقلي، أو الهلوسة.. من المؤسف بالفعل، أن يُسقط شاعر.. أي شاعر كل الانجازات النظرية للادب، وكل الانجازات الثورية لاي شعب، وأن يوظف مقولات حول الادب والسياسة، بهدف تحويل الاديب الى تابع في السياسة اليومية المتهافتة، والى مهلوس شعري في القصيدة التي يكتبها.. وكأن الضمير يتكون خارج الوقائع، والواقع، بينما يتكون الخطاب السياسي من الانسجام مع التهافت، تحت وطأة تجاهل أن جميع الشعوب التي قاتلت، وانتصرت، من شعوب الاتحاد السوفياتي، والصين، وكوبا، وفيتنام وأخيراً الجزائر لم تفصل في أدبياتها يوماً بين ضميرها الذي عبرت عنه قصائد شعرائها، وبين ضميرها الذي عبر عنه خطابها السياسي في مواثيقها، وبرامجها السياسية، لانها بذلك، وبغيره من وسائل الثورة، قد استطاعت أن تلحق بعدوها الهزائم الحاسمة مخرجة قواته، وقواه، وركائزه عن آخر شبر من كامل ترابها الوطني حتى عندما حاورته، فقد فعلت ذلك على أرضية ضميرها المعنوي، والمادي، الوطني، الذي عبر عنه الشعر، والبرنامج السياسي، حيث حاورته وهو يسلم أعلامه منكساً، ومهزوماً كما في برلين أو كما في سايغون.. اليس هذا هو الصحيح؟.

ثم أليس الفرق بين تطور.. وتراجع.. واضح وواسع، وأنه الفرق بين التقدم، والتراجع.. بين السير الى أمام والانكفاء الى وراء؟.

وهل يصح للشاعر ما لا يصح لغيره، من قلب للمفاهيم أولوي للمعاني، بحيث يحل كلمة تطور ـ بفتح الراء ـ محل كلمة تراجع ـ بفتح العين ـ؟.

أليس البدء بشعار الحوار مع «اليسار الاسرائيلي»، والوصول الى الدعوة للحوار مع الليكود تراجعاً بالمحصلة؟ فلماذا يسميه درويش توطراً، بينما الامر ليس كذلك في قاموس العلم، وانما هو نكوص وتراجع في قاموسي العلم والسياسة في آن معاً.

وهل يصل الامر الى قصديّه لتغيير مدلولات ومعاني اللغة؟ ولماذا.. مجرد سؤال؟.

ثم متى يسقط المحاور الشرط الايديولوجي، انه لا يسقطه في أية حالة الا عندما يرتد، ولكنه «ينحيّه» في حالة كون الطرف الاخر للحوار ليس عدواً وطنياً كما هي الحال فيما يتعلق بالعدو الصهيوني، ونحن

Digitized by Birzeit University Library

نعرف أن الشرط الايديولوجي «ينحنّ» في حالة الحوار من أجل اقامة جبهة وطنية لمواجهة عدو خارجي، لكن هذا الشرط لا يسقط مطلقاً تحت أي ظرف، فهو يعود للبروز في حالة وقوع خلاف بين أطراف هذه الجبهة، بعد الحاق الهزيمة بالعدو الوطني، وحتماً نحن لسنا لا كشعب فلسطيني ولا كمؤسسة في حالة الشروع ببناء «جبهة وطنية مع العدو الصهيوني المحتل» حتى يبرز درويش التخلي عن الشرط الايديولوجي.

بقيت آخر مقولة تحدث عنها درويش في حوار مع «الازمنة العربية» نعني بها مقولته بأن الانتفاضة قد انتقلت بالوعي الفلسطيني من الميتافيزيقيا الى الواقعية. . التي يفهمها على أنها شرعية العدو الصهيوني على الارض الفلسطينية، والتفاوض معه على «سلام واقعي» الى آخر ما ورد.

هنا نود التوقف قليلاً، لتؤكد أن الانتفاضة قد انتقلت فعلاً بالوعي الفلسطيني ـ لكن عكس ما ذهب اليه ـ من الوهم بامكان التعايش معه. الى واقعية ترى استحالة التعايش التي تؤكدها عمليات القتل اليومي، والابادة ونسف بيوت على هذا النطاق الواسع.

فالميتافيزيقيا إذن ليست هي التي ذهب اليها درويش، كما أن واقعيته ميتافيزيقيا الى حد كبير. فاذا كان كاهانا سيء الصيت، يقول بضرورة ابادة الفلسطينيين بالجملة، وبالسرعة القصوى، وبترحيل من ينجو منهم من الابادة، كما يؤكد شارون أيضاً، فان مجمل الاجهزة الصهيونية، والمؤسسات التي تمارس الارهاب وتصف نفسها «بالدولة» ترى أن هذا يجب أن يتم فعلاً، وهي تمارسه، ولكن بأقل قدر من الضجيج، وعلى مدى زمني لا تتعجل فيه، ويجب أن لا تتعجل حتى لا تفسد عليها برامجها، وأن المهمة الملحة التي يجب انجازها الان من وجهة النظر الصهيونية انما هي تصفية الانتفاضة بالقتل أو بالمزيد من الحديث عن «السلام» و «السلام» المشروط وهما وجهان لعملة صهيونية واحدة، وهنا لا نستطيع أن ندعي أننا أكثر خبرة من درويش بها، لانه الذي عاش تحت الاحتلال الصهيوني كل تلك السنوات، ويعرف أكثر من غيره ، وكما يعرف شعبنا في الوطن المحتل، أساليب الترغيب والترهيب في السجون والمعتقلات الصهيونية، وهذه قصائده الشاهد. كما هي شاهد قصائد شعراء فلسطين، على حرب الابادة الراهنة والمستمرة لفترة تزيد على أربعين عاماً يزداد فيها الشعب العربي الفلسطيني بالتوالد ـ بالرغم من القتل ـ ويزداد فيها الصهاينة بسبب من الغزو والاستيطان. . ونزداد فيها أبداً تصمياً على تحرير وطننا، برغم الاحاديث الخلبية عن «السلام».

هذه هي المناقشة التي تفضي الى محصلة واحدة، تحت عنوان «محمود درويش. . إننا نختلف» حول جملة من المقولات التي يمكن أن نلخصها كما يلي:

فالواقعية كما يراها هي فرصة «السلام الواقعي» التي يجب أن لا تبدد، بينما نرى الواقعية باستحالة التعايش مع القتلة العنصريين، واستحالة منحهم الشرعية الفلسطينية، والتصميم على تحرير وطننا وشعبنا من عسفهم، والحاق الهزيمة بهم. .

ثم نحن ننسجم مع قصائدنا الواقعية، والتي هي تعبير عن الضمير العربي الفلسطيني، ولا نغادرها الى خطاب سياسي هو في حقيقته حالة ذهان، ليست في النهاية تعبيراً عن الواقع.

Digitized by Birzeit University Library

ادب المكدين في العصر العباسي

احمد الحسين*

رغم اهتمام المؤسسات الاكاديمية والثقافية بفنون الأدب العباسي ودراسته نشراً وتحقيقاً. فإن هذا الاهتمام كاد ينحصر في دائرة الأدب الرسمي، وأدب الأعلام والقمم. وقلّما تطّرق الباحثون في دراساتهم الى تقصي الظواهر الاجتماعية الشعبية التي نمت في قاع المجتمع، والوقوف على ماأفرزته من تيارات أدبية.

والكدية أو الشحاذة من الظواهر المعبّرة أساساً عن الفقر المدقع، والدالة على الشرخ الاجتماعي، وهي ظاهرة عالمية لم تقتصر على زمن دون آخر. ولم تعرف في مجتمع دون سواه. والاشارة الى هذه المهنة تطالعنا في المصادر الأدبية والدينية التي تصف أحوال السّؤال، وتحث على مساعدتهم، وتنهى عن زجرهم.

وقد أثارت هذه الظاهرة اهتمامي، فرحت اتتبعها في المجتمع العباسي رغم شح المعلومات، وتناثرها، وندرة المصادر، فتبين أن الكُدية جمعت خليطاً بشرياً من المعدمين؛ بينهم الشعراء والفلاسفة والمنجمين وذوي المهن وغيرهم من شرائح المجتمع. وصار هؤلاء يشكلون فئة متميزة لها طريقتها، وأسرارها، وطقوسها في العمل والحياة، كما تبيّن أنَّ لهؤلاء أدباً ثرّاً اختط طريقاً خاصاً به، فكان وثيق الصلة بحياة الشحاذين، يحمل نكهة التشرد ومرارة الحرمان والمعاناة، والاغتراب. وباختصار كان أدبهم ذا طابع اجتماعي، ينبض بمشاكل المنبوذين والمسحوقين، ويصدر عن نوازع القلق، والتذمر والاحتجاج.

---

* باحث من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

والكُدية لغة: قلّة العطاء، والمنع. قال الزجاج: «أكدى: أمسك من العطية وقطع. وأصله من الحفر في البئر، يقال للحافر اذا حفر، مبلغ الى حجر لا يمكنه من الحفر قد بلغت الكدية. وعند ذلك يقطع الحفر.

وقال الليث الكدية: «صلابة تكون في الأرض»[1]، والعلاقة كما يبدو بين إكدى وسأل غير واضحة تماماً على أن المعاجم التالية: تهذيب اللغة، ولسان العرب، وتاج العروس نصت صراحة، أن من بين معاني أكدى، ألحّ في المسألة، وأن الكُدية مهنة الشحاذ.

وهذا الموقف أثار تساؤلاً حول أصل الكلمة فمن يرى أنها عربية وصفاً ومعنى، ويذهب الأبنادي إلى أنها عربية مبدلة من «الجدية»[2] أي بين الجيم والكاف وفعلها جَدَي، أمّا الرأي الثالث فيقول بعجمة «الكُدية» فذكر الحفاجي في كتابه «الزاهر» أن «أكدى يكدي ليست بعربية»[3]، عزز هذا الرأي اوشير في كتابه «معجم الالفاظ الفارسية المعربة فقال «كدّ الرجل سأل. وتكدّى تسول، والكداية. كل ذلك مأخوذ من كدا، ومعناه التسول والفقير والمحتاج[4] وهذا ماتبين في المعاجم الفارسية أيضاً. ونطق الكلمة بكاف فارسية، وليس بكـاف عربية. كما يطلق على هذه الحرفة الشحاذة، ويسمى أصحابها بالشحاذين، أو الساسانيين. والشحذ لغة: التحديدُ، والسوق الشديد، والشحذان: الجائع والخفيف في سعيه[5] ومن المجاز كما يقول الزمخشري «فلان يشحذ الناس يسألهم ملحاً عليهم، وهو شحاذ، ورأيته يشتحذ، ورجل شحات، وهو الملح في مسألته[6]

وساسان الذي ينسب إليه الشحاذون شخصيته، تعددت الاجتهادات في تحديدها. فالطبري وابن الاثير يذكران أن ساسان زعيم المكدين هو ساسان بنُ بَهْمي حرمه أبوه الملك، فعاش في الجبال يرعى الأغنام[7] وهـذا التفسـير لايثبت للمنـاقشـة. وربـما كان الاقرب الى الاعتقاد ماورد في دائرة المعارف الاسلامية، ان الشيخ ساسان وأخويه حمدان، ورقبان وكلهم أولاد قاقان، هم أرباب الحرف جميعاً»[8]

واعتماداًعلى المرويات القليلة، ونتف الاخبار، واستنتاجاً من أدب الساسانيين، يظهر لنا أن الكُدية العباسية لم تكن حالة عفوية. فقد كانت مسلسلات التمرد، والتنافس على السلطة، وشغب العساكر، وانفصال الأقاليم، وكثرة المشاغبين وماينجم عن ذلك من سلب ونهب ومصادرات، وحروب قد دفعت الكثيرين الى انتهاج مسلك التسول. والشواهد الدّالة على هذا الواقع السياسي - العسكري المضطرب كثيرة. يقول ابن الاثير في حوادث سنة ٤١٧ هـ «في هذه السنة كثر تسلط الاتراك ببغداد فأكثروا مصادرات الناس، وأخذوا الاموال حتى إنهم قسطّوا على الكرخ خاصة مائة ألف دينار، وعظم الخطب. وزاد الشر، واحترقت المغازل والدروب والاسواق. ووقعت الحرب بين الجند والعامة. فظفر الجند، ونهبوا الكرخ وغيره»[9] ومن الاخبار أن ثورة قامت «أريد بها خلع القادر فلم تنجح فقضى القادر على مؤنس، فطلب أصحاب مؤنس منه أن يخلع نفسه، فأبى، فخلع وسملت عينه لأول مرة في تاريخ الاسلام، وشوهد بعد ذلك يسأل الصدقة على باب الجامع»[10]

والى جانب الصراع الداخلي كان الصراع الخارجي بين العرب والروم يعرض سكان الثغور الشامية، أو الجزرية أحياناً إلى السبي أو التشريد، والشحاذة. وأقرب مثال على ترسيخ هذه الواقعة شخصية أبي زيد

Digitized by Birzeit University Library

السروجي الذي فرّ مشردا مستجديا، بعد أن احتل الرومان مدينة سروج وطردوا أهلها.

ولقد كانت التشكيلات السياسية ذات تأثير متبادل مع الحياة الاقتصادية، فنمو الاقطاع العسكري زاد من حدة المشاكل الاقتصادية والسياسية، وشيئاً فشيئاً أخذت الزراعة تقلّ، والتجارة تضعف، والموارد تشح، والهجرة الى المدن تتسع وتكبر، والجوائح الطبيعية تتوالى. فإن أخذنا بالحسبان إسراف واستئثار الفئات المتسلطة دون عامة الشعب بثروة الدولة، ادركنا عندئذ أسباب هذه التحولات الاجتماعية، ونشوء تلك الظواهر. ويذكر الباحث حمدان الكبيسي أن أسواق بغداد في تلك المرحلة «شهدت حالات متعددة ارتفعت فيها أسعار السلع. فكثيراً ماكانت العاصمة تتعرض لموجات من الفتن والاضطرابات والثورات، مما يؤدي الى وقوع السلب والنهب، فتتعطل الاسواق وتزداد أحوال العامة سوءاً، حتى تصل الى حد المجاعة، وأكل لحوم الحيوانات المحرمة والجيف»(١١) وهكذا أخذت أفواج من الشرائح الشعبية تنتظم في سلك الكُدية. ومن المعروف أنّ الديانات السماوية تدعو إلى العطاء، ومواساة المضطر، وتحث على الصدقة والبذل. وهنا يجب ألانتجاهل أثر هذا العامل في انتشار المكدين. والاكثر دلالة أن بعض الديانات الشرقية القديمة، وبعض فرق المتصوفة والدراويش، كانت تعتمد على الشحاذة في تحصيل القوت، وتربية المريد وتدريبه. ويذكر الجاحظ أن زهاد المانوية يسبحون في الارض على اربع خصال «على القدس والطهر، والصدق، والمسكنة: فأما المسكنة فان يأكل من المسألة، ومما طابت به أنفس الناس حتى لايأكل إلا من كسب غيره الذي عليه غُرْمُه»(١٢). وقد استغل كثيرون هذه الظروف فاحترفوا هذه المهنة وفي عرفهم «أن الكُدية رزق حاضر، وربح بلا رأسمال» ولما أخذ المجتمع يقابلهم بالصد والحرمان والمنع ابتدع المتسولون الحيل، واصطناع العاهات، والأمراض.

ويعد الجاحظ أول من ذكر بعضاً من أصنافهم وحيلهم فمنهم(١٣) «الكاغاني، القرسي، المشعب، الفلور، الكاخان، العوّاء، الاسطيل، المزيدي، المستعرض، المخطراني، البانوان، المقدسي، المكدي، الكعبي، الزكوري، وأضاف البهيقي في المحاسن والمساوىء. «المكي السحري، الشجوي، الذراحي، الحاجور، الخاقاني السكوت الكان، المفلفل، زكيم الحبشة، زكيم المكافيف، المطين.»

وقد ازدادت أصنافهم وتنوعت في القرن الرابع الهجري حيث تفيض بذكرهم قصيدة أبي دلف الخزرجي الرائية، فنجد بينهم من يتسول بالعاهات والامراض، والتنجيم، والسحر، والتطبيب والعلاج، وبالخلافات المذهبية والدينية، وبهراش الحيوانات وأعمال الخفة وغيرها.(١٥).

جذبت المدن هؤلاء المستولين الذين كانوا يتجمعون أمام المساجد في الساحات، أو الاسواق، أو قرب الجسور والخانات والحمامات. ويذكر أن المغفل من أصنافهم يقصدان المساجد «فيقوم أحدهما في أول الصف فاذا سلّم الامام صاح الذي في آخر الصف بالذي في أول الصف يافلان. قل لهم. فيقول الآخر. قل لهم: أنت. أنا ايش؟ فيقول. قل. ويحك ولاتستحي. فلايزالان كذلك وقد علقا قلوب الناس»(١٦)

ومجتمع المكدين له بعض الضوابط والاعراف التي تنظم العلاقات بين أفراده، فلكل مجموعة رئيس، ومن رتبهم ذكروا: العرفاء، والكاخان، والبهاليل، والادنى بينهم يقوم على خدمة الاعلى. وللشحاذين مجموعة من الرموز والاشارات. والازياء للتعارف والتفاهم. ولهم لغة سرية تتكون من مجموعة من الالفاظ

Digitized by Birzeit University Library

الاصطلاحية المستقاة من العامية ومن اللغات الهندية، والفارسية، والسريانية والعربية. كان الصاحب الطالقاني يتقنها ويتحدث مع بعضهم بها(١٧).

ومن أزيائهم أن المخطراني يأتي في زي ناسك(١٨)، والمكي يرتدي سروالاً واسعاً فيه تكة أرمنية شدّها الى عنفة(١٩) وزكيم الحبشة يلبس دراعة صوف مضروبة مشقوقة وعليه خف ثغرى بلا سراويل(٢٠)، وشحاذوا شيراز يلبسون الطيالس والمرقعات. (٢١)

وتنشأ عادة بين المكدين علاقة تلمذة وتدريب يصاحب فيها المبتدىء أحد شيوخ المهنة ليتعلم أسرارها، ويطلع على خفاياها. ويروي التنوخي أن مكدياً في بغداد أيسر وعظمت حاله حتى استغنى عن الشحذ فكان يعلّمهم مالايعلمون». (٢٢)

وتجدر الاشارة أن مهنة المكدين قد حددت مجموعة أخرى من العلاقات بين الشحاذين وفصائل المجتمع. فالمكدون يناصبون الولاة والقضاة والمحتسبين العداء والبغضاء. ويمدون يد المساعدة والتعاون للفصاحى والدراويش والوعاظ وربما اللصوص أيضا(٢٣).

● أدب المكدين:

لقد أعطت ظاهرة الكدية أدباً اجتماعياً يصنف في دائرة الأدب الشعبي الذي نشأ وتكوّن بعيداً عن القصور والبلاطات الرسمية، وليس سراً أن يقال: إن هذا الأدب عانى من إهمال الدارسين وإعراضهم، وكان عرضة للاستهجان والاستخفاف انطلاقاً من جملة المعايير النقدية والجمالية التي ترى في فنون الأدب الشعبي ومنها أدب المكدين أدباً من الدرجة الثانية أو الثالثة. ولكن تجاوز تلك المعايير يضعنا أمام تيار أدبي حي، أووثيق الصلة بالفئات الدنيا، أمام أدب صوّر الوجه الآخر للحياة الاجتماعية. ودراسة هذا الادب تنشر صفحات ظلت مطوية ومجهولة أمداً طويلاً.

فتحت قصص المكدين نوافذ للتخيل القصصي حول منشأ الكون، وبداية العالم. والجنة والنار، واستلهم القاص المكدي سير العظماء، وأخبار الملوك، والجبابرة. وكان القاص المكدي يتخذ مجلساً له في المساجد أو الساحات ويتحلق من حوله العامة باعجاب كبير، وإضافة إلى الحكايات التي يرويها يجيب القاص على تساؤلات الحاضرين ويرد على استفساراتهم. ثم يأخذ منهم النقود أو يحثهم على التبرع لشحاذ يكون شريكاً له. ثم يقتسمان المال وينصرفان(٢٤).

والخطب هي الأخرى وسيلة يستغل بها الشحاذون الاعراب شغف اللغويين، وانبهار سكان المدن بالكلام العربي الفصيح. فكانوا يردون الاسواق، والمساجد فيلقون خطبهم، ويشكون الفقر والحرمان، وجدب الارض وانحباس الغيث، ويضمنون خطبهم ببعض الآيات القرآنية التي تحث على العطاء والبذل. وقد تأثرت خطبهم بتجوالهم وتطوافهم فكانت قصيرة موجزة لاتتعدى أحياناً بضع جمل كقول أحدهم: «لقد جعت حتى أكلت النوى المحرّق، ولقد مشيت حتى انتقلت الدم وسقط من رجلي بخص لحم. وحتى تمنيت أن وجهي حذاء لقدمي فهل من أخ يرحمنا»(٢٥).

ولايختلف الامر كثيراً حول مناظراتهم(٢٦) وأمثالهم التي كانت تصدر عن حياتهم وتعبر عن آرائهم

Digitized by Birzeit University Library

وأفكارهم كهذه الامثال: الوجه الطري سفتجة، صفاقة الوجه رزق حاضر، من رآني فقد رآني ورجلي، ليس في البيت سوى البيت»[٢٧]،ويظل أدبهم الجغرافي حصيلة تطوافهم وتنقلهم بين البلدان والشعوب وهو من جانب آخر يكشف عن اهتماماتهم العلـ ـ الطبية والكيميائية. ومن أشهر نصوصهم الجغرافية رسالتان لأبي ذلف الخزرجي تعدان على أهمية كبيرة في وصف رحلة أبي دلف الى بلاد الصين وما شاهده وخبره عن أحوال القبائل التركية والصينية من حيث العادات، والتقاليد، والسكن، والطعام والملابس، وأشكال العبادات والنظم السياسية الى جانب تفصيلات دقيقة عن خصائص المعادن، والحجارة، والنباتات، والمياه، والصناعات، والآثار والطلاسم والاساطير الخاصة بتلك الشعوب[٢٨].

● **شعر شعبي:**

وإذا انتقلنا الى شعر الشحاذين يمكن القول: إن هذا الشعر اختط لذاته مساراً يلائم حياة أصحابه شكلا ومضموناً. فحياة التشرد، والانتقال، جعلت أكثره من النتف والمقطعات، والابيات المفدرة. والشاعر الشحاذ لايهتم كثيراً بالقصائد ذات الاغراض المتعددة. وهو يولي أهمية خاصة ليوميات الحياة، فشعره لقطات سريعة، تركز على فكرة واحدة. أو غرض مستقل.

وإن يكن الشاعر المكدي قد استعار بعض القوالب الشعرية المألوفة. واستخدم بعض الاغراض إلاّ أنه أهمل بعضها ومس بعضها الآخر مسّاً رقيقاً. ثم أضاف مادة شعرية تناسب حياته ومهنته.

الشاعر المكدي لم يمدح الملوك والامراء، والولاة. ولكنه قد يمدح على شكل طلب مباشر ببيت أو بيتين رجلاً، أو صاحب دكان وتاجراً أعطاه رغيف خبز أو فلساً. يقول أبو فرعون[٢٩]:

ما النـاس إلا نبطٌ وخـوزانْ كهـمسٍ أو عمـرَ بن عِمِـرانْ
ضاق جرابي عن رغـيف سلمان

والفخر لم يعد ضرباً من التغني بالشجاعة والكرم، والنجدة، إنه فخر بذكاء المكدي، واحتياله، فخر بحياة التشرد والتجوال، والانتماء الى عالم الشحاذين الذي تحرروا من قيود المكان والاعراف، والاحكام. يقول أبو دلف الخزرجي[٣٠]:

على اني من القـوم الـ بهالـيل بني الـغَـرّ
بني ساسـانَ والحـاصي الـ حمى في سالـفِ الـعَصْرِ
فنـحـنُ الـنـاسُ كلُّ الـنـا سِ في الـبر وفي الـبـحـرِ
أخـذنـا جزيةَ الخَـلْقِ من الـصـين إلى مصرِ
إلى طنـجـةَ بل في كلِّ أرضٍ خيلنـا تسري
إذا ضاق بنـا قطرٌ نَزَلْ عنـه إلى قُطْرِ
لنـا الـدنـيا بما فيهـا من الاسـلامِ والـكُـفْـرِ

وقريب من هذا التصور يكون هجاؤهم. ولكن هذه الاغراض - ودون أن ننكر أو نتجاهل أهميتها - لاتعطي شعرهم القيمة الاجتماعية الهامة التي نراها. إن شعرهم تبوأ مكانة متميزة، إذ صدر عن العناء

Digitized by Birzeit University Library

الانساني، والبؤس البشري، فكان وثائق تاريخية ومعرفية في سفر المعاناة والتمايز. وحمل هذا الشعر صوتاً نوياً مبكراً بدين الفساد، ويكشف وهن الاخلاق والعلاقات الاجتماعية، ويشير الى التمايز والاستغلال فهو شعر عبر عن مواقف طبقية لانجدها في أكثر دواوين الشعر الرسمي.

في رصد ملامح البؤس، ومعاناة الفقراء والعامة رسم أكثر من شاعر شحاذ صوراً قاتمة للجوع، والحرمان والعناء يقول أبو فرعون الساسي(٣١):

وصبيةٍ مثلُ فراخِ الذَّرِ سودُ الوجوه كسَوَادِ القِدْرِ
جاء الشتاءُ وهم بشرٍ بغير قُمْصٍ وبغير إزرِ
حتى إذا لاحَ عمودُ الفجر وجاء في الصبح غذوتُ أسري
وبعضهم ملتصقٌ بصدري وبعضهم مُنحجرٌ بحجري
اسبقُهم إلى أصولِ الجدر هذا جميعُ قصتي وأمري

وفي الوقت الذي تغنى فيه الشعراء الرسميون بالقصور الفخمة، والحدائق الغناء، وبرك الماء. كان المكدون يصفون بؤس الاكواخ المتداعية التي تخلو من كل شيء. يقول محمد بن عبد العزيز السوسي(٣٢):

الحمدُ للهِ ليسَ لي نجت ولاثيابٌ يضمُّها تحتُ
سبانِ بيتي لَمْن تأمله والمهمة الصمصان والمرتُ
امنتُ في بيتي اللصوصَ فما للص فيه فوقُ ولاتحتُ
ابريقي الكوز إن غسلتُ يدي والطينُ سَعدي وداري الطُّستُ

ولما كانت الحال كذلك فلا عجب إن انطلق المكدي في رحلة التسول والاستجداء اليومي، يقف على الدور، ويقرع الابواب مطالباً الخبز، والزي. وفضلات الاطعمة والاسمال البالية والشاعر المكدي لايكابر أويخفي هذه الحقائق وشعره هنا مجموعة اعترافات شخصية وصادقة. يقول أحدهم في وصف تجواله(٣٣).

لقد غدوت حلقَ الثياب معلّق الزنبيل والجراب
طباً بدق حلق الابواب أسمع ذات الخدر والحجاب

ويصف أبو دلف خبر الشحاذين، وصعوبة تحصيلة، ومايكون عليه من ألوان وأشكال تعكس غنى بعضهم وفقر الآخرين(٣٤):

وقد يُلتمسُ الخبزُ بمكروه من الامر
وفي الفميز فيا فتسيه يةٌ من رغل مَذْرِ
هم بيت المشاميل مع القنابر الجفر
غدوا مثل الشياطين عليهم أثرُ الفقر
فيأتون وعسبوذت ببربازا و كالقفيا من المجري
فالمشاميل في لغتهم الاصطلاحية، تعني الرغفان، والقنابر: الكسرة من الخبز، وبربازار: يريد منوعاً، أنابيرَ من الزعبل والبر

Digitized by Birzeit University Library

والقفيا: خبز السبيل.

● **النقد الاجتماعي:**

والنقد الاجتماعي من بين القضايا التي تمنح أدب الشحاذين أهمية متميزة. فقد كان شعرهم ينزع عن روح متسائلة ورؤية تنفذ الى عمق الواقع الاجتماعي لتكتشف بوادر الأزمات السياسية والاخلاقية والاقتصادية. وهكذا يبدو شعر الشحاذين مسلحاً بالوعي، غير مهادن أو غافل عما يجري. وفي أشعارهم نجد دفقات جريئةً تندد وتتهم. وتشير الى فساد الزمان، وزيف الاخلاق، وتفشي الاستغلال والتمايز، والاستثار. والمكدون كشفوا عن صراحة ووضوح حين أدانوا أخلاقيات عصرهم التي روّجت آنذاك للمنفعة الذاتية والخلاص الفردي، وشجعت على الرياء والتزلف والكذب. إنه الجو الخانق الذي فقدت العلاقات الاجتماعية فيه انسانيتها كما يشكو الاحنف العكبري(٣٥):

دُهنيا من زمانٍ ليس فيه سوى متشامتٍ أو مستريب
وحاسدِ نعمةٍ وصديقِ وقتٍ إذا ماغبتُ ذمَّكَ في المَغيبِ

ويندد أبو فرعون الساسي بالمشاحنات الاجتماعية والجنسية، وبالواقع الذي احسرت فيه روح التضامن، والتكافل فقال(٣٦):

هذا زمانٌ عارم من يسهِ ترى اللئيمَ ينتقي من جنسهِ
يصبحُ من صبيانه وعرسهِ مستأثرا بخبزهِ ودبسهِ

وهنا أخذ شعر المكدي يكتشف مظاهر التمايز، وسوء التصرف، وبذخ فئة، وحرمان فئات، كلاب الولاة والامراء تطعم لحماً، والكثير من الناس لايعرف الخبز، والاحنف العكبري خاوي الوفاض، مفلس الجيب بينما يزين الأثرياء سروج دوابهم بالجواهر والاحجار الكريمة(٣٧):

ترى العقيان كالذهب المصفى تركبَّ فوقَ إثغارِ الدوابِ
وكيسي منه خلوٌ مثلُ كفي أما هذا من العجبِ العجابِ

ولاشك أن الاحنف وأقرانه تساءلوا عن سبب ذلك، فوجد في المستغلين وفي ضعاف الحكام، وفي الطامعين والمتسلطين على مقادير الناس سببَ ادراء ومكمن العلّة، فكان يشير الى هؤلاء بأسلوب خفي يعتمد الرمز ولكن الرمزية لاتخفي المقصود. يقول الاحنف(٣٨):

قال برؤيا المنام عندك حقٌ قلتُ: هيهات كلُّ ذاك بخارُ
ليت يقظانهم يصحَّ له الأمرُ فكيفَ المغطُّ والنخارُ؟

وفي موقف من الوعي يسجل للاحنف نسمع قوله(٣٩):

رأيتُ في النوم دنيانا مزخرفةً مثلَ العروسِ تراءت في المقاصيرِ
فقلتُ جودي: فقالت لي على عجلٍ إذا تخلصتُ من أيدي الخنازيرِ

● **الرؤى والمواقف:**

على أنّ هذا الوعي الذي وصل اليه شعر الاحنف كان يمر أحياناً بحالات ضبابية، يعجز المكدي فيها

Digitized by Birzeit University Library

عن فهم آلية الواقع، ويبدو أن توالي الاحباط، واليأس، والامعان في الفساد، وفقدان الأمل، قد أثّر في طبيعة ذلك الوعي، فكان بين الشحاذين من يعزو فقره الى نكد الحظ، وسوء الطالع، والنحس(٤٠):

قد طلبتُ الغنى بكلِّ ارتيادٍ ... واحتيالٍ مابينَ هزلٍ وجِدِّ
فأبى اللهُ أن أكونَ غنياً ... ماالاحتيالي والنحسُ يطرد سعدي؟

ولذلك انغمس بعض المكدين في مجاراة عصرهم، تلذياً، ومخرقة، ودجلاً مادامت هذه المعايير هي التجارة الرائجة، وهنا تبرز لنا في شخصية أبي دلف صورة عصره المتداعي، الآيل الى الانهيار(٤١):

يملكَ هذا الزمانُ زُوْرُ ... فلايغرّنك الغرورُ
زوق ومخرق وكحل وأطبقْ ... واسرق، . وطلبق لمن يزورُ
لاتلتزم حالةً، ولكن دُربا ... للبالي كما تدورُ

ويعد الرحيل والاغتراب من المواقف العملية الاخرى التي اتخذها المكدون معتقدين أن في التشرد خلاصاً فردياً، وتحرراً من أعباء الحياة والواقع، ولكنهم سرعان مااكتشفوا قسوة الاغتراب، ومرارة التجول. وفقدان الوطن. والاصدقاء. وصار الشاعر المكدي يجد نفسه منبوذاً مشرداً يحسد الحشرات التي تأوي الى بيوتها وتسير مع أخباسها وألّافها(٤٢):

العنكبوتُ بنت بيتاً على وهنٍ ... تأوي إليه ومالي مثله وطنُ
والخنفساءُ لها من جنسها سكنٌ ... وليس لي مثلها إلفٌ ولاسكنُ

والواقع أن هذه المواقف الفكرية والعملية في مواجهة قسوة الحياة قد طالت الكثير من الفئات الشعبية المعدمة. ومادام ذلك الوعي لم يتبلور، وينضج في فعل سياسي جماهيري منتظم فقد أمعن كثيرون في الانزواء والعزلة، وايثار الصمت، والقناعة بالقليل. ويبدو أن الاحنف العكبري أخذ يسلك هذا المسلك في مرحلة من اليأس المطبق والعجز الواضح الدال على الاحباط، والانتكاس المؤلم(٤٣):

مَنْ اراد الملك والرا ... حةَ من همَّ طويلِ
فليكن فرداً من النا ... سِ ويرضى بالقليلِ
ويداوي مرضَ الوحد ... ةِ بالصبرِ الجميلِ
يلزمُ الصمتَ فإن الصم ... تَ تهذيبُ العقولِ
يذَرُ الكبرَ لأهلي ... ـه ويرضى بالخمولِ
أيُّ عيش لامرىء يصب ... حُ في حالٍ ذليلِ
بين قصدٍ وعدوٍّ ... ومداراةٍ جهولِ
واعتلالٍ من صديقٍ ... وبخبنٍ من ملولِ
ونِمام الأمر لاتعر ... ف سمحاً من بخيلِ
فإذا أكملَ هذا ... كان في مُلْكٍ جليلِ

● ويبقى السؤال بعدئذ أليس من الغبن أن نهمل هذا الأدب ونتجاهل أصحابه؟ أما حان الوقت

Digitized by Birzeit University Library

للالتفات إلى هذه التيارات الادبية، وإبراز أهميتها، ومكانتها الأدبية والتاريخية والاجتماعية؟

تلك تساؤلات مشروعة، ستظل مطروحة على بساط البحث. وإن تكن الاجابة على هذه التساؤلات متروكة للزمن، فإني أودّ أن أسجل بعض الملامح التي تعطي أدب الشحاذين مكانة خاصة في أدبنا العربي.

- إنه أدب واقعي النزعة، اجتماعي الهدف، نما في تربة شعبية فكان صادقاً بسيطاً بعيداً عن التمويه والتزويق، دون أصحابه يوميات البسطاء والمشردين، وتطلعاتهم الفكرية، وقلقهم النفسي.

- ادّى أدب الشحاذين الى ظهور فنون أدبية اهتمت برصد هذه الظاهرة، منها أدب المقامات التي كان أبطالها من الشحاذين، وخيال الظل «بانه عجيب وغريب». وكانت شخصياتها أيضاً من المتسولين والشحاذين كما فتحت ظاهرة الكدية المجال لظهور العديد من المؤلفات التي تصف أحوال الفئات الدنيا في المجتمع العربي، ومن أهمها كتاب «كشف الاسرار وهتك الأستار» للجوبري الدمشقي.

- إن دراسة لغة الشحاذين تفتح مجالاً واسعاً للدراسات اللغوية التي تقف على طبيعة هذه اللغة من حيث تكوينها أو مفرداتها. وهي لغة اصطلاحية سرية تتكون من خليط ومزيج لغوي متداخل. وقد شرح الجاحظ بعض المفردات الاصطلاحية، وكذلك البيهقي. كما احتفظ الثعالبي بشرح قصيدة أبي دلف الخزرجي التي تضمنت الكثير من مفرداتهم. وهنالك شرح لقصيدة صفي الدين الحلي في الغرض نفسه.

- إن عالمية الكدية تقود الى دراسات أدبية مقارنة تبحث في عوامل الاتصال والتأثير بين الادبين العربي والاوربي في العصور الوسطى، وقد لمّح إلى هذه الصلات والمؤثرات المستشرق الالماني بوزورث في معرض حديثه عن حياة الشاعر الفرنسي الشحاذ VILLON الذي تذكرنا «أشعاره وطريقة حياته بأشعار الاحنف العكبري وأبي دلف الخزرجي كما يقول(٤٤). وكان جزء من هذا التأثير قد انتقل عبر ترجمة المقامات حيث ظهر في الادب الاوربي «جنس جديد من القصص خطا بالقصة خطوات نحو الواقع، هو مانطلق عليه قصص الشطار» وهي قصص اجتماعية أبطالها من المتشردين والمتجولين.

ونخلص مما سبق: الى أن أدب الشحاذين عبّر في وقت مبكر عن التوتر الاجتماعي، والتنافس الطبقي، وحمل صوت الفئات المغلوبة، في دعوة تنادي بالعدالة الاجتماعية، وتندد بالتعسف والتمايز والاستغلال المادي والروحي للانسان وباختصار هو أدب ذو رسالة تقدمية، أدّى دوراً تحريضياً في الدفاع عن الشرائح الشعبية المضطهدة.

الحواشي والهوامش

(١) تهذيب اللغة: مادة كدى

(٢) شرح درة الغوا ص ١٩٧

(٣) شرح درة الغوا ص ١٩٧

(٤) الالفاظ الفارسية المعرّبة ص ١٣٢.

(٥) جمهرة اللغة، تهذيب اللغة، مقاييس اللغة، مادة شحذ

(٦) أساس البلاغة: مادة شحذ

(٧) تاريخ الطبري ١/ ٥٦٩، الكامل في التاريخ ١/ ١٥٧

Digitized by Birzeit University Library

(٨) دائرة المعارف الاسلامية ١١/ ٤٦
(٩) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٥
(١٠) ظهر الاسلام ٢/ ٤
(١١) أسواق بغداد ص ٢٧٤
(١٢) الحيوان ٤/ ٤٥٧
(١٣) البخلاء ص ١٣٣ ـ ١٣٨
(١٤) المحاسن والمساوىء ص ٥٨٢ ـ ٥٨٤
(١٥) يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٧
(١٦) المحاسن والمساوىء ص ٥٨٢
(١٧) مثالب الوزيربن ص ١٢٧
(١٨) البخلاء ص ١٧٣ .
(١٩) المحاسن والمساوىء ص ٥٨٢
(٢٠) المحاسن والمساوىء ص ٥٨٣
(٢١) أحسن التقاسيم ص ٤٢٩، ٤٤١
(٢٢) نشوار المحاضرة ٢/ ١٦٢
(٢٣) البخلاء ص ١٢٨ ـ ١٣٠
(٢٤) مروج الذهب ٤/ ١٦٣، الحيوان ٣/ ٢٥
(٢٥) عيون الاخبار ٢/ ١٣٢ .
(٢٦) لطائف المعارف ص ٢٣٨ .
(٢٧) التمثيل والمحاضرة ص ١٢٧ .
(٢٨) معجم ياقوت الحموي مادة حسين والرسالة الثانية تحقيق محمد منير مرسي
(٢٩) الامتاع والمؤانسة ٣/ ٧
(٣٠) يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٩
(٣١) طبقات الشعراء ص ٣٧٧ .
(٣٢) يتيمة الدهر ٣/ ٤٢٧ .
(٣٣) البصائر والذخائر ٣/ ٣٠٧
(٣٤) يتيمة الدهر ٣/ ٣٧٥ .
(٣٥) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٠١ .
(٣٦) الورقة، ص ٥٤
(٣٧) يتيمة الدهر ٣/ ١٢٤ .
(٣٨) يتيمة الدهر ٣/ ١٢٤ .
(٣٩) يتيمة الدهر ٣/ ١٢٣ .
(٤٠) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٠١ .
(٤١) يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٨ .
(٤٢) يتيمة الدهر ٣/ ١٢٣ .
(٤٣) المنتظم ٧/ ١٥٨ .
(٤٤) بوزورث The medievallisfamic underworld جزء ١ ص٦
(٤٥) الادب المقارن ص ٢١٣ .

Digitized by Birzeit University Library

مدن فلسطين في رحلات القدمين

« ٢ »

خير الله سعيد*

*** تعريف فلسطين:**

فِلَسْطِينَ: بالكسر ثم الفتح، وسكون السين والطاءُ مهملة، وآخره نون، تُعرب على مذهبين، منهم من يقول فلسطينُ ويجعلها بمنزلة ما لاينصرف، ويلزمها الياء في كل حال فيقول: هذه فلسطين، ورأيتُ فلسطينَ ومررتُ بفَلسطينَ، ومنهم مَنْ يجعلها بمنزلة الجمع، ويجعل اعرابها بالحرف الذي قبل النون فيقول: هذه فلسطين ورأيت فلسطين، ومررت بفلسطينَ بفتح الفاء واللاّم، كذا ضبطهُ الأزهري، والنسبة اليه فَلَسطيٌّ: قال الأعشى[١٠]:

«تَقلهُ فَلَسطيّاً إذا ذقت طعمهُ على رِبذات الـيّ حُمشٍ لثاتها»

*** من اين جاءت التسمية «فلسين»؟**

قالوا: انها سميت بفلسطين بن سام بن إرم بن سام بن نوح، وقال الزجاجي: سميت بفلسطين بن كلثوم، من ولد فلان بن نوح، وقال هشام بن محمد، إنما سميت فلسطين بفليشين بن كسلوخيم من بني يافث بن نوح، ويقال: إبن صدقيًا إبن عيفا بن حام بن نوح، ثم عربت فليشين.

وقال ابن الكلبي في قوله تعالى: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم»، قال هي أرض فلسطين[١٠].

*** وفلسطين،** هي من أجناد الشام المعروفة، بل هي أول أجناده، وفق توزيعاتها السياسية والادارية في الدولة الاسلامية، يُحدد موقعها الجغرافي إبن حوقل فيقول[٢٠]: هي أول أجناد الشام مما يلي المغرب، فإنه تكون مسافة للراكب طوال يومين من رفح الى حد اللجون، وعرضه /يقصد جند فلسطين/ من يافا الى

باحث في التاريخ والفولكلور من العراق.

Digitized by Birzeit University Library

ربما مسيرة يومين» وتضم اليها - إدارياً - وعلى ضوء التقسيمات تلك - نواحي زعرو ديار قوم لوط والشراة، وكذلك الجبال فمضمومة الى هذا الجند، وهي منها في العمل الى ايلة، وفلسطين، تأخذ مياهها من الأمطار والظل في أغلب مدنها، سوى مدينة نابلس، فهي الوحيدة التي فيها مياه جارية وهي أزكى بلدان الشام ريعاً، حيث كون أغلب جبالها كثيفة ملئى بأشجار الزيتون والتين والجمّيز الى سائر الفواكه وبفلسطين نحو عشرين منبراً على صُغر موقعها، وهي من أخصب البلاد، وقد توالى عليها بالأمارة، أيام الأخشيديين كل من: أبو منصور أحمد بن العباس بن أحمد، وأبو عبد الله بن مقاتل، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق»، وأعظم مُدن فلسطين الرملة وبيت المقدس، وتعتبر أراضي بيت المقدس من أخصب بلاد فلسطين على مَرّ الأوقات ويتبع من الناحية الادارية والسياسيلا، أيام الأمويين، لجند فلسطين - حسب رواية إبن شداد» كل من الرملة، والقدس والخليل، ونابلس وقيسارية، وأرسوف، ويافا، وعسقلان، وغزة.

وفلسطين، من الناحية الميثيولوجية، تمتد بأكتساب هذا الاسم من سلالة نوح. يقول ياقوت الحموي في معرض حديثه عن ايلياء: «وسمّيت إيليا بيت المقدس» بإسم بانيها، إيليا بن إرم بن سام بن نوح - عليه السلام - وهو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين - ومن هنا يتوضح لنا العُمق التاريخي الضارب الجذور في هذه الأرض من خلال هذا الاسم.

* ومن الناحية الايديولوجية الاسلامية، يُفسر الاقدمون قوله تعالى: «ياقوم إدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم»، فقال إبن الكلبي، هي أرض فلسطين» كما ورد تقديس فلسطين بالقرآن في قوله تعالى: «الأرض التي باركنا فيها للعاملين»، قالوا هي فلسطين.

وظل هذا الاسم، يحدد المكان الذي يؤشر عليه المصطلح من الناحية الجغرافية والاثنية والسايكولوجية، ويدلل على قوم عرفوا بهذا الاسم دون سواهم، تخلقوا وعرفوا بأخلاق وعادات ميّزتهم عن غيرهم، فيقول عدي بن زيد الرقاع: :

«فكأنّ من ذكركم خالطتني ... من فلسطين جَلسُ خمر عقارُ
عُتّقت في الدّنان من بيت رأس ... سنواتٍ وماسَبَتها التُجّار
فهي صهباء تترك المرء أعشى ... في بياض العينين عنها إحمرارُ

ويشير البلاذري، / وهو من المؤرخين الاسلاميين الثقاة/، الى ان المسلمين أطلقوا اسم «جند فلسطين» كأحد أجناد الشام، لانه جمع كوراً.

وبفلسطين، كانت أول وقعة للمسلمين مع الروم، وانتصروا فيها في خلافة أبي بكر الصديق.

ومن هنا يتضح، ان فلسطين، كانت بالنسبة للعرب المسلمين، بلاداً مُقدسة من الناحية الدينية والميثيولوجية، وموقعاً استراتيجياً هاماً من الناحية السياسية والعسكرية، لذلك عُبئت الجيوش الاسلامية في طلائع الفتح الاسلامي لبلاد الشام، فبعد أول انتصار للمسلمين على الروم، توالت فتوحاتهم لمدن فلسطين، فُتحت سبسطية ونابلس، واللّد، ويُبنى وعمواس وبيت جبرين، ويافا، ورفح، وقنسرين،

Digitized by Birzeit University Library

وتعاقب القوّادُ على هذه المواقع ابان خلافة أبي بكر الصديق من أمثال ـ عمرو بن العاص، ومعاوية، وأبي عبيدة، عام ١٦ هـ، وأشرف عمر بن الخطاب بنفسه على فتح بيت المقدس، أو ما كان يعرف بإسم «إيلياء» وذلك عام ١٧ هـ. وبُعد وفاة ابي عبيدة عامر بن الجراح، كتب عمر بن الخطاب الى يزيد بن أبي سفيان بولاية الشام مكان ابي عبيدة، وأمره أن يغزوَ قيسارية. وقد كان فتح قيسارية، هاماً للمسلمين، حيث أصابوا فيها الغنائم، وقد بلغ سبيُها أربعة الاف رأس[١٣٥] وتشير المصادر التاريخية الى أن فتح قيسارية في عام ١٩ هـ شجع الخليفة عمر بن الخطاب على متابعة الفتح، فكتب الى معاوية يأمرهُ بتتبع ما بقي من فلسطين، ففتح عسقلان. وفي زمن عبد الملك بن مروان، رُمّت قيسارية، بعد أن هَدمَ الروم أسوارها، وهدموا مسجدها، فأصلحت الأسوار، وأعيد بناء مسجدها، وأُشحنت بالرجال، كما بنا عبد الملك صور وعكا الخارجة. وكانت سبيلها مثل سبيل قيسارية[١٥٥] ولمّا تولى سليمان بن عبد الملك جند فلسطين، نزل اللّد، وأحدث مدينة الرملة ومصرَّها، وبنى بها قصره والدار التي تعرف بدار الصبّاغيره، ثم أذن للناس في البناء، فبنوا، واحتفر لأهلها قناة تدعى بَرَدة، واحتفر الآبار لها، ووّلى النفقة على بنائه بالرملة ومسجد الجماعة، كاتباً لهُ نصرانيّاً من أهل اللّد يقال له البطريق بن النكا. وكان بنو أميّة ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان بن عبد الملك. ولمّا استخلف بنو العباس أنفقوا عليها. ولما تولى المعتصم الخلافة العباسية فتح بتلك النفقة سجّلاً، فلم تعد مستثمرة، وصارت جارية يُحتسب بها العُمّال فيحسب لهم. قال البلاذري: وبفلسطين فروز بسجلات الخلفاء، مفسرة من خراج العامة وبها التخفيف والردود، يعود قسم من تلك التوقيعات والردود والقطائع الى أيام عمر وعثمان[١٥٥]

وبغية الاتساق في موضوعاتنا هذه «مُدن فلسطين في تراث الأقدمين» سنحاول هنا ـ بعد هذا التعريف التاريخي لفلسطين ـ أن نتطرق الى المُدن والقرى الصغيرة التي ورد ذكرها في مصادر التاريخ العربي الاسلامي. ومن ثم نتوقف عند المدن الكبيرة، وذات الشأن الخطير من الناحية التاريخية والسياسية، والتي عرفت بأصالتها الفلسطينية وروحها العربية، أرضاً ولغة، وشعباً وفلكلور، وتاريخاً وحضوراً، كي نسهل عملية التوثيق التاريخي والمعرفي لأبنائنا، من الأجيال المعاصرة، والمتعاقبة، فيما بعد، علنا نكون قد أسدينا خدمة لهؤلاء جميعاً، تكون قد نفعتهم، في مجال حياتهم السياسية المعاصرة، ومن ثم أوقفتهم على تاريخ بلادهم السليب، ومايتعرض له من مؤامرات، على كل الأصعدة، ناهيك عن حالة الاستلاب التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني من قبل الاعداء.

نأمل في هذه السلسلة من المقالات إصابة كبد الحقيقة لا غير.

* **جفارُ:**

أرض بين فلسطين ومصر، مسيرة سبعة أيام، أرضها رمال سائلة فيها قرى ومزارع ونخل كثير، وطبيعة الارض الرملية، اعطت لاهلها حساً معرفياً بالفطرة، هو ضرب من الفراسة، حيث عُرف عن أهل جفار، معرفتهم بآثار الاقدام في الرمل، حتى أنهم يعرفون /كما يقول القزويني[١٦٥] وطء الشباب من الشيخ والرجل من المرأة، والبكر من الثيّب، وهذه الميزة، جعلتهم يستغنون عن النواطير رغم كثرة بساتينهم، لان

Digitized by Birzeit University Library

السارق لا يقدر أن يعدو على غيره، لأن أياً منهم، اذا أنكر شيئاً من بستانه، فانه يمشي على أثار القدم، ويلحق سارقه، ولو سار يوماً أو يومين. وهذه الفراسة، شكلت لهم مقوماً اساسياً للطمأنينة والأمن، وأزخت لهم - فولكلورياً - بهذه الميزة دون سواهم. .

ومن خصائصهم المعيشية الموروث شعبي /اصطيادهم لنوع من الطير، يأتيهم من بلاد الروم يُسمى الزغ، يشبه السلوى، يأتي في وقت مُعيّن، يصيدون منه الكثير ويملحونه. كما تميّز أهل جفار باصطياد الجوارح، كالشواهين والصقور والبواشق، إلاّ أنهم لا يقدرون على البازي، ومن هذا الوصف، يتضح سيادة الروح البدا - قروية عليهم.

* **سنجل:**

قرية من نواحي فلسطين، بين نابلس وطبريّة، تقع على بُعد أربعة فراسخ من طبرية، ممّا يلي دمشق. يقول عنها الاصطخري[١٧٥]: كان منزل يعقوب - ع - فيها، وفيها أيضاً الجُب الذي ألقي فيه يوسف الصديق - ع - ومن عادات أهل سنجل الميثيولوجية والدينية زيارتهم الى تلك البئر، يتبركون ويشربون من مائها، لم يتوقف ياقوت الحموي عندها، وقال إنها: بُليدة وفيها جب يوسف الصديق ع[١٨٥].

* **عسقلان:**

مدينة على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) من أعمال فلسطين، يُطلق عليها لقب «عروس الشام» لحُسنها، جاء بالحديث الشريف: أبشركم بالعروسين غزة وعسقلان، يعتقد ياقوت الحموي أن الاسم أعجمي ويقول: ذكر بعضهم أن العسقلان أعلى الرأس، فان كانت عربية فمعناه أنها في أعلى الشام،

تقع عسقلان بين غزة وبيت جبرين، افتتحت أيام عمر بن الخطاب، وعلى يد معاوية بن أبي سفيان عام ١٩ هـ، ولم تزل عسقلان في أيدي المسلمين مُنذ ذلك التاريخ حتى سنة «٥٤٨ هـ» ففي السابع والعشرين من جمادي الآخرة استولى عليها الافرنج. وبقيت في أيديهم الى مجيء صلاح الدين الأيوبي، وأخذها منهم سنة ٥٨٣ هـ. وتشير التطورات التاريخية الى أن هذه المدينة كانت مسرحاً للأحداث الحربية، وموضع تنازع دائم بين المسلمين والافرنج، فبعدما فتح الافرنج عكا، واستقووا بجيوشهم، زحفوا نحو عسقلان، فخشي المسلمون ذلك وقاموا بتخريبها/كاجراء عسكري إقتضته الضرورة الحربية/ وكان ذلك في شعبان سنة ٥٨٧ هـ وبايعاز من صلاح الدين نفسه، ثم أستعيدت مكانتها شيئاً فشيئاً، الى ما هي عليه. وقد إستوطن في هذه المدينة جماعة من الصحابة والتابعين، وقد رويت الاحاديث في فضائلها. قال عبد الله بن عمر: لكل شيء ذروة وذروة الشام عسقلان».

وتحظى عسقلان بأهمية دينية، حيث فيها: مشهد رأس الحسين بن علي - ع - وهو مشهد عظيم مبنى بأعمدة الرخام، وفيه ضريح الرأس، والناس يتبركون به، ويقصدونه من جميع النواحي، وله ذكر كثير. وقد نقل - رأس الحسين - فيما بعد الى القاهرة - إبّان حُكم الفاطميين. والى جانب هذا المزار، وفي قبلته تماماً، مسجد كبير يُعرف بمسجد عُمر لم يبقَ منه /في أوان رحلة ابن بطوطة/ أي شيء إلاّ حيطانه، وبعض

Digitized by Birzeit University Library

أساطين الرخام لا مثيل لها في الحَسن، ومن جملة هذه الاساطين إسطوانة حمراء عجيبة، يزعم الناس ان الروم إحتملوها الى بلادهم، ثم فقدوها فوجدت في موضعها بعسقلان. وفي هذه القبلة من المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم ـ ع ـ ينزل اليها بدرج متسعة. وماؤها عذب، وليس بالغزيرة وبظاهر عسقلان وادي النمل[١٩٠].

* **طبريّة:**

قصبة من قصبات الاردنُ «سابقاً»، يسميها إبن بطوطة «وادي كنعان»، موقعها الجغرافي ينحصر بين الجبل، والبحيرة ـ المعروفة بإسمها ـ يطل عليها جبل الطور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين المقدس، وهي مدينة مستطيلة على البحيرة. إسمها، وفق إشارة ياقوت، أعجمي، ومعنى طَبَر في العربية (قفز واختبأ). فتحت في سنة ١٣ هـ صُلحاً على يد شرحبيل بن حَسنة، صالح أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم، بعد حصار لها دام أياماً، وقد إستثنى ابن حسنة موضعاً لمسجد المسلمين، إلاّ أن أهلها نقضوا العهد أيام خلافة عمر بن الخطاب، فوجه والي الشام ـ وقتذاك ـ أبو عبيدة ـ عمرو بن العاص في أربعة آلاف وفتحها، على مثل صلح شرحبيل.

قالوا عنها، ان حماماتها من عجائب الدُنيا السبع، حيث أن مياهُها شديدة الحراة جداً، صافية وعذبة وطيبة الرائحة، وعلى ما يبدو أن مياه هذه الحمامات «مياه معدنية» وذلك أن شكلت علاجاً طبيعياً لذوي العاهات الجلدية، حيث يقصدها هؤلاء.

وفي طبرية عيون تصب في موضع كبير حرُّ، يسبح الناس فيه.

يتحدث الجغرافيون العرب الأوائل عنها، فيقولون: كان أوّل من بناها ملك من ملوك الروم يقال له طبارا وسميت بإسمه، وفيها عيون ماء مالحة وحارة، بنيت على هذه العيون تلك الحمامات ـ الآنفة الذكر ـ فهي لا تحتاج الى الوقود، وهي تجري ليلاً ونهاراً، يزعم الأهالي ـ وفق ما تناقلوه من أساطير ـ من أنه في طبريّة، حَمّة يُقتمس فيها الجَرب، وواحدة أخرى سميت باسم (حَمّة سليمان بن داود ـ ع) يزعمون أنها نافعة من كل داء، ومن أشارها الاسطورية، صخرة منقورة، في وسط بحيرتها، قد طبقت بصخرة أخرى، يشاهدها الناظر من بعيد، زعم أهل تلك النواحي أنه قبر سليمان بن داود ـ ع ـ.

وبحيرة طبرية كثيرة الأسماك، خفيفة الماء، يُقال أن سمك البني حُمل اليها من مدينة واسط في العراق.

النَسَبُ اليها يقال: طبراني، وليس طبري، من غير قياس، بغية التفرقة بينها وبين طبرستان التي يُنسب اليها الطبري، ومن المشاهير الذين ينسبون اليها الامام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطير أبو القاسم الطبراني، يقول عنه ياقوت الحموي:

أحد الأئمة المعروفين والحفاظ المكثرين والطُلاّب الرحّالين الجَوّالين والمشايخ المعمرين، والمصنفين المحدثين والثقات الاثبات المعدلين. قدم أصبهان في سنة ٢٩٠ هـ فأقام بها سبعين سنة، حتى مات بها سنة ٣٦٠ هـ، وكان مولده بطبرية سنة ٢٦٠ هـ.

ومن الآثار الجليلة ذات القُدسية في مدينة طبريّة، مزارات في شرقي بحيرتها، ففيها قبر سليمان بن داود،

Digitized by Birzeit University Library

وفي شرقي بحيرتها أيضاً قبر لقمان الحكيم، ويزعم الأهالي، أن فيها قبر أبي عبيدة بن الجراح وزوجته، وفي لحف جبل طبرية قبر يقولون أنه قبر أبي هُريرة، وفيها عين من الماء تُنسب الى عيسى ـ ع ـ وكنيسة الشجرة، التي جرت فيها قصة عيسى مع الصُناع، وفي ظاهر طبرية قبر، يقول عنه السكان، أنه قبر سكينة بنت الحسين/ والحقيقة أن قبرها بالمدينة المنورة/ كما يزعم أهل طبرية أن في مدينتهم قبر عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل وكعب بن مُرة البهري، ومحمد بن عثمان بن سعيد بن هاشم بن مرقد الطبراني.

كماعُرف عنه خاصية مياه طبريّة، أن الماء اذا دخل المدينة، يصبهُ من الفُتور بطول السير، يصبح مُعالجاً لبعض الجلود، فإذا طرحت فيه تمعَّطت، ولا يمكن إستعماله إلاّ بمزاج، آخر يستعملونه معه[٢٠٥].

---

١ ـ راجع ياقوت الحموي / معجم البلدان ـ مادة فلسطين ٤/ ٢٧٤ ـ نشرة دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧م

٢ ـ المصدر السابق ـ وابن شداد في ـ الأعلاق الخطرة في ذكر أمراء الجزيرة ٢/ ١٨١ـ تحقيق د. سامي الدهان ـ منشورات المعهد العالي الفرنسي بدمشق ـ ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م

٣ ـ صورة الارض/ ص ١٧٠ ص ـ ط ٢ ـ ليدن ١٩٣٨ م، الجزء الاول

٤ ـ المصدر السابق/ ص ١٧١ ـ ص ١٧٢ .

٥ ـ الاعلاق الخطيرة ٢/ ١٧٩ وما بعدها

٦ ـ معجم البلدان ١/ ٢٩٣

٧ ـ المائدة آية ٢١

٨ ـ ياقوت ٤/ ٢٧٤

٩ ـ الأنبياء آية ٧١

١٠ ـ ياقوت ٤/ ٢٧٤ ، وذكر ان «فلسطين» إسم لقرية في العراق أيضاً.

١١ ـ فتوح البلدان / ص ١٨٠/ دار النشر للجامعين/ ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م

١٢ ـ فتوح البلدان / ص ١٨٨ .

١٣ ـ فتوح البلدان ص ١٨٨ ـ ١٩٣

١٤ ـ فتوح البلدان ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

١٥ ـ المصدر السابق/ ص ١٩٦ .

١٦ ـ آثار البلاد وأخبار العباد / ص ١٧٩ ـ دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م.

١٧ ـ المصدر السابق/ ص ٢٠٣

١٨ ـ معجم البلدان ٣/ ٢٦٤ .

١٩ ـ معجم البلدان ٤/ ١٢٢ ، وآثار البلاد وأخبار البلاد ص ٢٢٢ ـ وفتوح البلدان ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ـ ورحلة ابن بطوطة ـ الجزء الأول ص ٧٨ ـ ٧٩ ـ تحقيق د. علي المنتصر الكتاني ـ مطبوعات مؤسسة الرسالة ـ ط١ بيروت ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م

٢٠ ـ ياقوت الحموي / معجم البلدان ٤/ ١٧ ـ ٢٠ ، وابن حوقل ـ صورة الارض/ ص ١٧٣ ـ طبعة ليدن الثانية ١٩٣٨ م. والمقدسي/ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ص ١٦١ ـ ١٦٣ ـ طبعة ليدن ١٩٠٦ ـ ط ٢

Digitized by Birzeit University Library

دراسات تاريخية

حماية أحياء مدينة دمشق القديمة

(التحديث كوسيلة للحفاظ على بقاء السكان ورجال الأعمال فيها وتشجيع من تركها على العودة اليها)

كتبه: أوجين فيرث
عربه: د. شوقي شعث*

الحقت أعمال الهدم الواسعة وشق الطرق في السنوات الأخيرة أضراراً كبيرة بمدينة دمشق القديمة، فأزيلت مبان اسلامية مشهورة وفقدت بعض الأحياء الممتدة خارج الاسوار شخصيتها المميزة. وبناء على ذلك فقد بات على اللجنة الدولية لحماية مدينة دمشق القديمة أن تقوم بعمل حثيث لحماية مبانيها المشهورة من مزيد من التخريب الذي تحدثه مشاريع الابنية الحديثة ومشاريع التنظيم العمراني. وحيث أن مدينة دمشق من المدن التي تنمو بسرعة، وحيث أن المخططين والعمرانيين يعتبرون أن من واجباتهم الاساسية ادخال عمليات التحديث واعاده التخطيط الى المدينة القديمة لفتحها أمام حركة المرور، فان مواجهة ذلك يعتبر عملا شاقا، ومما يستحق الاعجاب هو تلك المعارضة القوية التي تبذلها المديرية العامة للآثار لمثل تلك المشاريع والمخططات، ففي السنوات الماضية نجح المدير العام الدكتور عفيف بهنسي ومعاونوه في تأخير وقوع الضرر على المباني التاريخية بدمشق القديمة، وعليه فان اعضاء اللجنة الدولية مسرورون لذلك الانجاز، ونتمنى أن تستمر تلك النجاحات في المستقبل.

* مؤرخ وباحث في شؤون الآثار من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

على أية حال فجهود مخططي المدن للوصول الى اعادة تنظيم اساسي وتحديث الحياة الى جانب تطوير نظام للمرور مقبول ليست الخطر الوحيد على مدينة دمشق القديمة. وحتى لو كان بالامكان ايقاف انتشار الابنية وشق الطرق والاضرار الكثيرة الاخرى التي تلحق بالمباني التاريخية. فان قدرة المدينة على الاستمرار بوظيفتها تبدو غير مضمونة. فالمتجول في شوارعها الضيقة يشاهد في كل مكان المباني التاريخية الهامة قد تحولت الى خرائب آيلة للسقوط، لان اصحابها او المقيمون فيها اقامة طويلة، خاصة أصحاب تلك البيوت الكبيرة وبيوت الطبقة الغنية، قد انتقلوا الى الاحياء الحديثة ومناطق الأقامة ذات النمط الغربي في الضواحي، وأصبحت بيوتهم بالمدينة التاريخية التي كانوا يستعملونها في السابق، مؤجرة لأناس من الريف أو الى عدة عائلات من الفقراء، فضعف القوة الشرائية لدى المستأجرين وبالتالي تدني بدلات الايجار جعل من المتعذر القيام بأعمال الصيانة الضرورية من قبل المالك او من قبل المستأجر. وقد ترتب على هذا الوضع زيادة خراب المباني التاريخية، وهذه الحالة معروفة جيداً في عالمنا الغربي.

على ضوء هذا الواقع، فان كل الخطط المستقبلية حول الترميم أو حماية مدينة دمشق القديمة يجب ان تبدأ من الافتراض بان منع استعمال المباني التاريخية كالبيوت السكنية التاريخية وحوانيت الحرف التقليدية استعمالا خاصا، ربما كان اكثر خطورة على المدينة القديمة من انشاء الطرق والانشاءات الحديثة المحلية في كل المناطق، ويمكن فقط حماية أحياء دمشق القديم اذا نجحنا في اعادة تجنيد القوى والفعاليات المنبثقة عن السكان أنفسهم التي يمكن ان تعد لتكون قادرة على توظيفها توظيفا يضمن حماية واعادة بناء المباني التاريخية التقليدية.

ولحسن الحظ لايزال في بعض الاحياء من المدينة القديمة بدمشق أبنية حتى في أيامنا هذه، يقوم فيها المالك او المستأجر بصيانة، على نفقتهم الخاصة، التركيب الاساسي لمساكنهم او حوانيت مهنهم على نفقتهم الخاصة. ومثل هذا العمل سيكون له الافضلية لدى علماء الاجتماع وجغرافيو المدن لفحص هذه النماذج بدقة كبيرة، والقيام بتحليل الاسباب والشروط المحيطة بعناية، التي لابد أن تؤدي في هذه الحالة الى التوظيف الخاص. لاشك فان هذا سيساعدنا على طرح استراتيجية على مدى طويل لاعادة بناء المدينة القديمة وتشجيع الظواهر الايجابية الموجودة سابقا.

وبناء على الاستقصاءات والمقارنات التي لمستها في حلب يبدو أنه من الممكن اتخاذ عدة حلول أولية لوضع استراتيجية شاملة لترميم واحياء مدينة دمشق القديمة منها:

١ ـ ان حماية المدينة القديمة بدمشق لتكون متحفا او تكون مدينة أثرية دون ضمان استمرار انماط الحياة وانظمتها الاقتصادية السابقة، لايمكن أن يتحقق، اذ لايمكن تحمل النفقات حتى ولو كانت سوريا من أغنى دول العالم، وفي هذه الحالة لايمكن للمباني التاريخية المرممة الخالية من السكان أن تحافظ على سحر مدينة دمشق القديمة الذي لايماثله سحر، فالنسيج العمراني والمعماري في هذه المدينة يوفر بيئة تقليدية وخلفية مألوفة للناس ومجتمعاتهم حيث استقروا وأخذوا يشعرون أنهم في بيوتهم في هذه المدينة القديمة.

٢ ـ لانستطيع السياحة اليوم، ولن تستطيع في المستقبل المنظور، أن تعطي مدينة دمشق القديمة اسسا اقتصادية كافية، فمن العسير ان تصبح مدينة دمشق القديمة في يوم من الايام روزنبرج سورية او كركاسوني

Digitized by Birzeit University Library

Carcassone او برج Brugge. ففي شمال افريقيا ومنطقة الشرق الاوسط توجد مدن تاريخية هامة وأسواق تتوفر فيها حاجات السياح، ولكن للاسف معظم السياح الاوروبيين الذين يسافرون الى البلاد البعيدة لاينظرون الى الفن والثقافة بل الى الشواطىء وأشجار النخيل.

وعلاوة على ذلك فان الطرق الدولية في الشرق الاوسط، خاصة تلك التي تربط الولايات المتحدة بمناطق الحج الخاصة بالمسيحيين متركزة بفلسطين، وحتى الان يقوم السياح في أحسن الاحوال بجولات ورحلات جانبية الى الاردن ولانعرف فيما اذا كان باستطاعتهم اضافة دمشق والمناطق الجنوبية من سوريا في المستقبل، اذ يعتمد هذا على التطور السياسي الذي هو خارج عن حدود رؤيتنا، بالاضافة الى ذلك فان المدن السورية ومبانيها التاريخية لاتعتبر جذابة بالنسبة للسائح العادي، ولاتبعث في نفسه اهتماما للوهلة الاولى، لقد سحرت أنا شخصيا بالعمارة التقليدية الصارمة التي تعود للعصرين الايوبي والمملوكي، كما سحرت بالتوظيف المميز للحلي المعمارية فيها، فانني اعتبر دمشق واحدة من أجمل المدن في العالم على أي حال. فان الزائر يحتاج لان يبذل جهودا خاصة وميلا للحضارة الاسلامية اذا مارغب فهم مدينة دمشق ومعالمها التاريخية.

٣ - يمكن كذلك الافتراض أن المباني الدينية في المدينة القديمة، كالجوامع والمدارس والمدافن وأماكن الصلاة والحج، سوف تحمى وتصان وترمم عند الضرورة، من قبل الدوائر الوقفية وهبات ومنح المسلمين الورعين ومن مخصصات الحكومة، وطالما ان الناس المحيطين بها لايزالون يعيشون في مساكنهم ويعملون في حوانيتهم ومعاملهم، فان المباني الدينية يمكن أن تبقى مليئة بالحياة يتردد عليها الناس لاداء واجباتهم الدينية، ولاتوجد ضرورة، الا في حالات استثنائية، لتوفير شبكة مواصلات حديثة، فقد جرت العادة أن يمشي المسلمون الى الجوامع حيث لاتوجد بضائع للاستلام او التسليم (لنقلها من المدينة واليها)، فعلى أي حال يبدو أن مستقبل مباني العمل أقل ضمانا اذا رغبت في البقاء مكاناً نشطاً للتجارة والصناعة، مثال ذلك: أمكنة المكاتب، المراكز التجارية من أي نوع، المعامل، الحوانيت مناطق المستودعات، عموماً. ان منافذ سهلة للمرور لايمكن استبعادها على المدى البعيد، وفي أحسن الحالات يمكن تصور مجمع «خان» Khan يضم كل مكاتب البيع وأماكن الصناعة اليدوية حيث يتطلب تسليم المواد المصنعة واستلام المواد الخام فقط نوعا من وسائل النقل التقليدية صالحة للاستعمال في الطرق الضيقة كالبهائم والدراجات ذات الثلاثة أو الأربع عجلات، واذا جذب العمل عدداً اكبر من الزبائن فعندها يكون المجمع مناسبا اذا كان قريبا من الشوارع أو الاماكن المؤدية لشوارع السيارات.

تعطينا أحياء المدن الايرانية القديمة زمن الشاه رضا أمثلة على أن الشوارع المقامة حديثا، تسببت في تدمير أبنية تاريخية في حالة جيدة، ولكنها في المقابل حسنت الاتصال بالمدينة القديمة وبالتالي حسنت التوظيف المقبول من قبل المالكين والمستأجرين لتحديث حوانيت مهنهم، بالاضافة الى تحسين الدعاية لها، فالمباني التي كانت قبل فتح تلك الشوارع حانوتا متواضعا او مستودعا أو مكانا للصناعة اليدوية البسيطة أصبحت اليوم مليئة بمكاتب البيع النشطة وبالمشاريع الصناعية الحديثة الصغيرة منه والمتوسطة. وفي حلب، توجد أيضا بعض «الخانات» التي يسهل الوصول اليها بواسطة السيارات، كما توجد مواقف جيدة

Digitized by Birzeit University Library

على بعد عدة ياردات، وبالتالي توجد مكاتب مشهورة ومجهزة تجهيزاً جيداً لتجار الجملة وأصحاب المهن الحرة.

يجب أن نضع في اعتبارنا مستقبلا فيما يتعلق بتخطيط المدينة وحماية الآثار، محاسن ومساوىء المقاييس المتطورة، عندما نقرر حماية بعض البيوت القديمة او عندما يعمد الى فتح شوارع جديدة للمرور. فمن جهة يجب أن نستبعد في كل الاحوال الحاق الضرر بالمباني التاريخية عن طريق اعادة بنائها Reconstruction او اقامة الطرق الواسعة، ومن جهة أخرى فان أية تحسينات معقولة فيما يتعلق بتسهيل حركة المرور قد يؤدي الى اعادة الانتعاش لاماكن التجارة والصناعة المجاورة. وفي هذه الحالة من المهم أن نتبنى تخطيطا صارما لطرق المستقبل، كما أن البيوت المختلفة والمباني التاريخية المتنوعة في المدينة القديمة جديرة بالصيانة بدرجة متفاوتة، ومما أدخل السرور في نفس ما رأيته هذا الصباح وهو أن مشاريع التخرج في كلية العمارة (بجامعة دمشق) التي عرضت، تشمل مقترحات لتحسين الاتصال.

٤ ـ فيما يتعلق بالاماكن الحية، لابد أن تقوم اعتبارات مشابهة في المنطقة التقليدية من المدينة القديمة، فاي تحوال في المناطق السكنية في دمشق يظهر أن المناطق المجاورة ومراكز السكن والاحياء الاخرى غالبا ماهي على حالها (غير مسوسة) ويرجع هذا الى حالة تلك البيوت والى تنظيمها الاجتماعي. وليس يستغرب أن نجد أمثلة استبدل فيها البناء التقليدي على نفقة المالك ببناء على النمط الغربي.

أما فيما يخص بعض الاحياء، ذات الازقة الضيقة، التي لم تمس حتى الآن، فان البناء الحديث الخاص به بعض الخطر من وجهة نظر (المرمم) ولكن من الضروري في هذه الحالة أن تأخذ بعين الاعتبار جميع المظاهر، وأنها لعلامة مشجعة أن يقوم السكان أنفسهم بتحديد وتحديث المعالم التاريخية، ولكن تظل مسألة التركيب الاجتماعي وتنظيم الحي مسألة هامة، حيث يشعر السكان وكأنهم في بيوتهم في المدينة القديمة وأنهم راغبون في العيش هناك باستمرار.

في كثير من الحالات قام السكان بتحديث مناطق اقامتهم دون أية مصاعب في ايجاد مواقف للسيارات الخاصة، فاذا قام أحد المالكين بانفاق كمية كبيرة من النقود في تجديد بيته فانه من الطبيعي أنه يريد أن يصل بيته بالسيارة، ونادرا مايحدث أنه اثناء اعادة البناء أن توضع الخطط لاقامة مرآب على الموقع نفسه وهذه الحالة غير قابلة للتطبيق في الاحياء البسيطة التي تسكنها طبقة فقيرة.

٥ ـ سوف تبرز مشاكل هامة عند التصدي لحماية وترميم بيوت الاغنياء والقصور، اذ يصعب ايقاف ميل الطبقة الغنية الى الانتقال الى الضواحي الحديثة بشكل سريع، وهذا الامر يخلق مشكلة الاستعمال البديل لتلك البيوت الذي يضمن حمايتها. وقد رأينا ان تأجير مثل هذه البيوت الكبيرة الى عدة عائلات نازحة من الريف بسبب لها خرابا سريعا، حيث تتحول البيوت الى وحدات سكنية مستقلة مزدحمة لايكون عندها المالك ولا المستأجر على استعداد لصرف أية نفقة على الصيانة ولو كانت الحد الادنى من النفقات.

فكما هو الحال في مدينة فاس بالمغرب ومدينة حلب ومدينة دمشق ايضا، فقد تحولت كثير من بيوت الطبقة الغنية الى مدارس، وتطلب ذلك بعض التغييرات وحتى اذا لم تقاوم الارضية الفسيفسائية القابلة للتلف والحشوات الخشبية وأعمال الجص متطلبات حياة المدرسة اليومية)، فان هذا هو العملي الممكن.

Digitized by Birzeit University Library

وحيث أن الطلاب في المدن الشرقية يذهبون عادة الى المدرسة مشيا على الاقدام، فانه ليس هناك حاجة لمنافذ للسيارات، وعلى أي حال فان عدد البيوت التي يمكن تحويلها الى مدارس محدودة.

هذا وان امكانية استعمال البيوت الكبيرة كمراكز ثقافية او مطاعم او قاعات لشرب الشاي أو حوانيت لبيع الطرف الفنية والمصنوعات اليدوية أو كنواد او مراكز للمعلومات العائلية او مكاتب لحزب البعث العربي الاشتراكي لازالت مقصورة على بعض الحالات القليلة، فالعصر القديم مناسب فقط ليكون متحفا اذا كانت عمارته من النوع الجميل (مثال ذلك قصر العظم) بدمشق، اما استعمال بيوت الطبقة الغنية كمصرف او فندق او مكاتب ادارية، فيتطلب حداً ادنى من امكانية الوصول اليها بالسيارات. وقد تسببت مثل هذه الحالات في سينا بتوسكانيا في خلق مصاعب على الرغم من أن طرق المشاة في ايطاليا أحسن من تلك الموجودة بسوريا.

على ضوء هذه الحالة من المؤمل ان يظل المالك الذي انتقل الى الضواحي على علاقة مع كثير من أقربائه، وعلى حس بالمسؤولية باحترام التقاليد السابقة للعائلة التي ظلت مقيمة في البيوت القديمة لتعني بصيانتها. وبالنظر لارتفاع الاجور اليوم (اجور العمال) فان مثل هذه الصيانة تتطلب مبالغ كبيرة من المال. واضافة الى ذلك فانه في الصيف او الشتاء يبدو العيش في فيلا مكيفة الهواء بالضاحية اكثر راحة، ناهيك عن أن التجهيزات الصحية في بيوت المدينة القديمة ليست على سوية عالية ونتيجة لوجود الساحات الداخلية المفتوحة والايوانات (الليوانات) في البيوت القديمة، فان هناك كثيرا من الغبار يتواجد فيها اكثر من الابنية المغلقة في الضاحية. وعلى الرغم من كل ذلك فانه لايزال هناك فرصة لتجديد تلك البيوت.

بين كل الجهود التي بذلت لاحياء الاحياء التي كان يقيم فيها الاغنياء في المدينة القديمة، فان ايجاد منافذ محدودة للسيارات سيلعب دورا حاسما. وهذه بالضبط النقطة التي ركزت عليها المخططات الهامة التي أعدتها كلية العمارة بجامعة دمشق. فاذا ماتم ايجاد مثل تلك المنافذ فانه من الممكن أن يبقى نفر من الاغنياء في قصورهم القديمة. وعندما كان الاستاذ هاينس جاوبب Heinz Gaube وأنا ندرس أحياء السكن في حلب، فقد صادف ولعدة مرات، ان دعينا تلقائيا من قبل مالكي المساكن (مساكن الاغنياء) لمشاهدة الحليات المعمارية. وقاعات الاستقبال، وهذا ينعش الامال أنه في أثناء عملية اعادة تقييم التقاليد التي لاتزال حية يمكن مشاهدتها قبل أجيال في مدن أوروبا وأمريكا الشمالية. وهذا سيفرض على أي حال في معظم الحالات تحديثاً حذراً على الاقل في الجزء من البيت الذي يختار للاقامة في فصل الشتاء.

ويظهر أيضا أنه بالامكان أن يؤدي التقييم الايجابي لتراث الاجيال السابقة الى احياء السوق المركزي كحي هام للتجارة. فسوق مدينة بورصة Bursa يعطي احسن الامثلة على ذلك، فبعد الحريق الهائل الذي حدث عام ١٩٥٨ وشمل منطقة السوق المركزي والاسواق المجاورة، أعيد بناؤها بشكل يمكن مقارنته تماما بالاسواق في المدن الاوروبية، وأصبحت المكان المفضل لتجارة التجزئة (البيع بالمفرق) في المدينة القديمة. في هذا الاطار من المهم أن نتساءل فيما اذا كان سوق دمشق المركزي يمكن ان يعادله شأنه

Digitized by Birzeit University Library

بطريقة مشابهة وذلك بادخال تحويرات محدودة وحذره على الأبنية، ولابد أن يكون في مطلع الاولويات ايجاد نظام للمواصلات مع المناطق كافية لوقوف السيارات على بعد معقول من الاسواق. ففي أوروبا، أقبل الناس فقط على المناطق التي بامكانهم الوصول اليها بسهولة بواسطة المواصلات العامة أو الخاصة اذا كانت هناك مواقف للسيارات قريبة.

يمكن في الختام أن الخص ماقلته بما يلي: ان الصيانة والاحياء لايمكن ان يكونا دونما مخلفات. فعند محاولة القيام بصيانة دقيقة فان كل تغيير في المنشآت القديمة القائمة مرفوض، وعندها سيكون من الصعب حث المالك او المستأجر على صيانة مبانيهم على نفقتهم الخاصة. ففي كل الاحتمالات فان العائلات القديمة ستحافظ على مكان اقامتها في المدينة القديمة اذا سمح لها بادخال بعض وسائل الحياة الحديثة الى بيوتهم الى حد معقول، هذا في حال ايجاد منافذ للسيارات الى تلك البيوت، اذ يمكن حماية كثير من المدن القديمة بادخال حد معين من متطلبات الحياة الحديثة اليها، وان مسؤولية تعيين تلك الحدود التي من المفترض ان تكون صارمة تقع على مديرية الآثار، فعلماء وخبراء هذه المديرية وحدهم هم القادرون على اتخاذ القرار بشأن مايمكن السماح به دون الحاق أضرار تؤدي بالتالي الى تدمير التراث الحضاري المتميز.

Digitized by Birzeit University Library

نقد أدبي

وليد أبو بكر في «الحنونة»

بين يعبد الغيبوبة، ويعبد الواقع

عدنان عمامة*

يغبد مدينة محصنة،
مفتاحها ذكر النبي

منذ الصفحات الأولى لرواية وليد أبو بكر «الحنّونه»، وتحديداً منذ الفصل الأول المعنون بـ«الحنين»، ينتاب القارىء هاجس محيّر هو: هل يعبد هي الوطن؟ أم الوطن ظلّ يتكثف، ولا يتطاول، حتى سكن يعبد، وروح عز الدين القسام الذي استشهد في أحراش يعبد. وكلما أوغل، القارىء، في قراءة الرواية، اكتشف أن الوطن هي يعبد، ويمكن قلب هذه المعادلة «يعبد هي الوطن» دون أن تُحسّ الوطن، ودون أن تُحسّ يعبد، يؤكد هذا الاستنتاج أشخاص الرواية ذاتها. فلطيفة الغنام، ومفلح البدري، ويوسف البدري، وعبد الله الناطور حتى «العالول»، لم يأتوا من خارج يعبد التي كانت من أول عهدها تبحث عن المادة، بل نبتوا في «دكة المدفع»، ومن شقوق الجدران، ومن جذوع زيتون يبعد الشهير، بحيث كلما حاول القارىء أن يبعد «يعبد» عن الوطن، أن ينزع التوحد بينهما، تحركت الشخصيات، أو إحداها لتعيد للذهن حالة التوحد والوجد عند يعبد في الوطن، والوطن في يعبد، فلنحاول أن نرى كيف ذلك في رواية وليد الجميلة «الحنّونه».

---

*روائي من فلسطين له عدة اعمال منشورة.

Digitized by Birzeit University Library

هذه البلدة التي تطاحن لتصلح مدينة، ولا تستيطع[1] ولا تعرف لماذا؟ تلفها الغيبوبة من كل جهات، بل من الأرض والسماء. وتحاول أن تفلت منها على أعتاب حركة واسعة منتشرة تحس بها، ولا تدركها تماماً، قبل مجيء القسام، ولكنها، وبالفعل ذاته التي تحس به أنها ملفوفة بالغيبوبة، تبحث عن الصحوة، تبحث عن الماء الذي في [مرحلة من عمرها، تحول البحث عن الماء إلى هَوَس، شارك كل الناس في البحث. شارك كل الناس في البحث لكن دون طائل، وكان عرساً في يعبد أن يهل الماء من أعماق الصخر، وكان عرساً أن يرفع إلى أعلى، . . . مازال يذكر ذلك العرس، وإن لم يشارك فيه. ومازال يرى صدر يعبد وهو ينمدد، عندما تسلل الماء إليه عذباً زلالاً، كادت أن تمد كل أطرافها إلى الماء وتغتسل، لكن أطرافها ترددت، فقد كان عليها أن تدفع ثمن الماء ص - ٧].

هكذا إذن، يعبد تخاف أن تفقد غيبوبتها، فترى ذلك الانتشار الواسع للحركة القادمة إليها مع القسام، تخاف أن تصحو يعبد، وتخاف أن تدفع الثمن، حتى يوسف البدري «لم يشارك فيه»، بل ظل يتفرج على أطراف يعبد، وهي تشتاق الماء، ولكنها لاتستطيع أن تسقطها فيه، حوالي يعبد مئات القرى مثل يعبد، وهي لاتستطيع مثل يعبد أن تدفع الثمن، تستطيع لكنها تخاف أن تصحو على الحركة القادمة، يعبد مثل تاجرها «حسن البدري» الذي ظل يخاف من موت أخيه وموت القسام، والاحتلال، والرتب العالية في مخفر يعبد بعد النكبة والنكسة.

وهل في «يعبد» غير القسام، ومفلح البدري[2]، ولطيفة الغنام وعبد الله الناطور، ممن أفلتوا من غيبوبتها التي عصفت بها، أشخاص الرواية تكمل الصورة تماماً، صورة كأنها ملفوفة بالسديم والغبار، وكأن يعبد ضمن شفافية الرمل وهو معلق «كجدار» في الهواء، ترى من خلالها، ولكن ليس تماماً.[3] ومن ظل الشفافية هذه، والمؤقتة يعبر إلى الصحو عبد الله الناطور ولطيفة الغنام، ويتعثر يوسف البدري. وعند هذا الحد تنفتح الهوة، وتلف يعبد من جديد. لاموت القسام، ولا عنف لطيفة، ولا نقاء عبد الله الناطور، ولا أصالة زهرة السلمان بقادرة أن تعيد الشمس إلى سماء يعبد السديمية.

ماالذي يمسك بقدمي يعبد، ويسقطها في الدوامة؟ . . يعبد تريد أن تفعل كما فعلت حيفا ونابلس، أحراشها تعد بالكثير، وفي أحراشها استشهد القسام أبو الثورة. وصاحب تنظيمها الرائع. من. . . غير يعبد نفسها، والعالول. وحسن البدري، والحنّونه «حبة الملبّس الملونة ص ١٦٩» والحنّونه، نهلة الأندي. !

يعبد نفسها لاتريد أن تصحو، وجدت الماء ثم اضاعته، عادت إلى آبارها القديمة. رأت القسام، شمت رائحته المميزة، واحتضنته أحراشها. ورأت دمه وهو ينزف هنا وهناك. لكنها ظلت تتفرج. مدينة سديمية يعبد، أقرب الى العدم. رغم لطيفة الغنام التي ترفع يديها إلى السماء مهددة. صارخة. متوعدة. هي روح يعبد التي لم تستطع الغيبوبة أن تغيبها، ويفلت مفلح البدري من سديم يعبد ليسقط في المصيدة القاتلة، مع عز الدين القسام ويستشهدان، ويعبد ترنو إلى دَكة المدفع التي صنعها الأتراك في يوم ما،

Digitized by Birzeit University Library

وتحاول أن تصحو.

يوسف البدري يسترجع بعد النكبة والنكسة مارأى في يعبد، حين حاول أن يفلت حادثة نهله الأفندي، وطوحت به بعيداً، يوسف البدري، الوحيد في الرواية، الذي يمكن أن يكون قلب يعبد وروحها لكن لايفعل، بل يستعرض بحنو لوحاته الداخلية ماحدث وماسوف يحدث ومايجب أن يحدث.

صدقوا لم يعد يعرفها، هل كان؟

تتصل يعبد بيعبد، تعيد تشكيلها، حيث الخونة هدموه، دخل في الشارع الجديد» والذكريات؟ «حتى الناس، والنبت الجديد أقوى، يولد من القديم ويتصل، ولطيفة الغنام ظلت أخت الرجال، حتى رحلت بعد أن اطمأنت على الرجال.. هل.. ماذا ستقول له عن يوسف البدري حين يسأل، هل التقت بمفلح البدري أخيراً. تجول ذهنه في الصورة «يأكل، يشرب، ينام.. يموت، يرى شيئاً يحاول، السر تتحرك يده، فمه يصرخ، تنهض.. أو تموت.. يكاد أن يرى في العيون صورة جديدة يسمع صدى؟ ماالذي يسمعه الآن؟

ونسأل هل يعبد هي الوطن كله؟ أم الوطن تمثل في يعبد،؟ وهل الغيبوبة هي ماحملت يعبد بعد وقبل موت القسام، وانسحاق يوسف البدري، أم ماذا؟ لقد أراد وليد أن يُدين، وأن يقول شيئاً في رواية «الخونة»، فقاله دفعة واحدة. وكأن أمراً لايصدق قد حصل؛ وقد صدقه وليد وصدقه القارىء، لا لأن الرواية أرادت أن تقرر ذلك، بل لأن ماحدث جاء مطابقاً لما كتب، والعكس صحيح.

قراءة في لغة الخونة

الروائي الجيد هو من يمتلك لغته. ويمتلك مناخه الخاص، ويمكن استعمال مقولة قديمة في هذا المجال «الأسلوب هو الرجل». وهذا يعيدنا إلى إشكالية اللغة الروائية. وليسمح لي القارىء والصديق وليد بأن أقول أن لغة وليد الروائية هي وليد ذاته. الدقة، الجملة القصيرة، التركيب اللغوي السهل والبسيط، حركة الكلمة في مجالها المحدد الذي لاتخرج عنه(٤). تلك أهم انطباعات القارىء عن لغة «الخونة»، انطباعات تعمل لمصلحة اللغة الروائية أحياناً، وتعمل لغير مصلحتها أحياناً أخرى، ولكن في النقد هناك أكثر من الانطباعات، أكثر بكثير من الانطباعات. ونقرأ بعض الحقائق الشعرية من الرواية، والتي أريد لها أن تكون لغة رواية، لكنها أفلت من لغة الدلالة إلى لغة الشعر.

«هل أنت أنت؟

مثل السنوات الماضية كان يسير

حوله كانوا.

هل أنت أنت؟ ص ـ ١٣ ـ

ونقرأ في مكان آخر، وهو يتحدث عن يعبد؛

«كل واحد ينظر ماذا يفعل الآخر، ويحاول، يولد الحسد في احتفالات صامته، ينم عنها بيت جديد،

Digitized by Birzeit University Library

يعلو، أو عرس جديد يقام، تحاول أن تتباهى على نفسها، كبارها فقدوا أدوارهم، لم يعودوا يملكون سلطة الحسم، ولدت فيها رؤوس جديدة، أحست بأنها رؤوس كبيرة، وصارت تبحث عن أدوار، عبد الله الناطور يكبر ويرى جيداً. ص - ١٢٩.

لسنا بحاجة لنسوق أمثلة أكثر، ولا أن نأخذ في تركيب الجملة الروائية في الحنونة. فالرواية كلها كتبت باللغة نفسها التي بدأها وليد منذ الكلمات الأولى في الرواية، لسنا بحاجة لأمثلة أكثر لكي نقول أن لغة الحنونة، لغة مميزة لغة شاعرة.

التداخلات الزمنية التي يمارسها وليد في روايته، ليست تداخلات المكان في الزمان، ولا الزمان في الشخصيات، ولا الأحداث، بل تداخلات شعرية. لها مقدمات عادية، ونتائج غير متوقعه على الاطلاق، لكنها النتائج المنطقية للمقدمات [تعرف ماذا تفعل، تقطع الرحلة في خطوة، الميدان، الرأسي في الصدر، الصدر في الصدر، الرحلة.

- ونكون معاً كل الوقت

طعم القبلة الأولى ص - ١٧٤

وتركيب الجملة عند وليد، تركيب يأتي ضمن سياق محدد، وهو تومض، الجملة، ثم تتلاشى مدلولها بسرعة، لاتبقى في الذهن إلى لحظات. ثم تختفي، لاتترك أثراً، تأخذك الجملة التالية، وتفعل مثل الأولى، وأنت لاتدري لماذا لاتكون الجملة قوية التأثير كما هي قوية في التركيب والسلاسة اللغوية. ولماذا الجملة باترة في الحنونة؟ لماذا اللغة تفقد في هذه النقطة بالذات تعبيرها، الخاص، وتكتفي بدلالاتها الوظيفية فقط؟

لا أدري لماذا وأنا أبحث في هذه النقطة بالذات قفزت إلى ذهني جملة من الرواية وهي قول وليد [أريد أن أفقد زمني]. لعل الاجابة تكمن هنا، ولعلها في مكان آخر في يعبد أو خارجها.

وهنا يطرح السؤال نفسه. هل اللغة الرواية لغة دلالة أم لغة معرفة؟ وأين تكمن حلول هذه المسألة. الحنونة اكتفت بلغة الدلالة، لغة الشعر، ويكفي الحنونة أنها الرواية التي كتبت بأداء شعري.

---

١ - كانت تحلم باتصالات أخرى «هل حققت طموحها إذن» من الرواية صفحة ٩.

٢ - مفلح البدري استشهد مع القسام، وهو يمثل في الرواية الفعل الحقيقي في يعبد. يمثل بداية الإفلات من الغيبوبة التي تمارسها يعبد على أبنائها بلذة كما في الرواية.

٣ - في الرواية يكرر وليد أبو بكر وبإيقاع جميل وملحمي عبارة. يعبد مدينة محصنة. مفتاحها ذكر النبي، وينخل في نهاية الرواية عن كونها محصنة، وعن كون مفتاحها غيبوبة واغتراب أبنائها، إضافة إلى وصف البلدة ذاتها في أكثر من موضع في الرواية.

٤ - حركة الكلمة في مجالها المحدد الذي لاتخرج عنه. في الرواية وفي بعض المقاطع يحس القارىء أن الكلمة في سياق السرد العام لاتملك زمام نفسها، بل وكأنها أسيرة الصياغة لاتوحي بالحركة والانسياب. بتعبير آخر كلمة فقدت حيويتها.

Digitized by Birzeit University Library

تراث

فكرة الصراع في الاغنية الشعبية «٢»

محمود مفلح البكر*

يستند الفلسطيني كما ذكرنا الى مواطنة رحبة ، مثله في ذلك مثل النسر ، عشه في جبله المنيع ، وملاعبه تمتد الى مسافات مترامية ، هو العمق الحضاري العريق الشامل ، المستند الى الموروث العربي الكنعاني المتأصل في هذه البقعة من الارض منذ فجر التاريخ ، والمتواصل مع الحضارات الشقيقة الراقية في مصر ، وبلاد الرافدين ، وجنوب الجزيرة العربية .

وبهذا الروح الريان بالزخم الحضاري خاض - ويخوض - الشعب الفلسطيني صراعه مع الصهيونية ، وجبهتها الداعمة .

ويجب الا يشم من هذا القول أية رائحة شوفينية ، أو عنصرية أو طائفية ، تحصر الروح الانساني في أضيق زواياه ، وانما هو الاستناد الى الأصالة ، والتاريخ الغني بالتجارب ، والأمجاد ، والثقافة المنفتحة على أفق انساني رحب ، والتي تردع عن الغي . ويختصر مثلنا الشعبي كثيراً من الحديث في المجال بقوله : «كل من على دينة الله يعينه » .

---

* باحث في الفولكلور من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

وكلمة « دين » هنا لا تفيد معناها الحرفي القريب ، وانما المعنى الأعم الذي يحفظ للانسان أي انسان دون تمييز ، حق الاعتقاد ، والتفكير ، وممارسة العادات ، والطقوس .

منذ بداية التحرك الصهيوني ، سعى مفكرو الصهيونية الى تمزيق الوحدة الوطنية الفلسطينية بإثارة النعرات الطائفية ، والاقليمية ، بل والبيئية التي نفخ البريطانيون جمرها الخامد ، دون كلل الى ان أصابهم الصداع . مع أن هذه الوحدة الوطنية كانت دوماً درعاً لليهود الفلسطينيين ، ولليهود العرب قاطبة .

لكن الذي اتضح ان وجود اليهود الفلسطينيين في مأمن بين شعبهم الفلسطيني كان أمراً منغصاً لمفكري الحركة الصهيونية الاستيطانية ، وحكمائها الملهمين ، لأن حياة الأمن والسلام والتعاون تعرقل تنفيذ المخطط الاستيطاني .

لذلك حاول مخططو الصهيونية ، وتقنيوها ان يضربوا هذه الوحدة الوطنية ، ليضربوا معها حالة السلام والأمن ، لخلق ظروف مناسبة ، لارتكاب مذابح ، والاستفادة من هذا المناخ المتوتر لكسب العطف العالمي ، والبريطاني الرسمي خاصة ، لاستقدام أفواج جديدة من يهود اوروبا الى فلسطين .

لقد اثبت (حكماء الصهيونية) انهم يمتلكون قدرات ابداعية متفوقة في مجال الخداع ، والمؤامرة ، وخلق ظروف الجريمة كتلك التي ورَّطوا فيها فئاتٍ عديدةً من الشعب الألماني بارتكاب جرائم ، هم طابخو فكرتها ، ومشعلوا نارها ، ليستفيدوا من نتائجها بتهجير آلاف اليهود الاوروبيين ، وسلخهم عن أوطانهم ، ليغزوا بهم أرضاً لا يعرفون شيئاً عنها غير ما يلفقه دعاة الصهيونية في محاولة لجمع اكبر عدد من المهاجرين والمرتزقة على ارض فلسطين تمهيداً لاقامة « دول » استيطانية ، عنصرية ، توسعية[٢٩] .

والتركيز الصهيوني المستمر على (مذابح اليهود) في المانيا هو في حقيقته ملعوب سياسي ، لجعل الشعب الالماني مصاباً بعقدة ذنب تجاه اليهود خاصة ، وشعوب الارض عامة ، مما يساعد قادة الصهيونية على ابتزاز الالمان اقتصادياً ، وسياسياً الى ما شاء الله .

ان ملعوب قادة الصهيونية مع اليهود الالمان يشبه ملعوب القرد مع الدب في حكايتنا الشعبية ، اذ يقال :

« ان رجلاً كان عنده قرد ودب ، تركهما يوماً في البيت وخرج لعمل له ، وكان في البيت جرة عسل .

تلفت القرد فرأى الدب يغط في نوم عميق ، فتسلل الى الجرة وبدأ يأكل العسل الى ان أتى عليه ، وتيقن ان عقوبة شديدة تنتظره من صاحب العسل ، ففكر بخطة تنجيه ، وفي الحال لطخ يديه بما تبقى من عسل ، وتقدم من الدب ، وراح يلاطفه ، ويمسِّدُ على رأسه ، وأذنيه ، وشاربيه ، والدب يتعجب من هذه المودة المفاجئة التي يبديها القرد نحوه .

حين عاد الرجل وجد جرة العسل خاوية فجن جنونه . نظر الى القرد فوجده نظيفاً لا أثر للعسل عليه ، والتفت الى الدب فوجد رأسه ملطخة بالعسل ، ولم ينتظر ، فتناول عصا غليظة ونزل به ضرباً حتى أدماه » .

اذا كانت الظروف في المانيا حينذاك قد ساعدت على اخفاء لمسات المخطط للجريمة ، فان الظروف في فلسطين كانت تختلف ، كما أن تجربة الشعب الفلسطيني مع الصليبيين جعلته يعي منذ البدايات الأعيب الصهيونية ، وحماتها ، وفي هذا يقول نوح ابراهيم :

Digitized by Birzeit University Library

هلال وصليب علامتنا ايدينا بيد بعضينا
واللي يحاول يخلفنا ندوسه الكل برجلينا
يا غربي لازم تعرفنا اتحادنا قوي ومنيع
والدين والمذهب لله اما الوطن للجميع(٣٠)

والشاعر يعني ان حرية الاعتقاد متوفرة ، والوحدة الوطنية تظلل الجميع ، وتحميهم ، ولن يقبل الشعب الفلسطيني أي تدخل خارجي ، من أي نوع ، يمكن ان يهدد هذه الوحدة الوطنية التي هي انجاز حضاري متقدم .

وفي قصيدة ثانية موجهة الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين غرينفيلد ووكهوب ، يقول نوح ابراهيم :

فلسطين مهد السلام مهد المسيح والاسلام
غايتنا رفع الراية مع الاستقلال التام(٣١)

اذن الموقف الشعبي يرتكز على عمق حضاري رحب ، فأرض فلسطين معهد العقائد الانسانية السامية ، والشعب الفلسطيني معتنق هذه المبادىء ، وحاميها ، وناشر رسالتها الحضارية منذ فجر التاريخ ، وأي شعب محب للسلام ، وحريص على أمن وطنه سيرفض بحزم اية افكار غازية تهدف إلى تخريب أمنه وتمزيق وحدته ، وبث القيم العنصرية ، والعدوانية في ربوعه .

لذلك فالاستقلال أهم ضمانة للحفاظ على القيم الوطنية،وهو ما ركزت عليه الاغنية الفلسطينية منذ وطئت أقدام القوات البريطانية ارض فلسطين .

والموقف الوطني الفلسطيني الواحد كان دائماً هو الاساس في أي تحرك نضالي ، كما تجلى بوضوح عندما اكتشف بحارة يافا ، وعمال الميناء شحناتٍ من الاسلحة مهربة الى المستوطنات الصهيونية في خريف (١٩٣٥) ، وفي هبة (١٩٢٩) دفاعاً عن عروبة القدس ، ومعالمها التي عمت أرض فلسطين ، وقبل ذلك في أوائل العشرينات ، ثم في ثورة (١٩٣٦) العارمة . . وهو الموقف ذاته الذي تجلى سابقاً أيام مقاومة الهجمة الصليبية في القرون الوسطى ف(المسلمون والمسيحيون سواء بسواء ، على اختلاف مللهم ونحلهم ، كانوا مفعمين بالحقد على الصليبيين وعلى النظم التي أقاموها ، وكانوا مستعدين للاقدام على كل شيء لكي يجعلوا اقامة البارونات الصليبيين وأتباعهم لا تطاق،ولكي يجبروا هؤلاء على الرحيل عاجلاً أم آجلاً ،

كان التوتر في العلاقات بين الافرنج والسكان الاصليين يفقأ عيون جميع الذين زاروا مملكة القدس)(٣٢) .

كان قادة الصهيونية يدركون منذ البدايات أنهم يواجهون شعباً يمتلك ثقافة شمولية ، وموروثاً غنياً زاخراً بالقيم ، والمواقف ، والتجربة الانسانية في جوانب الحياة كلها ، من عادات وتقاليد ، وفنون شعبية ، وصناعات تقليدية ، ورقص وغناء ، وأمثال ، وحكايات ، ومعتقدات ، وأساطير . .

لذلك لما تمكنت العصابات الصهيونية المسلحة من الاستيلاء على مساحات من أرض فلسطين

Digitized by Birzeit University Library

بتمهيد ، ومساندة من القوات البريطانية ، اتجه خبراء الصهيونية الى الموروث الشعبي الفلسطيني لاحتلاله أيضاً ، وشطب هويته الفلسطينية وتهويده ، ومن ثم ختمه بالخاتم (الاسرائيلي) فراحوا يسرقون الالحان الشعبية ، ويصادرون الأزياء والرقصات ، والصناعات التقليدية ، وينسبون الى (شعبهم) المزعوم كل ما يجدونه من معتقدات ، وأساطير ، وحكايات ، وأغان .

ولمصادرة الموروث الشعبي هدفان :

اولهما : محاولة الصهيونية ايجاد أرضية نفسية تقرب ـ ولا نقول : توحد ـ بين المهاجرين المغامرين ، او المغرر بهم ، القادمين الى فلسطين من شتى أصقاع الارض ، ولا تربط بينهم رابطة ، ولا يوحد بينهم موروث من أي نوع .

والهدف البعيد من هذه المحاولة مزج هذا الخليط غير المتجانس لينسجم في كيان عام ، مما يساعد مستقبلاً على تكوين شعب له مقومات الشعوب ، ومن اطرف الطرائف أنهم يسمونه (الشعب اليهودي) فكم هو مضحك ان نقول : (الشعب الاسلامي) او (الشعب المسيحي) او (الشعب البوذي) او (الشعب الشيوعي) او (الشعب النازي) . . محلين المعتقد الديني او الاجتماعي ، او السياسي مكان (القومية) .

ثانيهما : محاولة خلق انطباع لدى شعوب العالم بان اليهود (شعب) مثل باقي الشعوب كالشعب الايطالي ، او الفرنسي . . يمتلك موروثه الشعبي الخاص ، وعقائده ، وعاداته . . التي تميزه عن غيره من الشعوب .

ولما كان هذا الخليط لا يمتلك شيئاً من هذا الموروث المُمَيِّز والمميِّز ، لم يكن أمام مفكري الصهيونية ، ومنفذي خططها الا سرقة الثوب الفلسطيني وادعاء ملكيته ، والامعان في الاستعراض في المحافل الدولية علّ الشعوب تصدق هذا الادعاء وتنسى وجه الفلسطيني .

لكن أين المفر من دلعونة ؟ وجفرا ؟ وظريف الطول ؛ . . وغيرها من الاغاني التي ما زالت تتردد على السنة الفلسطينيين ، في كل مناسبة ، داخل الارض المحتلة وخارجها ، يتناقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل .

وأي مغنٍ فلسطيني ؟ اية امرأة ؟ أي طفل ؟ لا يردد باستمرار في المطارح البعيدة التي دفعته ظروف الاحتلال اليها :

على دلعونة على دلعونة بي بي الغربة الوطن حنونه
لو حزوني حزوز الليمونة عنك ما احيد يا فلسطينه

أين المفر من العرس الفلسطيني ؟ انه ما زال محافظاً على أركانه الجوهرية منذ آلاف السنين ، وما زالت أغانيه تمتح من موروثها الحضاري الزاهر ، والغني بكل ما هو جميل ، والمفعم برائحة الارض بما فيها من اشجار ، وازهار ، وينابيع ، وخضرة . . خذ مثلاً هذه الاغنية :

يا زارع الرمان وازرع سهل وادينا
وخلي الزين يتمشى ويخطر ع سواقينا(٣٣)

Digitized by Birzeit University Library

انها علامة وحسب على ذلك النزوع الفلسطيني الى الخضرة ، والذي هو استمرار للنزوع الاول الذي خلق حضارة كنعان ، وملأ فلسطين حضرة ، يصفها (الامير المصري (سنوحي) بعد ان زارها حوالي ٢٠٠٠ ق . م . فيقول : « فيها العنب والتين ، وفيها الخمرة الغزيرة كالماء ، وفيها العسل المتدفق والزيتون الكثيف ، وعلى اشجارها تنبت كل أنواع الثمار »[٣٤] .

والنزوع المستمر الى الخضرة نزوع الى الحياة ، متأصل وعميق ولا يساوم . ولأنه كذلك فهو مستعد للتضحية بالنفس دائماً في سبيل حياة انسانية كريمة تغنى بالطّراء ، وترفل في ظل الامان ، والطمأنينة .

فلأجل خضرة الحياة ، وبهاء آفاقها ، وسمو انسانيتها ، وكرامة جبينها ، يتسابق ابناء فلسطين الى الشهادة مواكب في اثر مواكب ، لا حباً في الموت ، وانما دفاع عن الحياة .

ولأجل هذا تغني النساء الفلسطينيات للمكافحين الذين يسقطون مخضبين بالدماء ، وترقص لهم الفتيات ، ويزفهم الرجال بالاهازيج ، والطبول ، والزمور ، ومعهم الزهور ، والنخيل ، والزيتون . . بما يشبه زفة العريس :

نادوا الاولاد عمه تيجوله

بالطبول وبالزمور يرقصو له[٣٥]

لم هذا ؟ انها زفة الولادة المتجددة مع كل قطرة دم تنزف في سبيل الارض ، والقيم الحضارية التي رسخها الشعب العربي الفلسطيني عبر آلاف السنين ، ولا يستطيع التنازل عنها .

وما ان يدفن الشهيد في الارض مثل حبة القمح حتى تنهض الحياة من جديد بعزم امضى ، سنابل معبأة خصباً ، وعنفواناً فأي بطل قضى في الميدان ولم ينهض عشرات الابطال ؟

لقد أصبح الكفاح مع الزمن سمة هامة ، واساسية من سمات هذا الشعب كما يقول الشاعر العجاوي ، وكأنه خلق لأجل هذه المهمة :

خلقنا من أجل الكفاح ثم لحمل السلاح

بنبذل جميع الارواح وهذي هيه عادتنا[٣٦]

وهذا الموقف هو الذي يجعل السجين الفلسطيني يغني في ليلة اعدامه اغنيات مفعمة بالروح الانساني ، وبالألم الانساني ولكن باتزان مدهش ، وانسجام مع الموقف الحضاري للشعب كله .

يا ليل . خلي الأسير يتكمل نواحه

***

لا تظن دمعي خوف . دمعي على أوطاني

وع كمشة زغاليل في البيت جوعانه

مين راح يطعمها بعدي ؟ واخواني

شباب اثنين قبلي ع المشنقة راحوا[٣٧]

اذن . لا خوف من الموت ما دام فيه حياة الوطن ، ولا مدهشاً أن يتقدم الاخوة واحداً اثر واحد دون وجل ليروا بدمهم شجرة الحياة ، وليس غريباً بعد ذلك أن يسرب سجين فلسطيني من داخل المعتقل

Digitized by Birzeit University Library

ا الصهيوني رسالة الى زوجته متحدياً العسف ، والاضطهاد ليوصيها وصيته الخالدة قبل ان يموت :

عندي وصية إلك يا أم العيال
لا تركني للعم او للخال
ولا تهملي تربايا الاطفال
دربيهم ع الثبات وع النضال
اياك يمشوا ع درب الانحلال
بدي تحليهم بأخلاق الرجال
وتخلقي منهم للوطن أبطال
وبنفوسهم تزرعي بغض الاحتلال
وتعليمهم حمل رايات النضال
وكيف يقتحموا المصاعب والاهوال
تيحصلوا ع حقنا المغبون(٣٨)

فالأب الفلسطيني المناضل لا يسعى الى تجنيب أولاده الموت ، ولا يحاول ابعاد فلذات كبده عن عذابات السجن الصهيوني ، وانما وهو في قلب الموت يوصي اولاده بمواصلة المسيرة الكفاحية وخوض الاهوال .

ورغم شراسة الصراع فالانسان الفلسطيني حريص على خوض الصراع بأخلاق المناضلين ، وحب القيم الانسانية التي تربت عليها اجيال هذا الشعب ، وكم هو الفارق بين اخلاق المناضل الفلسطيني ، وبين الاخلاق الاجرامية التي يغذي بها القادة الصهاينة اتباعهم وابناءهم .

فقتل الاطفال ، وبقر بطون الامهات ، وتدمير البيوت ، والابادة الجماعية . . كل هذه ، وغيرها هي من ثوابت الخلق الصهيوني ، الذي يتفاخر به قادتهم .

انه صراع بين روحين ، روح حضارية خضراء تغوص جذورها في تربة خصبة تمتد الى بداية التكون الحضاري على الارض ، وبين روح عدوانية ، جشعة ، مقطوعة الاسباب عن خضرة الحياة وندائها .

وأي صراع في مثل هذه الضراوة لا بد أن يمر بجولات كثيرة وشرسة ، قبل ان يحسم ، وتوعد الايادي الخضراء لبناء ما عاثت به يد الخراب ، وتعود الاغنية تتقلب في مرابعها الطلقة :

يا ظريف الطول وقاعد ع العيون والسدر بستان ومحوج لمون
ما حلي لي غير غمزك بالعيون والسوالف بالزياد مدهنات(٣٩)

ونفي الفلسطيني عن ارضه هو نفيه عن هويته الوطنية ، وجعلها شاغرة لمهاجر طافر ، او مغامر جائح ، او مجرم جنائي فارٍ من وجه العدالة في وطنه الاصلي .

ومصادرة موروث الفلسطيني يعني نفيه عن التاريخ ، والغاء دوره الحضاري ، وسلبه ثوبه المزخرف بنجومه ، وزهوره ، ورموزه الخاصة .

Digitized by Birzeit University Library

نفي الفلسطيني عن هويته الوطنية ، وعن التاريخ سيجعله قشة على مفترق ، تتقاذفها العواصف من ركن الى ركن ، ومع كل نقلة تصاب شخصيته بالحت الى ان تتلاشى في النهاية ، وتختفي آثارها .

انه الحلم الصهيوني .

ترى ما الذي تحقق منه ؟

كان هذا الحلم العدواني في بداياته محموماً ، وانطلق بحملته مثل جرذان جائعة يودون اكتساح كل شيء ، ولم يتورعوا عن ارتكاب اي فظيعة .

وقد واتتهم ظروف مثالية ، فانجزوا بعضاً من الشق الاول من حلمهم بطرد آلاف الفلسطينيين عن بلادهم عام ١٩٤٨ وشعر قادة الصهيونية بالنشوة ، وبدأوا يتمطقون سلفاً على بقية فلسطين ، بل على ما هو أبعد من ذلك .

وقد جاءت الظروف العربية التالية لتخدمهم اكثر ، واتاحت لهم الوثوب على الارض ، او بعض من الارض التي كانوا يحلمون بها ، وانتابهم لفترة شعور البطل المنتصر ، الذي تلفت حوله فلم يجد منافساً ، فتحول الى ثور هائج . .

لكن هذا الشهور تحول الى حالة من الحنق ، التي أدت الى ارق مستمر . فرغم (الانجازات البطولية) كلها فان الفلسطيني لم يندثر ، وظل الفلسطينيون في الارض مثل اشجار التين ، تبتر غصناً ، فتنبت اغصان ، تقطعها فتتجدد ، تحرقها فتشب البراعم الخضر من الرماد ، تشلعها فتثور خضرتها من حيث لا تتوقع .

تحولت الارض المبتلعة الى شجاً في اخر الحلق كلما ضغط انغرز في اللحم اكثر ، وتحول شعور البطولة والعنجهية الى (حُب الخلاص) وفي ايام العقلنة الاخيرة التي فرضتها الانتفاضة الفلسطينية أدرك حتى مجانين الصهيونية ان نفي الفلسطيني عن الارض مستحيل ، وان قطع سرته مستحيل ، ولو نفي الى كوكب آخر .

فهل يمكن بعد ذلك اقتلاع الفلسطيني من التاريخ ؟

ان المستحيل ذاته ، وهو الامر الذي لا يحتمله التاريخ ، فعلاقة الفلسطيني مع ارضه هي علاقته مع حضارته وكل حبة تراب جبلت بدم شهدائه ، وشهداء امته ، بل بدماء شهداء آخرين من شعوب أخرى لم يحتملوا رؤية هذا الظلم الفادح الذي يعانيه الشعب الفلسطيني .

وفي كل بقعة من فلسطين ذكرى موقعة مشرفة ، وعلى كل جبل بقايا معبد ، او حفيدة شجرة مقدسة ، ما زالت تحفل بذكريات الماضي ، وعلى كل غصن اغنية تبوح بعشق لا ينطفىء ، وفي كل موقع حجر ينطق بتاريخ شعب ، أو جرّة تتنفس بنهكة زيت الزيتون ، وتبوح بأغاني القطاف من مثل :

يا زيتونه بو مري هري لي بلح هري
يا زيتونة بو عرموش هري لي ذهب وقروش(٤٠)

واننا مدينون كثيراً للمنقبين الاثريين ، والعلماء النزيهين ، الذين زودوا العالم بحقائق جديدة مدهشة ، وخدموا عالم التاريخ خاصة ، والمعرفة عامة ، ووضعوا بين أيدينا مادة لا تقدر بثمن ، لما تقدمه من خدمات

Digitized by Birzeit University Library

جل للقراء ، والدارسين .

والمادة الاثرية التي تم تقديمها حتى الآن كفيلة بازاحة اللثام عن جوانب عدة ، وهامة من الحقيقة ، وكافية لاعادة قراءة التاريخ بجرأة وجدية ، وقد بدأ كثير من الدارسين يطرقون منذ سنوات هذا الباب .

اما العلماء الذين اندفعوا منذ البداية ينقبون ، وفي صدورهم نوايا لا تخدم الحقيقة ، ولا تبحث عنها ، ولي جعبتهم افكار مسبقة ظالمة ، او خيالية مفترضة يريدون اثباتها عسراً ، نرجو ان يتنبهوا الى خطر مسؤوليتهم تجاه التاريخ ، والحضارة ، والحقيقة لان الناس الحضاريين في العالم اجمع لن يغفروا لعالم ـ مهما كانت منزلته ـ سعى يوماً لتزوير الحقيقة ، وتشويه صورتها ، بالباسها غير وجهها .

الهوامش

٢٩ ـ فلسطين ارض الرسالات ـ مصدر سابق ـ ص ٢٤١ تحت عنوان : (تعاون القادة الصهاينة مع النازيين) .

٣٠ ـ صور من الادب الشعبي ـ مصدر سابق ـ ص ٤٤

٣١ ـ المصدر نفسه . ص ٤٣

٣٢ ـ الصليبيون في الشرق ـ مصدر سابق ـ ص ١٣٧ وانظر الصفحات من (١٣٦ ـ ١٣٩) .

٣٣ ـ موسوعة الفولكلور الفلسطيني نمر سرحان ـ ج ٢ ص ١٠٣

٣٤ ـ فلسطين ارض الرسالات ـ مصدر سابق ـ ص ٤١

٣٥ ـ نص شائع قديم من رواته عبد الله عمرين

٣٦ ـ موسوعة الفولكلور ـ ج ٢ ـ ص ٣٢ ـ مصدر سابق

٣٧ ـ صور من الادب الشعبي ـ مصدر سابق ـ ص ٢٢

٣٨ ـ موسوعة الفولكلور ـ ج ٢ ـ مصدر سابق ـ ص (١٠ ـ ١١) .

٣٩ ـ الرواية ريمة الياسين ـ من الطيرة ـ

٤٠ ـ اغاني العمل والعمال في فلسطين ـ علي الخليلي ص ٦٩

Digitized by Birzeit University Library

الشخصية الفلسطينية في المثل الشعبي

عوض سعود عوض*

المثل الشعبي لغة سهلة التداول لاحتوائه التوافق اللفظي والحكمة، واستخدامه الايجاز والابداع والايحاء مرة والصراحة مرات بألفاظ دارجة ولغة محكية، يعتبر صورة عن المجتمع بشكل عام وصورة مصغرة عن قائله، متفقاً مع العادات والتقاليد والمثل ومعبراً عن آراء الناس. كل ذلك أعطى المثل قوة كقوة القانون والعرف.

الامثال الشعبية متوارثة منذ القدم، تعبر عن حياة الافراد ومفاهيمهم، وهي صورة عن العلاقات العامة بين الناس، وناظم للمجتمع لها قوة الفعل، فعندما يقال هكذا قال المثل، فان الحجة تكون قوية لدرجة لا تناقش، ويصير أمر التنفيذ والاذعان لا مفر منه.

---

* باحث في قضايا التراث وروائي من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

والمثل الشعبي الفلسطيني معبر أصدق تعبير عن حياة الفلسطيني فوق أرضه الممتدة من البحر الى النهر ومن الصحراء الى الجليل، وسط بيئات مختلفة حسب التوضع الجغرافي، فهناك البيئات التالية، البحرية، الداخلية، الجبلية، والصحراوية، ممتدة في أعماق التاريخ، لذلك فان التعدد والتنوع نتاج جغرافيا المكان والتطور التاريخي، مما يؤدي في بعض الاحيان التي تباين بالمفاهيم من منطقة الى أخرى، هذا الاختلاف البسيط لا يلغي وحدتها، أي وحدة المفاهيم التي قام عليها المثل الشعبي لانه المرآة التي ترى ما بداخلها وتكشف ما حولها وكل ما يمت بصلة اليها.

المثل تعبير صادق عن مفاهيم وحياة الفلسطيني، فمن خلال اطلاعي على مجموعة من الامثال تتجاوز الفين وخمسمئة مثل، وجدت أن الامثال التي تدعو الى العزلة والابتعاد عن الجماعة قليلة جداً ويمكن عدها وحصرها، وتكاد تكون معروفة على أوسع نطاق، ربما يعود سبب ذلك للهزائم التي لحقت بنا وللتراجع المستمر في معيشتنا وأوضاعنا نتيجة افتقاد الديمقراطية والحرية، ونتيجة عوامل عدة، من الامثال التي تدعو الى الروح السلبية والانهزامية:

- الغرايب عقارب.
- جواز الغرايب مصايب.
- العب وحدك تيجي راضي.

ان وجود أمثال قليلة سلبية لا يعكس روح المثل وهدفه والتزامه بحياة الناس.. مثل هذه الامثال قيلت للتحذير من القلة الذين لا يؤتمن جانبهم، ان عدم التركيز عليها يعني ندرتها وضآلة فعاليتها وحجمها، فهي لم تلغ الامثال التي تؤكد على التكاتف والتضامن. بل هي تعبير عن تجربة سيئة مع الاقارب ربما لا تتكرر، وهي لهذا لا تدل على العام بقدر دلالتها على الخاص.

الى جانب ذلك توجد الامثال التي تدعو الى المحبة وتوطيد أواصر القربى والتعاون، وهي كثيرة أكثر من أن تحصى، وهي معظم الامثال المستخدمة في حياتنا العملية، وهذا ان دل على شيء، فانما هو معيار صادق لكشف ومعرفة شخصية الفلسطيني من خلال أمثاله الشعبية، فالفلسطيني يدعو الى التسامح ونبذ الخلافات والى العطاء الذي هو وليد توارثه صفات أجداده الكنعانيين الذين أعطوا العالم المعارف والحضارة والدين والاخلاق والابجدية، لذلك نجد أن الامثال الفلسطينية تركز على الايجابي وتدعو إلى نبذ السلبي. ففي مجال الاقارب تدعو الامثال الى التمسك بأواصر القربى الذين يشكلون الحماية، فالمرء ينتسب لاعمامه، ويفتخر بأخواله لان «ثلثين الولد للخال»، ونظراً لاهمية الخال الكبير فقد أعطى المثل دوراً مهماً للمصاهرة نلمسه في المثل التالي:

- كون نسيب ولا تكون ابن عم.

ان انتساب الانسان لاسرته يعطي الاولوية الى العم:

- الخال مخلى والعم مولى.

ومع هذا فللخال مكانة هامة، اذ ترتفع منزلته لتصل الى درجة الابوة:

- الخال لولا الشك والد.

Digitized by Birzeit University Library

وتظهر شخصية الفلسطيني في محاولته اعطاء بعض صفات شخصيته ان لم اقل كلها الى ابنه، انه يحرص أن يكون قطعة منه، يوجهه، يعلمه، يربيه تربية صالحة لان «الكلب المخاربي يجيب لاهله المسبة» فمن كان جيداً، فانه كالشجرة التي تظلل على جذورها، ومن كان سيئاً فانه يجر الشتم على أهله:

- اطعم ابنك وأحسن أدبه.
- الابن الفاسد يجيب لاهله المسبة.

ومع ذلك فالاهل غالباً لا يتخلون عن أبنائهم حتى لو ضلوا سواء السبيل، يحاولون اصلاحهم وترميم الخراب الذي حدث، وتلافي النتائج التي ترتبت على أعمالهم، والمثل يدلل على ذلك:

- الغصن مني ولو مال.

لذلك فالاهل يضطرون الى استخدام العنف لاصلاح أبنائهم، ولتقويم سلوكهم اذا حادوا عن الطريق أو سلكوا طريق الاثم أو الشر، ومع هذا يظل سيف الاهل غير ماض هدفه الاصلاح واعداد الفرد للتكيف مع المستقبل، واعادته الى الطريق القويم:

- سيف الاهل من خشب.

لا أحد يستطيع التخلي عن أهله وأقاربه، لان من لا أهل له لا وطن له، لا أحد يعترف بقوة من تخلى عن أهله أو العكس، «العزوة تساوي للنذل قيمة» يظل عائشاً حياته على هامش حياة الاخرين، حياة الذل، فمن لا أهل له حق فيه:

- اللي يطلع من ثوبه يعرى.
- أهلك ولا تهلك.
- اللي من دمك ما يخلو من همك.
- عمر الدم ما صار مي.

ومع ذلك تنشب الخلافات حتى داخل الاسرة الواحدة، لكنها تحل وان تأزمت على مبدأ التراضي لان:

- الظفر ما يطلع من اللحم.
- أصلك يردك.
- الحر ما يتنكر لاصله.

ويكون لرأس الاسرة أو العشيرة دور هام في حل المنازعات، لان شيخ القبيلة أو سيد الاسرة صاحب تجربة. الاخرون يعترفون به ويقتدون بأعماله ويأخذون من حياته وتجاربه دليل عمل.. ان على رأس الاسرة أن يدفع المخاطر عنها، فالمثل التالي يوضح ذلك ويبين أهمية الكبير في تدبير الامور:

- اللي مالو كبير مالو تدبير.

أما المرأة، فقد ربط المأثور الشعبي بين البنت وأمها من حيث الاخلاق، فالبنت اذا كانت سيئة فلان أمها سيئة أو لانها لم تستطع تربيتها:

- طب الجرة على ثمها تطلع البنت لامها.

وتتحدث الامثال عن امرأة الاب والضرة والسلفة فتقول:

Digitized by Birzeit University Library

- مركب الضرايز سار ومركز السلف احتار.
- الضرة مرة ولو كانت درة.
- مرت الاب غضب من الرب لا بتحب ولا بتنحب.

اما عن الانجاب فيقال فيه بأن «البطن بستان» لان ذلك على علاقة بالوراثة، فبعض الابناء يأخذون الكثير من صفات أبيهم والبعض يأخذون من صفات الاخوال أو الاجداد. وهكذا، ولا يستثنى من ذلك اللون والاخلاق والذكاء، ولعل أشدها تأثيراً صلات القربي والمصاهرة:

- العرق دساس.
- العرق يسوس ع سبع جنوس.

ان العلاقة بين الام وطفلها قائمة على المحبة واللغة الخاصة التي بينهما، والتي صارت مفهومة من قبل صغيرها مع الزمن، لانه يعرف كل حركة من حركاتها:

- ابن بطني يعرف رطني.

هناك مجموعة أمثال تطارد الابناء، خاصة البنات وتربط ستر البنت بزواجها، لان الالسنة تطارها قبل الزواج، أما بعد الزواج فانها تمتلك ارادتها. . والامثال التي تدعو الى ذلك كثيرة منها:

- ستر البنت زواجها.
- دور لبنتك قبل ما دور لابنك.
- ايش عملت الحرة تزوجت.
- خلقه باب يرد الكلاب.

ونظراً لمكانة الاقارب فان دوام الصلة والمصاهرة تقوي هذه العلاقة لذلك حضت الامثال الشعبية على الزواج من القريبات:

- اللي ما ياخذ من ملته يموت بعلته.

وعلى ذكر المرأة، يقال لمن نسيت ماضيها الصعب:

- غسلت رجليها ونسيت ما مر عليها.

كما يقال لمن تخرج دون استئذان أو العودة الى رأي أهلها:

- شنبرها على بدنها.

أما عن الجار الذي هو بمنزلة أعز الاقارب:

- جارك القريب ولا أخوك البعيد.

ان الحياة المشتركة والظروف الواحدة التي يمر بها الجيران، تساهم في التقارب الفكري المبني على التقارب الاجتماعي، ولهذا كله تسود بين الجيران المعاملة الحسنة والبشاشة والمساعدة والتعاون خاصة وقت الحاجة، فعلى الجيران المحافظة على ذلك وعدم الاساءة بل دوام المودة والحب:

- الجار للجار ولو جار.
- دور بيتك سبع مرات قبل ما تتهم جارك.

Digitized by Birzeit University Library

هذه بعض الامثال التي تدعو الى المحبة والارتباط بالاهل والجذور وعدم التخلي عن الاقارب والجيران، وفي دعوتها هذه كشف لجانب هام من شخصية الفلسطيني، هذه الشخصية التي تقف دائماً مع الخير والحق والقوة، مع كل من يفعل ذلك من أجل النجاح والحياة الافضل:

- اللي يزرع زرعين ما يخيب.

كذلك تحض على اجتناب الشر، بمحاولة محاصرته وقطع الطريق عليه، فأية طاقة يتسلل الشر اليها تسد، لانه كان يفضل حل المنازعات بعيداً عن العنف:

- الباب اللي يجيك منو الريح سده واستريح.

وحتى لا تستفحل المنازعات والمشاكل، فانه يحاول دائماً القضاء على الاسباب التي تؤدي اليها:

- يرحم أبوك اللي يجبر المسكورة، قال له، يجبرها قبل ما تنكسر.

- لا تروح على القبور وتشوف منامات عسرة.

اذاً فالدعوة موجهة لتلافي الاسباب الداعية الى ذلك والتعقل في اتخاذ القرارات، وهي دعوة للسير بالحياة والاصلاح حتى لا يأخذ الشر ما بناه الخير، حتى لو احتاج الامر الى دعم ذلك بالقوة فلن يقصر، فالشجاعة ميزة عربية يفتخر الفلسطيني بها، ويراها السبيل الامثل للذود عن الذات والوطن، لان الخنوع لا يولد الا الذل:

- اللي يخلي حاله حب ياكله الدجاج.

- اللي بيربط برقبتو حبل بيلاقي ألف مين يشدو.

- المنية ولا الدنية.

- النار ولا العار.

الشجاعة شيء والتسرع في اتخاذ المواقف غير الصحيحة شيء آخر، لان هذا يجر الى عواقب سيئة يندم على فعلها.

- اللي من ايده الله يزيده.

ان من الشيم العربية التي تفخر بها نصرة المظلوم وحماية المستجير والذود عنه، فلا يسمح لاحد بالاعتداء على من لجأ اليه، أما اذا كان غير قادر فحق فيه قول المثل:

- اللي يتذارى فيه مثل اللي يتذارى بنتشه.

أما الغريب فعليه أن يكون خلوقا مهذباً، يحترم ذاته لان خطواته وتصرفاته مراقبة ومعروفة:

- الغريب يكون أديب.

وعلى من يريد مواجهة الاخرين، أن يحصن بيته الذي سيرد ويحميه، أما اذا كان بيته من زجاج فكيف سيصمد أمام حجارتهم:

- اللي بيته من قزاز ما يرمي الناس حجارة.

ويظل التسامح صفة أصيلة في الفلسطيني، ويتضح هذا في «العفو عند المقدرة» ونظرته الى الشر:

- الشر سياج أهله.

Digitized by Birzeit University Library

انه كبير القلب يتغاضى عن الهفوات الصغيرة، وينسى الاساءات، هذا التضاد الذي يظهر في عمل الخير وفي النتيجة المضادة:

- اللي تزرعه يقلعك.

ومع ذلك يظل مصراً على مبادئه وأخلاقه السمحة:

- اهل السماح ملاح.

- بات مغلوب ولا تبات غالب.

لانه مؤمن أن «الجزاء من نوع العمل ومن يعمل الشر والعدوان، سيجد من يقابله الاساءة بمثلها:

- الله يعس المفصل ويعطيه الدواء.

نظل مسألة الخير هاجس من عاش بين أناس عرفهم وعرفوه، عليه أن يترك بينهم الذكر الحسن والعمل الصالح، وفي هذا العمل دعوة للتوقف عن الشر:

- يا رايح كثر ملايح.

اذا كان الصبر مفتاح الفرج وهو الطريق للظفر، فهو أيضاً دواء لكثير من العلل، دواء المحبين، وهو علاج ناجح على المدى البعيد، قد يدفع الاخرين الى تغيير مواقفهم:

- اللي يصبر ينول.

- صبرك على نفسك ولا صبر الناس عليك.

فكما للصبر صفات حسنة، فان المحافظة على السر وعدم البوح به، له ما للصبر من صفات حسنة، فما دام بين اثنين فانه يظل محافظاً على ذاته، يصف المثل الشعبي المحافظين على كتمان السر:

- اثنين في دار ما يعلم بيهم جار.

أما اذا كان مفضوحاً فيصدق فيه:

- يا بنت قولي لامك.

أحياناً على الرغم من عدم انتشار السر، تنفضح الامور، لان الفاعل ترك أثر يدل عليه، أو قد تفضحه تصرفاته:

- اللي على رأسه جرة يتلمسها.

عودة الى الصفات التي هي محور الشخصية الفلسطينية، من ذلك قول الحق والصراحة، لانه واضح في قوله وعمله:

- الصراحة راحة.

- الحر كرامته رأس ماله.

- اعمل معروف وارم في البحر.

- صاحب الاولة ما بيلتحق.

وعلى مبدأ «ما حدا أحسن من حدا» ينظر كل واحد الى الاخرين على أنهم مثله وهو مثلهم، الكل

Digitized by Birzeit University Library

سواسية لا فرق بينهم الا بالافعال، أما من حيث المبدأ:

- كلنا أولاد تسعة.

أما عن الدهاء والذكاء فهذا شيء آخر، انها ميزه يستطيع صاحبها أن يتخلص من المطبات والمشاكل التي تعترضه فيقال عنه:

- طلع منها مثل ماتطلع الشعرة من العجين.

(والانسان بأصغريه قلبه ولسانه) قلبه يعشق فيفكر بامتلاك البيت والمرأة والفرس، حلم الانسان قديماً:

- عتاب وكعاب ونواصي.

فاذا أحب فان ذلك يظهر على لسانه كلاماً جميلاً شبهوه بالعسل والشهد:

- لسانه يغزل حرير.

أما الكلام مع الجاهلين فانه ضائع ومعاشرتهم تقصر الاعمار:

- كلامك مع اللي ما يفهمكش ينقص عمرك.

هناك أيضاً من لا يفهم الكلام لعجز في ادراكه، أو كما يقول التعبير الشعبي (على نياته):

- طب طبتك العافية.

ومنهم من لا تنطبق عليهم ما قلته، ومع ذلك لا يرتاح اليهم، هؤلاء غالباً لا يعجبنا شكلهم:

- مية مالحة ووجوه كالحة.

هذا عن الشكل الخارجي، أما قيمة الانسان الفعلية فهي في أخلاقه ومبادئه، انها الثروة الحقيقية، (فالكريم لا يضام) لانه دائماً يختار عزته وكرامته ولو أدى به ذلك الى انفاق ثروته المادية:

- هين فلوسك ولا تهين ناموسك.

دائماً يسمو الانسان الى الافضل، الى التحصيل والاجتهاد والارتقاء ما دام يملك عقلاً يفكر به، يوصله الى ما يريد:

- أحسن مني الله خلقه، أشطر مني دم فلقه.

ولهذا فالاهمال في تقدير العواقب، أو ترك الامور على حالها غير جائز، لان نتائجه سيئة فالمثل الشعبي يبين ذلك:

- حط وليدك على الحيطان وقول يا عمايل الشيطان.

أما اذا التقى اثنان جربا حظهما فكان سيئاً فيقال عنهما:

- التقى المتعوس على خايب الرجا..

وعلى كل فصاحب الحظ التعيس، يجر تعاسته على غيره، وحتى الطبيعة لا تنجو من ذلك، فهو يؤثر سلباً في المكان الذي يذهب اليه:

- لو راح على البحر ينشفه.

أما اذا كان عكس ذلك فيقال:

- حظ يفلق الصخر.

Digitized by Birzeit University Library

وهنا لابد من توضيح أن الشخصية الشعبية تميل الى الايمان بالروحانيات، خاصة القدر والمكتوب والنصيب:

- الله اللي بيعطي والله اللي بيوخذ.
- درهم حظ ولا خزاين مال.
- اجري جري الوحوش غير نصيبك ما تحوش.

وللتخلص من الشر والمكتوب يلجؤون الى وسائل عدة منها تقديم الاضاحي والفدو، ومع أن الامثال السابقة تحض على التفكير المثالي، الا أنها لا تستخدم لهذا الغرض، بل لتخفيف المصاب ولجعل النفس الانسانية أكثر طمأنينة.

الى جانب الروحي يظهر الحرص والكرم والشجاعة والعمل، كما سأبين:

الحرص شقيق الشجاعة، وعلى الانسان أن يكون يقظاً كما في:

- من حرص ما انقرص.

أما اذا لجأ القوي الى الاعذار للفتك بالضعيف، فعليه أن لا يبحث عن ذلك لانه سيفعل ما يريد، ولا حاجة للمبررات لتنفيذ ما يريد:

- قال الذيب للحمل المية من عندك تتعجج، قال الحمل للذيب كلني ولا تتحجج.

وفي حال عدم قدرته على الفعل، فعليه أن لا يذم الشيء لانه لم ينله:

- اللي ما يطول العرجون يقول ما أمره.

ومع ذلك يظل الحل الوسط الحل المفضل، حتى لا يصير جنوح لا الى اليمين ولا الى اليسار «خير الامور أوسطها»:

- لايموت الذيب ولا تفنى الغنم.

أحياناً لا يصلح الحل التوافقي المبني على «ضربه على الحافر وضربه على النعل» كأن نقع بين خيارين، أيهما نطعم وأيهما نحرم، الضاري أم المشتهي، المثل يضع الجواب:

- اطعم الضاري وخلي المشتهي.

ان الحل السابق مبني على معرفة المتعود على الشيء بطعمه، فهو غير قادر على الاستغناء، أما الاخر فانه لم يذق الطعم بعد، ان التجربة والحياة هي التي فرضت وتفرض الحلول، لان «التجربة أكبر برهان»، ولان التجربة هي اختبار للحياة فقد فضل المجرب على غيره، لان النتيجة ملموسة:

- اضرب الطينة بالحيط ان ما لزقت تعلل.

فمن خلال التجربة يتعرف طبيعة الاشياء:

- دق الحديد يبان عيبه.
- قيس قبل ما تغيض.
- عواد ما عاد يعيدها.

ان طبيعة الحياة والتجربة هي التي تفرض أحياناً نوعاً من الحياة، فالناس بحاجة الى بعض، يتزاورون

Digitized by Birzeit University Library

ويتسامرون ويكرمون بعضهم بعضاً، حتى صار للكرم وحسن الضيافة آداب لا يستطيع صاحب البيت تخطيها حتى لا يسيء الى الاخلاق العامة:

- قدام ضيفك لا تقول لكلبك حر.
- أول قرى الضيف البشاشة.
- الرغيف اللي بيلمع للصاحب اللي بينفع.
- لقمة هنية تكفي مية.

الى جانب الصفات الحميدة، هناك أمثال تظهر شخصية الفلاح الذي يعمل في أرضه وزرعه، والمهني الذي يمارس عمله باتقان، والصياد والراعي.. وتلعب الممارسة دور هام في الاتقان والجودة والسرعة، فالحركة هي معيار الحياة والتقدم، لان السكون هو الفناء للعمل وابقاء للحياة كما هي دون تقدم، يقول المثل الشعبي عن الممارسة والحركة:

- الممارس غلب الفارس.
- هواة المعلم بألف ولو شلفها شلف.
- الحركة ولود والسكون عاقر.
- القاعد حجير والماشي طر.

ان الدعوة للعمل واضحة، فمن لا يعمل لا يأكل، ومن يزرع يحصد:

- اشتغل بقرش وحاسب البطال.

ومن يعمل له المقام الاول، فالكلام بلا واقع مادي، بطالة أو قفزة في الهواء:

- اللسان ما يشرف صاحبه.

وعلى هذا فللعمل شأن كبير في حياة الانسان، هذا العمل المرتبط بالحركة التي تعني الانتاج، لان كثرة المشي بدون هدف غير محمودة:

- الرجل النقالة ما هي بقالة.

والعمل والانتاج متلازمان، فبقدر الكد والعرق يحصل العامل لقمته ومعيشته، هذه المعيشة المرتبطة بعدم الرضوخ والتحدي أمام الصعاب:

- ان مال عليك الزمان ميل على ذراعك.

ان العمل مقدس هو الذي يهب الحياة جمالها، أما البطالة فهي موت الحياة وفناء الاشياء، وهي سبب الكثير من آلامنا واخفاقنا:

- النوم ساس اللوم لو يدري الفتى ما نام.
- تراب العمل ولا زعفران البطالة.
- فين كنت أيام الحصايد، كنت أغني قصايد.
- اللي ما يغبر شنبه ما يدسمه.

Digitized by Birzeit University Library

ولارتباط العمل والانتاج بكثرة الاولاد، فقد رأى الفلسطيني أن الرجال هم عماد الوطن «بيت رجال ولا بيت مال» فهم الذين يأتون بالثروة وليس العكس، وهذا ما نراه في المثل التالي:

- رجل في السوق ولا مال بالصندوق.

العمل يعني الممارسة، فالذي لم يمارس الصنعة يتعب ويتعب:

- شغل المتجدد يهدد.

ان الصنعة أمان من الفقر، وهي السبيل ليعيش شريفاً:

- فلاح مكفي سلطان مخفي.
- اللي أمه خبازة ما بيجوع.

وان اجادة الصنعة والمهارة صفتان ملازمتان لمن تعلمها، حتى يزيد انتاجه كمية وجوده، وهذا ما يدر عليه أرباحاً كبيرة:

- الغزالة الشاطرة تغزل على عود.
- صاحب الصنعة مالك قلعة.

تحكي الروايات الشعبية ما للصنعة من أهمية في حياة الانسان، حتى أن فتاة جميلة ترفض الزواج من الامير الحاكم الا اذا تعلم صنعة، وفي الامثال الشعبية صورة غير بعيدة عن ذلك، لان الصنعة مصدر ثراء كما رأينا.

الى جانب العمل هناك الجمال والقبح، وقد ركزت المأثورات الشعبية ما لهما من دور في حياة الانسان، أما المثل الشعبي فقد ركز على أهمية الجمال الطبيعي وعدم تغيره لارتباطه بالحياة الانسانية، أما البشاعة فلا شيء يغيرها لا الغسيل ولا المساحيق:

- الشين شين ولو عجنوه بقنطار عسل.
- الكويس كويس ولو صحي من النوم، والعفش عفش ولو غسل وجهه كل يوم.

اللباس هام بالنسبة للجنسين، انه يضفي الاناقة والحسن على لابسه، يقول المثل الشعبي:

- لبس المذراية تصير مراية.
- لبس البوصة تصير عروسة.

اذا كان الجمال ضروري للمرأة، فانه بالنسبة للرجل غير ضروري لان:

- الرجال مخابر مش مناظر.

حتى الجمال فالحصول عليه يحتاج الى دفع الثمن:

- اللي بحب الورد يتحمل شوكه.

وللجمال أيضاً علاقة بالسن، ويتم غالباً الربط بين سن الشباب والجمال، أما التقدم بالعمر فيعطي خبرة ودراية في شؤون الحياة، لا تقل عن خبرة المتعلم، وعلى هذا فكلما تقدم العمر بالانسان، حاسبه الاخرون على كل كلمة أو هفوة، أما الشاب الجاهل فانه لا يحاسب لان تفكيره غير مكتمل:

- الولد ولد ولو صار قاضي بلد.

Digitized by Birzeit University Library

- الشب الغاوي شو ما راد يساوي .
- غلطة المعلم بألف .

الانسان لا يتغير من الخارج ، اذا لم يتغير من الداخل ، حتى ولو أدى ما عليه من فروض الطاعة والحج :

- راح قدوم ورجع منشار .
- القط حج سبع حجات وما بطل قناصته .

ان الادوات التي يحملها الانسان تفضح شخصيته ، فالرجل الذي يحمل أدوات الزينة حق فيه :

- سلاح البشت مراية ومشط .

وفي هذا المثل دعوة مبطنة للعمل واستخدام العقل ، فالذي يستخدم تفكيره يحل الكثير من مشاكله :

- العقدة اللي تحلها بيدك لا تحلها بأسنانك .

وعلى الانسان أن يتعامل مع الواقع لا يحاول تخطيه بالخيال ، لان ذلك سيؤدي الى اصطدامه بعقبات شتى ، فتغيير الواقع يبدأ من التعامل معه :

- اللي يقعد مع العوران لازم يعور عينه .

أما في مجال الحياة فعليه أن يتلاءم مع واقعه خاصة اذا كانت حالته المادية غير ميسورة :

- على قد فراشك مد رجليك .

أما العادات والتقاليد التي تظهر بوضوح شخصية الفلسطيني ، فان :

- خير عادة ما تتعود عادة .
- اقطع عادة ولا تجري عادة .

لان أي عادة تصير جزءاً من شخصية الانسان ، والمقصود هنا العادات السيئة التي تتملك صاحبها وتعطيه أوصافاً سيئة لا تليق بمقامه .

ومن العادات التي تقترب من المعتقد الشعبي التفاؤل بالنهار والنور ، فالصباح مرتع للملائكة ، أما الليل فهو رمز العتمة والسواد ، والمثل يحض على :

- صابح القوم ولا تماسيهم .
- الصباح رباح .

أيضاً هناك مجموعة أمثال لها علاقة بالمعتقد منها :

- احذر شرمن قرب من الارض .
- صباح القرود ولا صباح الجرود .
- كعبه مدور .

ونتيجة ارتباط النتائج بالمقدمات ، فقد جرى الربط بينهما ، على طريقة من يفعل مثقال ذرة خيراً يره :

- اللي يدق الباب يسمع الجواب .
- ضيف المسا مالو عشا .
- اللي يحضر السوق يتسوق .

Digitized by Birzeit University Library

ترى المأثورات الشعبية أن الذي يعيش بين القوم مدة أربعين يوماً يكتسب عاداتهم، ينال ما ينالوه، بفرح لفرحهم ويحزن لحزنهم :

- من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم .

الان أصل الى مجال بعض الحقائق العامة والقواعد التي عرفها الفلسطيني نتيجة خبرته وحياته وتجربته الطويلة المتصلة مع الماضي، والتي لها علاقة جدلية بالتطورات الاقتصادية وبالحالة الاجتماعية فوق الارض الفلسطينية، فمن هذه الحقائق :

- ان صاح الديك وان ما صاح الضو طالع طالع .
- اذا أبرقت أرعدت واذا أرعدت أبعدت .
- الكفيل دفاع .
- كل الطرق تودي للطاحونة .
- الشاي قص والقهوة خص .
- الكلام الصحيح كلامه منو وفيه .
- أكل الرجال على الرجال دين وأكل الرجال على الانذال صدقة .
- السر اذا تجاوز اثنين شاع .
- العتب على قد الفهم .
- طعام عل طعام يورث الجرثام .
- اشرب من الجاري ولا تداري .
- اللي خلفه أبوك لك ولاخوك .

تذكر الذاكرة الشعبية بأن «اللي على بال أم حسين تحلم بيهة فالحلم تكرار للحياة الواقعية أو صورة عن طموح الذات أو تشابك أفكار لها علاقة بالواقع المعاش، فالذي يخاف من شيء يجده في طريقه، وهذه حالة نفسية تدلل على فهم الانسان من أعماقه الداخلية :

- اللي يخاف من العقرب يلطعه .
- المقروص يخاف من الحبل .

وكما في الحياة تنظيم دقيق، أيضاً يدعو المثل الشعبي الى تنظيم الاوقات، فوقت الحصاد غير وقت الزراعة، ووقت العمل غير وقت الراحة :

- ساعة لقلبك وساعة لربك .

أما من لا ينظم حياته، فانه معرض للفشل، ولهذا ربط ما بين الارتجال وعدم التنظيم بالسلب بينما ربط بين التنظيم والنجاح، أما التجارب غير القائمة على أساس مدروس وعلى تجربة صحيحة قال فيها:

- كثر الرفرفة تكسر الجناح .

هذا التنظيم يشمل الطعام، لأن كثرة الطعام تربك المعدة وتتعبها وتؤدي الى بعض الآلام والأمراض، لذلك يقول المثل الشعبي :

Digitized by Birzeit University Library

- نص البطن يغني عن ملاته.

كما قد يعني هذا المثل الاقتصاد لان ما يقدم لا يكفي، عندها نستطيع تصنيفه ضمن الامثال التي تحمل في طياتها بذورها الاجتماعية غير المعزولة عن الواقع الاقتصادي. والجدير بالذكر أن هنالك العديد من اللقطات التي تتحدث عن الكرم وغيره.. فمن الناس من يستحق الاكرام ومنهم لا يستحق ذلك على طريقة اذا أنت أكرمت الكريم..

- اللي توكله سمحه ترده واللي توكله سارة خسارة ولو كان طبيخ بصارة.

الان عودة الى المعارف التي تعطينا صورة عن شخصية الفلسطيني، هذه التي تعطينا صورة عن الوقاية على اعتبارها خط الدفاع الاول ضد الامراض، ومعارف شتى عن الامراض وغيرها:

- الوقاية خير علاج.
- اهم الاوجاع الحاضر.
- قلع الضرس ولا وجعه.

وتشمل المعارف أيضاً التجارة والمال اللذين يعطيان صورة عن التفكير الاجتماعي والوضع الحياتي للناس، والتفكير الشعبي الذي يدعو للادخار، لا من أجل تكديس المال بل لفائدته وقت الحاجة، أن الطبقات الفقيرة لم تكن تهتم بالتجارة، كل ما يهمها حياتها اليومية ومستقبلها، لهذا تكثر الامثال التي تتحدث عن البيع والشراء وأهمية المال في الحياة، كل ذلك مرتبط بالسوق المحلي والحياة الاجتماعية.

- اذا فاتك السوق تمرغ بترابه.
- شعره على شعره تساوي دقن.
- اللي ياخذ ويعطي يشارك الناس أموالها.
- الدراهم كالمراهم.
- اللي عنده مال محيره يشتري حمام ويطيره.
- ما بعنا بالكوم غير اليوم.
- من عرف راس المال باع واشترى.
- ان كان بالدين حط رطلين.

وكما أثر الانسان في الطبيعة، فانها مازالت تؤثر في حياته، وترسم حدود شخصيته التي لها علاقة بتقلبات الفصول، التي تسبب تغير المناخ الذي يؤثر سلباً أو ايجاباً على حياته المعاشة، ان التجربة الانسانية في بيئة معينة ترتسم على شكل مثل يصف البيئة، فمثلاً هناك بعض الامثال التي تنطبق على البيئة الساحلية:

- ايلول ذنبه مبلول.

والبيئة الجبلية:

آخر آب الجو عاب والبيئة الداخلية.

- بين تشرين وتشرين صيف ثاني.

ان رصد الظواهر الطبيعية وفصول السنة وأيامها أعطاه خبرة كافية لاصدار أحكامه عن طريق الامثال

Digitized by Birzeit University Library

الشعبية:

- كانون كن ببيتك كثر ملحك وزيتك.
- أبرد من مية كانون.
- الدفا عفا.
- الجمعة جماعة والسبت مطار والحد ياتحد ياتمد ياتقف على رؤوس الجبال وتهد.
- شباط ان شبط وان لبط ريحة الصيف فيه.
- شباط اللباط يشبع العجل من الرباط.
- المربعانية يا شمس تحرق يا مطر تغرق.
- آذار الذرذار ان بار وان ما بار فيه سبع شتوات كبار.
- شتوة نيسان تسوي السكة والفدان.
- نيسان سبعة حبل، سبعة سبل، سبعة يدور الدجن.
- أيار اسحب منجلك وغار.
- تموز فيه يستوي الكوز.
- أيلول صباغ الزيتون.

ويقال كذلك:

- كل أوان ما يستحي من أوانه.
- برد الصيف أحد من السيف.
- البرد سبب كل علة.
- سعد الخبايا فيه تتفتل الصبايا.
- الذروة ولا الفروة.
- سعد السعود فيه يد في كل مبرود.
- سعد السعود فيه تدب الماويه بالعود.

أنتقل الان ال الطرب، اذ تنقل الامثال ما يشير الى شخصية الفلسطيني وتفاعله مع الرقص والغناء، لما لهما من دور في الحياة الاجتماعية والدينية، فهناك الدبكة التي مازالت تؤدى في الافراح والاغاني التي أخذت من اللهجة واللحن خصوصيتها، لهذا لا غرابة أن نجد بعض الامثال تتحدث عن ذلك:

- الراس اللي ما فيه طرب حل قطعه.
- كل يغني على ليلاه.
- كل واحد يغني على مواله.
- بزمان الخير ما غنينا يا ليل.
- مع السوق سوق ومع المغني غني
- أول الرقص حنجلة.

Digitized by Birzeit University Library

- الرقاصة الغشيمة تتحجج بقشة الحصير.
- كسرنا الدف وبطلنا الرقص.
- ما يطلع من دار المطبلين غير المزمرين.

كما نجد بعض التشابيه التي تتحدث عن الرقص:

- زي اللي رقصت على السلم لا اللي فوق شافوها، ولا اللي تحت شافوها.
- زي اللي يرقص بالعتمة.

تبرز شخصية الفلسطيني في مقاومته للاحتلال واصراره على الحياة، وارتباطه بأرضه، يختزل تجربته من خلال بعض الامثال، التي صارت حقيقة مسلماً بها، والتي منها أن العدو لا يصير صديقاً، لهذا فلا طريق سوى الصبر والصمود والايمان بقدرات شعبنا، فلا شيء يمنع الصباح من الطلوع، لهذا اتسمت أمثال المقاومة باستشفاف المستقبل المتغير، الذي يعيد الحق الى نصابه لان:

- دوام الحال من المحال.
- فرس الباغي عثور.
- الضرب على الصهاد.
- يا جبل ما يهزك ريح.

ولذلك فالظلم والاحتلال لن يدوم، فها هو يقارع المحتل الظالم، لذلك نرى أن الظلم مرادف لكلمة الحاكم الذي لا يفهم سوى لغة القوة:

- اللي حاكمك لاكمك.

أما عن الثورة التي هي النور والنهار والغد والسراج الذي ينير طريقنا:

- السراج بيضوي على مدينة.

ان اصرار الفلسطيني على التحدي يظهر في:

- أعلى ما بخيلك اركبه.
- عينك بنت عينك.
- اللي ما يزم القدح بيده ما يروي.
- دق الحديد وهو حامي.
- المي لا تمشي الا بمجاريها.
- الماء ينقر الصخر برشحه نقطة نقطة.
- اللي يطلع بيدك يطلع برجلك.
- الحيط الواطي كل الناس يتنطه.
- ايد واحدة ما بتصفق.
- اللي مالو ظهر بينضرب على بطنه.

Digitized by Birzeit University Library

- ان طلع بايدك بلط البحر.
- اللي ما يقدر عليه القدوم يقدر عليه المنشار.
- اللي يوفر ضربته تقع براسه.
- النر بالشر والبادي أظلم.
- الاسى ما بينتسى.
- عمر الحية ما صارت خية.
- عدو جدك ما يودك.
- عمر العدو ما يصير حبيب الا لما يصير الحمار طبيب.
- الدهر دولاب.
- الدار دار أبونا واجو الغرب يطحونا.
- اللي بدو الدح ما يقول أح.

ان خصوصية المثل الشعبي لها علاقة ديناميكية بخصوصية الشخصية التي تتحدث عنها، فان للشخصية الدور ذاته في صياغة المثل وحفظه ونقله، ليبرز كل منهما الاخر. لقد أبرزت الامثال شخصية شعبنا المتمرسة على القتال والمجابهة والنضال ضد المؤامرات والاحتلال منذ بداية القرن الحالي حتى يومنا هذا.

ان الامثال الداعية الى حياة الشخصية الفلسطينية واستمرار فعلها الثوري المقاوم تظهر بكثرة في مأثوراتنا الشعبية، وقلما نجدها بهذا الزخم والاستخدام اليومي عند أي شعب آخر، وهذا عائد الى وجود احتلال جاثم على الارض، فلا أصدق من البرهنة على تمسك الفلسطيني بوطنه وحقه الا ايرادها:

- ما مات حق وراه مطالب.
- البلاد طلبت أهلها.
- من طلع من داره قل مقداره.
- البيت اللي رباني ما بينساني.
- الغربة كربة وهم للركبة.
- حط البلبل في قفص ذهب بيصيح ويقول وطني.
- البيت اللي تاكل منه لا تدعي عليه بالخراب.
- ما بجي الترياق من العراق الا القريص طق ومات.
- يا معمر بغير بلدك لا هو الك ولا لودك.
- اللي بيموت يموت شهيد، واللي يعيش يعيش سعيد.
- ان كان الحية يتنحط بالعب، عمر العدو ما بينحب.
- بلادك ان شحت عليك مرية.
- اللي مالوش جذر يموت قهر.

Digitized by Birzeit University Library

- اتعب على أرضك تتعب عليك.
- اعطي الزرع للزارع والارض لصاحبها.
- يا فرعون مين فرعنك، ما لقيت حد ردني.

هذه الامثال وغيرها تظهر لنا مدى وعي الفلسطيني لواقعه، اضافة الى لذلك يظهر التناقض بين الغني والفقير ونظرة كل منهما للاخر. وأثر المكان الذي أفرز شرائح مختلفة من بدو رعاة ومستقرين في جنوب فلسطين وشمالها، الى فلاحين مزارعين في معظم الاراضي الفلسطينية، الى عالم المهن والتصنيع الذي يقترب كثيراً من فكر المدينة.

فعن الفقير والغني هذه الامثال:

- يكفيك شر جوعان وشبع.
- الفقر ما يتعدى على حدا.
- الجوعان ياكل عودان المكانس.
- الكسرة بيد الفقير هجنة.
- فت الشبعان على الجوعان بطيء.
- الغني غنيله والفقير تاتيله.

أما الحديث عن بعض الشرائح وأمثالها، فهذه بعض أمثال البدو:

- كم فاطر شربت بجلد حوارها.
- الكحيلة ما يعيبها جلالها.
- وجوه الخيل عظام ما تستحي من بعض.

ومن الامثال التي تتحدث عن الفلاح والزرع:

- اللي ما عنده زرع ما عنده قلع.
- ما يفلح بالارض غير عجولها.
- من قلة عقله يزرع في البرص بطيخ.
- ازرع قمح بتلاقي قمح.

ومن الامثال التي تتحدث عن المهني:

- لولا الكاسورة ما عمرت الفاخورة.
- اللي مش كاره يا ناره.
- المهنة اللي ما بتغني تستر.

أخيراً أقول بأن سلطات الاحتلال الصهيوني التي أدركت ما للمثل من دور في بناء الشخصية الوطنية، قامت بجمع الآلاف من أمثالنا الشعبية ونسبتها اليها.. ان الامثال الفلسطينية التي تتحدث عن الحياة الارض الفلسطينية منذ آلاف السنين. لارتباطه العضوي بكل ما جرى على

Digitized by Birzeit University Library

ان كل جهد في مجال التراث الشعبي يعري المحاولات الصهيونية يخدم قضيتنا، ويساهم في دحر الصهيونية، لان في أمثالنا خصوصيتنا وذاتنا وأرضنا، فيها خصوصية الوضع الفلسطيني، هذه الخصوصية التي تتفاعل مع الاحداث لتنتج شخصية قادرة على مواجهة الصعاب وتحدي الاحتلال والموت.

مصادر الدراسة:

١ـ الجوزي، صليبا جمع واعداد، القروي الفلسطيني من الصرة الى الحفرة، منشورات الاعلام المركزي لجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني، ط١، بيروت ١٩٧٥.

٢ـ عرنيطة، يسرى جوهرية، الفنون الشعبية في فلسطين، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث.

٣ـ الخليلي، علي، التراث الفلسطيني والطبقات، دار الاداب، بيروت ط١ ١٩٧٧.

٤ـ مجموعة مؤلفين، دراسة في المجتمع والتراث الشعبي الفلسطيني، قرية ترمسعيا، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الابحاث، وجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني في الكويت آب ١٩٧٣.

٥ـ عوض، عوض سعود، دراسات في الفولكلور الفلسطيني، منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الاعلام والثقافة، دمشق ١٩٨٣.

٦ـ عوض، محمود، مخطوطة تحوي أكثر من ألف مثل شعبي مرتبة حسب الحروف الهجائية.

Digitized by Birzeit University Library

شعر

الأقحوانة السوداء

سليمان العيسى*

عِشرين.. رائعةَ الصَّباحِ الغَضِّ، رائعةَ النَّقاءِ
عِشْرينَ.. مِنْ قُبَلِ الرَّبيعِ، ومن نَشيدِ الكِبْرياءِ
حَمَلَتْ إليَّ على يَديْها..
كانَتْ غلالَةُ بَسْمةٍ مَوْؤُودةٍ في مُقْلَتَيْها
قالَتْ: يُحِبُّكَ كانَ.. يَهْوى الشِّعْرَ.. يَرْتَجِلُ الزَّنابِقْ
ويَدُقُّ حيناً بالصَّواعِقْ

---

* مناضل وشاعر من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

بابَ العُصُورِ الغافياتِ.. لِيَفْتَحَ الفَجْرَ الجديدا
وبِعُمْرِكَ المنثورِ في دَرْبِ المَوَاجِعِ والفَواجعِ تَعْرِفُ الفجرَ الجديدا
قالَتْ وِدَادُ[1]: وكالنَّدىْ..
كَجَناحِ نَسْرٍ، في بدايات التَأَلُّقِ والعُذُوبَةِ،
فَوْقَ أَرْضِ الخالدين.. هَوَى شهيدَا..

. . .

الحبُّ، كُنَّا نحنُ شُعْلَتَهُ، ووَرْدَتَه على القِمَمِ العَذَارىَ
كانَتْ ملاحِمُنا أساورَنا، وكان شبابُه الحُلْوُ النُّضَارا
كَجَنَاحِ عاصِفَةٍ هَوَى.. ليقُولَ لي:
لِلْحُبِّ نحنَ، وللشَّهَادةِ، يا قَرَنْفُلَتي، ونَخْتَصِرُ السِّفارَا
حيناً لِنَزْرَعَ حُلْمَنَا العربيَّ وَضَّاءً على الْقِمَمِ العَذَارىَ
قالَتْ وِدَادُ، وكالعُقَاب هَوَىَ..
ومَوْعِدُ عُرْسِهِ باقٍ.. أتَأْتي ؟
يَدْعُوكَ.. كانَ يُحبُّ أنْ يَلْقاكَ..
مَوْعِدُ عُرْسِهِ باقٍ.. أتَأْتِي؟
يا أُقْحُوانَتِيَ الجميلةَ.. والسوادُ على الرَّبيعِ..
ماذا أَقُولُ؟ دَمُ الشبابِ قصيدةٌ أَغْلَى، وأنْضَرُ
مِنْ كتَابَتِنا على وَرَقِ الصَّقِيعِ..
يا أُقْحُوَانَتِيَ الجريحَ..
تَعِبْتُ مِنْ تَعَبِي.. ومِنْ عَبَثِ النَّشِيدِ
حَسْبِي، وحَسْبُ الشِّعْرِ أَنَّا
هَمْسَةٌ غَنَّتْ..
ولَفْظٌ باحَ.. في عُرْسِ الشهيدِ

دمشق: ٢٤/٤/١٩٨٥

(١) خطيبة الشهيد.

Digitized by Birzeit University Library

شعر

العرب

اسعاف النشاشيبي*

العـرْب مات شعـورهـم ... فانـدبـه دهـرك باكـيـا
ولى فولى بعـده ... أنسي وسـاء مآليـا
وظللت للهـم المـب ... رح والشـقـاء مؤاخـيـا
لا أجـتـلي للعـلم إلا ... شائـنـاً أو فاليـا
وإذا دعـوت إلى الهـدى ... قومـي ورحـت منـاديـا
وطفـقـت أنـدب حالهـم ... ندب الربـوع خواليـا
وأقـولُ إن عمـادنـا ... يا قوم أصبـح واهـيـا
عافـوا النـصـيـحـة وانـثـنـوا ... لا يسـمـعـون دعـائـيـا
قد كنـت أطمـع أن أرى ... وطنـي بهـيـجـاً زاهـيـا
فوجـدتـه من كل علم ... أو علاء خاليـا
فرثـيـتـه وبـكـيـتـه ... وسـكـبـت دمـعـا غاليـا

* من اعلام الادب الفلسطيني الراحلين.
● المقتبس - الجزء السابع - المجلد الخامس - ص ٤٦٧ - القدس ١٣٢٨ - ١٩١٠

Digitized by Birzeit University Library

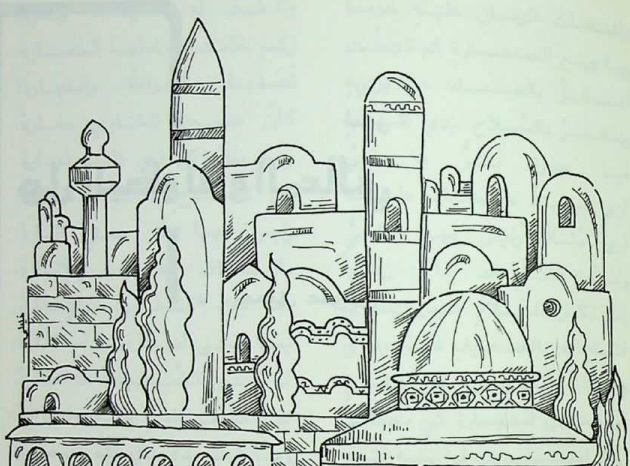

وتقطعت أعشار قلـ بي حسرة وفؤاديا
يا عرب ان خمولكم، ترك القلوب دواميا
أشجى المحب بما شجا فغدا حزيناً آسيا
فمتى الصمود الى العلى فانال صاح مراديا
وابيت مغتبطاً أجـ رُ من الحبور ردائيا
فسعادتي يا ابن الكرا م وبغيتي ومراميا
ان تصبح العرب الأذلـ ة سادة وموليا
وتعيد مجداً كان الـ علم المرجب جاليا
وتكون نوراً للبرية بالمعارف هاديا
وتشيد في ربع العلا ء معاهداً ومبانيا
فتسوء حساداً نكا هم فضلها وأعاديا
هذي سعادتي التي أنا ناشد وهنائيا
وهي الشفاء لعلتي وهي الدواء لدائيا

Digitized by Birzeit University Library

شعر

جيل البطولة والمعالي

د . جميل علوش*

جَلَوتُ لطيفِكُم جفني فزارَهْ ... وأغلى هُدبُ مَحجرِهِ مزارَه.
أيا أغلى الأحبة يصطبيني ... إليكُم خافقٌ أخشى نِفارهْ.
يذوب لكم بمحنتكُم حَنيناً ... فيسكُنُ تارةً ويَشِبُّ تارهْ.
وما ذُكِرت له الأوطانُ إلّا ... عصتهُ في محَبتها العبارهْ.
تلوحُ له فلسطين خيالا ... وتلمَعُ في سرائره منارَهْ
لقد طال الغيابُ المرُّ عنها ... فهل عَودٌ تُزَفُّ به البِشارهْ؟

* * *

أيا جيلَ الطفولةِ والمعالي ... ويا رمزَ الجراءةِ والجسارهْ.
نُسِبتَ الى الحجارةِ في كفاحٍ ... بُطولياً تتيهُ به الحجارهْ.
ولو زُوِّدتَ من أدواتِ حربٍ ... بما يخشى أخو البغي انتشاره.
لجزت إليه موجَ البحرِ وثباً ... وخُضتَ إليه في شوقٍ غِمارهْ

---

* شاعر من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

واشعلتَ الزمان عليهِ حرباً ... وكنتَ له منيّته وناره.
ويا ويحَ الحضارةِ كم تجنَّت ... وكم خانت مبادئها الحضارهْ.
انبخلُ بالضماد على بريءٍ ... تُعذبهُ البراءةُ والطهارهْ؟
وتغمرُ بالسِّلاحِ يَدي أثيمٍ ... كأنَّ ضميرهُ الخاوي مغارهْ.
فيا عصراً يُعزُّ به قويٌّ ... ويقطِفُ كلَّ ذي ظِفرٍ ثمارهْ.
ارى فيهِ مغشّاةً عليها ... من الأطماعِ داكنةً ستارهْ.
ارى مُثُلاً وليس بها حفيٌّ ... وليس بها على صدقٍ أثارهْ.
والمحُ عالماً قد ماجَ زهواً ... بأصنافِ الغوايةِ والإثارهْ.
إذا ذكَرَ السّلامُ فليس ينوي ... به إلا التّعدي والإغارهْ.
أشاحَ عن الضعيفِ فليسَ يدري ... بما أذكى أساهُ وما استثارَهْ.
ولو كان الحريصَ على حقوقٍ ... لما أبدى الضَّعيفُ له حِذارهْ.
وما حمَل الحجارة كي يُحامي ... عن الشّرفَ الذي هتكوا إزارهْ.
وما استخنى فواتنهُ لثأرٍ ... وما استعدى على ظلمٍ صِغارهْ.
ومن حَملَ الحجارةَ فهو أدرى ... بما أذكى حفيظتهُ وضارَه
قد انتظرَ السنينَ ليومِ ثأرٍ ... يَردُّ له كرامتَهُ ودارهْ.
وإذ قد نالَ منه اليأسُ خلّى ... سكينتَهُ ولم يُطق انتظارهْ.
وراحَ يجرّع الأعداء كأساً ... تحسَّى من حُثالتِها المرارهْ.
فظلّلهم بما لم يعرفوه ... من السّحبِ التي تهمي حِجارهْ.
وأمطرهم بسجّيلٍ جَديدٍ ... يَشبُّ العلجَ أو يُدمي فقارَهْ.
له وسمٌ على الخرطومِ يَبقى ... ليوم الحشر شعرهُ احتقارهْ.
ويومَ تناثرت من كلِّ صوبٍ ... حجارةُ ناقمٍ فقدَ اصطبارهْ.
حَسبتُ كأنَّ بركاناً تلظّى ... وأرسلَ في المدى حُمماً مُثارهْ.
كأنَّ جهنماً نفثَت لظاها ... أو أنَّ النّجمَ قد القى جِمارهْ.

* * *

فيا وطني الذي وردَ المنايا ... وخاضَ الليلَ لم يخشَ اعتكارهْ.
وجُرّعَ من كؤوسِ القهرِ ما لم ... يكنْ نيرونُ في روما أدارَه

Digitized by Birzeit University Library

تقحّمهُ الدخيلُ فلم يُوقّرْ ثكالاه ولم يرحَمْ كبارَه
ولم يحفظ لذاتِ صباً صباها ولا أرعى على شيخٍ وقارهْ.
لك البُشرى بيومٍ فدىً وثأرٍ يُطيل بهِ أخو البغي اعتبارهْ.

* * *

وقالوا: لجّ في الارهابِ شعبٌ نرى أخيارهُ تبعَت شِرارهْ.
لقد أرعى دعاةَ السوءِ اذناً وما طلبَ السلامَ ولا استخارهْ.
وهل أبقى لهُ الطغيانُ شيئاً يُصانُ سوى الرزية والخسارهْ؟
وهل داعٍ إلى سلمٍ دعاهُ؟ وهل أحدٌ على الصلح استشارهْ؟
وكيفَ يُقالُ قد دميت بقتلٍ يداهُ وقيدهُ أمسى سوارهْ؟
وها هو ذا بكلِّ ثرىً غريبٍ تكادُ تكونُ غربتهُ شِعارهْ.
تطاردهُ البلادُ وتتقيهِ إذا لمحت على درب غبارهْ.
تعوّذَ واستجار بكلِّ طُهرٍ فمن أصغى إليه ومَن أجارهْ؟
وقد رَضيَ السّماءَ لهُ دِثاراً فهل صان الطغاةُ له دثارهْ؟
وكيفَ يُدانُ بالارهابِ شعبٌ عدا فابتزّهُ الطاغي ديارهْ.
ومدَّ له يداً تبغي رِضاهُ فمدَّ له يداً تبغي ضِرارهْ.
ولايَنَهُ فلم يدفع أذاهُ وحاورَهُ فلم يسمع حوارهْ.
فهبَّ الى السّلاحِ وليس منه لديه سوى العصيّ أو الحجارهْ.
وإيمانٍ بأنَّ البغي هاوٍ وأنَّ الليلَ محتقبٌ نهارهْ.
وأنَّ قيامة الطغيانَ قامت وأن الشّعبَ قد رسمَ الإشارهْ.
وراحَ يُسلُّ أنيابَ الأفاعي وأظفارَ الوحوشِ المستثارهْ.
وأسلحةً تكدّسُها لتحمي بها وكراً لها تخشى انهيارهْ.
وقارَعهم بمقلاعٍ عجيبٍ كأنَّ من البداوة فيه شارهْ.
يُردُّ على الحضارةِ فيه كيداً ويُعلنُ فيه إفلاسَ الحضارهْ.
يُذكّرها به ما أهملتهُ وما تأبى من الكِبر ادّكارهْ.
تطولُ بهِ على الأعادي فيبلغُ منهُ بالرّجمِ اختيارهْ.
يشنُّ على الطغاةِ بلا كلالٍ فيفلحُ غارةً من بعد غارهْ.

Digitized by Birzeit University Library

ويفجأهم برجمٍ بعدَ رجمٍ كنجمٍ في السماء ترى انتثارهْ.
ولو قدروا الذي يَرِدُ المنايا ويملأ من مناهلها جرارهْ.
لقالوا فيه من داوودَ شِبهٌ وقد أبدى على الرجمِ اقتدارهْ.
فأدركَ فيه من جالوتَ ثأراً وحمّل فيه للريحِ انتصارهْ.

* * *

أيا جيلَ البطولةِ أيُّ قولٍ يفي حقَّ الذي يحمي ذمارَهْ؟
فلو نسبوكَ للذَّهبِ المصفّى لما زادوك من فضلٍ خُشارهْ.
ولو ساقوا الشموسَ إليكَ حَلياً لكانت من عطائك مستعارهْ.
ولو منحوك أعينهم لكانوا شِحاحاً بالنفوسِ المستطارهْ.
تُرى أيُّ العلوقِ اليكَ تُهدى وقد ساق الجهادُ إليكَ غارهْ؟
وقد جُنّت بك العَرَبُ ابتهاجاً ودبت في مفاصِلها الحرارهْ.
زهت كِبراً ربيعةُ في قُراها وتاهت في مضاربها فزارَهْ.
تناقلت العوالمُ ما جلاهُ لها التّلفازُ واستجلى شنارَهْ.
وكيف نهضت للجلّى وحيداً وكيف بعثتَ في الوطنِ الشرارهْ.
وكيف هززتَ علجاً من كراهُ وكيف جلوتَ في رفقٍ خُمارهْ.
أكادُ أحسُّ في الآفاقِ زهواً أشيمُ بريقهُ وأرى ازدهارهْ.
فقولوا للذين نسوا حِماهُم جنوناً بالزعامةِ والإمارهْ.
ومن قتلوا قضيتهم بما قد عَثَوا فيه وما هدموا جدارهْ.
ومن قد جندلوا بطلاً وراحوا إلى الدنيا يزفّون احتضارهْ.
الا خلّوا السبيلَ لنا وكفّوا فكلُّ مناضلٍ يدري مسارهْ.
إذا احتربَ الرفاقُ على زهيدٍ فقد كشفَ النضالُ لنا غَوارهْ.
وقد سارت قضيتهم لخُسرٍ وامستْ كالدِّلالةِ والتجارهْ.

* * *

أيا جيلَ البطولةِ أيُّ فخرٍ لنا في سامقٍ تُعلي فخارهْ؟

Digitized by Birzeit University Library

ايكفي اننا نحدو وانّا ... نصوغُ الشِعرَ أو نُذكي أوارهْ؟
وانّا حينَ نلمحُ وثبَ شبلٍ ... أمام جنودهم نخشى عِثارَهْ.
نباركه ونفديه ونرجوا ... له العيشَ المنعّم والنضارهْ.
بلى يكفي ونحن لكم ومنكم ... وهل ينسى شقيقُ دمٍ نجارهْ.
وكم راسٍ يطيرُ هنا إليكم ... بلا حذرٍ إذا سيفٌ أطارهْ.
وكم قلبٍ يرفُّ هنا إليكم ... ويحسبُ أنَّ عندكمو قرارهْ.
وقد تنأى الأحبةُ وهي تهفو ... حنيناً للقاءِ وللزيارهْ.

***

ايا جيلَ البطولةِ الفَ مرحى ... لكم في مَهمهٍ جبتُم قِفارهْ.
ولجِّ مائجٍ فجّرتموه ... وخضتم وهو مضطربٌ بحارهْ.
حميتم ظعنكم من بغي باغٍ ... كما تحمي فريدتها المحارهْ.
وثرتُم حينَ لَم يَنفعْ ليان ... وإذ خلعَ العدوّ لكم عذارهْ.
وواجهكم فبددتم قواه ... وحاصركم فأبطلتم حصارهْ.
خَضدتُم شوكةُ صلباً ورُحتم ... على الدنيا تذيعون انكسارهْ.
ثلاثةُ أشهرٍ مرّت عليكم ... كما يحدو أخو رَعيٍ عِشارهْ.
ثقلن فهنَّ من قُحمِ الليالي ... وطلنَ فهنَّ في الدّهر العُصارهْ.
نضجتم في ذراها واختمرتُم ... كعنقودٍ إذا بلغَ اختمارهْ.
وحين جهرتمو بالحق صرفاً ... ومن خُلقِ الميامين الجهارهْ.
أحال عليكمو بسقيمِ وغدٍ ... وراح يمينُهُ يلحو يسارهْ.
وغايةُ ما يجودُ به كلامٌ ... تلوحُ عليه من زيفٍ أمارهْ.
ترى شهد الوعود به مدوناً ... وتخطئه إذا تبغي اشتيارهْ.
يزوّق ما يزوّق من وعودٍ ... وتغريه بكم وبها الغرارهْ.
وأقصى ما يمنّ به عليكم ... نصيبٌ في السيادة والادارهْ.
أراد ليُحكِمَ الأصفاد فيكم ... ففاتته الكياسة والبصارهْ.

***

Digitized by Birzeit University Library

بعثتُ بموكبِ الشهداء شِعري ... يهيل على مضاجعهم نثارهْ.
جرى دمعُ الوفاء دماً بعيني ... وأبدى في محاجرِها أحمرارهْ.
فإن انظم بمصرعهم قصيداً ... فدمعي فيهمو والى انهمارهْ.
وكم كفكفته فطغى بجفني ... على رغمي فهل أرجو انحسارهْ؟
تحومُ على نفوسهم المنايا ... كعقبانٍ تحومُ على جُزارهْ.
فتنهشهم ولا تلقى دفاعاً ... وتنهشهم ولا تخشى خِفارهْ.

* * *

فيا شهداءنا الأبرار طوبى ... لكم في راحمٍ صِغتُم جوارهْ.
يرفُّ شذا شمائلكم علينا ... كما فاحت بريّاها البهارهْ.
اردتم جنة الأبرار فارقوا ... إليها دارةً من بعدِ دارهْ.
سقت اجداثكم سحبٌ حوامٍ ... تنافسها شمائلكم غزارهْ.
احييكم فإن كبتَ القوافي ... تولّى الدمعُ عن شِعري اعتذارهْ.

«منشورات مركز القدس» للدراسات الانمائية

ص ب ٩٣١٤١٣ عمان الأردن

- الاحتلال الاسرائيلي وأثره على المؤسسات الثقافية والتربوية في فلسطين المحتلة ـ تأليف عبد الجواد صالح ـ صدر سنة ١٩٨٥ م. ـ عدد الصفحات ٤٣٠ (باللغة العربية) الثمن قياس ٧٠ × ١٠٠
- الأوامر العسكرية الاسرائيلية ـ تأليف عبد الجواد صالح ـ ٤ أجزاء ـ صدر سنة ١٩٨٦ م. عدد الصفحات ١٧٣٠ (باللغة العربية) الثمن قياس ٧٠ × ١٠٠
- فلسطين: التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية والاستعمار الاستيطاني الصهيوني خلال مائة عام ١٨٨٢ ـ ١٩٨٢ م. تأليف عبد الجواد صالح، د. وليد مصطفى ـ عدد الصفحات ٦٨ مع خريطة تحتوي ١٢ لوناً. القياس ٥٧ × ٨٢ مضاعف الثمن «باللغة العربية».

ISRAEL'S POLICY OF DE - INSTITUTIONAL - IZATION:
A CASE STUDY OF PALESTINIAN LOCAL GOVERNMENTS: ABDUL JAWAD SALEH, MAYOR OF AL BIREH

CAN IT HAPPEN AGAIN: AREPORT ON MASS POISONING IN THE PALESTINIAN TERRITORIES UNDER ISRAELI OCCUPATION: ABDUL JAWAD SALEH AND DR. ABDUL AZIMS. SAL HAB.

Digitized by Birzeit University Library

شعر

المرور من ثقوب الذاكرة

خالد محي الدين البرادعي*

١

عندما تأتينَ... وحياً أو حضورا
أو تَمرَّيَنَ بأفقِ الوعي مثلَ الخاطرَهْ
يرقصُ الشمعُ على أرصفةِ العُمرِ
وتخضرُّ السنونُ المقفرَهْ
ويهلُّ الثلجُ
أسرابَ فراشاتٍ
وأرتالَ حَمامْ
تَنثرُ الضوءَ على بوَّابةِ الليلِ
وتُسقي الفترةَ المنكسرَهْ
فاحضُري مِلْءَ عذابَ السيرِ
أو حُليِّ بهذا الوعي
حتى يسكرَ الشمعُ

* شاعر من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

ويطوي الثلجُ أحزانَ الفصولِ الساهرَهْ

* * *

تَعبَ العمرُ من التحديقِ في قافلةِ الأيامِ
فاستجدى بقايا رؤيةٍ منتظرَهْ
وإذا ما خانتِ الرؤيةُ
يستلقي على خاصرةِ الليلِ
ويطوي ذاتهُ في ذاتهِ
كالشهقةِ المنتحرَهْ
أنتِ.. لو تبتسمينْ
أنتِ.. آهٍ.. أنتِ لو تلتفتينْ
ليعودَ العمرُ من ترحالهِ الأعمى
ويندسَّ صباحاً
في هنيهاتِ الهوى المستترَهْ
وتنامَ الريحُ ـ كالطفلةَ ـ
ترضعُ ثديَ الليلِ في صمتٍ
وتستلقي على أعتابهِ
لمحةً مندثرَهْ

* * *

أدركيني
فأنا في وحشةِ الصحراءِ وحدي
أحمل الماضي الذي يلبسني
غارقاً في ظلمةِ الوعيِ
وما قدرتي أنْ أقهرَهْ
كل شيءٍ غارقٌ في الصمتَ من حوليَ
إلا الذاكرَهْ

*

Digitized by Birzeit University Library

٢

كلما حَدَّقْتُ في وجهكِ
أنس الفقرَ والقهرَ
ويغشاني اشتياقٌ للرحيلْ
في مَسارِ الأمنياتِ الضائعَهْ
وأراني
كائناً يخرج من فصل الشتاتْ
وكأني
رمَقٌ يوشكُ أنْ ينحلَّ
في فرحةِ حبٍّ ضارعَهْ
فدعي هذا النجيَّ البكْرَ
يستجلي نهاياتِ الحصارْ
وعصافيرُ الرؤى تمشي معَهْ
ليس لي
غيرُ طريقٍ واحدٍ
يبدأُ من عينيكِ
إشراقاً
وصحواً
وحضورا
فافتحي أجفانَكِ الخضرَ
لكي أنتزعَهْ

[إنني أحملُ في ترحالِيَ المقهورِ
عُمْراً ميِّتاً
وهوىً مُحترقاً
وحروفاً جائعَهْ
وقطوفاً جَمَّدَ الحَرُّ نواصيها
فلاذَتْ بالصقيعْ
وأنا انظرُ في المأساةِ عيناً دامعَهْ]

Digitized by Birzeit University Library

أنتِ كونٌ شَفَّ حتى رقَّةِ الضوءِ
افتحي أبوابَهُ من أيِّ صَوْبٍ
لا نادي
بعد رشفِ النشوةِ الأولى
: ألا سبحانَهُ ما أَرْوَعَهْ
جُلَّ مَنْ قد صَنَعهْ

*

٣

منذُ فتَّحتُ جفوني
حَمَّلوني
هودجاً في حَجمِ حُلمَ القافِلَهْ
وبطولِ الدربِ
كنتُ الحاملَ الحلمَ
وكنتُ الباذِرَ الحَبَّ
وكنت الحاصدَ الهَمَّ
وكنتُ القابِلَهْ
أُطعُم الحلْمُ عذارى فَرَحي
عبرَ السنينَ الماحِلَهْ
وعلى صدريَ أعشاشٌ
أَنَمِّيها لأطيارِ النبوءَهْ
وأُغَطيِّها
بأهدابيَ ليلاً
ونهاراً
أفرشُ الوَجْدَ لها
ريثما تخضَرُّ فينا المرحَلَهْ
ثَقُلَ الهودَجُ

Digitized by Birzeit University Library

تحتَ الحَرِّ والسيرِ
وبينَ الريحِ والثلجِ
وسالَ الحلمُ
من بين الخصاصِ المُهملَهْ
[بيدَ أنَّ العرسَ ما زالَ
وزفَّاتُ العَذارى]
لم يَعُدْ للحلم إلا هودجٌ تسكنهُ الريحُ
وتغشاهُ الحكايا الراحِلَهْ

* * *

وإذا ما ثقلَ العمرُ
ومالت كَفَّةُ الحُزن
وغطَّى الخوفُ أَمْداءَ حدائي
وغنائي
وتلاشَتْ صورُ المُقْبلِ
ناديتُ:
أيا طيرَ النبوءَهْ
أوشكَ التاريخُ أنْ يَسْقُطَ في العَتْمِ
وكادت أنْ تضلَّ القافلَهْ
آهِ.. يا طيرَ النبوءاتِ
أغيثي حاملَ الهَودجِ والمصباحِ
إني متعبٌ حتى حدودِ الموتِ
والدربُ طويلٌ والزوايا مُقْفلَهْ
آه يا طيرَ النبوءاتِ أَهَلْ
كانتِ الأحلامُ والآمالُ والدنيا
وأفراحُ الهَوى
عبر الْجهاتِ الستِّ
رؤيا باطلَهْ؟

Digitized by Birzeit University Library

لم تُجبْ.. بل فاجأتني
أنها تبصرُ ما مَرَّ
ولكنْ تطبقُ الأجفانَ
عن كل العصورِ المقبلَهْ

*

كيفَ يا طيرَ النبوءاتِ
تعيشينَ فراغَ الذكرياتْ
وتغطينَ بها مَحْلَ ا'راسِمْ
والفُصولَ القاحِلَهْ؟

*

أفلا تأتينَ؟
إني شفَةٌ عَطشَى
وأرضٌ شَقَّقَ الحَرُّ نَواصيها
وأنتِ الغيمةُ المرتحِلَهْ

٤

أين أنتِ الآنَ
إني غارقٌ في حُبِّك العُذْرِيِّ
ما بينَ شطوطِ الأطلسيِّ
وتعاريجِ تِهامَهْ
فاسمعيني
لَبسوا ثوبي
وفي كل انعطافَهْ
أنا في ثَوْبِ
يُغطيِّني بلا سترٍ
وفي طيّاتِهِ

Digitized by Birzeit University Library

كنتُ شكلاً أو علامَهْ
تارةً أحسبني عبداً
وأخرى مَلِكا
بسطاءُ القَوْمِ
أَسْمونِيَ عَرَّافَ اليمامَهْ
والذين انحدروا في غَيِّهم
حَمَّلوني خَطأَ العصرِ.. وهُمْ
خَلْخَلوا بنيانَهُ
ثم أبقوني على هامِشِهِ
شارةَ مَوْتٍ
أو صليباً يابساً
ليس لي من كل أشراطِ الوجودْ
غيرُ بُقْيا لغةٍ معزولةٍ
يمنحُها الليلُ ظلامَهْ

وأنا
شهد اللهُ أنا مِنْ فِئَةٍ
يقتلُها الحُبُّ
وفي الستِّ الْجهاتْ
زرعَتْ مِنْ وهجِ العِشْقِ ابتسامَهْ
ينسجُ الوعْيُ لها رايَتَها
وَجْداً وَوَرْداً
وتباريحَ اشتياقْ
ولها في كل فَصْلٍ للهوى
يَومُ قِيامَهْ

يبرود

Digitized by Birzeit University Library

شعر

الجمرات

عبد الكريم شعبان-

صديقاي في أول النوم ناما.. ومازلت أرقب موعد حلمٍ يدغدغني فأنامُ...
ويوقظني فأدير الكؤوس على الشاربين.. ولاأشرب الآن وحدي..
وانتم نيامٌ... ولكنني أتساقى الرحيق مع الكلماتِ.. وأسكبهنَّ على لون قلبي.
أغني فيستيقظ الصبح نشوانَ
أبكي فيجهش قبلي المساءُ

ماالذي في السؤال.. وفي الأغنياتْ
ماالذي في التوحش مابعد منتصف الليل أو قبل بدءِ الغناءُ
وفي أن تسير وحيداً مع الفلواتْ
آهِ ياأيها السائرون معي في دروب الحياةْ
المعانون مثلي شقاء التكون أو لحظة الانبهار
الذين يدقون أبواب أحلاميَ المغلقات بكل نهارْ

شاعر من سورية

Digitized by Birzeit University Library

و حنيني إلى ضفة النهر ينثال والموج يرتجُّ فوق الصخور العتاقِ.
ويسَّابقون إلى أغنياتي سباق الفراشاتِ لِلضّوءِ..
ها أنذا قادم ياأحبابيَ أقرع كأسي بكأسي وأسقي خيالي
وأسكر وحدي.. وأنتم معي قوة في القرارْ
في الدموع التي تترقرق قبل التكوّن.. في خلجات الفؤادْ
وفي طرفة العين.. إني أراكم معي.. ووراءي.. وفي
كل لحن يدق.. وكل بريق يلوح.. أراكم.. أنا مثلكمْ
وادعٌ طيبٌ.. ضاحكٌ للصباح الذي تصنعون..

أباركم وأواكب أقدامكم وهي تعلن ميلاد أول خطوة حبٍ
.. أباركم في الشجون وفي السهرات..
وفي الجوع والهمسات.. ليالي التشرد.. آن تغيم المواعيد
.. تهرأ كل الخرافات.. آن الجنون يصير لنا موعداً وطريقاً...
وآن يبدرنا حلم.. أو يوحدنا.. لانبالي.. ونعرف أنّا التقينا
على لحن أغنيةٍ في المساء الشريد.. وأنّا هزمنا مجاعاتنا وسنين
الضراعةِ.. أنّا تركنا سنين من الجوعِ ترقبنا طالعين كنجمٍ
تعالى.. وأشرق يعلن ميلاده في السماءْ

كم شربنا دمَ القطرة الواحدة
كم كبونا.. بكينا كآباتنا ذاتها واهتراء الهمومْ
كم حلمنا.. هرمنا.. هزمنا... وكم جمّعتنا الليالي بعزمٍ
... بهمٍ.. بحلم.. ولكننا لم نزل شوكةً في الصدور الغلاظِ
.. وقلباً توحد بالنبض والحب... آمن بالخلق والأغنيات.. وبالقادمِ
المتجدد.. آمن بالمستحيل يصير عجينة حاضره المتقدم..
والليل يختصر الأنجم الزهر.. إني أراني أعانق أنفاسَ
عاشقتي.. أتدلى كما يتدلى حريقٌ على مئذنة
يالليالي التي قتلت نفسها تحت أحداقنا..
والكؤوس التي أهرقت دمها تحت أفراحنا

Digitized by Birzeit University Library

والدموع التي أحرقت نارها تحت أشواقنا
إننا مانزال سكاراك.. نكرم أحبابنا بالسلام

عليهم..
ونترع أكؤسنا بالسلام عليها
سلام هو الحلم حتى انتهاء المساءاتِ
حب هو العمر حتى انتهاء السفرْ

اراجع ذاكرتي ياأحباي.. أنتم معي.. ومعي الكأس أيضاً..
واغنيتي تتوالى.. مزامير داؤود في رجعها.. والسماء التي تتآلف أنجمها
والقمرْ

أيها النائمون وحبيَ يقظانُ يتركني أتألق والليل..
يتركني واجماً.. أتباكى
مع الوهم والسر.. أكتب للجائعين
إلى اللحن
أغنية تتباهى بلحنٍ..
واسترجع الماضيات اللواتي توقدن كالجمر..
ياخوف عيني من موقفٍ
لست أرضاه لولا السكر
هكذا يترك الخمر عيني نبع هوىً يتدفقُ..
يترك للقلم المتأرجح فوقَ
البياض مساحته.. ويقول لأحلامي الغُرَّ:
هيا استفيقي.. ويمسك بي
خائضاً في الغمارْ

أنا الحلم والجمرات.. أنا شهقات المحبين من تحت أستارهم
اتركني للهوى سادراً والشراب...
أسير وفي قدمي حافز للمسير...

Digitized by Birzeit University Library

وفي قبضتي حافز للعراك...
وفي قلمي حافز للكلام.
لانبالي السراديب.. ليست لنا جعجعات الفراخ التي لم يزلْ
زغبها ناعماً..
قد كبرنا وهاقد قسونا مع الهم والتجربةْ
تواكبنا الساقيات وأنفاس كل المحبين..
نهرع صوب بوارقنا ومواطن أوجاعنا حين يدلف نجم الى كهفهِ
.. ونولول بالضوء واللون حين يلف الزمانُ المكانَ.. وحين يقارعنا المستحيل
.. وننتزع الشهقات الفريدة من دمها المتماسك...
لابد أن نتشظى بوهجٍ.. ولابد أن نستظل بظلٍ..
ولابد أن نستقيم على أي خطٍ...
ولو كان خطاً على دائرةْ
وفي الاعين الحائرةْ

نجاهر بالدمع والبسمات الفريدة.. لاشك يختزن الحب تحت طوايا
مجامرنا وننادي الأغاريد أن تتحلق من حولنا حلماً حلماً.. ونغني..
ولكننا نسحق الخائف المستجير من النار بالنار.. نهرق أشلاءهُ
في طريق الضياع.. ونستودع البركات سلاماً يودعنا في بواكير كل صباحٍ
.. آه ياأيها المتشابك بالدمع والعنعنات سلام
ولكننا نعرف الآن هزء المواقف أو رجرجات المواعيدِ..
نعرف كيف تهب الرياح جنوباً
وأين تكون الرمال طريقاً
وأين تكون الحراب وروداً
ونعرف كيف وأنّى وأين يكون الرجاء

ياوداعاتنا ومتاريسنا باتجاه سيوف الضراعة والموت لاتعبري
خطّ أوجاعنا وارجعي خطوة للأمام فما للوراء طريق..
سنقتحم الآن خط الأمام وخطّ الوراءْ

Digitized by Birzeit University Library

حين يقترب النجم من وهم ليل كئيبٍ وينتشر النور فوق الروابي..
يعلق كوخ اغانيه في ردهةٍ.. ويغني لريحٍ وعصف المكانْ...
وينتعل الحب أقدامنا حين يبكي الشتاء استراحاتنا في تواعد ليل بطيء
الخطى لايمر بطيئاً.. ولكننا نتهجى الخطى ونقول: اقترب يارجاءُ
.. يدفق في كل صدر حنين إلى أمل جامحٍ وهوىً يترك القلب حرّان
من وجده... إننا نتعالى على الهم.. نستوحد الهمَّ..
لابد أن نشحن الأغنيات بآمالنا.. ونخلي الليالي تباركنا في سنينِ
المواجع والهول.. نستولد الغمرات اللواتي يحدقن باللوعة الأبديةِ
.. نبدع.. إنّا مع القادم المتجدد.. نطلق أغنية تتجدّدُ..
نستوقد البارقات.. ونبكي.. ولكننا أملٌ صارخٌ باتجاه الحياةِ
التي لاعراك بها كاذباً.. غير أن تتهيأ للحب والأغنيات وأن تتجددَ
مثل بساط على عشب أي ربيع تفضل بالماء والشمس.. نعلن في كل يومٍ
توقد شمس وفي كل أغنية موت ميت.. ونبدع كوناً..
سنستوقف القبرات أمام البراكين نسألها عن حنين الزرازير أو نتجاهر
بالرعب فوق انتفاض المشانق.. لابد أن نتزيا بزيٍّ يؤهلنا للعناق..
وأن نتماثل للموت.. آن يجيء الشفاء..
أيها القادم المتألق في موعد الأغنيات اقتربْ.. ها أنا واقفٌ في عراءِ
المحيطات مستوحش وحزين.. تعالَ استعر كاللظى..
وانتشر كالرصاص.. أنا الباسل المتهيء للحب في كل حين..
أودع أحلام كل القرون وأتبع عيني في كل همسة أبرقت للدموع.. وأستنطق
الدفء
والشمس.. أدخل كهف النجوم بخيل الرياح وجيش الغيوم.

١٩٨٣/٣/١٤

Digitized by Birzeit University Library

شعر

تراتيل العودة

محمد حديفي*

قادم كالطائر المسحور من وهج الشفقْ
داخل في ليلك السفح على كفيه يافا
ومن العينين تنداح المواويل دماً
وعلى الظهر بقايا الامتعة
بعثرتها في السفوح الاشرعة
ومضت تبحر في العتم المراكبْ
خلفها القدس وفي أحضانها الاكبادُ
تبكي
نصفها يرحل للتيهِ
ونصف يحترقْ
قادم يروي تباريح الحكايا
يهتدي في ومضة من نجمة الصبحِ
أحبته صغيرا
حين كان يوقظ الاطفالَ
عند الفجرِ
يختار البساتين العصيةَ
كي يقطف ورده
يتساوى الليل والاصباح عنده
يرسم القدس
فتدمي شفرة السكين زنده
هوذا ينشد للأرض أغاني
يشعل الأرض قصائد
ليس فرقاً خبأ البحر له مشنقةً

---

* شاعر من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

أم وساماً وقلائدْ
كل مايطمح أن يكتب للتاريخِ
فوق الموج فوق الريحِ
أجراس الكنائسْ
أو على شاهدة القبرِ
وأعمدة الضياءْ
إنني ياقدس عائد
فازرعيني في روابيك كروماً وسنابلْ
وخذي من دفقة الشريان زيتا للمشاعلْ
وارسميني وردة حمراء فوق الخدِّ
أو فوق الجدائلْ
واكتبي للزمن الآتي سعيراً محرقاً:
انني مامت مهزوماً
ولكني مقاتلْ
يابلاداً ساقها الجلاد للذبحِ
وأهلوها نيامْ
صَدِىءَ الرشاش في المتراسِ
وارتاح الحسامْ
ان أرضاً تنجب الاطفال للحربِ
ويسقيها الغمامْ
سوف تبقى راية للرفض والعصيانِ
في زمن السقامْ
فاغسلي كفيك بالنورِ
وضميني وليداً
وارسمي فجراً من الحب جديداً
واتبعيني نركز الرايات في عالي الذرى
شمسنا للمرة الاولى ومن كبد الضحى
ترقب الاطفال يسقون الحديدا

Digitized by Birzeit University Library

شعر

ولادة

خليل بيطار*

إلى فواز الساجر

جاءنا في عريهِ ذاتَ ربيعْ
بعدما ذابت بواكيرُ الجليد
لم يكنْ يحملُ فيروزاً، ولا في كفهِ سوطٌ
ولا في صوتهِ بوحُ نبيّ
جاءنا في حزنه ذاتَ هزيعْ
ثم ألقى همّه بينَ الجميعْ
ومضى صوبَ الوطنْ
جاء لايحمل غيرَ الحلم في جيب القميصْ
همّه أن تعرف البهجةَ أرجاءُ البلادْ
أن يعمّ المطرُ الهامسُ أمداءَ السهولْ
همّه ـ ماكان هماً واحداً ـ سحبُ هموم
يتلقاها ويرويها ويلقيها بعيداً
عن حدودِ الأرضِ والأهلِ وصحو الذاكرةْ
جاءنا مثل اكتشافِ اللغز أو مثل استدارات الحقيقةْ
جاءنا مثل امتلاءِ النهر أو مثل الفراشات الرقيقة
جاءنا في لهفةِ العاقر أو في غفلة السجان
أو في لحظة السعد التي تأتي بلا وعد وتمضي
جاء كي يكملَ،

---

* شاعر من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

لم ينتظر الإيقاع كي تبتدىء الحفلة،
حيث الهم يمسي كالحكايات التي تمضي الى غايتها
جاءنا مثل التماعِ الأفقِ إبان الشروق
جاء كي يكمل تزيينَ المنصةْ
لم يكن مسرحُه يبدو كشكلٍ هندسيّ واضحٍ
لكنه كان فسيحاً مشرقاً عذبَ
التفاصيل نقياً
فيه نبضُ الريح والرحمةُ، فيه الحلمُ
فيه الدهشةُ الأولى وفيه الرغباتْ
فيه توقُ الروح للأحلى
وفيه الطعناتْ
جاءنا ذات مساءْ
باحثاً عن مقعد أو بعضَ ظلٍ أو حَجَرْ
كل ماأبصرتُه ذاك المساءْ
أن ريحاً صرصراً جاءت على الأحجارِ
والأشجارِ والماءِ وظلّ الشرفاتْ
كل ماأبصرتُه أن البيوتَ انشطرتْ
والقلبَ هبتْ نارُهُ
والأفقَ فاءْ
مثل طفلٍ هدّهُ الرعبُ وهرتهْ الجراء
كل ماأذكرُهُ أنَّ الجبالَ انفطرتْ
والشوقَ رفَّ جناحُهُ
والسرَّ ذاعْ
كل ماأعرفُهُ
أن سحابات الظلامِ انسحبت
وانصبَّ في العتمةِ قنديلُ
وضاءْ

٢ ـ ١٩٨٩

Digitized by Birzeit University Library

شعر

قبة الحجر

محمد حمدان

لياليّ تحبو ببطء شديد الخمولِ
شديد الذهولِ
كأغنية في رؤوس السّكارى
كخاطرة في جبين الحيارى
ويملأ سمعي نقيق رتيبٌ
فيعصف في جانحي الدوارْ
تنوس العواصم بين الفجيعة والاندثارْ
صرير الجنادب صوت مذيعٍ
صنوف من اللهو صوت مذيعٍ
خنوع القطيع أمام الذئابِ
كطين تعفن صوت مذيعٍ

Digitized by Birzeit University Library

ومرّ الزقاقُ
يدق الرصيف وأبواب حارتنا بالنعالِ
ونامت جفون الردى في قرانا اليتيمه
فلا زهرة في جفاف الحقول ولا سنبلهْ
وتخبو أمانّي
تشتعل الذكريات المريرةُ
تغزو فؤادي نبالٌ من الاسئلهْ
سؤال تكسر دون سؤالْ
هي الفاجعة؟
هي القارعه؟
هي الانتفاضة ضد القبور؟
يدور برأسي ألف احتمالْ
رأيت على الرغم من بوط هتلرَ
أن المنارة شعّت قليلاً.. قليلاً
أنارت سماءً بدت كالليبابِ
تشقق ذاك الجدارُ
جيوش من النمل تحمل قمحاً ورطباً
تكدسه في الكهوف ـ العنابرِ
في الأقبيهْ
حلمت بأن سيوف الجزيرة عادتْ
وبأس الأعاريب عادَ
وأن الرباطات قائمة في النفوسِ
وأن الفتوة تغلي بصدر الجْياعِ
وأن المحاصد رنّت بأيدي الشبابِ
وأن الزغاريد تنتظر الأقحوانْ
تعود النوارس في المدِّ
والنسر يصبح أقوى فأقوى
وتشدو البلابل في فرح الخوخ والزعفرانْ

Digitized by Birzeit University Library

صحونا على صحوة الرملِ
أيقظنا النخل يرفع تكبيرة الصبحِ
الله اكبرُ
حيّ على الصبرِ
هذا أوان الجهادِ ـ الشهادةِ
هذا هو الزمن العربي الجديدُ
وهذا هو الوطن العربي الجديدُ
فيا أيها الجنرال الذي نام دهراً
على ساعد النشوة الغامرهْ
ومدّ أصابعه يتحرى المدارس والزرع بالطائراتِ
أتتك الوفود مبايعة باللظى واللهبْ
وحمى الغضبْ
غضبْ.. غضبْ
الم تنتظر هاتفاً من قريشٍ ؟
ومفتاح جلق والقاهرة؟
الم تنتظر أسمراً يحمل النيل والرافدينِ
ونهر الفرات إليك؟
أتتك الجموع صفوفاً صفوفاً
مبايعة بالحجارهْ
قبور الجدود استحالت حجارةَ
وكل الخيام التي نسجتها الجراح استحالت حجارهْ
ومصطبة الطينِ
كوفية الدمعِ
موقد جدي وعرزاله الخشبيُّ
وآهاتنا في حبال المشانقِ أضحت حجارهْ
وصرخاتنا في البلاد البعيدة صارت حجارهْ
تبارك جيل الحجارهْ
ونسل الحجارهْ

Digitized by Birzeit University Library

حجارةْ.. حجارة
عليها نقشنا حروف التواصل والأزمنةْ
بها شاد قومي حصون الرجاءْ
ونبني بها اليوم صرح الفداءْ
تبارك مشعلنا
رفرفته السواعد في الغورِ
ضمته بيروتُ
مدّته نحو الجنوبِ ونحو جنوب الجنوبْ
مباركة كل تلك العيون التي استيقظت في كروم الحجارةْ
مقدسة كل تلك البطون التي أنجبتكم
وفي كفكم حزمة من حجارةْ
فأنتم فضحتم دعاة الحضارةْ
وأنتم
كشفتم بأحجاركم زيف أهل الصدارةْ
تعروا جميعاً ولم يخجل القبح فيهم
فعوراتهم عرضوها مراراً بسوق التجارةْ
وأنتم
تبارك أحجاركم سدرةُ المنتهى
ونخلٌ أظل بني المحبة من هجمة المفترينْ
وأسرى يباركها العربي الأمينْ
يقود هموم وبأس الحفاةِ
يوحد شمل الشتاتِ
فديست جباههمُ أجمعينْ
سنبرق للصحب في كل قبوٍ
وللثائرين على كل قيدٍ:
رفاق المسافات والليل والصحوِ
إن البشائر عيد الحجارةْ
وميلادنا سجلته الحجارةِ

Digitized by Birzeit University Library

وأحزاننا يارفاقي محاها دوي ارتطام الحجارةْ
دخان الأزقة يقطع حبل التواطؤ
يخنق بوم التواطوءِ
يصفع أحلام من راهنوا
ويخرس غربانهم
فيداوي جراح الأسى وركام الأنينْ
ويغسل من ورم الخائنين مرافئنا
والبحار التي استعذبت ريحنا
وبراها الحنينْ
شواطئنا يارفاقي سنغسلها بالدموعِ
لتبقى عناقيد للسابحينْ
شواطئنا يارفاقي سنغسلها بالرماحِ
لتبقى أطايب من كرز وتمور وتينْ
فياأهلنا الطيبينْ
بأحجاركم تستعيد العروبة مجد الرمالِ
بأحجاركم نسترد الكرامةَ
في ظلها نستحق الحياة
حذارِ... حذار
ففي الدرب أولاد (كمبٍ) وأهل (لعمْ)
وفي الدرب قيصرُ
يحمي فلولاً من الناكصينَ
وجيشاً من الناكثينْ
لك المجد ياصانع المستحيل ببعض الحجرْ
ففي أرضنا قبه الصخرة الخالدةْ
وفيها قباب الحجرْ
فلسطين أقوى
فلسطين واسطة العقدِ
ياقوتة العاشقينْ

Digitized by Birzeit University Library

ومقلاعكم ألف أقوى
ومافي الشرايين أقوى من السيفِ
واللحمُ أقوى
وعين المقاوم من مخرز الغدر أقوى
كتبتم فلسطين فوق جدار الكفاح العنيد وبوابة الخالدين
لبستم فلسطين ثوب عروسٍ
وكان الشهيد عريس اخضرار الحجرْ
ـ تعالي إليّ مع الليل فالليل منّا
ـ تعالَ إليَّ مع الليل فالليل نحنُ
ـ أحبكَ.. هذا أوان المحبةِ
ـ أسقي ضفائرك الخضر شوقاً
وأقسم إنك من بعض يافا
وأقسم إني وفيّ ليافا... وللصامدينْ
لقد حرمتنا الصبابةَ نازية الغاصبينْ
تفتح قلبي على الحبِّ لكنهم صادروهُ
فهل كنت أملك وقتاً
لغير المزيد من الحقد والكرهِ في خيمة اللاجئينْ؟
ـ فيا أيها الشوقُ
يانسمة في جناح البراري
ـ تأجل موسم تفاحنا كل تلك السنينْ
شُغلنا بحمل القسيِّ عن الجلنارِ
عن الفل والياسمينْ
ـ تعال إلى عسقلانَ
أنا وردة الشامِ
للروم شوكي وعطريَ أنشودة الثائرينْ
ـ تعالي
سننشد والصبحَ يوماً أغاني سمرْ
وطفلي!!

Digitized by Birzeit University Library

يزين دفتر طفلي حجرْ
وأختي الصغيرة تمحو عناوين من راسلوها
لتكتب فيه مواويل أهلي وكل أغاني الحجرْ
فكيف تضيع القضية؟
كيف تضيع؟
وأمي التي خبأت ثوب سجني بزنزانة الانفصالِ
أعادت لي الحرزَ
في الحرز كان الحجرْ
حجرْ!!
سأقذفه في وجوه الذين استكانوا
وهانوا
وخانوا الترابَ
وباعوا الشجرْ
طواويسنا يارفاقي ملوك الكلامِ
وأنتم طيور أبابيلُ
أنتم رجال الشموس المضيئةِ
أنتم عماليق هذا الزمانِ
وعيارُه
وملوك الحجرْ
اذا قبّل الصولجان حذاء الطغاةِ
انبرى لسيوف الطغاة حجرْ
وأسأل بعدُ:
لماذا سكتنا دهوراً؟
لماذا تقوس ظهر الحفاةِ؟
لماذا ركعنا أمام الطغاةِ؟
لماذا سجدنا بمحرابهم؟
أليست أسرتنا من حجرْ؟
أليست وسائدنا من حجرْ؟

Digitized by Birzeit University Library

متى تتفجر كل البراكين في الأنفس الساكنهْ؟
متى يارفاقي ستنقشع الغيمة الداكنهْ؟
متى يستعير محيط السكوت المدمى حجرْ؟
متى تستعير الدروب المغطاةُ بالعشبِ والخوفِ
منكم حجرْ؟
متى؟
أيها الغار يعشقك السنديانْ
فضفر أكاليل للشهداءِ وللإنتصارْ
سلاماً بلادي
سلاماً بلادي
سلاماً لزيتوننا في الجليلِ
لليمون حيفا
لبرقوق عكا ومرج ابن عامرْ
لحطين.. للقدس... للناصرهْ
لغزةَ
للخيمةِ الثائرهْ
حماةَ التراب
السلام... السلام عليكمْ
حماةَ الترابْ

جبلة ـ شباط ١٩٨٨

Digitized by Birzeit University Library

شعر

وعلى دوي الحجارة ينهض الصهيل

محمود حامد

الى شواهد القبور الباسقة،
والى سواعد أطفال الحجارة
الشاهقة الى السّماء.

لماذ تحجبينَ عن المُتيّم كفّكِ المكسُورَ يا ليلى ؟؟؟
لماذا تَختفينَ وراءَ دمعَتِكِ الحزينة،
تَصرُخينَ، إذا هممتُ عناقَ وجهكِ، يا أبي كلاّ
لماذا كلّما أوغلتُ في عَينيكِ داهمني،
جُنونُ العشقَ للأمسِ الذي ولّى.
أُردُّ إليكِ منْ قبري شباباً رائعاً،
وأكونُ أوّلَ من يحاربُ في صفوفِ الشّعبِ مُحتلاً
وأنهضُ من رمادي، ألمحُ الاعناقَ من حولي،

Digitized by Birzeit University Library

وقد شَمخَتْ إلى الأعلى
لماذا كلّما اشتعلَ الدّمُ العربيُّ فيكِ، بكيتِ،
بابا لا يعيبُ دمٌ على الشّفتين صُبحاً من دمٍ هلاّ

*

اردُكِ للجيادِ بساحها؟ فأقولُ:
مهلاً يا رفيقة ساحتي، مهلا
فما زالَ الدّمُ العربيُّ في بدءِ النُّهوضِ،
وما يزالُ السّاحُ مشتعلاً
ولم تَخمُدْ على زردِ السّلاسلِ نارُنا أبداً،
ولم نُطفىء بها غُلاًّ
إذا لم تنكسِر أعناقُهم في ساحِنا ذُلاًّ

*

كراريسُ الفُصولِ على المقاعدِ ما تزالُ،
وما تزالُ على الأصابعِ تشتكي شغَبَ العصافيرِ الطّباشيرُ
تُرى من أشعلَ الشّمسَ الجديدةَ في سماءِ المجدِ، ما هذي الطّوابيرُ؟؟؟
أأيدٍ تُشعلُ البُركانَ في الأحجارِ؟؟؟
أم سيفٌ على الأعناقِ مكسورُ؟؟؟
تُرى من أيِّ شاهدةٍ يهبُّ البرقُ؟؟؟،
تنتفضُ الرّعودُ؟؟؟،
ويسطعُ النّورُ؟؟؟
تُرى ماذا يكونُ الحالُ لَو لَمْ ينهضِ الأطفالُ؟؟؟،
لَمْ تتفجّرِ الأحجارُ؟؟؟،
لَمْ يأتِ المغاويرُ؟؟؟
تُرى ماذا يكونُ الحالُ لو لَمْ،
يُوقظِ الهممَ القتيلةَ في النُّسورِ الشُّمِّ عصفورُ؟؟؟
أنبقى تحتَ ظلِّ الانكساراتِ المريرةِ نلعنُ الدُّنيا؟؟؟،
ويبكي جُرحهُ العربيُّ مقهورُ؟؟؟
أيبقى بيننا يعلو جدارُ الوهمِ ؟؟؟،

Digitized by Birzeit University Library

أو تتبعثرُ الرّاياتُ فوقَ هضابها،
ويقومُ فيما بيننا سورُ...؟؟؟.
إليكِ أعودُ، أسكنُ عندَ ثغرِكِ،
أشربُ الكلماتِ من شفتيكِ شهداً،
أمضغُ السّكّرْ
وأغرقُ في جدائلِ حُلوتي، وأتيهُ بينَ المسكِ والعنبَرْ
وتحملني إلى الفردسِ ثرثرةُ العصافيرِ الشّبيهةِ بالنّدى،
وأقولُ: ما أحلى سفوحكِ حينَ ينهضُ عُشبُها أخضرْ
وما أحلاكِ عندَ الموتِ،
ما أحلاكِ عندَ البعثِ،
شمساً لونُها أحمرْ.

*

وباسلُ، حينَ ينهضُ مِنْ فراشِ الحلُمِ،
يطبعُ أعذبَ القُبُلاتِ في خدّي
ويمنحُني حلاوةَ خدِّهِ الأيمنْ
وروعةَ خدِّهِ الأيسرْ
ويقبعُ عندَ طاولتي يُثرثرُ كالبلابلِ،
يا عُذوبةَ ثغرِهِ الأسمَرْ
إذا ثرثرْ
أُحسُّ بنهرِ عطرٍ فاضَ مِن كوثرْ
ويهمسُ: يا أبي أرجوكَ بدِّلْ كُلَّ ألعابي برشّاشٍ،
وهَبني مرّةً خنجرْ
أُحاربُ فيهِ، هَبني بذلةَ العَسْكرْ
فها أنا يا أبي أتقنْتُ حملَ البُندقيةِ،
واستعرتُ الخُوذةَ الخضراءَ مَن بعضِ الجُنودِ،
وبضعُ نجماتٍ على كَتفي،
تُخَوِّلني دخولَ مُعسكَرِ التّدريبِ،
تجعلُني، إذا أتقنتُ رميَ حجارةِ الرّعبِ، اقتناصَ الرُّتبةِ الأولى،

Digitized by Birzeit University Library

وأغدو ضابطاً لجميع أطْفالِ البلادِ ، أبى ، !!! ،
وآخرُ قُبْلَةٍ رَسَمَتْ عَلىَ ثَغْري نِهايَةَ أعْذَبِ الألحانِ ،
صَاحَ ، وَثَغْرُهُ الوَرْدِيُّ يَشْرَقُ بالدَّمِ الوَطَنِيِّ ،
مِنْ أجْلِ البلادِ نَهَضْتُ كَيْ أثْأرْ
وَأرْخى رَأْسَهُ الغَجَرِيَّ في حُضْني ،
وَتَمْتَمَ وَهْوَ يَحْضُنُ بُنْدُقِيَّتَهُ الحزينَةَ :
حُبّي أكْثَرْ
فَقَدْ أصْبَحْتُ عِمْلاقَ الحِجارَةِ ،
سيِّدَ الرَّامينَ في ساحاتِها ،
أصْبَحْتُ أطْوَلَ مِنْ جَميعِ بِنادِقِ الإطْفالِ ،
أنْظُرْ يا أبي أصْبَحْتُ ،
أكْبَرَ مِنْ بَواسِقِ كُلِّ نَخْلِ الأرْضِ ،
أكْبَرَ مِنْ رِماحِ المَجْدِ ، أكْبَرَ مِنْ غَدي ، أكْبَرْ

*

وَماتَ وَنَحْنُ ما زِلْنا ،
نُخطِّطُ دَرْبَ عَوْدَتِنا على وَجَعِ الخَرائِطِ ،
نَكْتُبُ الأشْعارَ ،
نَمْضَغُ خُبْزَ غُرْبَتِنَا ،
نُثَرْثِرُ في مَقاهينا :
بِأنَّ خَسائِرَ العَرَبِ الكَثيرَةِ إنَّما كَانَتْ
بِما خَزَنُوهُ فينا مِنْ تَفاهاتٍ ،
وَما حَقَنُوهُ فينا مِنْ تَفاهاتٍ ،
مَا تَرَكُوا هُنا فينا
بِأنَّا ، رَغْمَ كُلِّ هَزائِمِ العَرَبِ الكَثيرَةِ ، وَالمَريرَةِ ،
أنَّنا رَغْمَ الظُّرُوفِ السُّودِ ، وَالنَّكَسَاتِ
لَمْ نَخْسَرْ
وَلَمْ نَخْسَرْ ،
وَلَمْ نَخْسَرْ

Digitized by Birzeit University Library

وَأَنَّا ، رَغْمَ ما قَدْ كانَ ،
لَمْ نُقْهَرْ .

*

هُمُ الأَطْفالُ بَثُّوا في المَلايينَ القتيلَةِ جِمْرِ غَضْبِتِهِمْ
وقالُوا للنِّيامِ : كَفَى
فَقَدْ مَلَّ الفِراشُ جُنُونَ نْشوتَكُم لِأَحْلامِ الوَسائِدِ،
مَلَّكُم هَذا التُّرابُ،
وَما يَزال النَبضُ يَنْهَضُ،
وَالْفُوءادُ غَفا
وَهَلْ يُجدي بكاءٌ ؟؟؟،
أَوْ يَدومُ صَدىً لِثَرْثَرَةٍ أَمامَ مَحاكِمِ التَاريخِ ،
لحَظَةَ لا يَكُونُ الإِعْتِرافُ طَريقَ عِزٍّ،
لِلَّذي اعْتَرفَا.

*

إِلَيْكِ أَعودُ،
أُفْرِغُ عِنْدَ نَعْلَيْكِ الكَثيرَ مِنَ الهُمُومِ ،
يَسَوْفَ أَبْقَى خَلْفَ مَجْدِكِ دائماً أَمْشي
وَخَلْفَ صُفُوفِ أَطْفالِ الحِجارَةِ يُصْبِحُ الباكونَ عِبئاً،
إِنَّمَا وَحْدي،
رَأَيْتُ بِأَنْ أُحارِبَ مِثْلَكُمْ ، وَأَظَلّ فَوقَ حِجارَتي أَرْمي،
وَأَعْبُرُ مُسْتَحيلَ المُستَحيلِ إِلَيْكُمُو، وَأَجِيءُ،
أَحْمِلُ نَشْوَةَ اللُّقْيا عَلَى كَف،
وَفي الأُخْرَى جُنُونَ الثَّأْرِ في النَّعْشِ
وَوَائِلُ، مُقْلَتانِ يَنامُ عَبْرَهُما النَّدى،
وَيَفُوحُ مِنْ كَفَّيهِ عِطْرُ الأَرْضْ
هَوَى مُتَمَزِّقَ الكَفَيْنْ
وَآلافُ الحِجارَةِ في يَدَيْهِ تُلاحِقُ الفَجَرَهْ
بِحَقْدِ أَصابِعٍ عَشَرَهْ

Digitized by Birzeit University Library

يَحْزِنُ يَدَيْنِ، جُرْحِ يَدَيْنِ، حِقْدِ يَدَيْنْ
وَلايَدْرُونَ مِنْ أَيْنَ الحِجارَةُ صَوْبَهُمْ تَرْتَدُّ عاصِفَةً،
وَلاأَيْنَ النِّهايَةُ ؟؟؟ أَيْنْ ؟؟؟.

*

هُوَ الْمَوْتُ الَّذي يَأْتي،
هُوَ الغَضَبُ الَّذي يَأْتي،
هُوَ الجُرْحُ الَّذي يَأْتي،
وَيَنْهَضُ مِنْهُ جيلُ الرَّفْضْ

*

يَقُولونَ : احْتِكالُ البَرْقِ فينا فَجَّرَ الثَّوْرَهْ
وَلا عِشْنا إذا لَمْ نَجْعَلِ البَرْقَ الفِلِسْطينيَّ يَنْمو،
وَالصَّهيلَ يَجُوبُ أَرْكانَ الجِهاتِ،
وَمَرَّةً نَأْتي إلَيْهِمْ عَبرَ قَهْقَةِ الرِّياحِ،
وَفي الحِجارَةِ مَرَّةً نَأْتي،
وَآخِرَ مَرَّةٍ نَأْتي طُيوراً مِنْ أَبابيلٍ،
تُلِيلُ جُنونَهُمْ حَتْفاً بِساحِ الْمَوْتِ،
نَجْعَلُهُمْ لآخِرِ مَرَّةٍ يَتَذَوَّقُونَ الجُرْعَةَ المُرَّةْ.

*

شتاء الرياض : ١٨/٢/١٩٨٨ م.

Digitized by Birzeit University Library

شعر

العام المشؤوم

حِمْيَرْ ابراهيم ونوس

★ مضى عامٌ..
وسارَ الآخرُ المشؤومُ يتبَعهُ..
يعيدُ لشعرِكِ المنبوشِ قِصتهُ..
يردُّ لكلِّ ضفيرةٍ تلهو...
على كتفيكِ خائفةً..
ظلامَ الليلِ والحرمانْ!..
وللأجفانِ غضبتها...
وللخدّينِ آلامَ المناديلِ التي غرقت..
بدمعِ السجِّن والقضبان!..
★ مضى عامٌ..
وسارَ الآخرُ المشؤومُ يتبعُهُ..
بلا مَهَلٍ..
فنجلسُ ها هنا نبكي..

Digitized by Birzeit University Library

ويغفو ذُلُنا المغلولُ بالأصفادْ..
ليُخفي صرخةَ الحقِّ..
ويبتدأُ الحديثَ المرَّ عن أخبارِ جارتنا..
يُعيدَ دمارِ منزلها..
وكيف رمى بها اللّصُّ
على الأرضِ الّتي رضعتْ..
من الآلامِ والأحزانْ!!..
★ مضى عامٌ..
ومدَّ اللّصُّ قَبضتَهُ
ومزّقَ ثوبها المنسوجَ..
ـ من أرواحِ من سقطوا!..
دفاعاً عن كرامتها..!!..ـ
ليدخلَ تحتَ طياتِ التّلالِ..
وفي السُّهولِ.. لقرب غاباتِ الحرامِ..
يغوصُ ببحرها العاري..
يمصُّ دماءَها مصّاً..
ويرميها وقد ذَبُلتْ..
إلى السجّانْ..!!..
★ مضى عامٌ..
نُسكّنُ لهَونا لمّا..
نُحسُّ القولَ يسخرُ من حاكايانا..
ونسألُ كلَّ عرّافٍ..
بضربِ الرّملِ..
أو بقراءةِ الفنجانْ..!!..
عن الظُّلمِ الذي أودى بنورِ لحاظِكِ البرّاقْ..
وعن طلقاتِ مطّاطٍ..
وعن دبّابةٍ جاءتْ..
لتدهسَ ثوبكِ المزوقَ..

Digitized by Birzeit University Library

تمضغُ حُرمَةَ الأخلاقْ..
وتقصُرَ حلمةَ النّهدِ الذي ربى
ملايينا من الأبطالْ..
وتهتك عِرضَ أمتنا..!!..
★ مضى عام..
وعربدَ صبرُكَ الدامي..
ومثلُك من يرى في الصّبرِ أُمنيةً..
ترد لكلِّ حامضةٍ..
على أغصانكِ الخضراءَ عزّتها..
وإن طالتْ أيادي الغدرِ رفعتها..
وإن مسّتْ كرامتَها..
وإن هدَمَتْ يُعيد الفجر منزلَها..
- ستبقى كلُّ رافعةٍ يداً للنصرِ صامدةً -
وإن بتروا لها السّاقينْ..
أرى أملاً.. أرى أملاً..
★ مضى عام..
فذا طفلٌ يُحطِّمُ صخرةً عظمى
يُفتتها الى قطعٍ..
أرى أوداجَهُ انتفختْ..
من القهرِ..
- خذوا هذا -..
ويقدفها إلى رأسٍ تخباً من حجارتهِ..
- كفانا من سياساتٍ ملفّقةٍ..
ولن نرضى..
وإن ساومتموا فينا سوى بالنّصرِ..
كفانا من كلامِ الغدرِ والكذبِ..
ومن لهوٍ ومن لعبِ..
لنحمي عرضَ امّتنا..

Digitized by Birzeit University Library

لنرعاها..
لنجمعَ ما تبدّدَ من كرامتها..
ونطلبَ نصرَها الأكبَرْ..
فلولا أرضنا السّمراءُ..
ما دوَّتْ حناجُرنا..
★ مضى عامٌ..
وتدمعُ عينك الثكلى على الطُّرقِ..
لتشهدَ في ثباتِ الطفلِ..
نصراً لاحَ بالأفقِ..
وينهضُ جسمُكِ المرميُّ.. إثرَ خيانةٍ عظمى..
ويشمخُ نهدُكِ الملعوقُ بالغدرِ..
وتنتفضُ العروقُ الداميات بصفحتي وجهِكْ..
يموتُ الصمتُ في شفتيكِ..
يعودُ النّورُ في عينيكِ..
منبعثاً..
وأسمعُ صوتَكِ المشحونِ بالآلامِ منفجراً..
يقولُ لطفلةٍ وقعتْ..
على أشلاءِ والدها..
الذي قتلوهُ بالأمسِ:..
ألا ياطفلتي قومي..
ولا تبكي على ما فاتْ..
فإنَّ الشّمسَ..
مهما بانَ مطلعُها لساطعةٌ..
وأنَّ الظّلمَ لا يبقى..
ـ وأنَّ الذّئبَ ليسَ لهُ..
سوى وَثَباتِ أَجُلِهِ ـ»..

سوريا ـ سلمية

Digitized by Birzeit University Library

قصة

الارض ترفض الجثث

يوسف جاد الحق*

تذكرت جدي الذي توفي منذ سنين عديدة. كان حزيناً مطرق الرأس، لا أدري فهم يفكر، اثر عودتنا، يومئذ، وهو يمسك بيدي، بعد أن شيعنا جثمان «سعدي عوض الله» وواريناه التراب في مقبرة القرية.

ظلت تتردد في أذني، طوال الطريق، كلمات الملقن، التي لم أفقه منها شيئاً. كلُّ ما استطعت ادراكه هو انه كان يوصي الميت بما يجب عليه ان يقول اذا ماجاءه الملكان. ووقع في روعي انه ينبغي ان يكون حذراً في مخاطبتهما، وتصرفاته إزاءهما. ترددت في ذهني أسئلة كثيرة، لم يستطع جدي أو لعله لم يشأ، حين وجهت بعضاً منها اليه، ان يقدم لي تفسيراً مقنعاً لأي منها، وعندما كنت الح في سؤال لا يريد الاجابة عليه، كان ينتهرني بقوله انني صغير بعد، ولا أستطيع بالتالي أن أفقه هذه القضايا في الوقت الراهن. ومن ثم فقد لذت بالصمت، وتابعنا سيرنا عبر الأزقة، الى أن بلغنا

---

* قاص من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

الدار.

غير أن جدي لم يبخل علي بالاجابة، بعد أن استقر به المجلس في ظلال الدالية، التي غطت اكثر من نصف باحة الدار، امام صف طويل من الغرف المطلية باللون الازرق. أجابني جدي حين سألته، لماذا لم يخلعوا عن «سعدي عوض الله» ثيابه الملوثة بالدماء قبيل دفنه. ولماذا لم يكفنوه ايضاً، أسوة بخالتي الحاجة حليمة، يوم توفيت قبل شهرين، اثر مرض لم يعرف كنهه أحد. أجابني جدي، بأن سعدي هذا مات شهيداً، في حين أن خالتي لم تكن كذلك. ثم أضاف، بعد هنيهة صمت، بأن الشهيد لا يغسل ولا يكفنَّ، بل هو يدفن بثيابه التي كان يرتديها عند استشهاده.

أخذت أضرب أخماس في أسداس. هَل كان جدي يعني ما يقول، أم أنه كان يريد إسكاتي وحسب، كعادته كلما أعيته الاجابة على اسئلتي التي لا تنتهي.

كنا ندفن واحداً من شهدائنا، في ذلك الصباح، في مقبرة مخيم جباليا التي اكتظت بقبور الشهداء، في كل اتجاه، وقع عليه بصري، كان قد أصيب بكسر في جمجمته في اليوم السابق، إثر ضربهم له بهراواتهم الى أن وقع أرضاً، فاقد الوعي، والدماء تنزفُ من جراحه، فحمله الرفاق الى مشفى الشفاء في غزة، بيد أنه لم يلبث أن توفي هناك.

تجمعت في الساحة حلقات عديدة من سكان المخيم، الذين جاءوا عام النكبة من قرى الشمال، يسودها الغضب، ويلم بها الحزن، فقوافلُ الشهداء لا تتوقف أبداً. كان الجر مكفهراً حتى أن احداً لا يقول أو يفعل شيئاً، سوى الصمت. وحين ظهر النعش، انطلقت حناجرهم بالهتاف للثورة الفلسطينية والتنديد بالقتلة، ثم اندفعوا نحو النعش، يحيطونه من كل جانب. وتحول الحزن الصامت الى ثورة عارمة تبحث عن هدف تفجر فيه غضبها. أطلت النساء من الشرفات، ثم ما لبث العديد منهن أن خرجن للمشاركة في التظاهرة.

اقتربت مني فتاة، قدرت انها طالبة في التوجيهي. بدا الغضب في عينيها، وطفح وجهها حمرة قانية. ودون ان تقول شيئاً، تفاهمت أعيننا، وكأنما يعرف واحدنا الآخر، منذ زمن. كأنما استرجعنا معاً، كلَّ قضيتنا معهم، في لحظة واحدة. مشت الى جواري، تردد معنا الهتاف.

كان يوماً حاراً من أيام حزيران. ها قد مضت سبعةُ شهور ونحن على هذه الحال. كانت انتفاضتنا السابقة لأيام أو لاسابيع ثم لا تلبث ان تتوقف، ولكنها الآن ماضية بلا توقف، بل هي تتصاعد وتتطور يوماً بعد يوم.

أصحاب الدكاكين القليلة التي فتحت أبوابها ملبية تعليمات اللجان المختصة، يقدمون الماء والمرطبات، عيونهم ملأى بالدموع، بمزيج غريب من الأحاسيس والعواطف المضطربة.

العرق ينساب على جبيني دافئاً، ونسمات باردة تهب لماماً، سرعان ما تخففه، فتبعث في النشاط من جديد. نواصل السير، والهتاف لا ينقطع. الجماهير سيل عرم، كالموج، كالاعصار، بدأ اطلاق الرصاص.. القنابل.. الغاز.. من يقع في ايديهم يكسرون عظامه.. سأحاول الا أكون ذلك الشاب الذي يكسرون عظامه، حتى لو اقتضى ذلك مقاومتهم حتى الموت.. آه لو يعلم أولئك

Digitized by Birzeit University Library

أي نوع من الألم يعاني انسان يرى عظام يديه، وساقيه، وصدره، وجمجمته تتكسر امام عينيه ـ آه.. ويريد بعضهم أن نسالهم..!

تقترب الفتاة مني حيناً، وتبتعد حيناً، مداً وجزراً مع موج البشر المتدفق. تصرخ في اذني في ألم صارخ: اين هو العالم كي يرى ما يجري هنا؟ يصيبهم العمى الآن لانهم «هم» الذين يفعلون بنا هذا..!

انها تردد تماماً ما يدور في ذهني..

يبدو أن الدورية استنجدت بقوات اضافية. سيارات عديدة تقترب، محملة بالجنود، وسيارات جيب، ومصفحات. يزداد هياج الجمهور. تتساقط الحجارة وابلاً غزيراً. يقفز الجنود، يتوزعون في كل اتجاه. كان واضحاً أن البنادق لم تحقق الطمأنينة ولا الثقة بالقدرة على المواجهة.

قالت الفتاة، وكان الموج قد دفعها الى جانبي تماماً:

انظر.. نحن لا نخشى البنادق، وهم يخشون الحجارة..!

سحب الدخان تملأ الساحات والشوارع.. اصوات اطلاق النار تهدر بلا توقف.. الهيلكوبتر تحلق فوق رؤوسنا.. تكاد تلامسها، فيها هي تنادي بمكبرات الصوت، مهددة، متوعدة، ثم معلنة أوامر حظر التجول منذ اللحظة..

تمضي الجموع لا تلوي على شيء، متحدية الموت. قال شاب بجانبي:

ـ اعرف انهم سيطلقون الرصاص في المليان.. نصيب من ترى سيكون اليوم؟

قال آخر من خلفي، بصوت يكاد لا يسمع وسط الضجيج، والهتاف، وأصوات الرصاص والقذائف:

ـ من يضمن ان يعود الى منزله؟

تذكرت كلمات جدي، والشهداء.. تصورت للحظات جموعاً، ملايين تجتاز الحدود من كل اتجاه، متوغلة كالسيل في الارض الحبيبة.. لم نعد نلوذ بالجدران.. زال حاجز الخوف.. الصدور العارية في مواجهة فوهات البنادق تماماً.. لم يعد صوت الرصاص يعني الكثير لنا.. وكما ألغينا وجودهم الذي كان قابعاً في أعماقنا بقي أن نلغي وجودهم فوق أرضنا..

سألت جدي ذات مرة:

وهؤلاء القتلة، حين يموتون أين يذهبون؟ وهل يدفنون في أرضنا شأنهم شأن موتانا..؟

لم يجب جدي يومئذ.. كان ذلك واحداً من الاسئلة التي لم يستطع أو التي لم يشأ الاجابة عليها..

لا أدري لم حزنت يومها. أيدفنون هنا.. ويبقون في أرضنا الى الأبد؟ انتابتني مشاعر غريبة، لكنها حزينة، نحو ارضنا. ساورني الشعور بأنها تكرّه على مالا تريد، كعروس يزوجونها بمن لا تحب..

بدا الأمر لي، آنئذ، معضلة بلا حل..!

Digitized by Birzeit University Library

الفتاة بالقرب مني، وجهها ينضح عرقاً، خصلات شعرها تغطي عينيها. الصخب يعم الأذان. . مزيج من الصياح والهتاف والرصاص والدماء. . يختلط كل اولئك في فوضى نموذجية كأنها النظام المركب في سيمفونية ابدعها عبقري فذ.

صاح رجل الى جواري، وهو يدفعني بكتفه بفعل تلاطم الموج:

ـ كيف لهؤلاء المجانين أن يواصلوا الحياة على هذا النحو هنا؟

هتف آخر:

ـ حمقى. . !

ـ لم لا يرحلون. . ؟ يريحون ويستريحون؟

ـ هذا ما سيفعلونه أخيراً بالتأكيد. . !

ـ اختلفت الامور الان يا صاحبي. .

ـ نعم ـ نعم ـ وانهم ليعانون الآن اكثر مما نعاني نحن. . ؟

ـ معاناتنا في سبيل غاية. . . اما هم. . .

شيء ينساب على وجهي. . دافئاً، لزجاً. . يبرد ثم يسخن. دوار ينتابني بغتة. عجباً، ماذا جرى؟ كنت أحسد نفسي عما قليل. . أتلفت حولي. . اريد ماء. . الدوار يتقمصني من رأسي حتى قدميّ. . الدوار. .

ـ تهرع الفتاة الي. . تبدو كأنها في غلالة من ضباب. . تحتضني: يا خوي. . يا خوي. . يكسر إيديهم. . . تمسح وجهي بشالها برغم الضباب الملح الدهشة والروع في عينيها. . تشدني. . تسحب بي نحو الرصيف. . أيدي عديدة تمتد الي. . تمسك بي. . تحملني. . ابتعد فوق الموج المتلاطم. . ما أرحب الأفق. . ما اكثر الرؤوس المنتشرة أمامي كالحجيج يوم عرفة. . النسائم تترقرق. . رذاذ يتساقط على وجهي وجسدي. .

أطفو. . أطفوا خلال غلالة من ضباب رقيق عطر. . يكتنفني فتيان، بلا عدد، من كل جانب، يرتدون ثياباً تزينها بقع ارجوانية. هذا مجدي صديقي الذي مضى منذ ايام. . هذا خالد. . آه ياخالد. . أهذا انت. . ؟

ـ ها أنذا حي يا صديقي كما ترى. . ألا تصدق. . ؟ هلم معي. . هلم. .

في الفضاء الرحب، بغير حدود، نحلق معاً. . نعلو. . نعلو. . ثم نعود نقترب من الارض. يربني في اماكن متفرقة، على مدى البصر، جثثاً كثيرة جداً، تلفظها الارض. . تقذف بها من جوفها. متآكلة. . بشعة. . ملطخة بالوحل. هذه جثة رجل له عين واحدة. . هذه جثة عجوز دميمة. . . وهذه، وتلك. . بعضها أعرف أصحابها، وبعض لا أعرف. . صوت يدوي داخل رأسي، منطلقاً من جوف الأرض، يتردد له صدى عظيم، يملأ الأرجاء كلها. يقول:

هذه الجثث لا مكان لها عندي. . أرفض أن تنطوي أحشائي على أيٍّ منهم. . أحياءً وأمواتاً سيخرجون. . أنئذٍ يعم السلام. .

Digitized by Birzeit University Library

قصة

درجال

يوسف عزيزي بني طرف

ترجمة : ج . ا

بالرغم من ان الخريف دخل يومه الخامس ، وبدأت فيه ساعات النهار تقصر ، إلا أن الصيف الثقيل لم يكن لديه نية الرحيل ، حزمة من أشعة الشمس الساطعة تلفح وجوههم بشدة .

خرجا من البيت مع طلوع الفجر ، وعند بزوغ اول ضوء ذهبي للشمس ، حلفا ورائهما آخر معالم القرية . الشمس كالقنديل الفضي معلقة بالسماء ، رمال الصحراء الدافئة تداعب راحة اقدامهما الحافية ، وكلما ابتعدا عن محاذاة النهر باتجاه التلال البعيدة الرابضة في قلب الصحراء ، ارتفعت شدة الحرارة ، سارا بتأنٍ ومع كل خطوة يخطوانها نحو الصحراء ، كان يخف اللحن الحديدي المنبعث من صوت « المضخة » ، فيما كانا احياناً لا يجدان شيئاً من « الجلة »* يجمعانه ، واحياناً كانا يجدان الكثير ، بحيث لا تكاد الفرقة تسعهم .

كانت لحميدة ضفيرتان بلون الشفق ، ووجه اسمر ممزوج بالحمرة ، ورغم ان عمرها عشر سنوات ، الا ان الطفة تبدو وكأنها امرأة بالغة ، تذهب كل يوم باكراً لجمع « جلة » البقر والغنم ، التي جففتها اشعة الشمس ، للاستفادة منها كوقود ، كان ذلك عملها الدائم ، وكان يذهب معها

Digitized by Birzeit University Library

في بعض الاحيان اخوها الصغير درجال ، وهذا اليوم كان من تلك الايام .

بعد ان قطعا مسافة ، أحست حميدة ان الطست الذي تحمله على رأسها قد ثقل ، وان التعب اخذ منها مأخذاً كبيراً ، جلست على الارض ، وقام درجال فقدم لها شيئاً من الخبز اليابس كان بحمله في « بقجة » .

ـ كلي فقد نمت الليلة الماضية من شدة التعب ولم تأكلِ شيئاً .

بالكاد استطاعت حميدة ان تضع الطست على الارض ، أسودت عيناها ، احست بمغص شديد إلم بها ، مع ألم شديد في ظهرها ، لم تمضِ لحظات حتى اصفر وجهها ، فقدت الاستقرار ، واحست ان قواها تنهار ، منذ مدة وحميدة تفضل الانزواء ، ولم تتفاعل مع الناس ، فجأة ضاحت باضطراب .

ـ حية ، حية .

قال درجال : ما بك ، ماذا حدث ؟! أين الحية ، ظننت انها طالت رأسك..

وضعت حميدة بأضطراب يدها على بطنها ، درجال يقول الصدق ، هدأت حميدة قليلاً ، ثم تناولت دلو الماء الذي كان معها وشربت منه جرعة ، فتحت « البقجة » وأخرجت قطعة من الخبز اليابس وتناولتها بعد الماء ، وفي اللحظة التي أراد فيها درجال فتح فمه تنهدت حميدة بحسرة وقالت :

ـ لقد ارتحت قليلاً ، لم تصادفني حالة كهذه من قبل ، لم اعد اطيق عمل شيء ، قم لنعد للقرية قبل ان يحل الظهر .

قال درجال : سوف أستريح قليلاً تحت هذه الشجرة الوحيدة ، حتى تنتهي انت من ملء الطست ، وضع كوفيته تحت رأسه ، عيناه السوداوان النافرتان لم تنضويا بعد تحت جفونه ، حتى رأى لفة من الخيوط الحريرية مثل تلك التي كانت امه تجدلها ، تتحرك بسرعة كالكرة المقذوفة ، تصطدم بالحصى وشتلات الشوك ، وتتجه نحوه . صاح بصوت عالٍ ، أحس وكأنه لم يسمع صوته احداً . . ثم صاح بصوت أعلى جميدة أين انتِ .

ليس هناك أحد يعينه ، اضطرب كثيراً ، وبينما كان يفكر من أين اتت لفة الخيوط هذه ، حتى شاهد اللفة قد تبدلت الى حلقات ذات لون فيروزي ، تشبه تلك الحلقات المتدلية على جبهته والمشدودة الى شعر رأسه ، والتي كانوا يستعملونها أيام الطفولة تفادياً للحسد ، ثم سرعان ما تبدلت هذه الحلقات الى عشرات الحلقات الصغيرة والكبيرة والملونة ، حتى ملأت صدر الوادي ، أحمر ، ابيض ، ازرق ، ذهبي ، لازوردي ، تتبدل الحلقات في كل لحظة الى لون معين ، انبهر ، قال عدثاً نفسه ، أرغب بجمع هذه الحلقات ، لأذهب بها ، الى ابناء قريتي ، ومن ثم الى امي لأفرحها ، لكن درجال كان يخشى ان يقترب منها ، في النهاية وبلمح البصر اختفت جميع هذه الالوان ، وتبدلت الى غول أسود طويل ، غول يشبه ظل الانسان في الليل ، وعندما هم الغول بالانقضاض عليه ، انقطعت قيلولته ، فرك عينه ، ووجد نفسه مبللاً بالعرق ، وكأنما استحم في

Digitized by Birzeit University Library

النهار ، صاح بصوت عالٍ :

ـ حميدة ، حميدة ، حميدة ، هل سمعتِ صوته ؟!

ـ أي صوت .

ـ صوت « ارطن طل » الغول الذي لا قرن له ولا ذيل .

ـ نعم أتى صوت ، أظنه آتٍ من تلك المغارة .

ـ أي مغارة .

ـ تلك المغارة التي يتحدث عنها الناس دائماً .

ـ هل نسيت ماذا كانت تقول أمي ، ماذا يوجد تحت تلك التلال الواقعة في الوادي ، أفضل عدم ذكره .

جسّم درجال في مخيلته مغزى كلام اخته وقال :

ـ تقصدين ذلك الذي يشبه « الطن طل » لأنه بلون الليل ، يشبه لون ظله .

ـ نعم يشبهه ، و« الطناطل » يحرسون ذلك المكان في الليل .

سأل درجال بأندهاش .

ـ لم اسمع حتى الآن ان « الطناطل » يصيحون ، وكل ما اعلمه انهم يغيرون اشكالهم الى اشياء مختلفة ، كي يخيفوا الناس .

فكرت حميدة برهة ثم قالت :

ـ يبدو لي هذا غريباً أيضاً ، اطلق صوته الممزوج بنبرات الخوف والشجاعة في الصحراء وقال :

ـ علي بذلك الخيط والابرة لأخيط خصيته .

خيّم عليهما صمت مؤقت ، نظرَ كل منهما الى عيني الآخر بأندهاش ، وكأنهما خائفين من بعضهما ، اقترب درجال من اخته ، بذل جهده كي لا ينظر في عينيها ، خوف دفين ملأ زوايا قلبه ، حميدة أيضاً كانت مترددة .

كانت الصحراء هادئة والسماء سوداء صامتة ، شمس الظهيرة جففت لعابهم ـ، لم يعد يشاهدا بيوت القرية الطينية ، فوق رأسيهما سماء من نار ، وتحت اقدامهما بحر من الحصى والرمل ، هذه هي جهنم التي طالما حدثهم عنها رجل الدين (الملّه) في القرية ، وحذر من عذابها ، فوقهما جهنم وتحتهما جهنم .

فجأة كسرت حميدة الصمت الثقيل وقالت :

ـ أي خطأ ارتكبنا ، لماذا لم نجلب معنا الخيط والأبرة .

قال درجال وهو يحاول ان يتغلب على خوفه :

ـ كان ابي يقول ان « الطن طل » يخاف من أي نوع من المعادن ، تذّكر من الآن وصاعداً ان لا نخرج دون ان تكون معنا وسيلة معدنية .

أكملت كلامها بسرعة وصاحت كالمجانين :

Digitized by Birzeit University Library

ـ انظر ، النار ، النار تأتي من جهة التلال .

قالت حميدة : اظن ان « الطناطل » فكروا اننا نتجه نحو المغارة ، لذلك تبدلوا الى افاعي ، وبدأوا يقذفون النار ، اسرع لنعد للقرية ، لنخبر الآخرين .

عادا ، كان هرجال يركض بخفة وينضح عرقاً ، اما حميدة لم تستطيع الركض بسبب الطست الثقيل الذي كانت تحمله ، وعندما نظرا جيداً وبأمعان شاهدا القرية تلتهما النيران ، السنة اللهب تعانق عنان السماء ، بحنجرة يابسة قالا :

ـ يا إلهي ماذا حدث مرة نشاهد ناراً ومرة ظلالاً ، قال درجال انظري القرية ايضاً تحترق ، البيوت مشتعلة .

قالت حميدة :

ـ عجبي ان النار تأتي من وراء النهر ايضاً ، تصارع « الطناطل » مع بعضهم البعض ، لربما يقصدوننا . ها هم يضربوننا من اليسار واليمين .

اسرعا بخطواتهما ، جسماهما كانا يرتجفان خوفاً ، الغضب والاضطراب سيطر عليهما من الداخل ، وكلما ابتعد درجال عن اخته وقف حتى تلحق به ، خطرت على باله فكرة ، قال لنفسه :

ـ أهي آخر أيام الحياة ؟! ومثلما ما يشاع في القرية ، من المقرر ان يتبدل الناس الى حجارة .

أراد ان يخبر حميدة بذلك ، الا انه تذكر ذلك اليوم ، لقد مضت عليه مدة ، وتذكر ايضاً انه في الليلة السابقة لذلك اليوم ، مخافة ان يتبدلوا الى حجارة ، فانه قد انفق كل ما لديه من نقود .

وقف في ذلك المكان ، اقترب من الارض كثيراً حتى التصقت اذنه بها ، كانت ساخنة ترتعد ، وصلت الى مشامه رائحة الموت والمازوت .

سألت حميدة وهي تلهث :

ـ ماذا سمعت .

ـ شيء يشبه صوت تكسر عظام الموتى .

ـ لنذهب ، ناجى نفسه ، ماء ، نار ، نار، ماء ، مرة نار ، ومرة ماء ، كانا في رمقهما الاخير عندما وصلا القرية ، المضخة كانت متوقفة وتحترق ، لا يمكن تمييز فزاعات مزارع الاطراف عن الجثث البشرية المنتشرة في الحقول ، العصافير ترحل . اسراباً اسراباً ، ليس لديها الفرصة لتأخذ افراخها معها . حميدة ودرجال تعرفا على جثة والدهما من خلال الوشم المنقوش على صدغه الذي حمله كذكرى من أيام الشباب . ولكي ينجوا من النار لجأ الاحياء الى النهر وجلسوا تحت ضفاف كهوفه المرتفعة بأنتظار المعجزة ، الوافدين الذين يملكون المال والجاه والزورق سلموا مصيرهم للنهر ورحلوا ، الا ان غضب وزعل الـ « طناطل » لم ينته بعد .

---

* الجلة : الروث اليابس

Digitized by Birzeit University Library

قصة

التبدل

ماري رشو

ثمة دمعة صافية ذرفتها السماء حين مات «فجر» أعقبها خيط شمس أشرق بهدوء.

ما زال أحمد صامتاً، مشدودا بأسى، يتبادل النظر بين الفينة والاخرى مع سالم، كانا مطرقين، منذ أن وارى التراب جسد صديقيهما وهما يختلسان الأفكار. مرّت اللحظات ثقيلة، تتداخل فيها الذاكرة، الطفولة، الشباب، الموت يوقظهما، ينبههما، يجسّد لهما الاحداث ثانية.

ارتبط فجر في الاذهان بصنع الاحذية، وبحركة يديه الماهرة في التعبير، فقد كان يفتقر الى النطق، أبكم، تميّز بخصوصياته، يجلس قرب المقهى القديم، يبتسم للشمس، يرسل لها القبلات أو يقطّب في يوم غائم، يراقب الاعين، الشفاه التي تنسب أشياءه لعاهته، يضحك بين الدمعة والاخرى، يتفّ الى أعلى، أسفل، ثم يتلمّس بين فرادي الأحذية زجاجة الخمر.

أحبّه أحمد وسالم. أحبّا شجاره، الحوار الابكم معه، ذلك الحديث الذي كان يعني له الحقيقة ولهما الهروب، أحبا لومه، كانا صديقيه، تشدهما جلسته، يتفهمانه، ما يرمي اليه، ما رأى اليوم، ما عرف، هو لا يخيف أحداً، هو لا ينطق، يصور لهما أحداثاً، يمثل التفاصيل، يتغامزان، تلك الليلة التي غيرت في مفاهيمه ورؤاه، تجلّت بعد مقتل أبي محمود محوّلة الشك في عينيه الى يقين، تمرده يعني الكثير، هما صديقان له، هو عالم خاص، تجمعهما به اللغة الخاصة، والنشأة الطويلة، والتبادل المشترك، رفضا أحاديثه، شكوكه، يضحك أحمد، يهرب سالم، يثور هو، يجيبان بإغماضة عين، بأخرى، مشيرين الى الشفاه بالصمت وبالايدي للرفض، حين يؤكد يتبادلان السؤال:

- قل.. ألم تحب يا فجر؟.. ألم تحب؟.

Digitized by Birzeit University Library

بهدأ ثم يثور، وكأنه يبحث للحبيبة عن كمال في شخصه، مؤهلاته،
ـ قلبك كبير يا فجر. قل ! ألست بعاشق ؟
يشرق مبتهجاً، يعود طفلاً، يقضم كعك العيد، يلعب بالكرة، يسابق الريح،
احد ما لم يفكر بولوج أغوار نفسه، لم يستطع صديقاه معرفة ما يعتمل في أعماقه، كان فيما مضى واضح الطفولة، متخطياً عاهته، عرف اللعب، الفرح، قراءة الشفاه، متوغلاً في فهم الحركة، النظرة، الى أن غادره الاطفال الى مدارسهم ليشب مُتقناً صنعة أبيه.

■ ■ ■

قال أحمد:
ـ تباطأ السؤال عن فجر بعد ليلة الحريق، لا أحد ينتظر شفاءه أو يفكر به.
ردّد سالم بأسى:
ـ كان للآخرين حاجة وأقاصيص لهو.
كانا حزينين في ذلك اليوم. فمنذ شجارهما معه قبل سنوات تبدل. وصفهما بالقطط، كان جبلاً يفتقر الى اللفظ، ليخرج الكلمة والفكرة، عانق زجاجة الخمر لأول مرة مترجماً لغته وأقواله اليها، يعرف الجميع أنه حزين، لكن ثورته تلك الليلة عنت لصديقيه الكثير، بقيا متهمين في عينيه، صمتهما ليلة الجريمة يعني المشاركة، هما معاقان، مبتورا اللسان، هو مختلف، حاربه النطق، أعاقه عن مساعدة القانون، هما شاهدان، بأعينهما، بآذانهما، كذّباه، اتهماه، كانا جبانين بينما فجر يثور باحثاً عن جبروت، يرددان بخوف.. ليست مسؤوليتنا بغضب.. فيضحكان، ماذا قال أيضاً ؟.
لأحاديثه لون الليل، فالجميع في سبات، والساحات خالية، والأطفال فرحون باللعبة، والنساء يبحثن عن الرجال، وجمع الشباب يرقص على أنغام نسيان تصدح، وفجر وحيد يمارس الألم وهما يتغابيان
فجر يبكي.. يبكي.. فيضحكان.
بدا أحمد خجلاً !.. هو يحب الحي الذي كان يؤمه مع أطفال العيد، حيث تنتصب الاراجيح. ترتفع الزينة، كان يتأمل حلقات (الدبكة) وصوت المزمار يغوص الى أعماقه، يتآلف مع نبضه، يصبح حساً آخر فيه، تعلّم يومها أن الفرح يقبل مع الصديق، ويخلق في النفوس أملاً متشابهاً، تصرخ الحقيقة هذا اليوم في وجهه، تتهمه، اختلف فجر عنه، كان يعرف المجابهة ويؤمن بالاستمرار، هو عرف الجبن والخوف والتستر، كان فجر مصيباً، هو معاق، هو القاتل، هو دود الحي، يعرف القتلة، عاين تفاصيل الحادثة، لكنهم مجرمون، يخافهم، يخاف الشك في عيونهم، استمرارهم، تؤكد ذلك الاحداث المتكررة، حَلُم فجر بيوم قريب، صوّر رجالاً يعيدون الثقة، يصنعون الفرح، ما زال أحمد يحب الحي، والوجوه الطيبة فيه، والعيون الحالمة، الآملة، وضحكات

Digitized by Birzeit University Library

الاطفال، والترقب، هو مديون بذلك الفرح القديم والطمأنينة، يوقظ فجر في داخله ذلك. يوقظ الحب، الوفاء، يصرّ. المهم أطفال الحي، أطفال أبي محمود.

كان سالم غارقاً في تفكيره أيضاً، وليلة الحريق تنهش الذاكرة، تشهد الذعر والرعب، بينما يقفز فجر الى ألسنة النار مندفعاً لاخمادها بصلابة، تبادل النظر مع أحمد. ماذا قال الآخرون؟! روّاد المقهى؟. مات فجر، ارتاح، لم يولد أبداً، هم في غيبوبة، عاجزون، فجر يتألم، لن يعود.

الأبكم يموت بلا احتفاء. بلا تشييد، ماتت معه الاسرار. من يصنع تمثالاً؟ القتلة يتكاثرون وفجر يوارى التراب.

رفع سالم رأسه فجأة. صرخ بتوسل:

ـ لا لم يمت . .

انتفض أحمد مؤكداً . . قال:

ـ أسمع صوته. حدثه

شمل المكان هدوء، في الاذهان فرح متشابك الأذرع، تتتابع الصور، ذكريات الحي، حلقات الدبكة، أبو محمود، فجر ينعّل الأحذية، يسخر منها، يغضب، فجر مخمور، يبتسم، يتف الى أعلى، أسفل، يتهم، يحصي الاحذية، الرجال، يصرخ بهم.

تابع أحمد قائلاً:

ـ فجر يحكي. لم يمت، هو في الحي

ـ هو غاضب. يعدّ الاخطاء. يحصيها.

ـ يحكي. . يروي. . ينادي. . أعلى. . أعلى

عادا يخطوان بثقة، يتلمّس كل منهما في داخله نبض فجر، غضبه، يدفعهما غليانه، يترجمانه.

كانا صامدين، ينبثق من نظراتهما العزم، وفوق وجهيهما تسامقت بانتصار، بقوة، ملامح الفجر والتبدل.

Digitized by Birzeit University Library

قصة

المحاولة الاخيرة

عامر الديك

دلف نادر الى شوارع المدينة العريضة، نظر حوله، أمعن النظر أكثر ، كانت المسافات تبتعد، والأبنية المرتفعة تفوق ما كان يتصوره، أحس بنفسه يتصاغر أمام حجوم الأشياء وكأنه جرذ صغير يتسكع بين صخور عالية.

تداخلت أمور كثيرة بين أفكاره، أغلقت كل الابواب إلا باب القلق والتعب والخوف اقتحم الضجيج مخيلته، سحقها، تسلل الى باقي أطرافه، ضاقت الجهات، تلفت بذهول حوله، اندفع في شارع آخر، الاشياء نفسها، الأبنية تضحك منه، أحس بشهوة للبكاء، تحامل على نفسه، أغلق جفنيه، حبس الدمعة لتهطل في داخله توقف قليلاً عندما فوجيء بأنه عاد من مكان انطلاقه، الدوامة الفظيعة سيطرت عليه، اقتربت الابنية أكثر، ارتفع الضجيج، أراد أن يتحرك لم يستطع أن يأتي بأي حركة.

Digitized by Birzeit University Library

في تلك اللحظة ارتفعت ضحكة عالية، سيطرت عليها حالة غريبة، مسح وجهه بكفيه، أعاد النظر حوله، عاوده الخوف مرة ثانية، عندما خيم لهدوء بشكل مفاجيء على تلك المدينة.

تضايق كثيراً، المساء يسدل ستارته السوداء، أحس بضيق في نفسه، حاول أن يفتح أزرار قميصه، مسح على رقبته، رفع رأسه الى الاعلى.

- آه.. لو أستطيع أن أمزق كل شيء، كل ما أرتدي وأسير عارياً.

ولكن...

ضحك من نفسه هذه المرة عندما تصور نفسه وهو يسير عارياً من كل الثياب، والناس تنظر اليه بغرابة، إنهم لم يروا رجلاً عارياً من قبل.

جلس على مقعد الانتظار تحت موقف أحد الباصات، أغمض عينيه... قبلته، هذه أول مرة تقبله بهذه الحرارة، ودمعتها الدافئة استقرت على كتفيه، كان حلمه الوحيد أن يؤمن عملاً ما في هذه المدينة، ويعود الى أمه الوحيدة بنقود تكفي لعلاجها.

ارتفع صوت ذلك الصرصور، فتح عينيه، نظر في الساعة، لقد انتصف الليل، أحس بدفء يغمره عندما سمع ذلك الصوت الذي ذكره بليالي القرية أيام زمان، لكنه سمع صوت عواء غريب، من أين تأتي الكلاب الى المدينة؟ لم ير في النهار أي كلب، لعل كلاب المدينة لا تخرج إلا في الليل، لتعيش على الفضلات المرمية فوق أكداس القمامة في الشوارع وأمام الابنية.

نهض، فوجيء بخيال يتحرك على الجدار، تذكر أن أحد المصابيح خلفه وأن هذا الخيال ليس إلا ظله، انتبه الى سؤال غريب.

- لماذا يبدو أصغر من خياله؟ لماذ لا يكون العكس؟

اقترب ليتحسس خياله، يلمسه، لكن الخيال بدأ يتصاغر حتى بدا بحجمه أو أصغر، ضحك ضحكة عالية، وبقي ثابتاً أمامه حتى تلاشى تماماً عندما تسلل الصبح الى شوارع المدينة.

Digitized by Birzeit University Library

حوارات

لقاء مع الاديب المؤرخ مصطفى مراد الدباغ

اعداد : يوسف حداد*

مصطفى مراد الدباغ علم من أعلام فلسطين الاحياء، عمره اثنتان وتسعون سنة. ومع ذلك مازال يعمل. انتج لنا موسوعة «بلادنا فلسطين» في أحد عشر مجلداً، وكتباً عديدة أخرى. ورغم السن وظروف بيروت، فانه مازال يكتب. وتفخر «الكاتب الفلسطيني» أن تقدمه لقرائها في هذه المقابلة التي أعدها المربي الاديب الاستاذ يوسف حداد.

«التحرير»

---

* باحث من فلسطين.

Digitized by Birzeit University Library

قليلون هم الرجال الذين نذروا أنفسهم لخدمة قضايا أمتهم القومية، وعملوا بدأب وصمت سحابة عمرهم، دونما ضجيج غير طامعين بمنصب أو جاه. وكثيرون هم الرجال الذين اتخذوا من العمل الوطني سبيلاً الى الشهرة والمكانة، فتغنوا بالوطنية سعياً وراء مكاسب شخصية، وتمكنوا بذلك من بلوغ مطامعهم الذاتية. وسرعان ما تبدى زيف وطنيتهم. تلك «الوطنية» التي جرت على أمتهم النكبات، وأنزلت بها الويلات، وكان أفدحها نكبة عام ١٩٤٨.

وغني عن القول أن تجار الوطنية في فلسطين، من الوجهاء التقليديين المهتمين بالمصالح الذاتية والعائلية الذين تنافسوا وتخاصموا على الزعامة، قد أجهضوا بمساوماتهم واهتماماتهم الشخصية كل الانتفاضات والثورات التي عمت أرجاء فلسطين، خلال الانتداب البريطاني على فلسطين الذي انما قام لهدف معلن محدد هو انشاء «الوطن القومي اليهودي» وفقاً لتصريح بلفور.

ومن بين القلة النادرة من العصاميين الذي عملوا بعيداً عن الاضواء لقضية أمتهم القومية المركزية، قضية فلسطين، الاديب المؤرخ مصطفى مراد الدباغ الذي عمل بلا كلل في حقل التربية والتعليم في فلسطين، قبل النكبة الكبرى، وفي غيرها من الاقطار العربية بعدها، فكان المربي الملتزم بالتوجيه الوطني والقومي، وكان الاديب المؤرخ صاحب اليد البيضاء في تآليفه التي أصبحت مرجعاً أساسياً لكل باحث ومؤلف، والتي صرف جهداً، هو أشبه بمعجزة، في وضعها، لا لكسب مادي أو لمطمح شخصي، وانما من أجل هدف واضح محدد هو «تخليد عروبة فلسطين»، وجعل هذه العروبة سفراً مقدساً في وجدان الامة يتناقله السلف عن الخلف، حتى يستعاد الوطن المغتصب باستئصال السرطان الاسرائيلي، القاعدة الاستيطانية الامبريالية، من قلب الوطن العربي، فتزول بزواله عوائق الوحدة والتقدم والازدهار، وتمحى ركائز الامبريالية من دنيا العرب.

ولابد لنا من التعرض لمراحل حياته، لكي نتحقق من جليل انجازاته. كانت ولادة المؤرخ الكبير عام ١٨٩٧ في مدينة يافا بفلسطين. العام الذي انعقد فيه المؤتمر الصهيوني في بال. توفي والده، مراد الدباغ، شاباً في الخامسة والثلاثين، وكان عضواً في بلدية يافا. ولقد كان لهذا الاب أثر بارز في تربية ابنه وترغيبه بالعلم، وتوجيهه للتمسك بالقيم والفضائل، والالتزام بالعمل الوطني والقومي. أما أصل الاسرة فيعود الى المغاربة العرب الاندلسيين الذين نزحوا عن الاندلس الى المغرب العربي، ومن المغرب الى فلسطين، والبعض الاخر إلى مختلف البلاد العربية.

تلقى دراسته الاولى في المدرسة الرشيدية بيافا، ومنها انتقل الى المدرسة السلطانية في بيروت لمتابعة تحصيله العلمي. وبعد اكمال دراسته فيها نشبت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فالتحق بالجيش التركي كضابط احتياط، مثله في ذلك مثل غيره من الشباب العرب الذين فرضت عليهم السلطة العثمانية التجنيد الالزامي.

اقتيد مع حاميته العسكرية الى الحجاز، ابان اندلاع الحرب العالمية الاولى ودخول تركيا الحرب الى جانب الدول الاوروبية الوسطى. وعند قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين بن

Digitized by Birzeit University Library

على ضد الاتراك، استسلمت للشريف الحامية التركية التي كان يعمل فيها. وكان مثله مثل الكثيرين من العرب الذين سئموا من مظالم الاتراك، لاسيما بعد خلعهم السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩ الذي رفض عروض هرتزل لتحقيق الحلم الصهيوني، وتولي جماعة «تركيا الفتاة» الحكم، ومحاولة أرباب هذه الجماعة تتريك العرب، واقامة نظام مركزي صارم، وفوق ذلك استجابة جماعة الحكم الجديد للتطلعات الصهيونية. كل ذلك جعله يرى وسواه في ثورة الشريف حسين خشبة خلاص من حكم الاتراك الجائر، وطريقاً لبلوغ الوحدة والاستقلال، والاجهاز على المشروع الصهيوني. لكنه في الوقت نفسه كان يرى ضرورة ابقاء شعرة معاوية قائمة بين العرب والاتراك.

ومن منطلق التحرر والاستقلال بدا متحمساً كسواه من العرب لثورة شريف مكة عند قيامها، ذلك انه وغيره من العرب المتحمسين لهذه الثورة، والذين انضموا اليها، كانوا يجهلون ارتباط الشريف حسين ببريطانيا ولا يعرفون شيئاً عن الاتفاقية المسماة اتفاقية حسين ـ مكماهون.

غير أن اغتباطه بثورة الحسين سرعان ما تلاشى عند نهاية الحرب العالمية الاولى. فلقد تلاشت آماله بالاستقلال والوحدة، نظراً لتنكر بريطانيا لاتفاقية حسين ـ مكماهون، ولتقاسمها مع فرنسا لبلدان المشرق العربي، وتمزيق هذا المشرق الى كيانات متعددة، وفق «اتفاقية سايكس ـ بيكو»، واخضاع هذه الكيانات لانتداب بريطاني ـ فرنسي. وزاد الطين بلة افصاح حكومة لندن عن تصريح بلفور، الصادر في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧، والقاضي باقامة «وطن قومي لليهود» في فلسطين، ومن ثم ادخال هذا التصريح في صك الانتداب الصادر عن عصبة الامم عام ١٩٢٢.

هذه النتائج التي تمخضت عنها الحرب العالمية الأولى، جعلته يرى في ثورة ١٩١٦ مصيبة ما بعدها مصيبة، وزاد في مرارته تغاضي الشريف عن الاتفاقية الانكليزية ـ الفرنسية، رغم تبنيه الاتراك له بعد نشر البلاشفة مضمونها عام ١٩١٧، وقبوله بالتفسير البريطاني الضبابي الغامض لها، واستمراره بالحرب الى جانب الانكليز. والانكى من ذلك سكوته على تصريح بلفور، تم مخادعته للعرب عامة، وللفلسطينيين خاصة في محاولاته تسويغ التصريح، ودعواته للترحيب به.

ان موقف الشريف حسين هذا يثير **الانتباه**، بعد ما تبين له قبل نهاية الحرب خيانة بريطانيا، حليفته، للعرب وللوعود التي قطعتها له بالحرية والاستقلال. فما معنى الاستمرار في محاربة الاتراك بعدما تبين غدر بريطانيا؟!، وما معنى تقديم التضحيات لاستبدال النير التركي بنير غربي أشد ثقلاً وأكثر هولاً؟!.

لقد وجد أديبنا الدباغ أن الامير شكيب ارسلان كان على حق عندما شجب التحالف العربي مع الغرب الاوروبي ضد الاتراك. فتركيا على علاتها أقل خطراً على العرب من الغرب النازع الى الاستعمار والهيمنة والنهب الساعي، الى غرس جسم غريب في قلب الوطن العربي، ليكون رأس حربة له في الجسم العربي.

هكذا ذهبت تضحيات العرب الكبرى في الحرب العالمية الاولى هدراً، وجاءت بعدها الكوارث متلاحقة، من اصطناع كيانات، خاضعة لانتدابات، الى تحقيق الحلم الصهيوني، لا الى انشاء «وطن

Digitized by Birzeit University Library

قومي» في فلسطين فحسب، بل الى اقامة دولة على أرض فلسطين، وتشريد معظم سكانها الشرعيين، والاستيلاء على أراض عربية أخرى، ومع ذلك لم يدرك البعض من العرب بعد الخطر الذي يتهدد مصيرهم، من جراء وجود الواقع الاستعماري الامبريالي الصهيوني.

الرجل في ميدان العمل والنشاط الادبي
بعد الحرب العالمية الاولى

بعيد انتهاء الحرب العالمية الاولى عاد الرجل الى يافا، مسقط رأسه، يحمل في أعماقه مرارة الخيبة من «الثورة العربية الكبرى» ثورة الشريف حسين على الاتراك. واهتم في بدايء الامر بالتفتيش عن عمل، بسبب الضائقة الاقتصادية التي نجمت عن سنوات الحرب الاربع. عمل مدرساً في دائرة المعارف بفلسطين، في مدرسة مدينة يافا الرسمية، وما لبث أن أصبح مديراً لها. ومن الادارة الى التفتيش في حقل دائرة المعارف، حيث عمل أول الامر مساعداً للمفتش العام، ثم أصبح مفتشاً عاماً في هذه الدائرة، حتى نهاية الانتداب عام ١٩٤٨. وكان له في عمله الوظائفي المتنوع دور ايجابي بارز في التربية والتثقيف والتعليم والتوجيه الوطني والقومي.

هذا من ناحية العمل الوظائفي. أما من الناحية الادبية فمن المفيد الاشارة أولاً الى ثقافته. لقد كان عصامياً: اذ تمكن بمطالعاته الواسعة وبجهوزه الشخصية، أن يجمع ثقافة شاملة لا تقاس ازاءها الثقافة التي حظي بها من المدارس التي تعلم فيها.

ومن الجدير ذكره أن مطالعاته الواسعة تركزت بشكل أساسي على المصادر العربية القديمة، وعلى المصادر الاجنبية. ولقد كانت اهتماماته الزائدة على تاريخ العرب بشكل عام، وعلى تاريخ فلسطين بشكل خاص. ساعد، في عمله الثقافي تمكنه من اللغة العربية والتركية، والمامه بالانكليزية والفرنسية. أما الموضوعات التي تناولها في كتاباته، فقد انحصرت في الشأن التاريخي، فلم يكتب في السياسة أو الادب. وتركيزه على الجانب التاريخي كان هادفاً لاستنهاض الهمم، وتعريف الاجيال الطالعة بالتراث القومي، لتقوية المشاعر الوطنية والروح القومية، وفي ذلك اسهام في النهوض والتقدم والتوحد.

وعلى صعيد سياسي لم ينتم الى أي من الاحزاب التي ظهرت على الساحة الفلسطينية، لايمانه بأن هذه الاحزاب انما قامت بها زعامات تقليدية متناحرة، بسبب التنافس على المصالح الشخصية والعائلية، وهي بالتالي زعامات مساومة عملت على اجهاض الانتفاضات والثورات، ولم تفكر في سلوك النضال الثوري بحكم موقعها ومصالحها. ولطالما نشأت المهاترات بين هذه الزعامات حول المناصب والمكاسب. وكان في الغالب اشتغالها بالقضية الوطنية تجارة لمنافع ذاتية لا قومية. ففي حين كانت الانتفاضات والثورات الشعبية المتلاحقة تعم أرجاء فلسطين متصدية بعنف دموي لسلطة الانتداب والصهيونية ببسالة نادرة، كان قادة الاحزاب يهادنون سلطة الانتداب، يسيرون خلف الجماهير خشية أن يفلت زمام القيادة من أيديهم، فيعملون على الالتفاف على كل تحرك، خوفاً من أن تفرز الثورات قيادات شعبية شابة مقاتلة لا

Digitized by Birzeit University Library

مساومة، وفي ذلك قضاء على زعاماتها. فكان من الطبيعي أن لا ينضوي تحت راية هذه الاحزاب.

أما عوامل الاحباط التي أدت الى اجهاض الانتفاضات والثورات الفلسطينية ما بين ١٩٢٠ - ١٩٤٨، فهي برأيه عائدة لاسباب متعددة:

١ - بنية القيادات الفلسطينية الطبقية القائمة على العائلية والعشائرية، اللاهثة وراء المناصب والمنافع الشخصية، والمعتمدة في نهجها سياسة المساومة والمهادنة، والابتعاد عن التعبئة والتنظيم الجماهيري، وولوج طريق الكفاح المسلح. تلك القيادات العاجزة عن فهم طبيعة الصراع الذي يجب أن يتجه نحو سلطة الانتداب، قبل أن يتجه نحو الصهاينة، ذلك أن بريطانيا هي أصل الداء والبلاء. بيد أن تلك القيادات طوال فترة العشرينات من هذا القرن، حصرت عداءها بالصهيونية لا بالانكليز، الذين لولاهم لما كان للصهيونية وجود في فلسطين. صحيح أن بعض تلك القيادات اتصفت بالنزاهة والاستقامة من أمثال موسى كاظم الحسيني، الا أن هذا القائد لم يكن أهلاً للقيادة في تلك المرحلة الحرجة لقصور في رؤاه السياسية. ناهيك بالنزاعات بين الزعامات التي عقبت وفاته.

٢ - والامر الآخر المثير للدهشة أن الجماهير الشعبية التي قامت بالانتفاضات والثورات تلقائياً، ودون رأي القيادات، لم تستطع أن تتخطى تلك القيادات، وتفرز بدلاً منها قيادة شابة واعية مقاتلة لا مهادنة، مناضلة لا مساومة. فلقد بقيت الجماهير لقلة وعيها، وقلة نضجها السياسي، أسيرة لتلك القيادات التقليدية العاجزة والفاشلة، والتي كانت تسير وراء الجماهير لا أمامها.

٣ - سلخ فلسطين عن بقية البلاد الشامية، الامر الذي جعل الفلسطينيين يواجهون في الغالب أعتى قوتين امبرياليتين: السلطة البريطانية والحركة الصهيونية.

٤ - الانظمة العربية التي أقامتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الاولى، والتي كانت حكومة صاحب الجلالة تستعين بها، مستغلة نفوذها، لاجهاض كل انتفاضة وثورة.

٥ - سياسة الانتداب المخادعة حيناً، والسالكة أقسى ضروب القمع الوحشي حيناً آخر، مستظلة بقانون الطوارىء الذي بموجبه، كانت عمليات الاعدام والسجن والنفي وهدم المنازل وفرض الغرامات الجماعية، تجري على قدم وساق.

٦ - النشاط الصهيوني المتنامي النظم المدعوم مادياً من المنظمة الصهيوني العالمية، ومن الجاليات اليهودية في مختلف القارات والمدعوم سياسياً من تلك الجاليات، ومن الدول الغربية عامة، وعلى رأسها بريطانيا التي أمدت الصهاينة بالتصريح المشؤوم، والذي أدخلته في صك الانتداب، وأتاحت للصهاينة فرص الهجرة والاستيطان وتملك الاراضي، وانشاء «الوكالة اليهودية» التي أصبحت حكومة داخل سلطة الانتداب، تشرف على أمور اليهود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

أما بشأن الكارثة الكبرى عام ١٩٤٨، فيرى أنها نتجت عن عوامل متعددة لعلّ أبرزها:

١ - أن الانظمة العربية القائمة آنذاك، لم تكن في مستوى التحدي الصهيوني - الامبريالي. وعدا عن الصراعات فيما بينها، فقد كانت أكثريتها خاضعة للنفوذ البريطاني، وقد اتصف بعضها بضعف الرؤية، والاستهانة بقوة الصهاينة، كما أن البعض لم يعتبر القضية الفلسطينية القضية القومية المركزية، والبعض

Digitized by Birzeit University Library

الاخر كان حديث الاستقلال، لم تتوفر لديه الامكانات المطلوبة. وخلاصة القول انه لم تكن عند هذه الانظمة الجدية اللازمة.

٢ ـ وعلى صعيد شعبي، فقد كان الشعور القومي ضعيفاً، كذلك الوعي، فلم يكن للجماهير العربية دور يذكر في الحرب العربية ـ الاسرائيلية.

٣ ـ تشتت القيادة الفلسطينية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، ووجود أكثرها خارج فلسطين، وتقصيرها في عملية التعبئة والتنظيم والاستعداد للمواجهة المحتومة.

٤ ـ استلاب الجامعة العربية للقرار الفلسطيني السياسي والعسكري، ورغبة بعض أطرافها في قضم جزء من فلسطين.

٥ ـ التآمر الاوربي والامريكي المفضوح، الداعم للصهاينة مادياً وسياسياً.

٦ ـ الاستعداد والتنظيم عند الصهاينة للمواجهة، وأعتماد الارهاب لاجلاء السكان العرب.

سيرة حياته بعد النكبة

رحلت عائلته من يافا الى بيروت، قبل سقوط مدينته بأيدي الصهاينة، وكان أن لحق بها بعد ذلك. وفي العاصمة اللبنانية عمل مفتشاً في مدارس المقاصد الاسلامية لمدة سنة واحدة، ثم انتقل الى عمان، حيث عمل في وزارة المعارف في حقول مختلفة، كان آخرها يعمل كوكيل للوزير، ويشرف بشكل مباشر على برامج وامتحانات الشهادة الثانوية العامة (المتركيوتسن) طوال عشر سنوات. ومن الطرافة أن نذكر سبب اقالته، رغم ابدائه عدم الرغبة في ذلك. فلقد رسبت تلميذة من الاسرة النافذة في امتحانات الشهادة الثانوية، وكان ذلك سبباً لاقصائه عن العمل لعدم أخذه بعين الاعتبار مكانة أسرتها. ومن عمان انتقل إلى قطر، حيث عمل مديراً لادارة معارفها مدة سنة ونصف. وقد آثر هذه المرة الاستقالة بدل الاقالة، لان سير العمل لم يعجبه، ولم يتمكن من القيام بعمله وفق ما يرضي ضميره. ومن قطر عاد الى بيروت لينصرف كلياً الى الكتابة والتأليف، حيث لايزال يطالع ويراجع ويكتب وهو في الثانية والتسعين، غير عابىء بأجواء بيروت المضطربة والمتعبة، فالكتب جليسه المفضل، والكتابة هوايته الفضلى.

ولابد من الاشارة الى آثاره ومؤلفاته، فعدا عما كتبه في الصحف والمجلات العربية، فقد وضع قبل النكبة كتاباً بعنوان «مدرسة القرية». واتجه بعده لعمل موسوعي هادف، فأنجز الجزء الاول من موسوعته «بلادنا فلسطين» في يافا عام ١٩٤٧. أما غرضه من وضع هذا المؤلف الضخم، فهو «ترسيخ عروبة فلسطين بشعبها وتراثه وحضارته ونضالاته، لتبقى حية في ضمير الامة العربية، وفي وجدان الاجيال الطالعة كي تستعاد اليها عروبتها وعزتها وسيادتها». ولقد أتم بقية الاجزاء في بيروت، فأصبحت موسوعة «بلادنا فلسطين»، تتألف من أحد عشر جزءاً ضخماً، أتبعها بمؤلف ضخم آخر هو «فلسطينيات»، ويتألف من ستة مجلدات. ومما لاشك فيه أن هذا الانتاج الموسوعي الضخم أصبح مرجعاً أساسياً لكل باحث ومؤلف، لما يتضمنه من تاريخ حضاري تراثي لكل مدينة وقرية ودسكره في فلسطين منذ فجر

Digitized by Birzeit University Library

التاريخ الى ما بعد اغتصاب فلسطين. وقد أغنى موسوعته بالفهارس والمراجع الاصلية المتعددة، فمن مراجع عربية قديمة الى مراجع أجنبية، الى وثائق الحكومتين التركية والبريطانية.

ومن مؤلفاته الاخرى المطبوعة: «جزيرة العرب، موطن العرب ومهد الاسلام» وقد صدرت الطبعة الاولى في القدس عام ١٩٥٢، والطبعة الثانية في بيروت عام ١٩٦٣. كما صدر له في بيروت «الموجز في تاريخ الدول الاسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين» عام ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

ومن المؤلفات المخطوطة الجاهزة للطبع كتابان: الاول حول الانتفاضة الفلسطينية المعاصرة في غزة والضفة، والثاني «العمارة في الوطن العربي بعد الاسلام». ورغم الشيخوخة وأحوال بيروت المضطربة، لايزال على نشاطه في التأليف. وما أن ينتهي من انجاز كتاب، حتى ينتقل مخططاً لآخر.

ندب نفسه للتربية والتعليم والتوجيه، فكانت له الريادة، وندب نفسه للتأليف الهادف فكان نعم المؤلف. عمل سحابة عمره المديد في هذين الحقلين بصمت، فحق لأمته ولشعبه الفلسطيني الفخار بنضاله الصامت وبنتاجه القيم الوافر، ومن حقه على أمته وشعبه احياء تراثه وكتابه اسمه بماء الذهب في سجل الخالدين.

ـ دراسة أخيرة حول الحاضر العربي والتوقعات المستقبلية ـ

كان من الطبيعي أن يبدي عدم رضاه عن الحاضر العربي، نظراً لما ينتاب العالم العربي من حالة تفكك وتخلف وتبعية، ومن تراجعات وتنازلات بشأن القضية الفلسطينية، ناهيك بافتقاد الديمقراطية والحرية. ومع ذلك فهو يؤمن بأن الشعوب العربية لابد أن تستيقظ من غفلتها، وتسعى لتبديل هذا الواقع القائم، وبناء واقع جديد تسوده الديمقراطية، وتتحقق فيه الوحدة، ويعم فيه التقدم والازدهار.

وفيما يختص بالقضية الفلسطينية رأى أن قيام الثورة الفلسطينية واعتمادها الكفاح المسلح للتحرير، قد أعاد الى أذهان العالم وجود شعب اغتصب حقه بعد أن تناسى المتآمرون وجوده، وتغاضوا عن حقه المسلوب. وفي اعتقاده أن الثورة الفلسطينية أثبتت الشخصية العربية الفلسطينية التي كادت أن تمحى من الذاكرة الدولية، فلم تعد القضية قضية لاجئين، بل قضية مناضلين يكافحون لاسترداد حقهم المغتصب.

وهو يرى أن القضية الفلسطينية هي قضية عربية قومية، وهي ليست بالتالي قضية الفلسطينيين وحدهم، فخطر اسرائيل المستقبلي خطر جسيم يتهدد الوطن العربي بأكمله.

وفي ختام المقابلة التي جرت في الرابع والعشرين من نيسان ١٩٨٩. كان لابد من سؤاله عن الانتفاضة الفلسطينية التي دخلت شهرها السابع عشر، فكان جوابه أنها الرد الثوري المناسب، وسط الانحدار العربي الجارف. وهي تحد حاد للغطرسة الصهيونية التي أعجزتها ثورة الحجارة رغم بربرية القمع، وخفوت الدعم العربي المطلوب، وفي اعتقاده أن هذه الثورة ستوقظ الوطن العربي من سباته، لانها ثورة واعية طليعية، ثورة شعب آمن بحقه، وأيقن أن النضال وحده هو الطريق الى التحرير والنصر.

---

* لم يكن بالمستطاع نقل مجمل افكاره بلغته، نظراً لتأثير الشيخوخة على نطقه وسمعه، فجاءت الصياغة تحمل مجمل افكاره وآرائه وانطباعاته.

Digitized by Birzeit University Library

حوارات

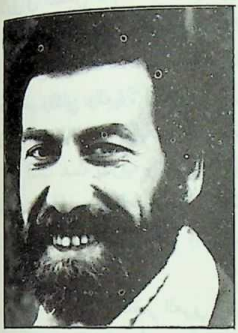

حوار مع الفنان العربي علي فرزات

حاوره : محمد البخاري*

الفنان العربي السوري علي فرزات غني بحق عن التعريف، لم تعتصر حضوره على صفحات الجرائد والمجلات العربية، وانما تجاوزها الى المستوى العالمي، حيث استطاع الحصول على ثلاث جوائز عالمية، تضاف إلى جائزة الوطن العربي لفن الكاريكاتير مناصفة مع الشهيد ناجي العلي، كما اقام ثمانية عشر معرضا فرديا ومشتركا في انحاء مختلفة من العالم.

ولم يكن ذلك ممكنا لو لم تكن رسوماته تتجاوز المناسبة أو الحدث، فلاتقع اسيرة تهريج الشعار السياسي السطحي. وانما تغوص في الاعماق مضيفة على اللوحة بُعداً دراميا يتكشف من خلاله الاجتماعي والسياسي في بعدهما الانساني دون ان تكون الهيمنة لأحدهما. ولعل هذا مايفسر لنا قابلية انتاجها من قبل المتلقي، من خلال استنطاقه هذه الرسوم الخالية دائما من التعليق والمقتصدة في التعبير، مكتفية بالدال الموحي.

ان مايميز علي فرزات هو احساسه الحاد بالاشياء والمواقف، فهو لايرسم فكرة مسبقة، بل يجسد شكلا فنيا حاملا لفكرة غير محدودة، توحي بابعاد لانهائية، عبر نظافة الخط ودقته، وتعبيرية واعية غير مبالغ فيها.

---

* صحافي من موريتانيا.

Digitized by Birzeit University Library

● الاستاذ علي فرزات ليكن مدخلنا للحديث هو السؤال: من أين تستقي رسوماتك، الكاريكاتو

●● من المعروف انه يجب على رسام الكاريكاتير ان يكون نتاجا لبيئته ومحيطه، الذي يعيش ضمنه، حتى لايصبح مخلوقا قادما من كوكب آخر. وبالتالي عندما يعيش الفنان وسط اناس ينتمون جميعا الى هم ومعاناة واحدة، فانه سيعمل على عكس هذه الهموم والمعاناة بشكل صحيح، الأمر الذي يشيد جسرا من المحبة والصداقة بينه وبين الناس، هذا من جهة. أما من جهة أخرى فان حياتنا التي نعيشها على مساحة هذا الوطن مؤلفة من هموم متشابهة، مما يجعل القضايا الفكرية التي يطرحها الرسام تحمل جواز سفر مرور إلى قلوب الآخرين، الشيء الذي يرفع بالفنان إلى المزيد دائما من التحرش بالهياكل الصلبة، التي تضغط على شرايين الانسان، وما أكثر الضغوط التي نعاني منها ضمن مساحة هذا الوطن. فوطننا العربي غني بالتناقضات والمفارقات بكل أشكالها الوطنية والسياسية والاجتماعية الخ.. وهذا مايشكل مناخا خصبا لفن الكاريكاتير الذي يعتمد بشكل اساسي على تلك المسائل. وكثيرا ماتساءل ايها أكثر مبالغة الكاريكاتير الذي نرسمه، أم الواقع الذي نعيشه. ويخيل إلي، أن الواقع اكثر كاريكاتورية من رسومنا. وقد بدأ ينافسنا في هذا المجال. ففي حياتنا مشاهد فيها الكثير من المبالغة الكاريكاتورية التي لايمكن ان يجاريها فعل اي رسام.

فالتناقضات موجودة لدى الانسان بشكل عام.. سواء كانت فردية، أو مجسدة في مجموعات... مثلا أوجدوا الديناميت.. وصاغوا جائزة نوبل..؟!

أفحموا العالم في الحروب.. ورفعوا شعارات السلام والمحبة..؟!

بحث الانسان عن الطاقة.. واصبح يصرخ من وجعها.. ويرفع شعارات العالم النظيف..؟!

وهناك من يبيع الأوطان... في سبيل تحريرها!؟

فأي واقع اكثر كاريكاتورية مما نحن فيه!؟

● التتبع لمعارضك، يلاحظ ان رسوماتك تتجاوز حدود المناسبات التي رسمت فيها، لتغدو لوحات قابلة لاعادة الانتاج من قبل المتلقي في امكنة وأزمنة مختلفة، فأية علاقة تقيمها بين الكاريكاتير والفن التشكيلي؟

●● من خلال تجربتي، عملت على الانتقال بفن الكاريكاتير من حدود الحدث الآني والمسائل التفصيلية، ليصبح يخاطب الناس بلغة تشكيلية ـ كرافيكية وبذهنية تحليلية. فالآن لاتهمني القضايا الآنية التي تطرح على الساحة، فهي بحد ذاتها مجرد تفاصيل تصب في أطر عامة. وهذا مايهمني ويهم الناس. فلايهمني مؤتمر او اجتماع بقدر ماتهمني النتيجة التي تشكل محورا ثابتا للمواطن. هناك ثوابت اساسية تشكل بمجملها البناء الصحيح للمواطن، مثل الكرامة والحرية والديمقراطية، وهي غاية في ذاتها وماتبقى تفاصيل غير مهمة بالنسبة لي. بمعنى آخر عندما اعالج مشكلة اساسية فانني ازرع الديناميت في جذورها، ولا اضعه على السطح، انني شبيه بمن يضع اكثر كمية من البيض في سلة واحدة ويكسرها دفعة واحدة.

Digitized by Birzeit University Library

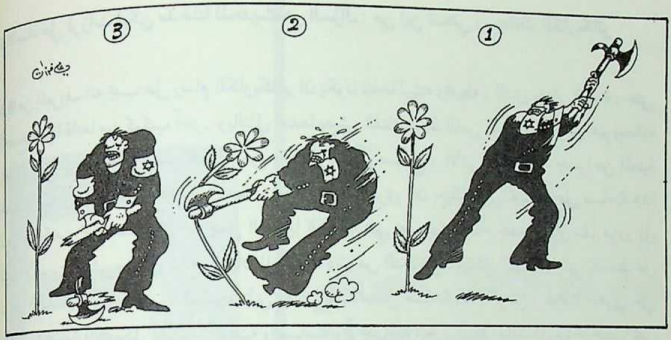

استطيع القول انه اصبح لهذا الفن الفكري الذي اتحدث عنه دورا آخر، غير ماكان معروفا عنه. ذلك انني جعلت منه فنا لايتبع حدثا وامورا تفصيلية متلاحقة، بقدر ماتكون تلك الامور تسير وراء الفكرة، ويكون الكاريكاتير مقياسا ضابطا يقيس تواتر الاحداث، ويصحّحُ من مسارها، فيما لو تجاوزت الابعاد الفكرية الصحيحة التي يضعها رسام الكاريكاتير.

● **يسود لدى جمهور الكاريكاتير اعتقاد مفاده، ان وظيفة الكاركاتير تنحصر في السخرية من واقع، او هجاء وموقف ما، فما رأيك؟**

●● فن الكاريكاتير بطبيعته فنا ساخراً، ولكن علينا ان لانعتقد بان السخرية هي من أجل السخرية، او أن الكاريكاتير يعتمد على وسيلة الاضحاك لمجرد الاضحاك. فتلك وسائل من اجل غاية والغاية غالبا ماتنهي بنا الى مواقع مختلفة تماما عن الشكل الخارجي للكاريكاتير. فربما بعد قراءتك للوحة تجد نفسك محاصرا بألم أو استفزاز ضد مظاهر معينة سلبية، وتنسى الضحكة التي اعترتك في اللحظة الاولى. فالسخرية موظفة وكذلك الضحك ليس هدفا.

طبعا هذا لاينفي وجود اشكال من الكاريكاتير تمارس النكتة من أجل النكتة واللعب بالالفاظ من أجل التسلية والتنفيس الذي يقوم بدور قذر في تسطيحه المشاعر وتحييده للمعاناة. ولكن هذا النمط قد استهلك، ولم يعد مقبولا، لانه غريب عن معاناة الناس، وكأنه هابطا من كوكب آخر، فهو كمن يحاول ان يرفه عن مريض في العناية المشددة، في الحين الذي تضغط قدمه على انبوب الاكسجين.

● **خلو رسومك من التعليق أو الحوار، ألا يشكل تجريدا في اللوحة قد يفضي إلى الغموض؟**

●● **إن** فن الكاريكاتير، كما تعلم، له اساليب واتجاهات مختلفة، سواء على مستوى الشكل او المضمون،

Digitized by Birzeit University Library

وهي تابعة لاشكال ونمطية البيئة في كل منطقة . لذلك كانت محاولتي تأطير هذه التجربة ضمن اطار علمي في اطرح من خلاله ابعاد ذهنية تتناسب والواقع الذي نعيشه، خاصة في هذا الوقت الذي اصبح فيه العقل العربي يقترب من الحالة الجمعية والمباشرة، نتيجة الحياة الاستهلاكية التي شملت كل المواضيع، مما يفود الى ضمور في التفكير والبعد عن التحليل.

واذا عدنا الى التاريخ نجد ان مايميز الانسان، هو المحاولات التحليلية، سواء كانت مجسدة بالحركة، أو بالخط التشكيلي، كما نراها مرسومة على جداران الكهوف، فالذاكرة البصرية لدى الانسان، هي المحرك الاساسي للعقل. اما انا، فأقل مافعلت، هو انني بدأت استفيد من هذه النقطة الهامة، واطرح مواضيعي بلغة تتعامل مع الذاكرة البصرية والتحليل الذهني. فعقل المتلقي عندما يتعود على تحليل لوحة كاريكاتورية ويفك رموزها، ولاأقول طلاسمها، فانه لن يتوقف عند حدود اللوحة فقط، وانما سيطلق العنان لذهنه في كل ماحوله. اما اللغة (الكلام)، فهي اداة متقدمة ومكتسبة وليست وسيلة تعبير لها جذورها البعيدة بُعد الحركة والتشكيل الفني، واللغة بمعنى الكلام لاتخلو من الغموض والابهام، خاصة انها قد افتقدت دلالاتها، واصبحت مضيعة للوقت. . ومناخا خصبا للنصب والاحتيال، فكثيرا ماتضيع اوطان بسبب حرف او فاصلة. ورغم كل هذا تبقى اللغة مجالا لابداع المختصين ممن يتعاملون مع الادب. لكن الرسام الذي يخاطب الآخرين بلغة الخط والمساحة واللون له ادواته الخاصة به، وفي اعتقادي ان اية محاولة لاستخدام العبارة، في لوحة كاريكاتزرية أو غيرها، انما يشكل عجز، او عاهة في قدرة الفنان على توصيل افكاره.

● **اقترن اسمك في ذاكرة القارىء العربي بالشهيد ناجي العلي، خاصة انكم قد حصلتم على جائزة الوطن العربي لرسم الكاريكاتير مناصفة، كما تم انتخابك نائبا له في رئاسة رابطة رسامي الكاريكاتير العرب، ومازلت تقوم بمهامه بعد استشهاده. السؤال ماهو مدى اتفاقك واختلافك معه على صعيد النظرة ومنهج التعامل مع الواقع؟**

●● كان يدور بيني وبين الشهيد ناجي العلي حوار في كل مرة نلتقي فيها، احيانا كنا نتفق، واحيانا كانت تصل الامور الى طريق مسدود.

الخلاف بيننا كان في اغلب الاحيان حول كيفية صياغة المواضيع السياسية، وغيرها في شكل ومضمون معين.

كان رأيه دائما، هو ضرورة ان يصادم الاشياء بخصوصيتها وافراديتها، فيعتقد ان تناول الحالات والتفاصيل الهجومية ستصب في النهاية ضمن اطار الواقع العام لحالة الاستلاب والتمزق، كما ان المصادمة الشخصية وتعجل من اسقاط رموز هذا الواقع، وتجعل بالبحث عن بديل لها. وقد كان لي رأي آخر، هو ضرورة التصادم مع الهيكلية والبناء العام الذي يضم كل الشرائح الفردية، التي كان يتناولها الشهيد ناجي العلي، قناعة مني انني لو تفرغت لتناول هذه الحالات الفردية، لأنتهى العمر بي دون ان انجز مهمتي

Digitized by Birzeit University Library

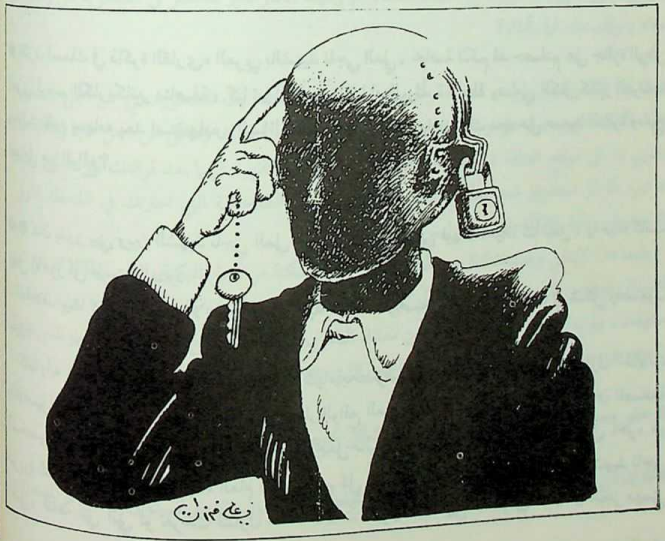

Digitized by Birzeit University Library

كاملة. كما انني لو تعرضت لشخصيه ما وكشفتها، او بالاحرى ادنتها لفعل ما اقترفته بحق هذا الوطن، فمن المؤكد انه سيبقى آخرون خارج حدود هذا التناول، وبالتالي سيخلعون على انفسهم أوسمة حسن السيرة والسلوك.

وبرغم كل الحوارات والخلافات يبقى الشهيد ناجي العلي فنانا له موقفه وموقعه مما يدور حوله. وقد وضع بصماته على العمل والمرحلة، وهذا ماكان يجمع بيننا ونتفق عليه. خاصة اذا ماتذكرنا ان هناك كماً من الرسامين غير محدود، ينفذون فقط اللوحة، ولايقومون بخلقها، ومن ثم لايتركون أي أثر في مشاعر الناس.

● حين يستحضر المر اسماء رسامين الكاريكاتير في الوطن العربي، يجد نفسه امام قلة لاتتجاوز اصابع اليد الواحدة، فمتى يتجاوز فن الكاريكاتير العربي واقع حصره في اشخاص.

●● لابد لي في سياق هذا السؤال من الحديث عن علاقة الكاريكاتير بمسألة الديمقراطية في وطننا العربي. فعلى مساحة هذا الوطن المزروع بالحواجز والالغام، علينا ان نوصل افكارنا الى الآخرين، ومن خلال رسائل تمتلكها الاطراف المعنية بالنقد. وهذا مايقرب الصورة عن معاناة الفنان الحقيقي، والضغوط التي يتحملها. فالرسام الحقيقي يهرب افكاره تهريبا، وتارة يموهها بالرمز، وتارة اخرى بالاسقاطات، سواء كانت تاريخية أم معاصرة. وكثيرا مايضبط متلبسا بافكاره، فاما ان يسفر من بلد معين، أو يودع السجن، وقد ينفى ويقتل. فمن كان قدره ان يكون فنانا حقيقيا ينسجم سلوكه مع فكره، عليه ان يتحمل كل ماذكرت، وهؤلاء قلة في هذا الوطن. ولكن ماهو سر استمرارهم؟ على الفنان لكي يستمر ان يحصن نفسه بحب الناس واقامة علاقة صداقة معهم، والسعي لمخاطبتهم خارج محليته وحدوده الاقليمية، أي ان ينتقل من المحلية الى العالمية، وذلك بتناوله القضايا الجوهرية المشتركة التي تشكل هما انسانيا عاما. ولكي لايكون حديثي في الفراغ، فتجربتي تؤكد ماقوله. ففي كل مكان من العالم اعرض فيه لوحاتي، اجد لغة المشاركة والحوار، قد توحدت فيه. واشعر من خلال ذلك، ان رسومي تمتلك كل جنسيات العالم. وهكذا فلا يمر عام دون استضافتي في معارض فردية أو مشتركة من قبل الجهات المعنية بهذا الفن (الكاريكاتير).

Digitized by Birzeit University Library

شخصيات
فلسطينية

سميرة عزام
١٩٢٧ - ١٩٦٧

نصري الجوزي*

تقول اسمى طوبي الأديبة الفلسطينية التي عاشت في عكا واسهمت اسهاما فعالا في تأسيس الجمعيات النسائية: تقول في كتابها «عبير ومجد»: «وقد احترت في اي باب اسلكها، فسميرة مجموعة من نشاطات إذاعية وأدبية واجتماعية حتى تخالها عشرة في واحدة، وسبحان من وزع النشاط، ولكنني وددت ان اسلكها في باب الأديبات لأنها الصبغة الغالبة عليها».

ويقول: يحيى يخلف الأمين العام السابق لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين مايلي. «لم يظلم كاتب فلسطيني كما ظلمت سميرة عزام، فقلما تتناولها الدراسات الأدبية في الصحف الفلسطينية والعربية... وقلما نسمع عنها في صالونات الأدب، او قاعات المحاضرات، بل قلما نذكرها في جلساتنا العامة والخاصة».

---

* من رواد ادب المسرح الفلسطيني.

Digitized by Birzeit University Library

فهذه الكاتبة الفلسطينية التي توقف قلبها عن الخفقان بعد نكسة حزيران ٦٧، تعتبر مؤسسة للقصة القصيرة الفلسطينية الحديثة. . القصة التي توفرت لها كل الخصائص الفنية والتي حملت هموم مرحلة البحث عن الشخصية الوطنية، المرحلة التي سبقت تأسيس منظمة التحرير وانطلاقة الكفاح المسلح. «بل انها عبرت ثقافيا من خلال قصصها عن الارهاصات التي سبقت ولادة الشخصية الوطنية الفلسطينية من خلال الغاء الضوء الساطع على التجربة الفنية للانسان الفلسطيني الذي يتشبث بأرضه داخل الأرض المحتلة، ويحافظ على هويته في المنافي والشتات، فجسدت الالتزام في الأدب قبل ان تصبح كلمة (التزام) متداولة في قاموس المثقفين العرب».

«إن قصص سميرة عزام قد رسمت لمحات من حياة الانسان الفلسطيني في المنفى، عذاباته وأشواقه احباطاته وتعلقه بالأمل، قسوة الواقع وأحلام الآتي، ورسمت القصص جميعها، بانوراما عريضة لرحلة العذاب والأمل من المنفى إلى الثورة. . وأكدت وهي تستبطن جوهر المستقبل ان الطيور المهاجرة لابد ان تعود».

ويجمع كل من قرأ مجموعات سميرة عزام التي سنأتي على ذكرها فيما بعد واجرى دراسة واقعية لكل ماكتبت، انها هي رائدة القصة الفلسطينية الحديثة، وانها عالجت من جملة ماعالجت في موضوعاتها ومجموعاتها، الحنين الى الديار الفلسطينية والحب المتأجج في صدرها لفلسطين الحبيبة، والحض على اقامة وحدة عربية يقر قرارها، والقيام بالدفاع عن فلسطين، وتراب فلسطين، واسترداد الأرض المغتصبة من الصهاينة الذين شردوا اهلها في مشارق الأرض ومغاربها ومايزالون يبثون الى من يعيش فيها ويحملونهم مالايستطيع حمله الا الجبابرة الأبطال الذين ماانفكوا يدافعون عن الأرض وعن الكرامة العربية، فهي تتخذ من الواقع، من الالتزام، قبل ان تصبح كلمة الالتزام متداولة في قاموس المثقفين العرب كما يقول الاستاذ يحيى يخلف.

اما قلبها الكبير فقد وزعته على ابطال وبطلات قصصها، وشاركتهم تلك العواطف النبيلة التي يحملونها، والطرق المأساوية التي ينجرفون إليها.

حياتها:

هي من مواليد مدينة عكا في فلسطين سنة ١٩٢٧. تلقت دراستها في مدرستها الابتدائية.

مارست مهنة التدريس في مدارس عكا وأخذت تزود نفسها بالمعرفة، وتعكف على القراءة والمطالعة. ارتقت الى وظيفة ناظرة وظلت تؤدي رسالتها لبنات جنسها وترشدهن إلى التحلي بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة وتحضهن على الدرس، إذ ان فلسطين مقبلة على صراع مرير مع الاستعمار البغيض والصهيونية العالمية، وعليهن ان يكنّ قويات ناضجات يجاهدن في سبيل الأرض والوطن. وظلت تنشر مبادئها الانسانية الوطنية بين طالباتها وكذلك في الصحف والمجلات.

درست اللغة الانكليزية على نفسها حتى اتقنتها، وقامت بترجمة العديد من الكتب الانكليزية إلى العربية.

Digitized by Birzeit University Library

بعد عام ١٩٤٨، عام النكبة، هاجرت سميرة إلى العراق وقامت بالتدريس في مدارس الحكومة. عملت سميرة في محطة الشرق الأدنى ورافقت المحطة الى قبرص لتشغل منصب مسؤولة عن البرا النسائية من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٥٦ وفي خلال عملها هذا أذاعت مايقرب من ٣٠٠ حديث في ش الموضوعات. ثم انتقلت بعدها إلى إذاعة العراق فإذاعة الكويت حيث شغلت منصب مراقبة للبرا الأدبية من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٥٩.

وفي عام ١٩٦٣ اعلن «اصدقاء الكتاب» ببيروت عن جوائز لأفضل كتاب قصص فاشتركت سميرة المسابقة ونالت جائزة القصة القصيرة على مجموعتها «الساعة والانسان».

وبعد ذلك التاريخ التحقت سميرة بمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر في بيروت وترجمت العديد الكتب الأميركية؟ والتي سنأتي على ذكر بعضها فيما بعد.

وفي طريقها الى عمان وكانت تقود سيارتها توقف ذلك القلب الكبير الذي حمل مآسي وتشرد ابناء بلدها وفي الثامن من اغسطس سنة ١٩٦٧ وافاها أجلها ونقل جثمانها إلى بيروت.

بعض آراء الأدباء في سميرة عزام

رجاء النقاش.

لقد كانت سميرة عزام افضل كاتبات القصة القصيرة في أدبنا العربي المعاصر منذ ان اشتركت المر العربية في هذا الميدان الفني. . ميدان القصة القصيرة إلى اليوم. إن سميرة هي اميرة كاتبات القصة العرب القصيرة.

اقول هذا الحكم الفني مطمئنا اليه واثقا منه كل الثقة، راضيا بأي مناقشة فنيه او فكرة حوله.

د. محمد يوسف نجم.

حين كانت سميرة تكتب اقاصيص «الظل الكبير» عثرت على البطل الجبار الذي كانت نفسها تتشوق إليه. . وعثرت الأمة العربية على البطل الجبار الذي جسم طموح الأمة وبعث الأمل في نفوس ابنائها وبخاصة ابناء الفردوس المفقود النائمين على حلم العودة. حينئذ بدأت معادلة حياتها تتغير على ضوء بار جديد. أخذت تسقط من مخزونها ذكريات الفتاة الأنثى وشرعت تستوعب في كيانها تجارب البطلة المجاهدة متفيئة ظل البطل الكبير صانع الأمجاد ومجترح المعجزات.

ابو سلمى - عبد الكريم الكرمي.

كان اغزر ينبوع تستقي منه سميرة عزام، هو شعبها ووطنها وقلبها. كانت تعتمد على الشعب والوطن والقلب في صورها، ولم تعتمد كما اعتمد غيرها على اصباغ المراهقة وألوان الجنس. فمسحت الرياح والأمطار صورهن الباهتة وازدادت صورها تألقا وخلودا.

Digitized by Birzeit University Library

لاادري إذا كانت هناك قاصة عربية تجاري سميرة عزام في قصصها الرائقة إشراقة عبارة، وسمو فكره، ووضوح لوحة، ورشاقة ريشة، وحرارة عاطفة، ورهافة إحساس.

د. نادرة جميل السراج.

وقد اجتمعت لسميرة المجالات الثلاثة للمعرفة لدى القاص كما اتفق النقاد والدارسون كما يلي:

١ ـ التجربة المباشرة التي تعطي ابعادا متنوعة توسع افق الكاتب.

٢ ـ القراءة والاطلاع. ففي الكتب انواع مختلفة من الخبرة.

٣ ـ الاتصال بالناس والتحدث اليهم وسماع مشاكلهم.

لقد توفرت لها اسباب كتابة القصة الجيدة منذ البداية، بالاضافة الى مااخذت به نفسها من تنمية موهبتها وصقل معارفها والاستفادة من كل الظروف التي يمكن ان ترتقي بفنها وتمنحه القيمة الحقيقية. وقصص سميرة بصورة عامة تميزت بالواقعية ووصف المشاهد الحية والبعد عن الرمزية ماامكن، وعدم الاستغراق في الخيال مع شيء من الرومانسية المحببة والأناقة اللفظية والبراعة في الوصف والتحليل.

ادفيك جريديني شيبوب.

جعلت سميرة قضية فلسطين محور حياتها وانتاجها الأدبي، جعلتها صليب مدجحا بالشوك حملته السنوات العشرين الماضية.. وعندما كان القنوط يعصف بنا كانت صامدة.. فنلجأ إليها نستمد منها القوة على الصمود في المعركة ومواصلة الجهاد.

د. عيسى الناعوري.

ولعل سميرة عزام خير قاصة عربية تعالج الأقصوصة الأنثوية وتحلل نفسية المرأة وأحاسيسها في اقصوصة فنية بارعة قوية لايجاريها فيها أحد بين كتّاب القصة وكاتباتها في الوطن العربي كله.. ولكن موهبتها لاتقتصر على هذا الجانب النفسي النسوي وحده، لأن القصة عندها حياة، والحياة لاتقتصر على لون واحد او نمط واحد، وسميرة تعرف كيف تتناول المشهد البسيط او العادي الصغير، فتخلق منها اقصوصة فنية من طراز ممتاز.

مختارات من قصصها:

«الساعة والانسان» الصفحة ٢٩ ـ ٣٠

«الساعة لم تبلغ الرابعة صباحا بعد، استيقظت قبل الموعد بعشرين دقيقة. لماذ لا اقول انني لم اذق النوم ليلتئذ؟ تجربة العمل التي تنتظرني في الغد متيسرة، وقفت طويلا قبل ان انام امام البذلتين اللتين املكهما. كان علي ان اختار واحدة.. آثرت الرمادية، فقالت أمي «لقد لبستها حين قابلت المدير. فالبس

Digitized by Birzeit University Library

الأخرى». عجيب كيف تستطيع النساء تذكر هذه التفاصيل. لقد نسيت انا ايهما كنت لابسا.

وربطت الساعة الصغيرة لتطلق رنينها في الرابعة صباحا، فأستيقظ، وخشيت ان تخذلني فجربتها ثلاث مرات، وأوصيت امي بأن توقظني فتطوعت عمتي وأختي وابي جميعا. والواقع انني لم انم تماما تلك الليلة، وحين انبعث الرنين المجلجل من الساعة قفزت من فراشي، وقفزت امي وعمتي وأختي، واحدة لتسخن لي ماء للحلاقة، وعمتي لتعد لي مائدة لم اعرف مثل سخائها قبل ان اصبح موظفاً. اما اختي فشغلت بحذائي تلمعه، كنت أقف في الحمام افرش وجهي برغوة صابون الحلاقة واغطي اضطرابي بلحن اصفره حين سمعنا قرعا متئدا على باب الدار. فسارعت عمتي اليه ثم ترددت إن تذكرت ان نهار الناس لم يبدأ بعد. فسارعت انا، ولكنني حين بلغت الباب، ترددت ايضا، واستجمعت نفسي لأسأل: من. ومن وراء الدفتين الملتحمتين سمعت من يقول «هل استيقظت ياسيد فتحي»؟

ومن مجموعة قصصها، وقصص أخرى اسوق للقارىء نموذجا ثانيا من ادب سميرة وهو بعنوان «في الطريق إلى برك سليمان» الصفحة ٢٤ ـ ٢٥:

«كان يدري انها معركة غير متكافئة، فرصاصاته رغم حقدها لاتفعل اكثر من انها تثير زخة دمار جديدة. وكان يدري ان اطلاقها لون من العبث، فرشاشه ليس اكثر من لعبة اطفال امام القذائف التي تتوالى، ولكنه كان يحاول ان يغطي انسحاب الأهالي الذين بدأوا يغادرون قريتهم منذ العصر، بعد ان علموا ان بقاءهم مع نفاذ الذخيرة ليس الا لعبة انتحارية. وقد تعاهد مع بعض اخوانه من الحرس الوطني عصرا على ان يغطوا هذا الانسحاب بعد ان راجعوا موقفهم، وأدركوا ان ذخيرتهم لاتساعدهم على الصمود سوى ساعات. فقد كانت قريتهم على كتف تلة، يفصل بينها وبين مراكز اليهود على الجبل غربا، واد يخترقه خط حديدي، شاقا اراضي القرية، فاصلا مدرستها وبعض بيوتها عن تجمعها الكثيف على كتف التل. وكان يقصد برصاصاته ورصاصات رفاقه على الأسطحة الأخرى ان يوهم اليهود ان مركزهم الدفاعي معزز ببعض الذخيرة. لعبة قصيرة ستنتهي بعد قليل حين يطلق رصاصاته الاخيرة.

الى ان تقول:

وأطلق رصاصاته الأخيرة.. ورد عليه مدفع مهذار.. أحسّ معه بحجارة بيته تتقلقل.

وألقى بالرشاش.. فهو بعد ان فرغ رصاصه ليس اكثر من لعبة يلهو بها طفل.

كان يرفض ان يصدق ان دوره قد انتهى، فمع الظهر جاءه من يؤكد له ان صناديق ذخيرة في الطريق الى «بتير». وقد فات الظهر والأصيل والمساء دون ان يلوح شيء. وأحس بأن رشاشه الفارغ، خشبته العاجزة، هي المسؤولة عن رجولته المهينة وانه بدون رصاصها سيموت في بيته ميتة فأر».

آثار سميرة القصصية.

١ ـ اشياء صغيرة: دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٤.

٢ ـ الظل الكبير: دار الشرق الجديد ـ بيروت ١٩٥٦.

Digitized by Birzeit University Library

٣ـ وقصص اخرى : دار الطليعة ـ بيروت ١٩٦٠ .
٤ـ الساعة والانسان : المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٣ .
٥ـ العبد من النافذة الغربية : دار العودة ـ بيروت ١٩٧١ .
٦ـ الساعة والانسان ط٢ : دار العودة ـ بيروت ١٩٨٢ .

كتب نرجمتها عن الانكليزية إلى العربية .

١٠ـ جناح النساء بيرل بك .
٢٠ـ ريح الشرق وريح الغرب بيرل بك .
مؤسسة فرانكلين ١٩٥٨ وط٢ ١٩٦٣ .
٣ـ القصة القصيرة : راي . ب . وست ، دار صادر ١٩٦١
٤ـ القصة الاميركية القصيرة : دانفورت روس ، المكتبة الاهلية ١٩٦٢
٥ـ توماس وولف : دار مجلة شعر ١٩٦٢
٦٠ـ اميركي في اوروبا : ودزوارت ، المؤسسة الاهلية ١٩٦٠
٧٠ـ حين فقدنا الرجاء : شتانبك ، دار الطليعة ١٩٦٢
٨ـ عصر البراءة : اديت وارتون ، المؤسسة الوطنية ١٩٦٢
٩٠ـ كيف نكتب للتلفزيون : وليم كوفمان الدار الشرقية ١٩٦٤
١٠ـ كانديرا (مسرحية) : برنارد شو ، دار العلم للملايين ١٩٥٥
١١ـ حكايات الابطال : جمع آلسن هزليتن ، المؤسسة الاهلية ١٩٦٣ .
كما راجعت العديد من الكتب التي ترجمها غيرها .

المقالات والاحاديث

شغلت سميرة منصب مراقبة برنامج المرأة في محطة الشرق الادنى في لبنان وقبرص ، وقد اذاعت من انتاجها الخاص ما يقرب من ٣٠٠ حديث بين السنوات ١٩٤٩ حتى عام ١٩٥٦ . كذلك شغلت منصب مراقبة البرامج الادبية في كل من اذاعة العراق واذاعة الكويت ، وذلك بين السنوات ١٩٥٧ حتى عام ١٩٥٩ .

ويطول الحديث ان نحن عددنا القصص والاحاديث التي نشرتها في مجلات للآداب ، الآديب ، الحياة ، المرأة ، صوت المرأة ، الرحمة ، الاحد ، الرأي الاردنية وغيرها .

كلمة ختامية

تمتاز سميرة عزام بانها :

Digitized by Birzeit University Library

١ ـ عصامية بنت نفسها بنفسها وأقبلت تنهل من العلوم والمعارف والثقافة ما أهلها لان تقدم للفلسطينيين بعامة وللعرب بخاصة ادباً رفيعاً ، واسلوباً علمياً ، وافكاراً نيرة .

٢ ـ رائدة القصة الفلسطينية الحديثة وانها واحدة من اللواتي اغنين الادب العربي والقصة القصيرة، وان انتاجها كاد ان يفوق ما قدمته المرأة العربية في جميع اقطارها .

٣ ـ حبها وعشقها لبلادها فلسطين وتحرقها للعودة الى تلك الديار التي نمت وترعرعت فيها .. هذا الحب والعشق الذي كلفها حياتها، فانهار ذلك القلب الذي كانت تقول عنه في اواخر ايامها :

« انه اضعف من ان يحتملني ، فأنا لا اترفق به ، دائماً احمله اكثر من مستطاعه » .

اقتراح

اما وقد مضى عشرون عاماً على وفاة القاصة الفلسطينية سميرة عزام فماذا قامت به الاتحادات والمنظمات الفلسطينية لاحياء ذكرى تلك الرائدة المجاهدة الشهيدة التي ضحت ماضحت في سبيل فلسطين، وعروبة فلسطين .

الا يجدر بنا ان نقيم لها المهرجانات ونعدد مناقبها وتضحياتها ونعرّف جيل النكبات على رائدة القصة القصيرة والوطنية الصادقة التي تفانت في سبيل بلادها وأمتها .

سميرة عزام جزء من تراث بلادنا ، افلا نحافظ على هذا التراث ونقدره .

٨٧/١٠/٧

Digitized by Birzeit University Library

رسالة من القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني الى ابطال بيسان

عبد المعين الملوحي*

عبد الرحيم بن علي البيساني (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ) ـ ولد في بيسان[1] ثم انتقل الى الاسكندرية ـ ثم الى القاهرة، واتصل بصلاح الدين الايوبي، ـ واصبح ملازماً له في كل غزواته ورحلاته. وكاتب رسائله حتى قال صلاح الدين الايوبي يوماً لقواده: «لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم القاضي الفاضل». وتبلغ رسائله اكثر من مائة مجلد. ولما توفي صلاح الدين رفض القاضي الفاضل، العمل لغيره من السلاطين، وتوفي في القاهرة ودفن في سفح جبل المقطم.

وهذه رسالة من انشائه يتقيد فيها باسلوبه المسجوع المعروف ويلاحظ قارىء الرسالة أن اكثر فقراتها وارده فعلاً في رسائله القديمة مع تعديل طفيف اقتضه طبيعة الموضوع.

* * *

---

[1] اديب من القطر العربي السوري.

Digitized by Birzeit University Library

حيا الله أبنائي أبطال بيسان وثبتهم، وزاد في عدد اخوانهم وأنبتهم، وصبح أعداءهم بالهزيمة او بيتهم، وأرغم أناف الصهاينة وكبتهم

أما بعد

فقد سمعت أنباء البطولات التي طبق العالم ذكرها، ووجب على الاحرار شكرها، ورأيت الناس يقبلون عليكم يهنئونكم، ويسرعون الى رمادكم ويقبلونكم، فتحركت عظامي في قبري، وتوثب قلبي في صدري، وعادت الي أنفاسي، فهرعت الى قلمي وقرطاسي، أحرر لكم هذا الكتاب، ليحمل أشواقي الى الابناء والاحباب.

في بيسان كن مهدي، وموطن أبي وجدي، تركتها، وأنا صغير، حين دخلها الفرنجي المغير، وذهبت الى مصر وأنا طريد حزين، ثم أصبحت كاتباً عند السلطان صلاح الدين..

وما انقضت على اللجوء الا سنوات قلائل، حتى عدت الى بيسان عودة المنتصر المقاتل، هربت منها وحيداً طريداً، وعدت اليها أقود جيوشاً وجنوداً، وهكذا تم على أيدي أبنائها تحريرها، فاستقبلنا حتى التراب، بالترحاب، ورقصت لنا أشجارها وطيورها.

واليوم، وبعد قرون وقرون، يحل فيها محل الفرنجة بنو صهيون، وأنا أبشر منذ اليوم الابناء والاصدقاء، أن الغزاة سينهزمون غداً، كما انهزم أمس الاعداء، وقديماً قالوا:

لابد أن يتبع الحبل الدلاء.

لقد أعاد نفسه التاريخ، ورجع الى فلسطين الصريخ، فكأن علينا أن ندفع دائماً ضريبة ما في بلادنا من خير وجمال، وأن يبتلى بالاشرار والقتلة أهل الكمال.

ومصير الغزاة في كل أرض واحد، يفنى الغزاة ويبقى الشعب هو الخالد.

كان الفرنجة حين هاجموا الشام أمماً وشعوباً كثيرة، ومع ذلك فقد هلكوا وبادوا، وليس الصهاينة الا عصابات صغيرة، فكيف يظفرون بما أرادوا؟.

كنا بالامس طوائف تتنازع، وممالك التصارع، وأنتم اليوم في عهد تسود فيه المفاهيم القومية، وتتضح معالم الامة العربية، وكنا بالامس فئات موزعة شاردة، وأنتم اليوم أمة واحدة.

وأحرى بأمة استطاعت أن تقضي على أعدائها وهم كالجراد عدداً، أن تقضي عليهم وقد أصبحوا طرائق بدداً[1].

لست أريد أن أقوم فيكم مقام الواعظ، فزرقاء اليمامة[2] ترى أبعد مما يرى الجاحظ، ولكني أعرض عليكم ما في التاريخ من عبر، والتاريخ خير من يرشد الاحياء الى أنباء من غبر[3].

والتاريخ يعلمنا أن كل طاغية يظن أنه قادر على اذلال أمة فهو شقي، وأن كل معتد يحسب أنه قادر على استيطان أرض شعب فهو غبي، فأسوار الطغيان مهدومة، وأنياب العنصرية مهتومة[4].

رأيتكم إلى بيسان تسيرون، لا يستقر بكم في أرض قرار، وتمرون بالجبال والاودية مرور النسيم على الاشجار، تحمل أيديكم البنادق العتاق[5]، ويكبو البرق اذا حاول بكم اللحاق، وتطيرون الى أرض أبائكم على جناح الاشواق. تعودون الى ديار تحبون مغناها، وتعرفها قلوبكم، ان لم تعرفها عيونكم، من

Digitized by Birzeit University Library

أدناها الى أقصاها، يسرى حبها في دمائكم سريان الحريق، وتتلهفون الى تحريرها كما يتلهف الى الهواء الغريق.

اذا سار في أرض تعرف تربها
خطاه، وكاد الترب يلثمه لثما

رأيتكم، وقد استوليتم على دار يحل فيها ضبط المخابرات، فأخذتكم الرأفة بالاطفال والامهات، ولو شئتم لم تتركوا واحداً منهم يعبثر ليتحبر منهم، ولكنها المروءة العربية والشهامة الانسانية وشرف المقاتل لا القاتل، دفعتكم الى اطلاق سراحهم، وحفظ أرواحهم، فجاء الصهاينة بالجنود فقتلوا الاطفال اليهود. الا بعداً لليهود كما بعدت ثمود.

ولقد فعلوا مثل ذلك في ترشيحا، حين خلفوا ثلاثين طفلاً ذبيحاً.

ثلاثون طفلاً أهرقتم في سبيل الحفاظ على أرواحهم دماءكم، كأنهم كانوا بناتكم وأبناءكم، فقتلهم اليهود أنفسهم كأنهم لهم أعداء، وذبحهم أباؤهم كأنهم ليس لهم أبناء.

ما أبعد ما بين الثريا والثرى، وما أبعد ما بين من ينحط بوحشيته الى الحضيض ومن يرقى بانسانيته الى الذرى.

قد تقولون: ولكنا ندمنا لانا ما قتلناهم، وكما أحرقونا أحرقناهم.

كلا وألف كلا، فليس الجبان الذي يقتل الاطفال، ويحرق جثث الابطال، للحياة أهلا، ولا مرحبا به ولا بمن يؤيده ولا سهلا. ليس في الجريمة مع التخلي عن الشرف نصر، ولا في الهزيمة مع التحلي بالشرف كسر، والنصر المؤجل مع الحفاظ على الاخلاق، خير وأبقى من النصر المؤقت والاخلاق أخلاق[٧].

هكذا علمنا تراثنا العربي العظيم، وتاريخنا الانساني الكريم.

عندما احتل بيت المقدس الصليبيون، قتلوا منا ثلاثين ألفاً أو يزيدون، فلما حرره صلاح الدين لم يقتل منهم واحداً، ولم يحرم طفلة والدة ولا طفلاً والداً.

من كان فوق محل الشمس موضعه
فليس يرفعه شيء ولا يضع

وأسمعكم تتهامسون، ولكنك مت على فراشك موت العير[٨]، ومتنا فمثلوا بجثثنا وأحرقونا بالزيت الحمر.

وأنا أقول لكم:

وخالد بن الوليد أيضاً مات على فراشه، فهل تجرؤون على الشك في حبه للموت، وعلى نقاشه؟.

ثم ان الشاة اذا ذبحت لا يهمها السلخ، كما لا تؤذي الهررة آساد بلخ[٩].

هذا رمادكم رأيته يملأ الفضاء ريحاً زكية، ويفعم بنار الحقد والثورة النفوس الابية، يمسح به

Digitized by Birzeit University Library

الشيوخ وجوههم، كأنه للوضوء ماء، وتكحل به النساء عيونهن كأنه للرمد شفاء، ويقبله الاطفال كأنه لهم من الجوع غذاء، ومن المرض دواء.

ومن قبل أحرق الهندوس جثمان غاندي، ونثروه في البلاد، فأقبل يستشفي به الناس من كل واد.

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الاكفان ثوب السافيان

والصهاينة حين أعماهم الحقد عليكم، فاحرقوكم، جروا لعنة الدنيا اليهم، وتقديرها اليكم، وها هي ذي الامم المتحدة تتبرأ منهم، وتخلع ثياب النفاق والرياء عنهم، وقد عرفت أنهم قتلة تجردوا من الانسانية، وأصبحوا على الارض بلية.

سبعاً وخمسين سنة قضوها في ظلال الاشتراكية[١٠]، لم ينسوا فيها العنصرية، وظلوا بحنون الى عصور الهمجية، فهم يفرون من البلدان الاشتراكية فرار الوطواط من النسور الى الديجور[١١] وفرار الفأر من أشعة الشمس الى ظلمات الجحور[١٢].

وهم الان وقد فروا من ذلك النظام، الذي لا يبنيه الا الكرام، عادوا يمارسون تجارة الرقيق الابيض ومص دماء الانام.

مساوىء لو قسمن على الغواني لما أمهرن الا بالطلاق

ظاهرة من ظواهر السرطان العدواني عجز عن علاجها الطب الانساني، ولولا أنني قاض لقلت- وأستغفر الله - وكاد يعيا بشفائها الطب الرباني.

يا أبنائي في بيسان.

أنتم نور لا تكنه السدف[١٣]، وذكر خالد لا تحيط به أوراق الصحف، وانما الناس نفوس الديار، وانما مهر الديار أرواح الاحرار.

والى اللقاء في فلسطين وقد تحررت وتحت أشجار الليمون في بيسان وقد نورت، وأخيراً أقول لكم ما قاله ستالين لاجناده وأنصاره، يوم هاجمته النازية في عقر داره:

(من يضحك أخيراً يضحك كثيراً).

وتتعجبون مني: كيف اصبح القاضي الفاضل يساريا؟ واعجبا منكم هل كنت يوم حررت وطني يمينيا؟! عليكم مني ومن نور الدين وصلاح الدين سلام لو مر بالليل لا شرق، أو بالهشيم الرميم[١٤] لا ورق.

ومن عجب أني أحن اليهم وأسأل عنهم من أرى، وهم معي وتطلبهم عيني، وهم في سوادها ويشتافهم قلبي وهم بين أضلعي.

حاشية:

أنا أعلم أنكم تسخرون من أسلوبي وتعدونه من عيوبي، ولكني بهذا الاسلوب المسجوع، سجلت تحرير كل ما في الشام من حصون وربوع.

Digitized by Birzeit University Library

وما أزال أترقب وأرجو أن تسجلوا بأسلوبكم هذا الجديد الحر المبين، أنباء تحرير فلسطين.

من القاهرة مستقر رمسي الى بيسان مسقط رأسي

عبد الرحيم بن علي البيساني

نسخة طبق الاصل دمشق ١٩ - ١١ - ١٩٧٤

الحواشي:

١ - أغلب الرأي أن القاضي الفاضل ولد في بيسان ويقال أنه ولد في عسقلان وكلتا المدينتين في فلسطين، وقيل أن أباه كان قاضياً في بيسان.

٢ - طرائق بدد: أقسام موزعة.

٣ - زرقاء اليمامة: امرأة من اليمامة كانت ترى على بعد ثلاثة أيام.

٤ - عبر: مضى.

٥ - مهتومة: مكسورة.

٦ - العتاق: الكريمة.

٧ - الاخلاق أخلاق: الاخلاق الاولى جمع خلق بضم الخاء واللام، والثانية جمع خلق بفتح الخاء واللام وهي البالي من الثياب.

٨ - العير: الحمار، وهي كلمة لخالد بن الوليد.

٩ - بلخ: مدينة في أقصى اذربيجان مشهورة بالاسود.

١٠ - اشارة الى هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي بعد أن أخفق النظام الاشتراكي الذي استمر سبعاً وخمسين سنة في استئصال جراثيم العدوان واللصوصية والاستعمار والاستثمار من نفوس من هاجروا منهم، ومن لايزالون يرغبون في الهجرة.

١١ - الديجور: الظلام.

١٢ - الجحور: ج جحر، وهو مكان الفئران.

١٣ - السدف: الظلمات.

١٤ - الرميم: اليابس المتناثر.

Digitized by Birzeit University Library

كتب

فيديل كاسترو والدين*

حوارات مع فراي بيتو

ترجمة: حامد جامع

مراجعة: د. عبد الرحمن عبد الله ابراهيم

أصبح من نافل القول، أن الامبريالية العالمية والانظمة الرجعية في بلدان العالم الثالث، تتخذان من سلاح التمسك بأهداب الدين، وسيلة لمقاومة كل تيار تقدمي يسارياً كان أم غير يساري، بغية الحفاظ على المصالح المتبادلة بين الامبريالية العالمية والانظمة الرجعية الدائرة في فلكها، والمسيّرة وفق رغبتها. فالامبريالية العالمية المتمثلة بالأنظمة الرأسمالية الغربية ترى أن مصالحها تقتضي بابقاء بلدان العالم الثالث خاضعة لهيمنتها الاقتصادية والسياسية، وفي ذلك ضمان ازدهارها وتقدمها، وهذا يقضي بمحاربتها لأي منحى يهدف الى الاستقلال الفعلي والاقتصادي والسياسي، معتمدة على الصاق شتى النعوت، من انهم هذا المنحى بالالحاد، وأحياناً بالدكتاتورية وخنق الحريات، وهي التي في ممارساتها انما تعادي القيم الدينية والخلقية، تمارس الالحاد وتتغنى بالدين، لتحارب الديمقراطية وتتغزل بها، تقيم أنظمة عسكرية طاغية وغير عسكرية في شتى أنحاء المعمورة، أنظمة تمارس القهر وخنق الحرية، وافقار الشعوب لتعيش في بذخ زائد على حساب قوت جماهيرها الجائعة المحرومة من العمل والمدرسة والمسكن والطبابة.

ومن هذا المنطلق تلتقي مصالح الامبريالية والأنظمة الرجعية في التصدي بشراسة لكل حركة ثورية في بلد ما تهدف الى التغيير الشامل في البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة، لتحقيق العدالة والمساواة والتنمية، وإزالة حالات القهر والتخلف والعبودية. والتهمة جاهزة لكل حركة ثورية هي الالحاد، وليس ذلك دفاعاً عن محراب الدين وانما عن استمرارية الاوضاع القائمة بغية الاستغلال والنهب والتسلط، وفي ذلك مصدر الشقاء والبؤس اللذين يعاني منهما ملايين الناس في العالم الثالث الرازخ تحت عبء الديون الباهظة للدول الرأسمالية الصناعية والمعيقة لأي تقدم تنموي.

والاديان السماوية دعت بقوة الى قيام الاخوة والعدالة والمساواة والمحبة والتعاطف مع الفقراء، وهذا ما عمل به الرسل والانبياء ودعوا اليه، والحركات الثورية الاصيلة تلتقي الى حد كبير مع مضمون الرسالات

---

* منشورات الحقيقة برس ومجلة قضايا العصر- الطبعة الأولى ١٩٨٨- بيروت - عدن

Digitized by Birzeit University Library

السماوية في جوهر توجهاتها.

إن هذا الكتب - فيديل كاسترو والدين - يوضح من خلال الحوار بين القائد الكوبي والراهب الدومينكاني البرازيلي فراي، بيتو، بتجسيد إمكانية التلاقي بين الماركسية والمسيحية في النضال المشترك، لاشاعة الحق والعدل والمساواة والمحبة، ومحاربة الظلم والقهر والاستغلال من أجل قيام عالم أفضل، يسوده السلام والخير وكرامة الانسان.

إن هذا التلاقي أصبح واقعاً متمثلاً في الحركات الثورية في أميركا اللاتينية وفي جماعات «لاهوت التحرير»، هذه الجماعات التي أعادت الى المسيحية روحها الاصيلة في تناولها المشاكل الانسانية المادية غير مكتفية بالطقوس، وغير مرتبطة بالانظمة الجائرة كما مر ذلك عبر أزمنة مديدة. فالمسيح ثار على الصيارفة، تجار الهيكل، ثار على الاغنياء المستغلين، تعاطف مع الفقراء، دعا الى العدالة والمحبة والمساواة، لم يجالس القادة والزعماء بل الفقراء والتعساء. ومن المفارقات أن تتبدل المواقف، فيصبح رجال الكنيسة حلفاء للزعماء ولارباب الانظمة الجائرة، معادين للفقراء. المسيحيون الاوائل قاوموا الجور والعسف سائرين على خطى معلمهم، فقوبلوا بالاضطهاد والمطاردة، لكنهم في المراحل اللاحقة أصبحوا يقومون بالاضطهاد والمطاردة. ومحاكم التفتيش أكبر دليل على ذلك. وما ظهور جماعات «لاهوت التحرير» في أميركا اللاتينية في الوقت الحاضر، الا الدليل الساطع على العودة الى الينابيع المسيحية الاصيله، والى المنطلقات الثورية القديمة التي حمل المسيح لواءها، وفي ذلك الالتقاء الحميم مع الحركات الثورية دون أي تعارض في الجوهر.

من المقدمة ينتقل الاب فراي بيتو الى عرض الحوار الاول الذي دار بينه وبين القائد الكوبي، الذي أوضح منذ البداية أنه لم يبق على ايمانه بالكنيسة، ولكنه حافظ على مبادىء المسيح الثورية مستشهداً بقوله: «انه لأهون أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن يدخل غني ملكوت السماوات»، موضحاً عداء الامبريالية له واتهامه بالقسوة والتسلط، في حين أن جون كندي الكاثوليكي الذي أشرف وموّل غزو خليج الخنازير يدعي الديمقراطية والتدين، مذكراً بقول الكتاب المقدس: «ايمان بدون أعمال ميت».

وفي الحوار الاول هذا عرض القائد الكوبي لحقائق التقدم الذي حصل في كوبا بعد قيام الثورة ونجاحها، موضحاً ما حققته خطط التنمية الخمسية بالارقام، مشيراً الى اختفاء البطالة، وانعدام البيروقراطية، وزيادة الدخل وتقدم الصناعة والزراعة وتحقيق العدالة والمساواة. وتتزايد فرص التعليم والتخصص وتقديم المنح الدراسية للطلاب في بلدان العالم الثالث.

وفي الحوار الثاني صورة لمراحل حياته، كانت ولادته في ١٣ أغسطس ١٩٢٦ من أسرة فقيرة تعمل بالزراعة في الريف. وقد نشأ في بيئة متدنية تقليدياً تؤمن بالنذور والخرافات والاشباح، وفي حين كانت أمه مؤمنة رغم عدم ذهابها للكنيسة. لأنها في مزرعة لا كنيسة فيها، فقد كان أبوه مهتماً بالسياسة أكثر من اهتمامه بالدين.

هذه النشأة في وسط ديفي فقير، ساده الظلم والاستغلال والاستعباد، خاصة المهاجرين من هايتي، الذين كانوا يعاملون كالحيوانات، أثرت في تفكيره منذ صباه، ورأى في ثورة ١٩٣٣، رغم ايجابياتها في

Digitized by Birzeit University Library

محاربة الظلم والفساد والمطالبة بتأميم الشركات الاجنبية، انها أخطأت في تأميم العمل بابعادها المهاجرين الهايتيين الفقراء، وهو عمل غير انساني.

أما دراسته، فكانت في مدارس دينية، وهي وقف على أولاد الطبقات العليا، وقد عانى من الفقر المادي خلال مراحل الدراسة، كل ذلك كان له تأثير على تفكيره، كما أثّر فيه حرمان الطلاب السود من الدراسة في هافانا، حيث تابع دراسته، ويشير الى أنه خلال دراسته في المدارس الدينية اليسوعية، إلى أنه لم يتقبل الافكار السياسية التي تعلمها آنذاك، ولم يتقبل الطريقة التي كان يدّرس بها الدين، لأنها كانت غير ايجابية، كل شيء كان دوجماتياً، عقائدياً جامداً، يجب أن تؤمن ولو لم تفهم، لا مجال للتفكير، والتركيز محصور في العقاب والثواب، في حين كان يرى ان الايمان هو الاساس، وان شهداء الكنيسة كانوا مدفوعين بشعور الولاء، ليس طمعاً بالثواب، ولا خوفاً من العقاب، فالاستشهاد كان في سبيل المبدأ، في سبيل فكرة.. وفي رأيه أن الاساتذة الرهبان كانوا متعلمين تعليماً رفيعاً، لكنهم متخلفون سياسياً، يعيشون في طروحاتهم، معجبون بفاشية فرانكو. ولقد رأى في الذهاب القسري للقداس يومياً ابان الدراسة عملاً سلبياً ليس فيه ايجابية، فمن تكرار ممل بابتهالات باللاتينية واليونانية لا يعرف المصلون فحواها، يفضي الى ذلك الارهاب الديني بالتشديد على العقاب ونار جهنم.

في بيئته الاولى بالريف نشأ بين اكواخ الفقراء فاستمر تعاطفه معهم، وفي مدارس التعليم الدينية تعرف على تحجر التعليم الديني، وخلال الدراسة مارس الرياضة وصعود الجبال، فتعلم منها العزيمة والانضباط، والاحساس بالعدل والكرامة الشخصية والجرأة والشرف. وفي دراسته الجامعية استقى الفكر الثوري من خلال دراسته للاقتصاد السياسي الرأسمالي، حيث بدأ يكوّن استنتاجات اشتراكية قبل الاطلاع على الماركسية، الى جانب اعجابه بافكار مارتي المناضل في سبيل الاستقلال، كما تأثر بدراسة ابطال تاريخ بلاده. غير انه فيما بعد اطلع على «البيان الشيوعي» وكان له تأثير خاص عليه. ومن خلال هذا البيان اتضح له الانشطار الطبقي، فقراء جياع واغنياء متخمون، وعاودته ذكريات صباه حيث كان يجاور بين مزارع اميركية، اصحابها مستغلون قساة وعمال جياع فقراء يعملون في هذه المزارع، ومن خلال النظرية والمعاينة وانتفاء العدالة والانسانية بدأ باكتساب افكاره الثورية.

في اول عهده بالجامعة انضم الى حزب الشعب الكوبي المعارض، لكن افكاره تطورت لاحقا، وعند تخرجه من الجامعة عام ١٩٥٠ اصبح عنده نظرية ثورية كاملة، ايديولوجية ماركسية ـ لينينية، ولقد امكن التأليف بين افكار مارتي وافكار الماركسية ـ اللينينية في ثورته الظافرة.

الجماهير الكوبية تعاني ماديا ومعنويا الكثير الكثير من البؤس والظلم والاذلال وانعدام العدالة والمساواة، ومع ذلك تعادي الاشتراكية لقلة وعيها، ومن الدعايات المغرضة الداخلية منها والخارجية. حزب الشعب كشف الصلة ولكنه تجاهل السبب، شجّع على السخط من الوضع القائم لكنه لم يلق اللوم على الامبريالية الاميركية لتوهمه ان الولايات المتحدة منحت كوبا الاستقلال، وانه لاغنى لبلاده عن الدخل الناجم من السياحة الاميركية.

كان عليه ان يحطم هذا الوهم، «صنّف كل تلك الافكار بقراءة ودراسة التاريخ الكوبي والشخصية

Digitized by Birzeit University Library

الكوبية وخصائصها المميزة، الى جانب الماركسية». في حزب الشعب ركّز اطروحاته على المشاكل الاجتماعية، من البطالة الى البؤس الى الظلم والفساد السياسي والاستغلال، ومن هذا المنطلق، اتجه لقيادة الشعب في اتجاه ثوري، معتمدا على الجماهير العريضة المقهورة التي لم يستطع الحزب الشيوعي الكوبي اجتذابها، والذي توطدت علاقته به.

بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٥٢ بدأ التفكير بالاستيلاء على السلطة من اجل القيام بالثورة، لاعتقاده ان لاشيء يمكن انجازه بالوسائل السياسية التقليدية المستخدمة آنذاك. صاغ افكار برنامج مونكادا قبل انقلاب باتيستا بوقت طويل، نظّم قاعدة من سكان ضواحي هافانا من الفقراء، وعمل بنشاط بين اعضاء حزب الشعب، وتمتع بتأييد جماهيري عريض في الحزب، وبنظرية ثورية. لكن الوضع تغير بعد الانقلاب واصبح من المحال القيام بذلك البرنامج الاولى. واتجه الاهتمام لدحرجة نظام باتيستا الرجعي. ولتحقيق ذلك بدأ بتنظيم اعضاء مناضلين من شباب حزب الشعب، تنظيم الصفوف ضد الديكتاتورية العسكرية، ثم جاءت مرحلة بدا فيها، ان كل شيء كان باطلا ومستحيلا، ورأى صياغة خطة خاصة لثورته.

.. في الهجوم على ثكنة المونكادا، كانت الصفات المطلوبة، الروح الوطنية، الروح الثورية، لم يكن اهتمامات بالمواضيع الدينية، فقد شارك متدينون في الهجوم، لكن المحاولة فشلت لضياع عنصر المفاجأة، تراجع بعض المهاجمين صوب الجبال والبعض توجه نحو مدينة سانتياجوري كوبا، وجرت اعتقالات وتمت تصفيات على نطاق واسع. اما كاسترو فقد اعتقل مع رفيقين وسيقوا الى السجن في المدينة، وشاءت الصدفة بان نجوا من القتل. ثم كانت محاكمة وسجن عقبها نفي. وتعود عوامل الافراج الى السخط الشعبي على النظام بسبب بشاعة جرائمه، والى دور كبير الاساقفة والى رغبة باتيستا في اجراء انتخابات لاضفاء شرعية على نظامه، وكانت العادة التقليدية في كوبا اصدار عفو عند كل انتخابات، ومن ناحية اخيرة استهانته بمن اطلق سراحهم.

عاد كاسترو الى النضال بحرب عصابات ضد النظام، وانضم الى حلبة النضال الاب ساردينياس للقيام بالمراسيم الدينية، واستطاع القائد الكوبي ان يقيم علاقة متميزة مع المزارعين. وبعد نجاح الثورة اتخذت قرارات ثورية جذرية، صودرت الاختلاسات التي تمت في عهد باتيستا لاقبله، كي لايحدث تصدع في الجبهة الداخلية، تم جرت محاكمات المسؤولين عن التقتيل والتنكيل، اما الخطوة الثالثة فكانت اصلاحات اجتماعية متعددة، نتج عنها تحديات للثورة.

الثورة في مواجهة التحديات

انحصرت التحديات الداخلية للثورة بقطاعين متوقعين، قطاع اصحاب الامتيازات، والقطاع الكنسي وعلى رأسه كبير اساقفة هافانا الوطيد العلاقة بالطاغية المخلوع باتيستا. ومن الطبيعي ان تتحول البرجوازية وطبقة ملاك الاراضي والاثرياء الى المعارضة، فالاصلاحات الاجتماعية تضر بمصالحها، ولقد وقفت هذه المعارضة الى جانب الكنيسة المناوئة للثورة. اما مناوئة الكنيسة للثورة فعائد لطبيعة وبنية هذه المؤسسة. فهي لم تكن شعبية، اذ لاكنائس في الارياف، فلا تعليم ديني لثلثي السكان، التبشير الديني في المدارس

Digitized by Birzeit University Library

الخاصة وهي وقف على ابناء الطبقة الارستقراطية، وصلات الكنائس مقتصرة على الارستقراطيين، ومعظم رجال الدين اجانب رجعيون يمينيون. وهكذا امست المدارس الخاصة اوكارا للمعارضة، فكان لابد من تأميمها، وجعل العلم في متناول كافة طبقات الشعب، وهذا الامر لم يكن ليرضي الكنيسة. ولم تكن المشكلة مع الكنائس بسبب المعتقدات، بل بسبب المؤسسات المعادية للاصلاحات التي قامت بها الثورة.

وخلافا للصراعات التي نشأت بين الثورات السياسية والكنيسة، عقب الثورات الكبرى، كالثورة الفرنسية والثورة البلشفية، فالثورة الكوبية لم تقدم راهبا او اسقفا، للمحاكمة، لم تعامل المعارضة الكنيسة بقسوة. الثورة الكوبية لم تعدم اسيرا، لم تعذب جنديا، الثورة كسبت الجماهير العريضة باخلاقيتها العالية، بحسن تعاملها مع الناس، اذ كيف تمارس القهر والظلم، وقد قامت لتحارب القهر والظلم؟ والجماهير التفت حولها، لترفع عنها كابوس ظغيان باتيستا. الثورة عاملت اعداءها بانسانية وتسامح، فلم تتح مجالا للدعاية المعادية، وقد عجز المعادون عن اثبات اي عمل مشين اقترفته الثورة. الموسرون المتضررون حولوا الدين الى ايديولوجية معادية للثورة التي لم تغلق كنيسة، وكرّست حرية المعتقد الديني في الدستور. غير ان مشاكل الثورة مع الكنيسة اخذت طريقها للحل لاحقا، وباتت الضرورة تقضي بتوثيق العلاقة بين الطرفين. والجدير ذكره ان الحزب الاشتراكي الحاكم لم يسمح بدخول المؤمنين الى صفوفه، لا لانهم مؤمنون كاثوليكيون، بل لان الطبقة الموسرة المعادية للثورة كانت تحتكر الكنيسة، مع ان جميع الكاثوليك لم يكونوا مضادين للثورة، لقد كان قرار الاستبعاد لحفظ نقاوة الحزب وللحؤول دون الاختراقات.

اما التحدي الخارجي فقد تمثل في موقف الولايات المتحدة، اصدرت الثورة القوانين الاشتراكية الاصلاحية، فجاء الرد الاميركي بالمقاطعة والحصار الاقتصادي، وجاء الرد الثوري بتأميم الصناعات التابعة للولايات المتحدة، التي شنت حملة معادية تماما كالحملات التي شنت على المسيحية في الفرون الاولى، وفتحت ابوابها لجميع المعارضين للثورة ثم جرت عملية الغزو الفاشلة في ١٥ ابريل ١٩٦١، والتي كان الفضل في اخفاقها للشعب الداعم لثورته، والملتف حول قيادته، وهكذا صمدت الثورة امام التحديات الكبيرة التي واجهتها في الداخل والخارج بفضل وعيها ونقاوتها وانجازاتها الكبيرة في شتى الميادين لخدمة كافة جماهيرها.

التلاقي بين الكنيسة والثورة

بعد صمود الثورة خفت تدريجيا معارضة الكنيسة لها، وفي لقاء بين قائد الثورة مع اساقفة من الولايات المتحدة، اشار الى جوانب ايجابية للكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتجدة، كاهتمامها بالسلام العالمي، ومعارضتها لسباق التسلح، واهتماماتها بمشاكل الفقراء والتخلف. وفي لقاء مع اساقفة كوبيين، شرح لهم المشاكل المرحلية بين الكنيسة والثورة مع مقارنات بين التطور التاريخي للكنيسة الكاثوليكية، واشار الى قواسم مشتركة بين عقيدة الكنيسة والثورة. فوصايا الله تقريبا مماثلة لوصايانا، لاتسرق، فالثورة تمنع السرقة والرشوة، حب الجار، هذا مانبشر به من خلال مشاعر التضامن الانساني التي هي اساس الاشتراكية والشيوعية. لاتشهد زورا، الكذب والغش اكثر الاشياء التي ننتقدها. لاتشته امرأة قريبك، مبدأنا احترام العائلة، احترام زوجة الرفيق، التضحية والزهد والتواضع، واجبنا ان نضحي وان نجا

Digitized by Birzeit University Library

بتواضع وزهد. لاتنطق باسم الرب الهك باطلا، ريغان ورؤساء حكومات رأسمالية يلفظون اسمه باطلا: السياسات الامبريالية، الفاشية، الاستعمارية غالبا ماتنطق باسم الله.

ووفق منظور كاسترو، هناك فريقان من المؤمنين، مؤمنون حقيقيون وهم من البسطاء الفقراء الذين يجسدون القيم الروحية السماوية، ومؤمنون منافقون يظلمون ويتعسفون طغاة، هم ابعد مايكون عند الفضائل الدينية. انه يرى ان الصنمية موجودة في الظواهر الدينية، فلا يوجد تشابه بين الله الذي يؤمن به عمال ومزارعو اميركا اللاتينية والذي يؤمن به هو، وبين الله الذي يؤمن به ريغان والجنرالات التشيليون القتلة كبينوشت ـ لايبدو انهما واحد. مفهومان مختلفان. المعيار الانجيلي لتحديد مفهوم عدم الصنمية، هو الالتزام بمحبة جارك، وقبل كل شيء الفقراء.

ويمضي القائد الكوبي الى المقارنة بين الاقوال والافعال فيقول: لم اكذب، الادارات الاميركية تمارس الكذب المنظم. بينوشت يزعم انه تقي وقد قتل آلاف. ملايين قتلوا في فيتنام، ليس ذلك مثالا للمسيحية الحقة، تولدت الحرب من اكاذيب، حادث خليج تونكين نسج من التلفيقات.. قدر هائل من النفاق الاميركي باسم الله لارتكاب جرائم..

اما الراهب فراي بيتو المحاور، فيبدي موافقته التامة على اراء كاسترو فيقول:

«انا ايضا انكر الله الذي تنكرونه انتم الماركسيون ـ اللينينيون، واله رأس المال، اله الاستغلال، الاله الذي جاءت البعثات الاسبانية والبرتغالية باسمه الى اميركا اللاتينية وابادت الهنود، الاله الذي يبرر ويضفي قداسة على الروابط بين الكنيسة والدولة البرجوازية، الاله الذي يضفي في زمننا مشروعية على الديكتاتوريات العسكرية مثل ديكتاتورية بينوشت، كما انكر ايضا الاله الذي تنكرونه والذي ادانه ماركس في عصره. ذلك ليس اله الكتاب المقدس، ليس اله يسوع.

معبار الكتاب المقدس الذي ينفذ حقا ارادة الله، تجده في الاصحاح الخامس والعشرين من سفر متى: لاني جعت فاطعمتموني، عطشت فسقيتموني، واليوم يمكن ان نضيف، كنت جاهلا فوهبتموني مدرسة، كنت سقيما فمنحتموني العافية، كنت شريدا فآويتموني، ثم اختتم المسيح القول: «بما فعلتموه باحد اخوتي الاصاغر فبي فعلتم».

يرى بيتو ان سبب الالحاد عائد الى مافعلته الكنيسة في تبريرها للاستغلال على الارض باسم ثواب سماوي. ويمضي الى القول: «اردت ان اقول من وجهة نظر انجيلية، ان المجتمعات الاشتراكية التي تخلق ظروفا معيشية افضل للانسان، تطبق بصورة غير واعية ماندعوه نحن رجال الايمان مشاريع الله في التاريخ».

ازاء هذا التطابق في الرؤية يعدد كاسترو القواسم المشتركة بين الاشتراكية والمسيحية الحقة، والتي سبق له ان عرضها للاساقفة الاميركيين فيقول: ان الكنيسة والماركسية تلتقيان في انتقاد التخمة. الكنيسة ارسلت بعثات تبشيرية الى الامازون للعمل مع الفقراء والمرضى، والثورة الكوبية ارسلت بعثات اممية من المدرسين والاطباء الى اميركا اللاتينية وآسيا وافريقيا لمساعدة الفقراء. الكنيسة قدمت تضحيات، والثورة فعلت كذلك. ان قيام دولة طبقا للتعاليم المسيحية يعني قيام دولة مشابهة للدولة الكوبية. الكنيسة تحارب

Digitized by Birzeit University Library

القمار، وكوبا تفعل الامر نفسه. الكنيسة تعطف على الفقراء، وكوبا البلد الوحيد في اميركا اللاتينية الذي ليس فيه شحاذ واحد، ولا مشرد، ولا جائع، ولا عاطل عن العمل. الكنيسة تحارب تعاطي المخدرات والدعارة والرشوة والفساد والثورة الكوبية تحارب هذه الموبقات..

عرض الاساقفة الاميركيون على كاسترو تقديم مساعدات للكنائس الكوبية فرحّب بالعرض، معتبرا ان الكنائس جزء من التراث الثقافي الكوبي، وامتدح دور الراهبات الانساني في الخدمات الاجتماعية، كما ابدى اعجابه برجال الدين الذين يبدون اهتماماً بمشاكل الفقر في العالم الثالث وفي نضالهم ضد التمييز العنصري. هؤلاء الذين يناضلون ضد الطغيان في تشيلي، وفي السلفادور، والذين لعبوا دورا مميزا ضد الطاغية سوموزا في نيكاراغوا.

ما ابعد الفرق بين موقف وممارسة المسيحيين الحقيقيين، جماعة لاهوت التحرير في اميركا اللاتينية وبين جماعات الكنائس في اوروبا. الجماعة الاولى تحارب الاستغلال والقهر والتمييز العنصري، وبين جماعات الكنائس في اوروبا. الجماعة الاولى تحارب الاستغلال والقهر والتمييز العنصري، والجماعات الثانية كانت سندا لانظمة الاستغلال والاستعباد والتمييز العنصري. جاء الاستعمار الاوروبي بالسيف والصليب الى اميركا اللاتينية فعمل على ابادة الهنود، وجاء الى افريقيا للاستعباد والنهب لا لنشر المسيحية، نقل الافارقة الى اميركا للبيع كبضاعة، ووقفت الكنيسة آنذاك مع الفاتحين، ولم تدن العبودية ولم تتخذ موقفا من الاستغلال والقهر والتقتيل.

لاهوت التحرير اليوم يحارب من اجل العدالة والمساواة والحرية والكرامة الانسانية وهذا ماتفعله الثورة الكوبية، الاهداف مشتركة، وهذا ماحمل الامبرياليون على نعت جماعة لاهوت التحرير بالمخربين تماما كما تلصق هذه التهمة بالثوريين.

واجب الكنيسة في رأي كاسترو، ان تكون على اتصال بالمجتمع، بهمومه ومشاكله، مشاكل الجوع والفقر والاستغلال، الزيادة السكانية والغذاء، الديون الدولية للعالم الثالث، وقد ابدى اعجابا بزيارات البابا لبلدان اميركا اللاتينية، وبتناوله مشاكل الناس الاجتماعية، واحتكاكه المباشر، بالجماهير وهذا تماما مايفعله الثوريون، غير انه ابدى انزعاجا لعدم قيام البابا بزيارة كوبا.

ففي الحوار الرابع اسف القائد الكوبي لمقابلة البابا للكوبيين في ميامي، فهؤلاء اصبحوا اميركيين، وبين هؤلاء من هو خارج عن المثل المسيحية والمثل الثورية، فمنهم المهربون والمقامرون وطغاة العهد السابق والمجرمون. كان يتمنى حضور البابا الى كوبا ليباحثه في امور العالم الثالث ومشاكله من الفقر والديون، وما يعانيه من الاستغلال والتسلط، وفي امور كوبا والحصار والسلام العالمي. وفي اعتقاده انه لاتناقض في حقول النشاط السياسي والثوري بين افكاره وبين اقوال المسيح، فهناك تلاحم، فالمسيح اختار حواريه من الفقراء، وثار على الاغنياء المتسلطين، المسيح ضاعف الارغفة والسمك ليطعم الجياع، وهذا ماتريد الثورة ان تفعله..، موعظة المسيح على الجبل قدمها للفقراء «واعتقد ان ماركس، كان يمكن ان يشترك في الموعظة على الجبل».

الامبراطورية الرومانية اعتبرت المسيحية عقيدة ثورية فلاقى المسيحيون العسف والاضطهاد، وهذا

Digitized by Birzeit University Library

مايلافيه الاشتراكيون من الانظمة الرأسمالية الديمقراطية، اسما في الوقت الحاضر. في روما الامبراطورية سادة وعبيد، واليوم برجوازية وبروليتاريا، ماركس لم يخترع الطبقات، لكنه اكتشف القوانين التي تحكم الصراع بينها، فالصراع من اجل دفع الظلم والكفاح من اجل تحقيق العدالة، ولا تعارض في ذلك بين الكنيسة والماركسية.

ومن العلاقة بين الكنيسة والثورة انتقل الحوار الى موضوع الديمقراطية في كوبا، حيث اقام القائد الكوبي مقارنة بين نظامه والانظمة الرأسمالية التي تدعي زورا انها ديمقراطية فقال: في كوبا قيادة جماعية، اذ لانفرد في القرارات الهامة، والقيادة تمثل اكثرية الشعب، وهي منبثقة من الشعب، فالسلطة سلطة الشعب تعمل لخيره وسعادته دون تمييز، وبسبب ذلك تحظى بتأييد واسع في الاوساط الشعبية. في كوبا لا ملكية فردية واحدة لاجهزة الاعلام، للطلاب، للعمال، للمزارعين، للنساء، للحزب، للدولة، لكل منها مطبوعاته الخاصة، اننا «نطور الديمقراطية بواسطة اساليبنا الخاصة للانتخاب الى مراكز السلطة، وفوق ذلك كله عبر النقد والنقد الذاتي الدائمين والقيادة الجماعية والمشاركة الدائمة للجماهير الشعبية وتأييدها». بينما الانظمة الرأسمالية التي تتغنى بالديمقراطية وبالتمثيل الشعبي، هي ابعد مايكون عن الديمقراطية الحقة، الديمقراطية التي تمثل الاكثرية والتي تعمل لصالح المجتمع باكمله.

ففي الولايات المتحدة فاز ريغان في انتخابات لم يصوت فيها سوى نصف السكان، وقد حظي باصوات ثلاثين بالمائة من المقترعين، وهذا يعني عدم صحة التمثيل، ومع ذلك فهو يتمتع بسلطات لم يتمتع بها الامبراطور الروماني، يمكنه بمفرده ان يشعل حربا نووية. الدول الرأسمالية الغربية التي تسمي نفسها ديمقراطية، موّل حكامها كل شيء «من الذهب الذي اغتصبوه من مستعمراتهم القديمة زائدا عرق ودماء الرجال والنساء والاطفال لتأسيس النظام الرأسمالي الذي جاء الى العالم كما يقول ماركس وهو يقطر بالدم من كل مسامه».

«بماذا تفخر اوروبا عن بقايا الشعوب التي ابادوها تقريبا؟ نحن الذين نحيا في البلدان المنهوبة سابقا ونملك ثرواتنا الان ومستعدون لاقتسامها مع بلدان اخرى، نحن كرسنا حياتنا لخدمة الشعب. حكومات الغرب لاتحوز ثقة اغلبية الشعب». لامعنى للديمقراطية دون التمثيل الشعبي الصحيح، لامعنى لها دون وجود قيم الحرية والاخاء والمساواة، بحيث تمارس فعلا، فلا تبقى شعارات جوفاء والذين ينتقدون النظام الرأسمالي في الغرب لا يجدون منفذا الى اجهزة الاعلام، الحرية للذين يتلاقون مع النظام الرأسمالي فقط.

ومن هذه المقارنات المستفيضة وسواها، خرج الاب بيتو الى الاعجاب ليقول: «انها فضائل مسيحية ايها القائد».

ولدى استفسار الاب عن رأي القائد الكوبي بشأن مشكلة الديون الاجنبية للدول الرأسمالية الصناعية على بلدان العالم الثالث اجاب: «ان ماتعاني منه البلدان المدينة هو اقسى مما عانت منه الشعوب في الازمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينات. يجب والحالة هذه إلغاء تلك الديون والمشاكل التي ادت الى نشوئها، كذلك يجب الغاء النظام الظالم للعلاقات الاقتصادية العالمية، شروط للتجارة غير المتكافئة، الحماية والاغراق، توالد الفوائد، المضاربات النقدية، يجب قيام وحدة داخلية للنضال ووحدة بين بلدان اميركا

Digitized by Birzeit University Library

اللاتينية، ثم الوحدة بين بلدان العالم الثالث لشن معركة الالغاء، يجب التضحية للالغاء، وليس لدفع الديون، القضية حياة او موت. واذا لم تحل مشكلة الديون فستتفجر الثورات. . المهم الخروج من الازمة واقامة نظام اقتصادي جديد وخلق شروط للتنمية، بحيث يتفرد كل بلد باتخاذ قراراته الخاصة وفق ماتقتضيه مصلحته.

وحول قطع حكومة البرازيل العلاقات مع كوبا، اجاب كاسترو: البرازيل هي التي فعلت ذلك عند حدوث الانقلاب العسكري فيها، كان ذلك بقرار اميركي ليس في البرازيل وحدها، فقد شمل القرار دولا اخرى. ومع ذلك صمدت كوبا وحققت تقدما واصبحت تحتل المركز الاول في الرعاية الصحية بالعالم الثالث، وتتخطى كثيرا من الدول الصناعية في هذا المجال وفي مجال التعليم.

اما ختام الحوار فكان حول رأي القائد الكوبي برفيقي نضاله ارنستو تشي جيفارا وكاميلو سوتفيجوس. فعن الأول قال: كان له تكامله السياسي والشخصي الهائل، تكامله الاخلاقي الهائل، كان ذا موهبة رائعة، كان مقداما مقاتلا، «كان واحد من اعظم وجوه هذا الجيل في اميركا اللاتينية، ولا يستطيع احد القول كم كان سيتحقق لو بقي حيا». وعن علاقته به اجاب، انها كانت ممتازة وتابع قائلا: «لو كان تشي كاثوليكيا، لو كان ينتمي للكنيسة، كان على الارجح سيرسم قديسا بسبب جميع فضائله ومزاياه».

اما عن رفيقه الثاني فقال: انه ذكي جريء مقدام، وهو رجل حرب عصابات بالفطرة. وانتهى الحوار بقول الاب: «لنا مقتنع بان كلماتك، آراءك، افكارك وتجربتك ستشجع المتدينين في اسهامهم السياسي وستمنحهم القوة في حياتهم كمسيحيين».

يتميز هذا الحوار باعطاء شهادة حية وصورة واقعية صادقة عن بلد من بلدان العالم الثالث عانى من الفقر والجهل والتخلف والقمع والتبعية، ماتزال تعاني منه اكثرية بلدان العالم الثالث، واستطاعت ثورته ان تتخلص نهائيا من المعاناة المريرة التي تعيشها اكثرية بلدان آسية وافريقيا واميركا اللاتينية، كما استطاع ان يصمد في وجه العاصفة الشرسة التي هبت عليه من الامبريالية الغربية. وتمكنت ثورته خلال سنوات معدودة ان تحقق الكثير الكثير مما تصبو لتحقيقه شعوب العالم الثالث فرمي بالالحاد، وهو السلاح الذي طالما استخدمته الامبريالية والرجعية في محاربة الحركات الثورية الاصلاحية. ولقد تأكد من خلال هذا الحوار، ان ممارسات الثورة الكوبية، وبشهادة راهب كاثوليكي، هي تجسيد للمسيحية الحقة، بتجسيد للديمقراطية الصحيحة، تجسيد للانسانية بكل معانيها، خلافا للانظمة الرأسمالية والرجعية التي تتغنى بالدين ولا تمارس فضائله، تحارب تقدم الشعوب وحريتها وكرامتها باسمه، تنشد شعار الديمقراطية وتفرض هيمنتها السياسية والاقتصادية على الشعوب الفقيرة النامية وتسلط عليها ديكتاتوريات فاشية ممقتة تقدمها، سادة منافذ الحرية عنها.

ان هذا الكتاب يوضح امكانية التلاقي بين الكنيسة والثورة في العمل المشترك لخير الانسانية، وهذا ماتؤمن وتعمل به جماعات «لاهوت التحرير» في اميركا اللاتينية، وفي ذلك دحض لكل المقولات المغرضة التي اشاعها اعداء حريات الشعوب، اعداء الاخاء والتقدم في العالم.

Digitized by Birzeit University Library

كتب

ازمة البرجوازية وطريق الثورة في تونس*

عن دار الزاوية في دمشق، صدر حديثاً كتاب «أزمة البرجوازية وطريق الثورة في تونس» للكاتب والباحث السياسي التونسي توفيق المديني ويقع الكتاب في مئتي صفحة من القطع المتوسط حلل فيه الكاتب على امتداد ستة فصول، ومقدمة الجذور التاريخية لأزمة البرجوازية التونسية بالرغم من التعديلات التي أدخلتها على بنية الاقتصاد والطبقات، وصولاً الى الانفتاح الاقتصادي على الاحتكارات الامبريالية التي أدخلتها في المرحلة الثانية من أزمتها.. عبر تجدد البرجوازية الكمبرادورية..

ودرس الكاتب الازمة الاقتصادية في تونس وثورة الخبز ممهداً لدراسته باضاءة جوانب الازمة الاقتصادية، ومقدماتها التفجيرية.. بحيث وصل الى الاستنتاج بأن انتفاضة تونس لم تكن سوى حرب طبقية صريحة».

---

* الكاتب الفلسطيني.

Digitized by Birzeit University Library

أما في الفصل الثالث، فقد حلل دور الحركة النقابية التونسية عبر تحليله لحركة الاضرابات المطلبية والتلازم بين النضال النقابي، والنضال الديموقراطي في تونس عبر فهم متقدم للاشكاليات القديمة الجديدة في الحركة النقابية التونسية وانتقال الحكومة الى الهجوم الصاعق، لتصفية النقابات.

وحاول الكاتب في الفصل الرابع، أن يضيء الصراع القائم بين النظام البورقيبي والحركة الاسلامية الاصولية، مضيئاً طبيعة هذا الاتجاه وعلاقته بالبورقيبية.. من حيث الاتفاق والصراع..

في الفصل الخامس، والسادس درس الكاتب المديني حدود وآفاق التغيير الذي حدث في تونس، وامكانياته.. وعلى أية قاعدة جاء، في ضوء دور الجيش، وقوى الامن، والحزب الدستوري الحاكم في العملية برمتها..

كما تحدث عن دور الرئيس الجديد، وآلية التغيير، ومستقبل النظام في ظل الشخصية الجديدة القديمة، والدلالات التي تقدمها حركة التغيير، ثم اختتم كتابه بالحديث عن مهام الحركة السياسية الثورية على أساس أن النظام في تونس يعيش أزمة بنيوية ذات طبيعة طبقية هي في منظورها التاريخي أزمة البرجوازية المرتبطة بنيوياً مع الاستعمار القديم الجديد، أي في ظل السيطرة الامبريالية، مما يفرض على الحركة السياسية الثورية في تونس، أن تضطلع بمهماتها في إطار علاقة القطري بالقومي. فهو يرى بأن عملية الثورة على المستوى الاستراتيجي العام في الوطن العربي ترادف عملية تطور الوعي الطبقي، والقومي بمضمونه الاشتراكي العلمي، ولذا فإن تجاوز الازمة المرافقة لذلك تمثل بضرورة تجاوز لازمة الايديولوجية واكتساب الوعي الطبقي الثوري من جانب المناضلين الثوريين التونسيين متمثلة في مشاركتهم الجادة والمسؤولة مع كل الثوريين العرب لتحقيق التعاون والتحالف والاندماج للقوى الثورية العربية، ولدمج ظروف النضال القطري في اطار الالتزام المركزي الاستراتيجي بأولويات وتراتبية أهداف الثورة العربية المتمثلة في تحرير الارض، واقامة سلطة الشعب الديموقراطية وتحقيق الوحدة القومية للأمة في إطار الدولة المركزية الواحدة.

يخصص الكاتب هذا الاستنتاج المحصلة لفهم مسؤول للمقدمات التي أشار اليها في مقدمته بالقول، بأنه «ليس هناك سياسة أشد إنكاراً ونفياً للحركة السياسية للشعب كتلك السياسة من المغالطة المناقضة للحركة التاريخية التي جسدتها الدكتاتورية البورقيبية على نحو مستبد ومتجاهل، أفضى كما يشير المؤلف الى التغيير الذي حدث في خريف ١٩٨٧ داخل السلطة السياسية لمصلحة الخيار الأشد ارتباطاً بالامبريالية الاميركية.

Digitized by Birzeit University Library

مذكرات ابو ابراهيم الكبير

(خليل محمد عيسى)

القائد القسامي لثورة ٣٦ ـ ٣٩

القسم الأول

اعداد وتقديم : نزيه ابو نضال*

هذه المذكرات:

في شهر نيسان من عام ١٩٧٧، اي قبل وفاته بحوالي سنتين، كان ابو ابراهيم الكبير في زيارة لابنه في بغداد، حيث ولدت فكرة اجراء حديث مسجل ومطول مع القائد الفلسطيني الكبير، الذي كان عمره آنذاك يناهز الثمانين عاماً، الا انه كان يحتفظ بصحوه كاملاً، كما كان يمتلك ذاكرة مدهشة تختزن ادق الحوادث والتفاصيل.

استغرق حديث ابو ابراهيم عشرين شريطاً تسجيلياً، ضمنها خلاصة تجربته النضالية الطويلة، وتعتبر بهذا اول مذكرات كاملة لأحد قادة ثورة الـ ٣٦، فالمكتبة الفلسطينية لاتمتلك سوى لقاءات متفرقة مع قادة هذه الثورة، قام بها عدد من الباحثين الفلسطينيين، لعل من ابرزهم حسين عمر حماده، وعلي حسين خلف، وناجي علوش، الذي طلب اجراء هذا الحوار بالاتفاق مع صلاح عيسى نجل القائد ابو ابراهيم.

---

* كاتب وناقد من الاردن، له عدة كتب ودراسات.

Digitized by Birzeit University Library

اما على صعيد المساهمة الكتابية فإن القادة القساميين الذين ينتمون باكثريتهم الساحقة لاصول فلاحية فقيرة، لم يتركوا لنا الا كتاب صبحي ياسين (الثورة العربية الكبرى في فلسطين) ومقالة يتيمة لابراهيم الشيخ خليل الابن الاكبر للقائد ابو ابراهيم. وظلت المذكرات من نصيب السياسيين والمؤرخين الذين لم يلعبوا دوراً مباشراً في الثورة المسلحة (٣٦ ـ ٣٩)، ولاشك ان اهم هذه المذكرات، على قلتها، تلك التي قدمها محمد عزة دروزه تحت عنوان خمسة وتسعون عاماً في الحياة، تسجيلات ومذكرات.

ان مذكرات القائد القسامي ابو ابراهيم الكبير، قد جرت خلال جلسات طويلة ومتفرقة، وتخللتها بعض الاسئلة لاستكمال مختلف جوانب التجربة النضالية الطويلة التي عاشها في فلسطين ثم في بغداد وبرلين وبيروت ودمشق، قبل ان يعود ثانية الى فلسطين في اواسط الاربعينات.

وسيكون من الطبيعي والحال كذلك ان يحدث، خلال عملية تسجيل المذكرات، بعض التكرار او ان تتوه، بفعل عامل الزمن، بعض الوقائع والمعلومات المحتاجة الى تدقيق ومراجعه، ولاننس ان هذه المذكرات، رغم يقظة صاحبها، قد سجلت بعد مرور حوالي نصف قرن، ودون العودة الى الوثائق والكتب التاريخية.

إلا انه رغم ذلك تظل لهذه المذكرات اهمية فائقة، لانها تتناول لاول مرة تجربة الثورة الفلسطينية من الداخل، وعلى لسان واحد من ابرز قادة التنظيم القسامي قبل ان يتولى دوره في قيادة ثورة الـ ٣٦، ثم في معارك الجهاد المقدس مع جيش الانقاذ عام ١٩٤٧.

من هنا فإن هذه المذكرات تشكل مصدراً اساسياً لاغنى عنه لكل من اراد قراءة او كتابة التاريخ الفلسطيني المعاصر في الفترة الحاسمة الممتدة من اواخر العشرينات الى اواخر الابعينات.

■ ■

البدايات

«تحتفظ ذاكرة ابو ابراهيم بتفاصيل وافية عن مرحلة الطفولة والنشأة الأولى. والمعلومات المتوفرة لدينا تشير الى أنه ينتمي الى عائلة فلاحية من قرية المزرعة الشرقية قضاء رام الله، وان ولادته كانت في اواخر القرن التاسع عشر وعن هذه الفترة يقول ابو ابراهيم:

«قبل ان اولد رحل والدي الى حيفا حيث ولدت، وبقينا فيها الى ان بلغت سن الخامسة او السادسة، ثم غادرناها الى قرية شفا عمرو، حيث عمل أخي الاكبر في الزراعة، اما الوالد فقد كان مسناً، ولايستطيع العمل، وكان على أخي ان يعيل اسرته المكونة من والديه واخته وأخيه الاصغر الذي هو أنا.

وبقينا في شفا عمرو الى ان نشبت الحرب العالمية الاولى، وفي تلك الفترة اتهم أخي بحادث (دهس)؟ وأدخل السجن، وبقي فيه طوال سنوات الحرب، وبات مطلوباً مني ان أعمل لاعالة العائلة. وكان سني

Digitized by Birzeit University Library

وقتها بين عشرة وخمس عشرة سنة.

صرت اشتغل بدوري في الفلاحة، وبقيت على هذه الحال حتى سنة ١٩٢٠، حيث انتقلت الى حيفا.

في تلك السنوات، وانا أعمل في شفا عمرو، حدث وباء كبير عام ١٩١٧، ومات كثير من الناس، ونفق الطرش والدواب من الأمراض وقلة المراعي، وحدثت مجاعة كبيرة، وصار الناس يقومون بعمليات التسليح والسطو فقتل كثيرون واخذت الوحوش تهاجم القرى.

في تلك السنوات القاسية والصعبة، توفي الوالد، وتوفيت الوالدة، والاخت تزوجت، وبعد انتهاء الحرب خرج أخي من السجن، فانتقلت الى حيفا، حيث اشتغلت موظفاً في البريد».

في تلك الاثناء كانت مدينة حيفا مركز استقطاب هائل لعشرات الالوف من فقراء الريف الفلسطيني، وقد شكل هؤلاء حزام بؤس حول ميناء حيفا، على شكل بيوت من الصفيح والتنك، والى هؤلاء اشار الشيخ القسام بعد ذلك بأنهم هم مادة الثورة المسلحة، اما الاغنياء فان اكثر مايفعلونه هو السير في مظاهرة مصرح بها من قبل الانتداب البريطاني.

في مدينة حيفا فتح ابو ابراهيم دكاناً لبيع الصوف والخيش، بعد ان ترك عمله في البريد.

وهناك بدأ وعيه السياسي والوطني بالتبلور، ذلك ان المدينة قد شكلت معتركاً يومياً للصراع مع المهاجرين اليهود وحماتهم البريطانيين.

ان مرتكز الوعي النضالي لدى الجماهير الفلاحية التي ينتمي ابو ابراهيم اليها يستند الى مسلمة بسيطة عبر عنها بالقول: «كانت عندي فكرة قديمة بأن واجب كل عربي ومسلم ان يدافع عن وطنه وعن امته، فلما صارت الثورة السورية ضد الفرنسيين قررت المشاركة فيها، فلا فرق عندي، سوريا ولبنان كلها بلاد عربية.

في حيفا كان عندنا شيخ من سوريا اسمه اسماعيل النقشبندي، اصله كردي، وهو عالم دارس في الأزهر، ذهبت اليه وعرضت رغبتي في الانضمام للثورة السورية، فسألني هل عندك اولاد؟ قلت عندي عائلة واولاد. فسألني: هل لدى عائلتك دخل يكفيهم في غيابك؟ قلت: ماعندهم دخل إلا شغلي في البريد، قال لي: لايجوز ان تترك العائلة، حتى لو اردت ان تذهب الى الجهاد، وتشترك في الثورة السورية» هذا الحس العروبي والجهادي عبر عنه ابو ابراهيم مرة ثانية عند حديثه عن الشيخ عز الدين القسام، ودوره القيادي في فلسطين:

«ان فلسطين وسوريا في نظر الوطنيين المخلصين بلد واحد، ولا فرق بينهما، ولهذا صار القسام يدعو الناس للثورة».

الشيخ القسام نفسه حاول وهو في جبلة السورية ان يتطوع في الثورة الليبية ضد الايطاليين عام ١٩١١، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب الموقف التركي.

ولكن ابو ابراهيم الكبير لم يلبث بعد ذلك ان ترجم قناعاته العروبية بالمشاركة في الثورة العراقية التي قادها رشيد عالي الكيلاني ضد البريطانيين عام ١٩٤١.

Digitized by Birzeit University Library

تجربتي مع القسام

في عام ١٩٢١ وصل الى حيفا الشيخ عز الدين القسام هارباً من مطاردة الفرنسيين له، بسبب مشاركته في الثورة السورية. وكانت سلطات الاحتلال الفرنسي قد اصدرت على القسام حكماً بالاعدام بعد فشل الثورة.

ترافق وصول القسام الى حيفا مع تفاقم اخطار الهجرة الصهيونية الى فلسطين. وقدر للقسام ان يلعب دوراً حاسماً في حياة ابو ابراهيم، وفي المسار اللاحق للثورة الفلسطينية.

وهكذا شاءت الظروف ان يأتي القسام الى فلسطين، ليسهم في الثورة الفلسطينية، بدل ان يذهب ابو ابراهيم للمشاركة في الثورة السورية.

عن القسام يقول ابو ابراهيم:

«الشيخ عز الدين القسام من سوريا، درس في الأزهر، وقاوم الاستعمار الفرنسي لسوريا مقاومة شديدة، منذ أول ايام الاحتلال، فطارده الفرنسيون، ولجأ بسبب ذلك الى فلسطين.. في حيفا اشتغل خطيباً بجامع الاستقلال. وكان ايضاً مأذوناً شرعياً لعقود الزواج.

لم يهن على الشيخ القسام رؤية المهاجرين اليهود المسلحين وهم يتدفقون على فلسطين، تحت حماية المستعمرين الانكليز تنفيذاً لوعد بلفور.

الشيخ القسام ماقدر يتحمل.. ان فلسطين وسوريا في نظر الوطنيين المخلصين هما بلد واحد ولا فرق بينهما، فصار يدعو الناس في خطاباته واجتماعاته للثورة، وللدفاع عن البلاد، وللوقوف صفا واحداً ضد الاستعمار البريطاني، ومقاومة الهجرة اليهودية.

وكان القسام الذي صار عضواً في جمعية الشباب المسلمين في حيفا، يعطي محاضرات في الجمعية، وكان يبدأ هذه المحاضرات بالدروس الدينية، ثم يتبعها بالتحريض على الثورة.

كان في حيفا آنذاك مشايخ آخرون منهم الشيخ صالح العشماوي، والشيخ اسماعيل النقشبندي، وهما سوريان ايضاً، ولكن الشيخ القسام هو الذي كان في احاديثه وخطبه يحرض على الثورة، ويدعو الناس الى المقاومة الشديدة.

في تلك الاثناء كانت الهجرة اليهودية تتكاثر، والمهاجرون اليهود يحضرون معهم السلاح، ويستعملونه ضد العرب العزل، مما أدى الى حدوث اشتباكات وصدامات. كانت استفزازات اليهود وغطرستهم لاتحتمل. وكان الانكليز يسمحون لهم بالتسلح، واقامة بنايات وتحصينات على اسس عسكرية حربية يتحصنون فيها، ويطلقون النار على العرب ويقتلون منهم، والناس لاتستطيع ان تحمل السلاح وتقابلهم بالمثل، ولم يكن بأيديهم سلاح، لأن الانكليز كانوا يتشددون كثيراً بمنعه عن العرب.

الشيخ القسام في خطاباته واحاديثه، اخذ يتشدد اكثر في التحريض على الثورة، داعياً الناس الى المقاومة الشديدة. وكان ذلك حوالي العام ١٩٢٦».

وكان من الطبيعي ان يجد ابو ابراهيم في خطابات واحاديث الشيخ عز الدين القسام صدى لقناعاته

Digitized by Birzeit University Library

وهامته الوطنية، وان يحرص بالتالي على سماعه والتقرب منه.

ان رجل الدين يحتل مكانة بارزة وهامة في حياة الجماهير الفلاحية التي ينتمي ابو ابراهيم اليها، وتتعاظم هذه المكانة حين يمتلك رجل الدين مزايا وصفات اخلاقية ومسلكية عالية، وثقافة واسعة وشخصية جذابة، وقدرات خطابية مؤثرة. . الخ

ان رجل الدين في مثل هذا الوسط الفلاحي، اذا ماالتقى موقفه الوطني والسياسي مع مصالح ومشاعر الجماهير الفلاحية الواسعة، لايلبث بالضرورة ان يلعب دوراً قيادياً بارزاً، وهذا ماحدث بالضبط مع الشيخ عز الدين القسام.

ولنذكر هنا فقط كيف ان ابو ابراهيم الكبير نفسه، قد ذهب الى الشيخ النقشبندي ليستشيره، وبالاصح يستفتيه، في المشاركة الجهادية بالثورة السورية ضد الفرنسيين.

يجمع كل الذين عايشوا الشيخ عز الدين القسام انه كان يمتلك مزايا عالية جعلته يحتل مكانة بارزة في منطقة حيفا والأرياف الشمالية. فهو الى جانب ورعه وتقواه، كان زاهداً في متع الحياة وزخارفها حسن السيرة والمعاشرة، محدثاً لبقاً وخطيباً بارعاً» وكان يرى في الدين قوة للحياة والجهاد لمواجهة المستعمرين الاجانب، وليس مجرد مروض للعبادات، وتمتع القسام فوق ذلك بامتلاك معارف وخبرات واسعة، كما كان يتقن اللغة الانكليزية قراءة وكتابة.

وكانت لديه قدرات واسعة على اقامة اوسع الاتصالات وأعمقها بمختلف طبقات الشعب وقواه السياسية، الا ان حسه الطبقي جعله يضع ثقته العملية والنضالية في الجماهير الشعبية الكادحة.

وفي هذا السياق يقول القسام «لقد اشتعل رأسي شيباً وخبرتي الطويلة في الحياة تجعلني ارجو كثيراً من الفلاحين والعمال، فهم واثقون بالله مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان اقرب الناس الى التضحية واجراأهم على الاقدام، اضف الى ذلك انهم اقوى بنية واكثر احتمالاً للمشاق والمتاعب ولهذا فهو يؤكد بأنه «لم يبق على هذه الأمة الا ان تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وايمان وبعد عن بهارج المدينة».

لهذا كله لم يكن غريباً ان تلتف حول القسام حلقات المريدين والاتباع من اوساط الجماهير الكادحة، وان «الحلقات الجهادية السرية التي باشرت العمليات المسلحة منذ عام ١٩٣٠ بقيادة القسام، قد خرجت من بيوت التنك والخشب في ضواحي حيفا». كما يقول محمد عزة دروزه، وان يكون القسام كذلك على اتصال وثيق بالحركة العمالية، ويمتلك نفوذاً مؤثراً في اوساطها.

وهكذا نجد ان الطابع الاساسي للتنظيم القسامي هو طابع فلاحي، ونذكر هنا انه من بين (٤٠) عضواً اساسياً عرفت هوياتهم الطبقية نجد (٣٦) منهم ينتمون الى اصول فلاحية، اي مانسبته ٩٠٪.

■■

كان ابو ابراهيم من بين المترددين على مجالس الشيخ القسام، ومن الحريصين على سماع دروسه وخطاباته، فيقول: «انا الفت حديث الشيخ القسام، وصرت في اكثر اوقات فراغي اجتمع به، وقد امضيت بذلك وقتاً طويلاً، وقد كنت متأثراً كثيراً بحديث الشيخ، فرأيت بأنه لايجب ان تبقى المسألة مجرد

Digitized by Birzeit University Library

حديث، وذات يوم قلت له:

لقد حكيت طويلاً، وتأثرنا نحن بحديثك، لكنه يظل مجرد حديث. فهل هناك عمل بعده؟

فأجاب الشيخ: انه في عمل.

ومن المعروف ان القسام كان يدقق كثيراً في اختيار اعضاء التنظيم، ويخضعهم لفترة طويلة من المراقبة والمتابعة والاختبار، وعندما يصل احد المريدين الى ماوصل اليه ابو ابراهيم، ويطالب بضرورة العمل، كان القسام يضمه الى خلية تنظيمية، دون ان يعرف بقية اعضاء وخلايا التنظيم الاخرى، بل ربما اعتقد العضو ان هذه هي الخلية الأولى التي يبدأ بها القسام العمل التنظيمي.

الجمعية السرية

يقول ابو ابراهيم بأنه قد تعرف على الشيخ القسام عام ١٩٢٧، وفي العام التالي فاتحه بضرورة العمل، ثم يضيف قائلاً:

«وراجعته أول وثاني وثالث، فاتفقنا على تأليف جمعية سرية، وفعلاً صرنا انا والشيخ نلاحظ الشباب الذين يحضرون الدروس، ويتأثرون بها، فمن وجدنا عنده قابلية نقوم بزيارته، ونأخذ موافقته على الانضمام للجمعية، وبالفعل تأسست الجمعية سنة ١٩٢٨، وأخذنا بيتاً منفرداً، وبدأنا نجتمع فيه.

تأسست الجمعية بادىء الامر بحوالي (١٥) شخصاً وهم:

١ ـ الحاج حسين حمام.
٢ ـ محمود زعرور.
٣ ـ العبد قاسم.
٤ ـ موسى قاسم.
٥ ـ محمد ابو العيون.
٦ ـ اسماعيل البياض.
٧ ـ محمد صالح (ابو خالد).
٨ ـ ابو محمود الغوري.
٩ ـ يوسف ابو دره.
١٠ ـ ذيب ديوان.
١١ ـ احمد الفارين.
١٢ ـ الشيخ عطية.
١٣ ـ محمود خضر.
١٤ ـ ابو درويش.
١٥ ـ نايف المطلق».

Digitized by Birzeit University Library

هذا بالطبع بالاضافة الى الشيخ القسام وابو ابراهيم الكبير. ان عملية اختيار أعضاء الجمعية السرية كانت تتم على اساس معرفة العضو المرشح، والثقة به من قبل احد اعضاء الجمعية العاملين، اما قرار قبول هذا الشخص عضواً في الجمعية السرية، فكان يتم بعد ان يقابلهم الشيخ عز الدين القسام ويوافق عليهم، وذلك لضمان أمن وسرية التنظيم، خاصة وهو في مراحله الأولى. وعن ذلك يقول ابو ابراهيم:

«أخذنا نبحث عن الناس الذين نثق بهم، ممن نتوسل فيهم الخير، ونرى منهم الوطنية والحماس والاستعداد للمشاركة في الثورة المسلحة ضد الهجرة والاستعمار.

وحتى لو كان هناك شخص معروف بالنسبة لي، وجاء عن طريقي، لابد ان يوافق الشيخ عليه. وبعد ذلك نعرض على ذلك الشخص مانفكر به، وبضرورة ان ننظم انفسنا سراً، وان نتعاون استعداداً للثورة. وحين يبدي استعداده للعمل كان عليه ان يحلف اليمين بالاخلاص، وعدم كشف اسرار الجمعية، وطبعاً لم نكن (نحلف) الواحد اليمين الا اذا كنا نثق بأنه لايمكن ان يحلف يميناً كاذبة، ولذلك بعد ان يحلف اليمين فهو من جهة يخاف ان يخون الجمعية بسبب حلف اليمين، ومن جهة ثانية يخاف ايضاً من اعضاء الجمعية، لأنهم لن يسامحوه اذا خان.

هذا الحرص في اختيار الاعضاء، وفي التأكد من استقامتهم ووطنيتهم وجرأتهم كان ضرورياً، لأن الأوضاع كانت خطرة، والانكليز كانوا يشددون كثيراً، ويعدمون العربي على فشكه (رصاصه)، لهذا كانت السرية ضرورية، وكانت هذه السرية تستمر بعد دخول العضو التنظيم، فحين بدأنا العمليات العسكرية، فإننا بسبب السرية والكتمان الشديد حافظنا على سلامة الجمعية، رغم اننا نفذنا عمليات عديدة، فالناس لايعرفون من يقوم بهذه العمليات، وحتى اعضاء الجمعية نفسها لايعرفون من الذي ضرب هذه القنبلة، أو هاجم تلك الكبانية (المعسكر أو المستعمرة الصهيونية) أو هاجم السيارة فقط الذين يقومون بهذه العمليات، هم وحدهم الذين يعرفون اسرارها». وكان ابو ابراهيم قد ذكر في حديث سابق عام ١٩٦٩، بأن الخلية في البداية كانت تضم (٥) أشخاص ثم ارتفع الى حوالي (٩). في الثلاثينات رافقت عملية التنظيم السري عملية تثقيف وتعبئة سياسية وجهادية، كان يتولاها الشيخ القسام في البيت الذي استؤجر خصيصاً لاجتماعات الجمعية.

السلاح

وكانت الخطوة الطبيعية التالية هي السلاح، وعن ذلك يقول ابو ابراهيم:

«ذات صباح وانا نازل من بيتي، والى جانبي شخص من حوران، مررنا بمطحنة لليهود على طريق عكا ـ حيفا، واذا بيهودي داخل المطحنة مستحكم ومبرز بندقيته من طاقة في جدار المطحنة، وأطلق النار باتجاهنا، فقتل الحوراني على الفور. وكان اليهود يقومون باستفزازات كثيرة من هذا النوع.

في اليوم التالي، عندما عقد اجتماع الجمعية السرية، رويت الحادث الذي رأيته وقلت: الى متى نبقى نحن بدون سلاح واليهود مسلحين يستعملون سلاحهم فينا؟ يجب ان نتسلح وندافع عن انفسنا فقال

Digitized by Birzeit University Library

الشيخ القسام انا ماعندي مانع اجمعوا من بعضكم نقوداً واشتروا السلاح.

وبدأ اعضاء الجمعية بالتبرع، وجمعوا ليلتها ثمن بندقيتين، وطلب مني ومن الحاج حسين حمام ان نبحث عن السلاح ونشتريه. وقد وصلنا في بحثنا إلى شيروز، حيث اشترينا بندقيتين وعدنا بهما الى حيفا. ومن يومها وكان ذلك في عام ١٩٢٨ واصلنا شراء السلاح وتخزينه والتدريب عليه. وكان مدربنا احد اعضاء الجمعية واسمه محمد ابو العيون، وهو من البوليس العرب، وتعلم في مدرسة البوليس، وكان نشيطاً وماهراً في استعمال السلاح.

وكنا نتدرب على استعمال البندقية واحداً واحداً. وكانت البنادق التي حصلنا عليها بنادق تركية مخفية في البلاد وبعض البنادق الانكليزية.

ومن أجل حفظ السلاح وتخزينه، اتصلنا بأقارب لنا في الكرمل حيث يعملون هناك، ولهم كروم، فطلبت منهم ان يعملوا طاقات في السناسل (اسوار مبنية من الحجر) لاخفاء البنادق فيها، ووضعنا كل بندقية او بندقيتين في صناديق مجفتة (مبطنة) بزينكو لكي تحمي السلاح من الرطوبة والمطر.

بعد أن تدرب اعضاء الجمعية على استعمال السلاح، بدأوا يحملون السلاح ويتدربون على المشي ليلاً في الكرمل. ثم اخذنا نوزع السلاح على اعضاء الجمعية في القرى المجاورة، ممن لايستطيعون شراء السلاح بأنفسهم. ومن الذين تم توزيع البنادق عليهم آنذاك:

الشيخ فرحان السعدي من قضاء جنين، توفيق الابراهيم (ابو ابراهيم الصغير) من اندور قضاء الناصرة، محمود كساب، الشيخ نايف الزامل، الحاج عبد الحميد أبو امين من طيرة حيفا، والشيخ رشيد عثمان والشيخ سعد، وموسى المصري من سوريا وكمال عبد القادر».

ولم تكتف الجمعية بشراء السلاح، بل عملت على تصنيعه بالوسائل الشعبية البدائية، ومن ذلك صناعة القنابل من المواسير، وكان احمد الغلالييني وهو من اعضاء الجمعية في حيفا، قد بدأ بصناعة هذه القنابل لان عمله بالمواسير.

لم يكن محمد أبو العيون هو المدرب الوحيد لاعضاء الجمعية، فقد كان الشيخ القسام، صاحب التجربة الثورية ضد الفرنسيين، يقوم بهذا الدور ايضاً، فيذكر سليمان ابو حمام، وهو من رفاق القسام الاوائل ان الشيخ كان «يخرج ليلاً الى جبل الكرمل، ويدرب الاعضاء على الاسلحة، ويوجههم في اساليب الكفاح المسلح».

ويروي حسن شبلاق، وهو قسامي ايضاً، ان اعضاء الجمعية كانوا يتدربون على يد القسام في محاجر الكرمل فيقول:

«كنا نجتمع قبل الخروج الى جبل الكرمل في واحد من الجوامع الثلاث (في حيفا)، وكان الخروج عادة على مستوى الحظيرة، ثلاثة اشخاص يعرفون بعضهم بعضاً، والحجة القانونية التي كنا نتسلح بها في خروجنا وجود المحاجر، فلي محجر هناك مثلاً.. وكان القسام يخرج مع كل حظيرة، ويعلمها فك وتركيب البندقية وتنظيفها وكيفية استخدامها».

Digitized by Birzeit University Library

كان التقليد المتبع في الجمعية ان يقوم كل عضو بتأمين السلاح بنفسه ومن ماله الخاص، وقد باع الكثيرون حلي زوجاتهم لشراء البنادق. غير ان غالبية اعضاء التنظيم القسامي كانوا من الكادحين المعدمين الذين لايستطيعون تأمين ثمن السلاح، وبهذه الحالة كما يذكر أبو ابراهيم تقوم الجمعية بتوزيع السلاح عليهم، كما حدث بالنسبة لعدد من الاشخاص الذين ذكرناهم قبل قليل.

اما المصادر المالية للجمعية، وهي قليلة على كل حال، فكانت من الاشتراكات الشهرية للاعضاء وتبرعاتهم، وكذلك من تبرعات بعض الاثرياء الوطنيين من اصدقاء القسام ورفاقه.

■ ■

العمليات الفدائية الاولى

بعد شراء اعداد من البنادق والتدرب عليها، جاءت الخطوة التالية الطبيعية هي القيام بعمليات فدائية ضد المستعمرات والمستوطنين الصهاينة وضد الاستعمار البريطاني الذي كان القسام يراه «رأس البلاء» او «رأس الافعى»، اما اليهود فليسوا سوى الذنب، فاذا ضرب الرأس مات الذنب».

وعن هذه الفترة يقول ابو ابراهيم:

«بعد ان صار في الجمعية من يحمل السلاح وصار لها اعضاء مسلحون في القرى، بدأنا نطلب منهم القيام بعمليات عسكرية، ومهاجمة المستعمرات اليهودية للرد والانتقام من اليهود الذين تسببوا بقتل وجرح الكثيرين من العرب.

وقد نفذنا حوالي ٢٥ عملية هجوم على مستعمرات واهداف وسيارات يهودية وانكليزية، دون ان يتمكن البوليس او سلطات الاحتلال من اكتشاف الذين يقومون بهذه العمليات، حتى ان وزارة المستعمرات وجهت توبيخاً للبوليس في حيفا، فأقالوا مسؤول البوليس عبود، وعينوا بدلاً منه حليم بسطة، وهو مصري من اصل تركي، كانت قوات الاحتلال البريطاني قد احضرته معها الى قطاع غزة».

كانت القيادة القسامية حريصة على تنفيذ العمليات العسكرية في اماكن بعيدة نسبياً عن حيفا، حيث مركز الحركة، وذلك لتضليل سلطات الاحتلال عن الجهة التي تقوم بهذه العمليات، خاصة ان الشيخ عز الدين القسام نفسه، وبسبب دوره ونشاطه العلني في التحريض ضد الانكليز واليهود، كان موضع شبهات قوية من قبل سلطات الإحتلال التي قامت باستجوابه اكثر من مرة.

لهذا نجد ان معظم العمليات الفدائية الاولى قد تمت في منطقة الحولة والحمة والناصرة ومنطقة مرج ابن عامر، ومن هذه العمليات يذكر ابو ابراهيم الكبير:

«اعتاد اليهود يوم السبت السفر بالقطار الى حمامات الحمة، فقام الشيخ نايف المزويق وموسى التهام الناصري بفك قضبان سكة الحديد، فخرج القطار عن الخط وانقلب مما ادى الى قتل وجرح معظم اليهود فيه.

- ربط مسلحان من اعضاء الجمعية على الطريق قرب يازور (قرية تبعد ٥ كم جنوب يافا) لسيارة خضار

Digitized by Birzeit University Library

يهودية قادمة من احدى المستعمرات الى حيفا، واطلقوا النار على من فيها، مما ادى الى مقتل اليهود السبعة الموجودين في السيارة.

- الهجوم على كبانية (مستعمرة) الهرولة ونسف بيت فيها، وتدمير ماكان فيه.
- قتل شاويش انكليزي على شط البحر.
- اطلاق النار على شاويش انكليزي ايضاً على شط بحر حيفا.
- اطلاق النار على باص يهودي قادم من مرج ابن عامر، قرب وادي خالد.
- الهجوم على مستعمرة نهلال الصهيونية في مرج ابن عامر، وقتل وجرح عدد من اليهود فيها، وقد قام بهذا الهجوم ثلاثة من اعضاء الجمعية في صفورية، وهم مصطفى الاحمد والحاج صالح واخوه ابراهيم.

وبسبب هذه العملية الأخيرة جرى اعتقال وتوقيف ابوا ابراهيم الكبير لمدة تسعة اشهر في سجن حيفا.

الاطار التنظيمي

مع اتساع التنظيم القسامي المسلح وامتداده الى المناطق المجاورة، ومع قيامه بمهمات عسكرية وامنية وسياسية متعددة، كان لابد ان تتبلور صيغ واطارات تنظيمية خاصة به من ناحية، ومستمده من تجربة القسام الثورية وثقافته الواسعة من ناحية ثانية.

في بداية تشكيل التنظيم القسامي كان لهذا التنظيم قيادة خماسية، كان قد سبق لابو ابراهيم ان حددها على النحو التالي:

١ - الشيخ عز الدين القسام.
٢ - العبد قاسم (فلاح بائع جاز).
٣ - محمود زعروره (فلاح بائع جاز).
٤ - محمد صالح (أبو خالد) (فلاح لديه طنبر).
٥ - خليل محمد عيسى (أبو ابراهيم الكبير) (فلاح صاحب دكان لبيع الصوف واكياس الخيش).

اما الاطار التنظيمي وتقسيمه وفق المهمات المتعددة فيصفه صبحي ياسين على النحو التالي:

١) فرع الدعوة: وهو مكون من العلماء الذين يخطبون في المساجد والمجتمعات حضاً على الثورة.
٢) فرع التموين: لشراء السلاح، ومن ابرز اعضائه حسن البابر والشيخ نمر السعدي.
٣) فرع التدريب العسكري: يشرف عليه ضابط ممن خدموا في الجيش التركي.
٤) فرع التجسس على اليهود والانجليز ومن أبرز افراده ناجي ابو زيد.
٥) فرع العلاقات الخارجية: للاتصالات السياسية وعرف من افراده الشيخ محمود سالم المخزومي الذي اتصل بقنصل ايطاليا في القدس، وبقنصل تركيا بقصد شراء اسلحة حديثة، كما اتصل بالمفتي الحاج امين الحسيني لاعلامه بعزم القساميين على القيام بالثورة.

إضافة الى هذه اللجان التي ذكرها صبحي ياسين تشكلت لجنة اخرى لجمع التبرعات.

Digitized by Birzeit University Library

هذا الاطار التنظيمي القيادي يتولى الاشراف على التنظيم القسامي الهرمي، والذي قسم بدوره الى مناطق قاعدية متعددة، وفق تواجد اعضاء التنظيم.

لقد جاء هذا البناء التنظيمي متوافقاً مع مخطط القيادة القسامية لاشعال الثورة في فلسطين ضد الانكليز والصهاينة في لحظة واحدة وفي مختلف المناطق. ولهذا فان القسام قبل خروجه من حيفا الى منطقة يعبد للتحضير للثورة ترك مخططا عسكريا متكاملاً، وحول هذا الموضوع يذكر الشيخ محمد الحنفي، وهو من رفاق القسام الاوائل والمكلف بالاتصال بالحلقات القسامية، «ان الشيخ القسام قد ترك ثلاث عشرة لفافة ورقية مشمعة، خاصة بثلاث عشرة مدينة ومنطقة في فلسطين، وكانت هذه اللفافات محفوظة في اشرفية بيسان، ضمن عبوة تنكية مدفونة في ارض المزرعة، وكان يوجد في كل لفافة مابين عشر الى اثنتي عشر ورقة ملفوفة، تحتوي على اسماء المجاهدين القساميين والتعليمات الضرورية لهم كل في منطقته، ومن هذه المناطق: الخليل، غزة، الناصرة، طبريا، عكا، طولكرم جنين، وتعرف اللفافة من خارجها، والمعنونة باسم قائد المنطقة الحركي، وبعض المناطق كانت توجد فيها اسلحة محفوظة ضمن الكاوتشوك للتدريب عليها والقتال عند اللزوم».

وكان رئيس كل حلقة يدعى نقيباً أو عريفاً، وكلتا الكلمتين مستمدة من مصطلحات الطرق الدينية، كما يؤكد عبد الله شليفر.

في اطار هذا المخطط التنظيمي السري كان الاعداد لتفجير الثورة المسلحة في فلسطين، اما العمليات المتفرقة التي كان يقوم بها القساميون قبل ذلك فإنها تشكل نوعاً من الرد الانتقامي على جرائم اليهود وتواطؤ الانكليز، وربما عمليات تدريبية أولية قبل خوض غمار الثورة الشاملة.

غير أن الاستشهاد المبكر للشيخ عز الدين القسام قد حال دون تنفيذ المخطط الموضوع، ولكن عملية الاستشهاد البطولية نفسها قد أسهمت في باشعال الثورة في كل أنحاء فلسطين، وكان رفاق القسام وأعضاء تنظيمه هم القادة الحقيقيون لهذه الثورة والتي تواصلت حتى العام، ١٩٣٩.

■ ■

في أعقاب الهجوم على مستعمرة نهلال عام ١٩٣٣، واعتقال وتوقيف أبو ابراهيم الكبير لمدة تسعة أشهر، كان من الطبيعي أن تغيب كثير من التفاصيل الهامة عن أبو ابراهيم، ذلك أن السرية والكتمان الشديدين الذي سبق لابو ابراهيم وتحدث عنها بنفسه، كانت تحول دون اطلاع حتى العناصر القيادية على كل الاسرار المتعلقة بالتنظيم، والتي لاتدعو حاجة العمل للاطلاع عليها.

ولا شك كذلك انه حتى بعد خروج أبو ابراهيم من السجن كان موضوعاً تحت الرقابة المشددة من حليم البسطة ورجاله، مما جعل اتصالاته بالشيخ القسام محدودة، وخاصة أن حليم بسطة كان كما يبدو واثقاً من وجود علاقة تنظيمية بين أبو ابراهيم وبين منفذي العمليات الفدائية، ومن بينهم منفذي عملية نهلال، كما سيبين لنا من خلال مجريات المحاكمة.

Digitized by Birzeit University Library

اعتقال ومحاكمة أبو ابراهيم

القصة الكاملة للاعتقال والمحاكمة يرويها أبو ابراهيم على النحو التالي:

«قام ثلاثة من أعضاء الجمعية في صفورية باستلام قنابل كان قد صنعها أحمد الغلاييني، ونسفوا بواسطتها بيتاً للحرس في مستعمرة نهلال، فقتل اثنان وجرح اثنان آخران، وهؤلاء الثلاثة هم مصطفى الاحمد والحاج صالح وأخوه ابراهيم، وبعد تنفيذ العملية قام القساميون بتسيير قطيع من الغنم على الطريق الى المستعمرة فضاع الاثر، كما قام الثلاثة بعبور مجرى ماء لاخفاء أي أثر يدل عليهم.

السلطات البريطانية التي كانت قلقة من تزايد العمليات الفدائية، ووجهت توبيخاً لقائد البوليس في حيفا، واستبدلته بحليم بسطة، شددت على ضرورة كشف الفاعلين، وبالفعل تحرك قصاصوا الاثر، ولكن دون جدوى، غير أنهم لاحظوا أن الاثار تختفي بالقرب من قرية صفورية».

بعد ستة أشهر من الحادث، «وأثناء تفتيش البوليس لبعض بيوت المشتبه بهم في صفورية، عثر في بيت مصطفى الاحمد على بندقية وقنبلة من النوع الذي استخدم في مستعمرة نهلال، ولا زالت السلطات البريطانية تحتفظ بشظاياها. فاعتقلوا مصطفى الاحمد واخضعوه للتحقيق والتعذيب الشديد، في سجن الناصرة.

في هذه الاثناء أخذ البوليس يبحث عن نوع المواسير التي صنعت منها القنابل، فوجدوها عند تاجر يهودي في حيفا، فذكر أن شقيق أحمد غلاييني الصغير، وكان يمتلك محلاً لتركيب المواسير، وهو الذي اشتراها، فداهموا المحل وفتشوه، وكنت بالصدفة عند أحمد الغلاييني، فوجدوا مواسيراً من نفس النوع، ولكنهم لم يجدوا قنابل، واعتقلوا أحمد الغلاييني ووضعوه رهن التحقيق.

في الناصرة كان يوجد محامي اسمه شريف عبيد، اتفق مع حليم بسطة ومساعده الضابط أحمد النايف على أن يتقدم بنفسه للدفاع عن مصطفى الاحمد، واقناعه بأن يشهد بأن اللذين كانا معه هما خليل العيسى وأحمد الغلاييني، ووعدوه إذا شهد بذلك أن يسعوا لبراءته.

وبالفعل استطاع المحامي أن يؤثر على مصطفى الاحمد فشهد علينا. فجاء البوليس واوقفني رهن التحقيق، غير انهم لم يستطيعوا الاثبات بأنني كنت في الحادث، انما ثبت أن الغلاييني هو الذي صنع القنبلة من المواسير. وقد كلفنا المحامي حنا عصفور بالدفاع عنا، وقد طلب حليم بسطة منه أن ينتزع اعترافاً منا، فجاء المحامي وقال لنا: أنا محاميكم وأريد أن تخبروني عما حدث معكم: قلنا له: نحن أبرياء دافع عنا بكل قوتك».

ويبدو أن المحامي قد اقتنع فعلاً ببراءتهم، فطالب بالافراج عنهم لعدم كفاية الأدلة، إلا أن السلطات البريطانية كانت حريصة على استصدار أمر توقيف جديد بحقنا. إلا أن حكام الصلح العرب رفضوا اعطاء الامر، فأخذتنا السلطات عند حاكم صلح آخر فاعطى أمراً بتوقيفنا لمدة ١٥ يوماً، وهكذا توالت احكام التوقيف الى أن استمر سجننا تسعة أشهر، كان حليم بسطة ورجاله خلالها يسعون لاحضار شهود زور لادانتنا، فأحضروا شاهداً اسمه أحمد فرنسيس وقدم الشهادة التالية أمام المحكمة كما يرويها أبو ابراهيم:

Digitized by Birzeit University Library

« في يوم الحادث كان الثلاثة مصطفى الاحمد وخليل عيسى واحمد الغلاييني في جامع القرية (صفورية) ، وبعد صلاة المغرب غادر الثلاثة الجامع ، واتجهوا الى بيت مصطفى الاحمد ، بينما بقيت واقفاً امام الجامع ، وبعد مضي وقت قليل خرج الثلاثة لابسين عبي فوق البنادق ، واتجهوا الى الجنوب نحو مستعمرة « نهلال » .

ويكمل الشاهد احمد فرنسيس شهادته فيقول بانه كان يبيع الدخان للعرب القريبين من المستعمرة ، فأخذ دخاناً وذهب ليبيعه ، وهناك سمع طلقات نارية في المستعمرة . وبعد ان باع الدخان عاد الى بلدته صفورية ، وفي الطريق جلس ليستريح تحت شجرة ويدخن سيجارة ، وفي هذه الاثناء مر خليل العيسى والغلاييني ومصطفى راجعين نحو صفوريا ، وهم يتحدثون بينهم « نسفنا البيت واطلقنا النار على كل ما رأيناه في المستعمرة » .

ويقول ابو ابراهيم « ان الشاهد بعد ان انهى شهادته سألت المحكمة المتهمين : هل لكم سؤال ، فقلت نعم . وتوجهت بالسؤال الى الشاهد :

هل انت في اليوم الفلاني والتاريخ الفلاني صليت في جامع بلدتكم ، ونحن صلينا معك في ذلك اليوم ؟

قال : نعم انا صليت في الجامع ، وانتم صليتم معي ، وقد لحقت بكم بعد خروجكم من الجامع .

سألته : هل في جامعكم الذي صلينا فيه معك حواجز تحجز المصلين عن بعض ام ان كل الجامع ساحة واحدة ؟

اجاب : كل الجامع ساحة واحدة .

سألته : هل اهل بلدتكم يعرفون بعضهم ام ان البلد كبيرة ولا يعرف الناس فيها بعض ؟

قال : كل الناس تعرف بعضها .

سألته : هل تعرف احداً من الذين صلوا ذلك اليوم صلاة المغرب .

قال : نعم .

سألته : هل تستطيع ان تسمي احداً منهم ؟

فأورد الشاهد اسماء ستة اشخاص .

عند ذلك توجهت الى المحكمة بالقول :

اذا كان واحداً من هؤلاء الاشخاص الستة الذين سماهم الشاهد يشهد بأنه قد رأنا في الجامع في صلاة المغرب من ذلك اليوم ، فان شهادته مقبولة علينا . فطلبت المحكمة من البوليس احضار الشهود الستة في اليوم التالي الى المحكمة ، وبالفعل حضر الشهود وكلهم شهدوا بأنهم لم يروا احداً منا ، وان احمد فرنسيس لا يصلي ، ولا يدخل الجامع ، وانه ابن فرنسي ، ولذلك سمي فرنسيس .

بعد ان انكشف شاهد الزور الاول ، جاء دور شاهد الزور الثاني الذي رتبه حليم بسطه ، واسم هذا الشاهد طه اللوباني ، فقال امام المحكمة :

« وانا طالع لجامع الاستقلال في حيفا ، رأني خليل العيسى ، وشار لي بان اتحدث معه وقال لي : انت

Digitized by Birzeit University Library

اعجبتني لانك تصلي كثيراً مثلنا ، ويحب ان تدخل معنا في الجمعية .

فسألته ما هي هذه الجمعية ، فقال : هذه الجمعية مهمتها ان تقتل الانكليز واليهود ، وانت حصتك ذلك البيت ، وصاحبه زعيم يهودي ، وعليك ان تقتله . وفي اليوم التالي استدعاني خليل عيسى ، وقال لي : اريد منك ان تأتي الى بيتي لاعرفك على اخوانك هناك ، ثم اخذني الى بيته فوجدته مليء بالاشخاص ، وكلهم يشتغلون بالسلاح ، بعضهم يصنع قنابل ، وبعضهم يمسح سلاح .

وقد استمرت شهادة طه اللوباني يومين وضعونا بعدها في النظارة (مركز التوقيف) لارسالنا الى سجن عكا ، وهناك في النظارة جاءنا المحامي حنا عصفور، وقال لي ولاحمد الغلاييني : لقد قلت لكم انا محامي امين ، فقولوا لي الحقيقة ، فقلتم بأنكم ابرياء ، فهل هذه شهادة على أبرياء . فضحكت ، سألني المحامي :

لماذا تضحك ؟

قلت له : لانني بريء .

فسألني : كيف تثبت براءتك ؟

فأجبت : لأن الشاهد شاهد زور ، ولا يعرف بيتي ولم يزره في أي يوم .

في اليوم التالي جاء الشاهد اللوباني لاستكمال شهادته امام المحكمة ، فقال رداً على سؤال عن نوع القنابل التي رآها تصنع في بيت ابو ابراهيم ، بأنها مصنوعة من علب البندورة ، وطبعاً القنبلة التي وجدوها مصنوعة من المواسير . وهنا تقدم المحامي حنا عصفور وسأله : هل ذهبت الى بيت خليل العيسى ؟

أجاب : نعم ذهبت .

سأله المحامي : وأين بيته ؟

أجاب : في الكرمل .

فسأله المحامي : هل تستطيع اخبارنا عما يوجد داخل البيت ، مثلاً الشبابيك اين تفتح وكم عددها ، ومن اين يفتح الباب . . يعني اوصف لنا البيت من الداخل .

اجاب الشاهد : انا ذهبت مرة في الليل ، وكانت الدنيا عتمة ، ثم انا لست مهندساً ، وما معي متر أقيس فيه .

فسأله : هل حلفّك خليل العيسى اليمين لما دخلك الجمعية ؟

اجاب : نعم .

سأله : هل اليمين الذي حلفك اياه يشبه اليمين الذي اقسمته امام الحكمة ؟

أجاب : طبق الاصل .

فقال المحامي حنا عصفور للمحكمة ، ان اليمين الذي اقسمه الشاهد امامكم كذب ، وهذا واضح لكم .

هنا قفز النائب العام وهو اكبر محامي انكيلزي كان في فلسطين ، وشريكاً للمندوب السامي في الحكم ، وقال موجهاً كلامه الي : هذا الكهل دبر حاله ، قبل ان يأتي ويقف امامكم حتى لا يكون عليه ولا

Digitized by Birzeit University Library

مستمسك .

فقام المحامي حنا عصفور وقال للمحكمة :

اذا كان لا يوجد اي مستمسك على موكلي ، ولا توجد مادة في القانون تحاكمونه بموجبها ، كما يقول النائب العام ، فذلك لان موكلي بريء ، واطالب باطلاق سبيله على الفور .

وبعد ان اختلى قضاة المحكمة بعض الوقت ، عادوا واعلنوا براءة خليل العيسى ، فقد عاد المتهم مصطفى الاحمد وتراجع عن شهادته الاولى ، واعلم المحكمة بأن خليل العيسى واحمد الغلاييني لم يكونا معي وان رجال البوليس والمحامي هم الذين طلبوا مني ان ادلي بهذه الشهادة .

وقد اصدرت المحكمة حكماً باعدام مصطفى الاحمد وكذلك باعدام الغلاييني لانه صنع القنبلة ، ثم خفف الحكم عنه الى ١٥ سنة بعد ذلك ، وخرج من السجن عام ١٩٤٤ ، وقد قال لي الغلاييني بعد ان اصدر القاضي عليه حكماً بالاعدام : انا لست خائفاً ، وما دمت قد خرجت براءة، فأنا مطمئن بأنك ستستد (اي ستنتقم) لنا من هؤلاء جميعاً .

حين اصدرت محكمة الجنايات حكمها ببراءتي كان حليم بسطه موجوداً في المحكمة ، فقام وقال توجد على المتهم تهمة ثانية ، فقالت المحكمة اذا كنت ستثبت عليه ذلك خذه . فطلب بسطه من ضابط اسمه ابراهيم البيطار ان يأخذني للتوقيف في محكمة الصلح ، وطلب من قاضي الصلح توقيفي بناء على طلب مسؤوله حليم بسطه حتى احضار الشهود ، فسألت القاضي :

هل الشهود الذين سيحظرهم قدم ام جدد ؟

فوجه القاضي سؤاله للبيطار الذي قال لماذا هذا السؤال .

فقلت : انا كنت في محكمة الجنايات لمدة (١٧) يوماً وهناك شهدوا عليّ زور ، وثبت انها شهادات زور فخرجت براءة ، ولو كان هناك شاهد واحد صحيح لما خرجت ، وانا قادم اليك مباشرة من محكمة الجنايات رأساً دون ان اقترف ذنباً او اكلم احداً ، فمن هو الشاهد الذي سيحضره .

قال الضابط : انا لا اعلم شيئاً عن القضية ، طلب رئيسي ان استصدر امراً بتوقيفه .

فقال القاضي : يقولون بأن لديهم شهوداً ، وانا سأصدر امراً بتوقيفك حتى اسمع الشهود . وصدر الامر بتوقيفي لمدة (١٥) يوماً ، وكلما انتهت يقومون بتجديدها حتى صارت المدة حوالي سنة ، وكانوا يحضرون شهوداً لتوقيفي .

في آخر ثلاثة اشهر احضروا مرة ثانية احد الشهود الزور الذين شهدوا في محكمة الجنايات ، فقلت لقاضي الصلح : هذا الشاهد من شهود الزور في محكمة الجنايات . فقال القاضي براءة .

وكانوا قبل ذلك قد احضروا شاهداً آخر من صفورية وكان المحامي احمد الشقيري موجوداً . فقال الشاهد بأنه رآني مع الغلاييني ومصطفى حاملين العبي ومتجهين للجنوب . هذا الشاهد لم يكن يعرفني ولا اعرفه ، فقمت ووضعت يدي على كتفه وسألته :

- هل تعرف خليل العيسى .

فاجاب : نعم اعرفه .

Digitized by Birzeit University Library

فقلت له : طلعه من بين الموجودين .

فصار الشاهد ينظر الى كل واحد من الموجودين بالدور . وكان حليم بسطة موجوداً في المحكمة فأخذ يؤشر عليّ باصبعه ، فقلت للحاكم :

يا سعادة الحاكم انظر الى حليم البسطة ماذا يفعل ، يؤشر له باصبعه .

فقال القاضي : خذوا الشاهد لا اريد ان اراه ، شهادته مرفوضة .

وقد حكموه بعدها على « شهادة الزور » .

غير ان حكم المحكمة لم يكن كافياً فلم يلبث معظم اولئك الشهود ومحرضيهم ، وفي مقدمتهم حليم بسطة ان واجهوا عقاب الثورة .

كان حليم بسطة قد قال بعد وصوله الى حيفا ، بأنه سيدوس على رأس اكبر فلسطيني .

وكانت النتيجة ان محمد صالح (ابو خالد) حين نفذ بالبسطة حكم الاعدام ، قد وضع قدمه على رأس البسطة وافرغ مسدسه في جسده وكأنه يقول له : الآن تعرف من يضع قدمه على رأس الآخر.

وسنعود الى هذا الحادث في الفصول التالية من هذه المذكرات .

المصادر التي اعتمدنا عليها لتدقيق وتصويب هذه المذكرات

● ابو ابراهيم الكبير هو خليل محمد عيسى، ولد في حيفا أواخر القرن التاسع عشر، وهو من قرية المزرعة الشرقية، قضاء رام الله. وكني بالكبير تميزاً له عن القائد القسامي ابو ابراهيم الصغير (توفيق ابراهيم).

١ ـ علي حسين خلف ، عز الدين القسام ، دار الحوار ، سوريا اللاذقية ـ الطبعة الثانية ١٩٨٦ .

٢ ـ حسين عمر حمادة ، جوانب من حياة الشيخ عز الدين القسام ، مجلة وقائع فلسطينية العدد الثاني ١٩٨٦ .

٣ ـ نزيه ابو نضال ، الثورة القسامية ، مجلة وقائع فلسطينية العدد الثاني ١٩٨٦ .

٤ ـ الدكتور كامل خله ، فلسطين والانتداب البريطاني ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٤ .

٥ ـ ناجي علوش ، المقاومة العربية في فلسطين ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ .

٦ ـ عبد القادر ياسين ، كفاح الشعب الفلسطيني ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٧ ـ عادل حسن غنيم ، الحركة الوطنية الفلسطينية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٨ ـ غسان كنفاني ، ثورة ٣٦ ـ ٣٩ ، مجلة شؤون فلسطينية العدد ٩ ، ١٩٧٢ .

٩ ـ صبحي ياسين ، الثورة العربية الكبرى في فلسطين ، دار النهار ، القاهرة ١٩٥٩ .

١٠ ـ حديث لابي ابراهيم الكبير في مجلة الثورة الفلسطينية ، كان قد اجراه ناجي علوش العدد ١٩ ، ١٥/ ٩/ ١٩٦٩ .

١١ ـ عبد الوهاب الكيالي ، تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية ، بيروت ، الطبعة الثامنة ١٩٨١ .

١٢ ـ محمد عزة دروزة القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الاول ، م . ت . ف ، دائرة الاعلام والثقافة ، دمشق الطبعة الثالثة ١٩٨٤ .

١٣ ـ ابراهيم الشيخ خليل ، ذكريات عن القسام ، مجلة شؤون فلسطينية ، عدد ١٧ آذار ١٩٧٢ .

١٤ ـ الموسوعة الفلسطينية ، اشراف احمد المرعشلي ، دمشق ، هيئة الموسوعة الفلسطينية .

١٤ ـ عادل حسن غنيم ، ثورة الشيخ عز الدين القسام ، شؤون فلسطينية ، العدد ٦ ، كانون الثاني ١٩٧٢ .

١٦ ـ صالح بوبصير ، جهاد شعب فلسطين ، دار الفتح ، الطبعة الرابعة ١٩٧١ .

Digitized by Birzeit University Library

التقرير الأول

في الذكرى الخامسة لاغتيال المناضل الصحفي حنا مقبل

في الثالث من أيار ١٩٨٤ اختبأ جبان في زاوية من زوايا شارع في العاصمة القبرصية مترصداً متحينا الفرصة، وما ان مر المناضل المعروف والنقابي المشهور أمين سر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٧٣- ١٩٨٠ والامين العام لاتحاد الصحافيين العرب ١٩٧٩- ١٩٨٤، حنا مقبل «أبو ثائر» حتى أطلق رصاص الغدر، فخر المناضل العربي الفلسطيني صريعاً على أرض غير فلسطينية، خلاف ما كان يتمنى.

لقد كانت هذه المحاولة هي التي تمكن فيها القتلة من تحقيق هدفهم، فقد سبقتها محاولات كثيرة، لان حنا مقبل لم يكن طوال حياته إلا مناضلاً مدافعاً عن شعبه وأمته، مما جعله هدفاً للأعداء والعملاء والمساومين والتسوويين؛ فحاولوا اغتيال ضميره، وحاولوا اغتيال قلمه، وحاولوا تصفيته، وفي كل مرة يجدونه اكثر صلابة وأكثر تمسكاً بقيمه ومبادئه. وهم لا يحبون ها النوع من الرجال، فأسكتوه برصاصة أطلقها مجرم جبان.

Digitized by Birzeit University Library

لكن هل سكت حنا فعلاً؟ ذلك هو السؤال؟

لم يكن حنا مقبل شخصاً، بل كان قضية، لذلك لم يزل حاضراً ولم يزل صوته عالياً. وأول من يعرف هذا الحضور وهذا العلو، الذين اغتالوه أنفسهم. لقد كانت خسارتهم بوجوده كبيرة، لكنها صارت بغيابة أكبرا فالقضية التي دافع عنها حنا تكبر وتكبر، والقتلة يخسرون ويخسرون.

فالرجل.. قضية.

وحنا مقبل كان يحمل قضيته أينما حل وارتحل، وكان نشيطاً يعمل دون كلل أو ملل، لذلك وجدناه حين تسلم منصب امين عام اتحاد الصحافيين العرب، يبث الروح في هذا الاتحاد، ويعيد إليه حيويته ونشاطه، بعدما كان هذا الاتحاد في حالة من الجمود، وكذلك كان أمره في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطيني، وكذلك كان امره في صحف ومجلات الكويت التي عمل بها، وفي الصحف الفلسطينية التي ساهم في انشائها ونشرها! كان دائم الحركة دائم النشاط، أعطى كل شبابه وكل وقته لأمته.

وفجعت الصحافة العربية، وفجع الاشراف والنبلاء والوطنيون، وفجع كل صاحب قلم، وكل صاحب خلق.. فقد كان استشهاده على هذه الطريقة مفاجأة للكثيرين، إلا حنا نفسه، فقد كان يعلم ان القتلة لا أخلاق لديهم، لكنه لم يكن ليبدي اهتماماً بهم، فهو قد نذر حياته لوطنه، ولا يهمه كيف ومتى وأين يستشهد.

وها هي الذكرى الخامسة لرحيل هذا المناضل الصحفي الذي اغتيل في الطريق متوجهاً الى مكتبه لاعداد ندوة فلسطين العالمية الثانية، تمر بنا ونحن ندفع الشهداء تلو الشهداء من أمثال حنا مقبل الذي لحقوا به وبنفس الطريقة وزميله الشهيد ناجي العلي الذي اغتيل في لندن وشعبنا وانتفاضته بأمس الحاجة اليه مثال على ذلك.

وبهذه المناسبة الحزينة تعيد مجلة الكاتب الفلسطيني التي كان الشهيد من مؤسسيها عام ١٩٧٨ نشر مقتطفات من مقالاته، ومقتطفات من كتابات بعض اصدقاءه وتنشر بيان اتحاد الصحفيين العرب الصادر بهذه الذكرى، ورؤوس اقلام عن حياة المناضل الفقيد.

المناضل حنا مقبل

حياته في سطور :

- ولد في قرية الطيبة - قضاء القدس عام ١٩٣٩.
- مارس العمل الصحفي في بداية الستينات في القدس ثم في الكويت.
- عمل في جريدة الدستور في عمان، بعد ترحيله من القدس عام ١٩٦٨، وذلك لمناهضته للاحتلال

Digitized by Birzeit University Library

الصهيوني.

- اسهم في تاسيس جريدة فتح اليومية عام ١٩٧٠، وواصل دوره النضالي في اعلام فتح حتى عام ١٩٧٤.
- اسهم في تاسيس الاعلام الفلسطيني الموحد عام ١٩٧٣، الى جانب الشهيد كمال ناصر، وتولى مسؤولية ادارة مجلة فلسطين الثورة.
- احد مؤسسي الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين – امين سر الاتحاد منذ تاسيسه الى عام ١٩٨٠.
- انتخب امينا عاماً لاتحاد الصحافيين العرب عام ١٩٧٩ – جدد انتخابه عام ١٩٨٣.
- عضو اللجنة الدولية لحماية الصحفيين، المنبثقة عن منظمة الصحفيين العالمية.
- اسس وكالة «القدس برس» في بيروت، ثم وكالة «الشرق برس» في قبرص.
- استشهد يوم الخميس ١٩٨٤/٥/٣ في نيقوسيا – قبرص – ونقل جثمانه ليدفن في عمان بناء على رغبة والديه.

بيان اتحاد الصحفيين العرب
في الذكرى الخامسة لاغتيال حنا مقبل

أصدرت الامانة العامة لاتحاد الصحفيين العرب بيانا في الذكرى الخامسة لاستشهاد الامين العام الراحل حنا مقبل، جاء فيه: ان الرجال مواقف والامم أخلاق والصحافة كلمة والاعلام صدق والنضال فداء والفداء روح ودم. وهكذا كان أميننا العام الراحل الشهيد حنا مقبل، مناضلاً منح قضيته عمره وروحه وانسانا يسمو بخلقه يحترم كلمته ورجل موقف والتزام.

ولان مثل هذا النمط الفريد من الرجال قليل فان الفقيد رحل الى عالم الخلود وهو يدخل عقده الرابع ليكون في طليعة رعيل شهداء اتحاد الصحفيين العرب الذين قدموا ارواحهم قربانا لحرية الكلمة وامانة الموقف.

وأضاف البيان:

في مثل هذا اليوم قبل خمس سنوات صعدت روح فقيدنا الراحل حنا مقبل الى بارئها اثر رصاصات الجبن التي استهدفته غيلة وغدرا وهو اعزل الا من كلمة الحق ليكتب اسمه في سجل الخالدين باحرف من نور وليرجم القتلة المجرمين بالنار والعار.

ودع حنا مقبل الدنيا بعد حياة حافة بالنضال من أجل فلسطين ومن أجل الوحدة ومن أجل

Digitized by Birzeit University Library

الديمقراطية. هذه الاقانيم التي كانت هاجسه طيلة حياته وحتى لحظة مماته، فقد اغتيل وهو في طريقه الى مكتبه للاعداد لندوة فلسطين العالمية الثانية مسخرا كل الامكانيات وسالكا كل السبل من أجل الوحدة الوطنية الفلسطينية.

اغتيل الفقيد وهو يستعد لاصدار العدد الاول من من مجلته «اوراق عربية» لتكون منبرا للديمقراطية وصوتا صافيا للوحدة. اغتيل الفقيد وهو في أوج نشاطه في الاتحاد ايمانا منه بدور اتحادنا في تحقيق وحدة الصحفيين العرب كمنظمة قومية جماهيرية مناضلة.

المجد والخلود لك يا أبا ثائر في ذكراك الخامسة التي تتصادف مع يوم الشهيد الصحفي العربي وذكر شهداء ٦ أيار. والظفر ابدا للشعوب وقضاياها والنصر دوما للحرية واقلامها.

كتب الشهيد في جريدة اللواء اللبنانية في ١٠/ ١٢/ ١٩٧٤

من حقنا أن نختلف .. ولكن

من حقنا ان نختلف..

ومن حق كل منا، ان يكون له رأيه وموقفه واجتهاده.. ومن حقه أن يستخدم كل الاساليب لاعلان ذلك، شريطة أن يتم كل هذا، في اطار من الموضوعية ومن الروح الديمقراطية.. ومن روح الالتزام بفلسطين وقضيتها وثورتها.. وبأن فلسطين، القضية والثورة، اكبر من كل التنظيمات.. واكبر من كل الاشخاص.. واكبر من كل القيادات..

أكبر منا جميعاً..

واذا كان من حقنا ان نختلف، كمناضلين يحللون الأمور، وينظرون الى مستقبل الوطن من مواقع عقائدية وطبقية وسياسية مختلفة، فان من حق هذا الوطن علينا، حاضره ومستقبله، ان لا ننسى بأنه اذا كانت هناك قضايا نختلف عليها، فان هناك أيضاً، قضايا كثيرة، وكثيرة جداً تجمعنا..

والوفاء للوطن والقضية يكون بالتركيز اساسا على نقاط التقاء.

أولا:- على الرغم من كل الاجتهادات حول القضايا السياسية، فان جميع أصحاب وجهات النظر، هم في صف وطني واحد.. وضمن حركة وطنية واحدة، تسعى لتحقيق هدف استراتيجي محدد واضح، هدف تحرير فلسطين واقامة الدولة الديمقراطية على كامل ترابها.

فنحن لم نسمع حتى الآن فريقاً وطنياً يعلن تخليه عن هذا الهدف، أو يخرج عن دائرة الحركة

Digitized by Birzeit University Library

الوطنية الفلسطينية.

ونحن هنا، لا نتحدث بالطبع عن الجواسيس او الخونة.. كما اننا لا نتحدث عن المهزومين تاريخياً، من الداخل!

ثانيا:- الكل متفق، على ان الصراع مع العدو الصهيوني مازال شاقاً وطويلاً ومريراً، واننا لن نستطيع حسم هذا الصراع لصالح قضيتنا الوطنية، الا بعد رحلة طويلة قادمة من التضحيات والمشاق التي لا تعرف حدوداً.

واذا كان شعبنا، بكل فئاته وتنظيماته، قد جبل تربة الوطن بالدم.. فان عليه ان يقدم المزيد..

كل الشعب عليه ان يقدم.

ومن هنا فان تصعيد الصراع والمضي به الى نهاياته المرجوه، مسؤولية لا يقدر عليها تنظيم او فريق بمفرده، انها مسؤولية كل القوى الوطنية الفلسطينية والعربية.

ولعل من عظمة هذا الشعب انه في الوقت الذي يختلف ويتناقش ويتجاور، نرى مقاتلين يتسابقون الى العطاء.. لا يقلل من حماسهم انتماؤهم لهذا التنظيم أو ذاك. وهذا ما نراه هذه الايام.. فالنداء الذي اطلقه ابطال الخالصة تجاوب معه ابطال ترشيحا ونهاريا.

وصرخة باجس ابو عطوان في جبال الجليل كانت دائما تلتقي مع صرخة غيفارا في غزة، تدعو كل الفلسطينيين لمواصلة المعركة.

ثالثا- ان اعداء شعبنا لم يغيروا شيئا من مواقفهم، وما زالوا يأملون بتطويق انتفاضتنا الثورية واجهاضها ليعود شعبنا تتحكم به بساطير الجند وسياط الشرطة!

العدو الصهيوني يعلن ذلك بوضوح.

والعدو الامبريالي الاميركي يسخر من أجل ذلك كل اجهزة التآمر.

والعدو الرجعي الملكي في عمان يواصل قمع شعبنا ويواصل الاعداد للمزيد من المؤامرات على حركتنا الثورية.

كلهم يريدون محو هذا الشعب من جديد..

والثورة الفلسطينية ومعها كل الجماهير عندما استطاعت ان تتصدى لكل هذه المؤامرات، فعلت ذلك، موحدة ومتراصة..

فالوحدة..

الوحدة، وحدها، تستطيع ان تغلق المنافذ وتحيط مسيرتنا بالدرع الواقي.

رابعاً- ان الارادة الفلسطينية المستقلة الملتزمة بمصلحة الجماهير والقضية ليست فقط ضمانة استمرار المسيرة، وانما هي ايضاً ضمانة استمرار التفاعلات داخلها، وسط جو ديمقراطي صحي، لا نزاه كثيراً فوق ارض هذا الوطن العربي!

لقد اكدت حركتنا الرائدة «فتح» منذ بداية انطلاقتها هذه الحقيقة ونحن نعتقد ان الفلسطينيين باتوا

Digitized by Birzeit University Library

جميعا الان متفقين على ان المحافظة على هذه الاستقلالية مهمة مقدسة . . خاصة ونحن نعرف، كم هم الذين لا يمكنهم مجرد تصور ذلك.

وقولنا هذا، لا ينبع من موقع اقليمي، فلسنا بحاجة لان نكرر دائما ان الفلسطينيين هم اكثر العرب تطلعا للوحدة وحاجة لها.

ولكننا نقوله من موقع الحرص على ان تظل البندقية الفلسطينية قادرة على العطاء. وقدرتها على العطاء مرهونة بقدرتها على الحركة.

ولسنا نعتقد ان هناك من يختلف على ان الحفاظ على حرية الحركة، مهمة تستحق ان نلتقي عندها. فالكل . .

الكل بلا استثناء، يعرف تماما، ماذا يعني ان يفقد الفلسطيني قدرته على الحركة.

لقد افتقدناها ذات يوم، فأين كنا؟

وقتها كان يكفي بان تكون فلسطينياً لتكون متهما في كل الاوطان «ومطلوبا على كل الحدود»!

★★★

بقي أن نقول . .

حتى لو فكر بعضنا بالفراق، فلن نستطيع.

ان عدونا نفسه يرفض ذلك، فهو لم يفرق كثيرا بين غسان كنفاني وكمال عدوان وابو يوسف وكمال ناصر وواصل زعيتر وباسل الكبيسي ومحمود الهمشري.

لم يفرق ولم يسأل: الى أي تنظيم ينتمون!

وكان الشهيد حنا مقبل قد كتب المقال التالي نصه في جريدة اللواء اللبنانية في ١٨/٦/١٩٧٥

الى الزميلة « الاهرام » :
ليس من أجل هذا يموت ثوارنا؟

في معرض تعليقها على الاعتداءات الصهيونية الغادرة على جنوب لبنان، قالت الاهرام، ان عمليات الثوار الفلسطينيين ستستمر الى ان تعترف اسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية، وحتى تقبل المنظمة طرفا اصيلا في المفاوضات الجارية من أجل السلام.

Digitized by Birzeit University Library

ولتسمح لنا الزميلة «الاهرام» ان نستهجن هذا الطرح المغلوط من اساسه، لاسباب لا نعتقد انها تخفى على «الاهرام» حتى لو عالجتها بشكل مقلوب تماما، ولاهداف لا نريد الخوض فيها.

أولا - ان النضال الفلسطيني ليس نضالاً موسميا، وليس مرتبطا بموقف آني محدود. انه نضال من أجل تحرير فلسطين، بدأ قبل ان نسمع بشيء اسمه جنيف.. وسيستمر بعد سقوط مناورات أو مؤامرات او مؤتمرات جنيف.. وإلى ان يحقق كل اهدافه.

واهدافه معلنة في كل ادبيات الثورة وبرامجها.. في كل بيان يصدر عنها.. اذا كانت الزميلة «الاهرام» لا تريد ان تتخذ من الميثاق القومي الفلسطيني مرجعا لهذه الاهداف.. باعتبار ان تجاوز المواثيق أصبح أمراً شائعا هذه الأيام!

ثانيا - ان الشعب الفلسطيني وهو يقاتل من أجل تحرير ارض، واثق بأنه سيفرض وجوده على الجميع.

ولكنه بالتأكيد ليس شغوفا بالاعتراف الصهيوني، لان كيانه السياسي هو نقيض الكيان الصهيوني.. ولا حلول وسط في هذه القضية.. فالموضوع هنا ليس كيلومترات ولا حقول بترول..!

انها قضية شعب اقتلع من ارضه.. ولهذه الارض سيعود.. وعليها سيقيم كيانه الوطني!

وعندها لن تكون هناك اسرائيل لتعترف به.. او يعترف بها!!

ثالثا - ان هؤلاء الذين يتدافعون للموت ببسالة ندر ان عرفها التاريخ كله.

هؤلاء الذين من أجل فلسطين تحولوا الى ينابيع عطاء ليس لها حدود! هؤلاء عندما يندفعون الى الارض المحتلة، لا يفعلون ذلك من ذلك ان يصبحوا طرفا في المساومات الجارية.

ومع شظايا اشلائهم المتفجرة باستمرار.. يفجرون كل احلام اليأس والاستسلام، وينسفون كل موائد الذل على أية ارض اقيمت وتحت اي شمس عقدت..!

وانها لطعنة لهؤلاء القديسين، لهؤلاء الانبياء الجدد.. بأن يقال بأنهم يموتون كي يصبحوا طرفا في تسوية، مهما كان لونها ستظل مناقضة لامال هذا الشعب العظيم بتحرير كل تراب وطنه، واقامة دولته الديمقراطية فوق كل شبر فيها.. من البحر وحتى الصحراء ومرورا بضفتي النهر!

رابعا - ان التصاعد في العمل الثوري الفلسطيني وبلوغه هذه المرحلة من البطولة الفذة، تطور طبيعي في مسيرة حرب الشعب الفلسطينية.

ان النضال لا يتخذ شكلا واحدا فقط.

والعمليات البطولية الاخيرة شكل جديد اقتضته طبيعة الرحلة.

وستشهد الساحة اشكالا اخرى من النضال، فقد تفاجيء البعض ولكنها لا تفاجيء شعبا يعرف ان هذا هو طريقه، وانه دون ان يشق الطريق بجماجم الابطال.. لن يصل!

وبعد،

عندما انطلقت الثورة عام ١٩٦٥ التزمت مبادىء واضحة..

وعلى هدى هذه المبادىء ستواصل الثورة مسيرتها.. ولن تنحرف!

Digitized by Birzeit University Library

ولن تستطيع قوة في الدنيا ان تقودها الى الانحراف . . !
فلماذا يتعب البعض نفسه؟!

وكتب في مجلة نضال الشعب عدد ٢٣٢ تاريخ ٤/ ٤/ ١٩٨١

وحدة الارض والشعب والقضية

ذات يوم عام ١٩٦٦ . . . جن جنود العدو، فقد انهارت العمارات في حيفا واحدة تلو الاخرى . . في وقت واحد كان فيه الجنود الصهاينة ينتشرون في مكان بعد الانفجار الأول . .

ومضت فترة طويلة ان يكتشف العدو ان بطل كل هذه الانفجارات «جندي اسرائيلي» كان ضمن الجيش المنتشر بحثاً عن الفاعلين . . .

هذا الجندي الذي بحث على طريقته الخاصة . . لم يكن سوى المناضل العربي الفلسطيني ابن النقيب محمد الهيب غريفات . .

واذا كان العدو قد فقد اعصابه، وهو يرى يد المقاومة تمتد لتصل الى قلب المؤسسة العسكرية الصهيونية . . فان عربا كثيرين ايضاً . . قد ذهلوا ولنفس السبب . . فكيف يقاتل فلسطيني حمل الجنسية الاسرائيلية منذ ٢١ عاما . . . يومها!

ومحمد الهيب ليس وحده . . .

فلقد أرخ لنا توفيق فياض قصة المجموعة الرائعة ٧٧٨ التي نسفت أنابيب النفط في حيفا وفجرت الساحات العومية في تل أبيب ونهاريا والناصرة وحيفا .

اسماء كثيرة بعضها عرفناه . . وبعضها عرفه العدو . . والكثير الكثير ما زال مجهولا . نذكر كل هؤلاء . . . من استشهد، من أسر، من لازال يقاتل . . . ونحن نحتفل بيوم الارض نذكرهم، لنذكر الاهل الذين اعدوا الحلوى لجنود العرب الزاحفين اليهم في حزيران ١٩٦٧ . . . والذين راحوا يعطون الأمان لم يطلبه من اليهود في اكتوبر ١٩٧٣ !

نذكر الاهل الذين اجتمعوا قبل اسابيع في الجليل ليعلنوا ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني . . . وانهم فلسطينيون !

نذكر الشعب الذي حافظ على هويته الوطنية رغم ثلاثة وثلاثين عاما من سياسة التذويب والقهر القومي . . وثلاثة وثلاثين سنة من التدجيل والكذب والرياء العربي الرسمي!

Digitized by Birzeit University Library

يوم الأرض . . .

ليس تأكيداً على تمسك الشعب الفلسطيني بأرضه فقط . . . وليس يوم وفاء جديد لفلسطين أنه تأكيد على قضايا ثلاثة . . .

ـ ان الارض الفلسطينية واحدة لا يغير من هويتها عدد السنوات التي تقضيها تحت الاحتلال والناصرةمثل القدس عربية فلسطينية وستظل كذلك . . .

ونضالنا من أجل تحرير القدس سيظل قاصرا ما لم يكن مرتبطا بتحرير الناصره . . .

ـ ان الشعب الفلسطيني شعب واحد . . . سواء أعاش تحت الاحتلال العلني أو الاحتلال المقنع !

ولقد أكد هذا الشعب ان ارتباطه بأرضه لا تغيره الظروف التي تحيط به ، وأهلنا في الارض المحتلة عام ١٩٤٨ صرخة تحد دائمة . . وتأكيد يتجدد باستمرار بأن شعبنا لا يتعب وانه على استعداد ليبدأ رحلة التضحيات كل يوم . . .

ـ ان القضيـة واحدة . . . فالمدرس الذي يعلن الاضراب في الضفة الغربية مثله مثل المقاتل في جنوب لبنان . . . مثله مثل الذي يرفع علم فلسطين في الناصرة . . . مثلة مثل الطالب الذي يرى في التجنيد الاجباري حلما تحقق . . .

تجمعهم فلسطين هما وقضية . . . ورسالة حضارية . . .

وهو أيضا يوم دعوة للبنادق المقاتلة التي تلتقي بعد ايام في دمشق لتعلن وحدتها . .

فوحدة «الارض» و «الشعب» و «القضية» . . . . تظل مهددة مالم تتحد أولا بنادق «الارض» و «الشعب» و «القضية» !

وعلى طريق فلسطين نمضي . . . ونصل !

Digitized by Birzeit University Library

التقرير الثاني

عرار: الشاعر - الانسان - العصر

* مساء يوم الثلاثاء ٨٩/٨/٢٩ الماضي، وفي اطار الاحتفال بالذكرى الاربعين لوفاة الشاعر العربي الاردني «مصطفى وهبي التل - عرار -».

اقيمت في قاعة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - فرع سورية - الكائن بالازبكية، ندوة فكرية، ادبية كرست لاحياء ذكرى الشاعر وكشف جوانب شخصيته المتعددة وموقعها في الحركة الادبية والسياسية في شرق الاردن.

تحدث في الندوة الاخوة: «د. أحمد أبو مطر» الذي قدّم «بانوراما» لشخصية عرار وملامحها. تلاه الاخ «هاني حوراني» حيث تناول: عصر عرار السياسي والاجتماعي ثم الاخ «محمود عبيدات» الذي تناول: الهم القومي والطبقي عند عرار، وبعد ذلك قدم الاخ «بسام الهلسه» قراءات مختارة من شعر عرار. وقد اكد المتحدثون في الندوة على الاهمية الخاصة لعرار إنساناً وشاعراً، والدور المتميز الذي لعبه في حياة الاردن الحديث، والكفاح الذي خاضه ضد الاستعمار والسلطة الرجعية واعوانها ورموزها، مثلما ذاد في الوقت نفسه عن حقوق شعبه وفضح العسف والاضطهاد الذي تعرض له بشكل مثابر متواصل عنيد وبروح تفيض بالحب والتقدير لوطنه والشعور بالاغتراب عنه:

Digitized by Birzeit University Library

موطني الاردن لكني به كلما داويت جرحاً سال جرح

ولاحظ المتحدثون، وكذلك جمهور الكتاب الذين حضروا الندوة وشاركوا في النقاش والتعليق ـ لاحظوا الغبن الذي حاق بعرار والاهمال المتعمد له من جانب المؤسسات المعنية، وتعمدها إهمال الجانب البارز في شخصيته ألا وهو مقاومته للظلم والاستبداد.

وعلى الصعيد الفني بيّن المحاضرون القيمة الخاصة لشعره من حيث انه احد اكثر الشعراء العرب ارتباطاً ببيئته وتعبيراً عنها في شعره، مثلما هو الامر في حياته الخاصة والعامة على السواء وان إنحيازه إلى فئة «النور»، اي الغجر في الاردن، وارتباطه بهم انما يعكس شعوراً انسانياً اصيلاً وعميقاً قل نظيره، ويوضح إلى أي مدى ذهب عرار في نقده للسلطة وللمجتمع الذي اقامته على شاكلتها وبحثه عن بديل معادل لهذا المجتمع تتمثل فيه الفضائل الانسانية التي ظمئت روحه اليها وبحثت بدأب عنها:

بين الخرابيش لاعبدٌ ولا أمة ولا أرقاء في أزياء احرار
بين الخرابيش لا كذب ولا ملقٌ ولا إحترابٌ على فلسٍ وديناري
ولا جناة ولا ارض يضرجها دم زكي ولا أخّاذ بالثار

وبعد، فإننا نعتقد أن عراراً لم ينل بعد مايليق به وبقدره من اهتمام وتتبع سواء لدى المهتمين بحركة الشعر العربي في النصف الأول من هذا القرن، او لدى المعنيين بشؤون الحركة التحررية العربية والاردنية منها خاصة.

Digitized by Birzeit University Library

التقرير الثالث

اسبوع الفولكلور الفلسطيني السادس

أقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين/ فرع سورية مهرجانه السنوي السادس - اسبوع الفولكلور الفلسطيني وذلك في الفترة ١ - ١٠ تموز/ يوليو ١٩٨٩ والذي يأتي ضمن احتفالات اليوم العالمي للفولكلور الفلسطيني.

مما لاريب فيه ان الشعب الفلسطيني حقق خلال ربع القرن الماضي من ثورته المعاصرة انتصارا بارزا على صعيد ابراز تراث الفلسطينيين وتاريخهم الشعبي وثقافتهم وحضارتهم، بعدما كانت الساحة خالية للعدو الصهيوني ينفث فيها اكاذيبه وادعاءاته حتى ان مضيفات طائرات شركته «العال» يرتدين الثوب الفلسطيني مدعيات انه ثوب اسرائيلي، وهكذا قل عن الاثار والمكتشفات، والعادات والتقاليد وحتى الاكلات الشعبية ادعاها الصهاينة، محاولين ان يصنعوا لانفسهم تاريخاً بادعاء تاريخ الغير كما ادعوا أرضه.

لذلك كان القتال الفلسطيني ضاريا على هذه الجبهة، وهو قتال اسلحة الشبابه والارغول والثوب المطرز والدبكة والفنان الشعبي بالجهد الاكبر والاعظم في هذا القتال الحضاري المجيد. ورويدا رويدا أخذ العالم بأسره يتعرف على التراث الفلسطيني الدبكة، وخبز الطابون، العتابا والثوب المطرز، العباءة والحطة والعقال.. ومالى ذلك من مفردات ومميزات التراث الفلسطيني.

Digitized by Birzeit University Library

وقد لعب اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين دورا بارزا في هذه المعركة ليس فقط من خلال كتابات ومؤلفات الاعضاء الشعرية والنثرية ودراساتهم التاريخية والعلمية المتخصصة، بل وايضا من خلال تبنيه لاسبوع الفولكلور السنوي والذي نحن بصدد الحديث عن دورته السادسة.

ليس من السهل في الساحة الفلسطينية القيام بعمل جماعي وجهد مشترك وذلك بسبب الخلاف بين الفصائل والتنظيمات،رغم ذلك الى الاتحاد غلى نفسه ان يرتفع فوق كل التشنجات التي يعج بها النفق السياسي الفلسطيني، وان يقدم تراثا فلسطينيا ابدعه الشعب العربي الفلسطيني بكل فئاته.أريافه ومدنه وباديته. أبدعه، وأحبه. اكثر من ذلك فان الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين/ فرع سورية عمل ايضاً لتطوير هذا التراث والارتقاء باساليب الحفاظ عليه وابرازه.

بدأت عروض الاسبوع السادس للفولكلور على خشبة صالة الحمراء بدمشق وشاركت فيه عدة فرق فولكلورية فلسطينية وعلى قدم المساواة لافرق بين هذه او تلك.فعلى مدى الليالي السبع صعدت المنصة في الموعد المحدد الثامنة مساء كل من فرقة الخالصة، النضال، بيسان القدس، الاخضر العربي البيادر الارض.

قدمت الفرق عروضها من دبكات واوبريتات وعروض أزياء، وقد حضر ختام هذه العروض الدكتور جورج حبش امين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والسيد صالح رأفت عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية وغيرهما من المسؤولين الفلسطينيين.

تضمن الاسبوع ايضاً معرضاً للازياء والمطرزات الفلسطينية وندوة فكرية تمت فيها مناقشة لبعض جوانب التراث الشعبي الفلسطيني،وذلك بمقر فرع الاتحاد للكتاب والصحفيين الفلسطينيين،واشتملت على تقييم للعروض ومدى استلهامها للتراث وتعبيرها عن اصالته ومدى نقاط التجديد ومواقعه لدى هذه الفرق.

وبالأجمال فقد شهد اسبوع الفولكلور الفلسطيني السادس اقبالا متزايدا من جماهير شعبنا الفلسطيني التي هرعت لدعم وتأييد فرقها الفنية المعبرة عن اصالة تراث شعبنا وحضارته.

وفي حفل الختام قامت فرقة الارض التي احيت هذا الحفل بتقديم لوحة الصخرة المشرفة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين/ فرع سوريا تثمينا لجهوده وجهود الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في حفظ وتسجيل وتطوير تراث شعب مناضل مجيد، يقاتل في حرب تعددت جبهاتها وتنوعت اسلحتها وازدادت شراستها على مر الايام ولكن ترسخت عدالتها بفضل دماء هذا الشعب وتضحياته.

Digitized by Birzeit University Library

التقرير الرابع

السلطات الصهيونية تغلق جريدة الراية

اصدرت السلطات الصهيونية في ٨٩/٣/١٠ قراراً باغلاق صحيفة الراية التي تصدر في الناصرة، وتمثل «ابناء البلد».

وقد مر خبر اغلاق الراية بسلام، دون ان يهتم به أحد؛

و «الكاتب الفلسطيني» تعيد نشر احدى مقالات الراية، لتعرف القارىء العربي بالراية ومواقفها، وموقف «ابناء البلد» مما يدور في الأرض المحتلة.

في ظل المناخ الوطني الثوري السائد في اوساط شعبنا العربي الفلسطيني عامة،وشعبنا في الضفة والقطاع خاصة، من المفروض ان تساهم الاقلام الوطنية الحرة في كشف وتعرية الاحتلال وأساليبه الحيوانية الوحشية في تعامله مع شعبنا، باتجاه تصليب وتعميق وتطوير المواقف والممارسات الوطنية والثورية في مقاومة الاحتلال. والتحريض على القوى الوطنية وفي هذه الظروف بالذات لايصب في طاحونة اعداء شعبنا. وهذا التحريض الذي انطلق عبر «الاتحاد» تارة، وفي الشارع تارة أخرى، ويتقاسم هذا الدور التحريضي، بين رموز الحزب الشيوعي الاسرائيلي، ابتداء من توفيق طوبي (مقالته في الاتحاد» التحريض العنصري) القبضة الحديدية ٨٨/١/٥) الذي نعتت فيها القوى الوطنية وابناء البلد بالنشاز المرفوض ويصف نشاطاتها بالحوادث الشاذة واعمال الشغب، ومروراً باميل حبيبي في تحريضه المشهور ضد اذاعة القدس (من المؤسف ترك اذاعة احمد جبريل تبث سمومها) حيث بعدها بأيام لم تترك اسرائيل الاذاعة، وبدأت فعلا بالتشويش والتخريب عليها، لاسكات هذا الصوت الوطني الثوري، وانتهاءا بمقالة زاهي كركبي الجماهير الفلسطينية في اسرائيل (الاتحاد ١٩٨٨/٢/١٧) التي نحن بصدد الرد عليها. ان هذا النهج التحريضي يحتم علينا الرد والتوضيح وكشف وتصحيح بعض المغالطات السياسية والتاريخية والوطنية والثورية خاصة تلك التي وردت في مقالة كركبي المذكورة.

Digitized by Birzeit University Library

انني لاأهدف هنا كتابة دراسة مفصلة حول القضايا التي طرحها كركبي في مقالته، بقدر ماأهدف الى المناقشة الموضوعية السريعة لبعض ماطرح ووضع النقاط على حروفها الصحيحة والمناسبة:

١ - يحاول زاهي كركبي التشكيك بجدوى المقاومة الوطنية الثورية التي خاضتها الثورة الفلسطينية منذ عام ١٩٦٥ ضد الاحتلال الصهيوني على اعتبار ان الظروف كانت غير مناسبة لمثل هذا النضال فيقول: وظهر ان في مقدور النضال السياسي الجماهيري المثابر في ظروف معينة ان يعطي نتائج تفوق بكثير النتائج التي من الممكن ان يعطيها النضال المسلح في ظروف غير ملائمة. اي ان كركبي يعزل انتفاضة شعبنا الفلسطيني اليوم في الضفة والقطاع عن مجمل النضال الوطني الثوري الذي خاضه منذ اواسط الستينات بكافة اشكاله.

حيث خاض الشعب الفلسطيني منذ ذاك، نضالا شاقا بطوليا من اجل تحقيق اهداف مرحلة التحرر الوطني، اي من اجل تحرير الوطن المحتل وتحقيق سيادته على ارض وطنه، شأنه في ذلك شأن كل الشعوب التي واجهت او تواجه مهام مرحلة التحرر الوطني من السيطرة الاجنبية على اوطانها. ومن اجل تحقيق هذه الاهداف انطلقت الثورة الفلسطينية المعاصرة منذ عام ١٩٦٥م وخاضت عدة معارك ضارية ضد التحالف الامبريالي الصهيوني والرجعية المتعاونة معه، وقدم شعبنا خلالها عشرات الاف الشهداء واغلى التضحيات. ولايجوز هنا طمس الحقيقة الملموسة بأن الشعب الفلسطيني الذي فجر ثورته المعاصرة، وقدم عشرات الاف الشهداء والاف السجناء، هي التي اكسبته اساسا التأييد والتعاطف الواسع ليس فقط على الصعيد العربي بل ايضا عالميا، واستحوذ على الاعجاب والتقدير كشعب مقاتل في سبيل الحرية. وهي التي احيت الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني الذي عمل التآمر الامبريالي الصهيوني الرجعي من عام ١٩٤٨ على طمسها، وابراز القضية الفلسطينية على انها قضية تحرر وطني للشعب الفلسطيني وليست قضية لاجئين، وانها تشكل بؤرة الصراع العربي الصهيوني الذي كان يجري تصويره على انه صراع بين الدولة اليهودية والدول العربية الاخرى. وما الانتفاضة الشعبية العارمة اليوم في الضفة والقطاع الا اثبات ودليل قاطع على ان نهج الكفاح الثوري هو الطريق لاسترداد الحقوق الوطنية وتحرير الوطن من براثن الاحتلال. وليس كما يحاول كركبي وضع الانتفاضة في تعارض مع نضال وكفاح الثورة الفلسطينية المعاصرة.

٢ - يساوي كركبي بين الوطنيين والمشاعر الوطنية لابناء شعبنا وبين التاجر الذي تجارته خاسرة فيقول: ومع اهمية المشاعر والنوايا الوطنية الا انها ليست المقررة. فالمقرر هو نتائج الاعمال وليس الهدف الذاتي لمن قام بهذه الاعمال،فكم من تاجر قام بتجارة وهدفه الربح ولكن كانت النتيجة الخسارة. وكم من وطني قام بعمل معين هدفه خدمة قضية شعبه الا ان النتيجة كانت الاضرار بالقضية لان الهدف والاسلوب الذين اختارهما لم يكونا صحيحين. وهنا نسأل: هل كان من الممكن لانتفاضة شعبنا في الضفة والقطاع ان تندلع وتتصاعد اساسا لولا المشاعر الوطنية للشباب الوطني الملتهب حماسا وطنيا عفويا ونقمة غاضبة وعادلة ضد قوى الاحتلال؟ فاذا كانت المشاعر الوطنية العربية الفلسطينية هامشية وغير هامة بالنسبة لبعضهم، لانها تقبض شعار «الوطنية الاسرائيلية» فهذا شأنهم، واما لشعبنا نحن مشاعر واحاسيس وطنية تتنافر واستمرار

Digitized by Birzeit University Library

الاحتلال واضطهاده وقهره واستعباده لهذا الشعب المناضل. وهذه المشاعر الوطنية الملتهبة بالذات هي التي تقرر اليوم، كما قررت بالامس، اندلاع الانتفاضة الشعبية الثورية العارمة ضد الاحتلال واعوانه. ثم من يقصد كركبي بالضبط بقوله: «كم من وطني قام بعمل معين وهدفه خدمة قضية شعبه، الا ان النتيجة كانت الاضرار بالقضية لان الهدف والاسلوب الذين اختارهما لم يكونا صحيحين؟ لماذا لم يفصح ويوضح بالضبط من يعني بهؤلاء الوطنيين الذين اضروا بالقضية؟ لماذا خجل من تسميتهم بشكل واضح؟ ام لان من قصدهم لا يجرؤ على مهاجمتهم والتحريض المباشر ضدهم؟ مع ان «الاتحاد» وصفتهم في اواخر الستينات واوائل السبعينات بالمخربين. وفي اواخر السبعينات وصف جهينة اولئك «الوطنيين» بعكاكيز السلطة الى ان زجت السلطة فيما بعد ببعض عكاكيز السلطة هذه في السجون الصهيونية وهل الحسابات التجارية للاطار السياسي الذي ينتمي اليه كركبي، لعدد الاصوات التي سيربحها او يخسرها في الانتخابات، او مقدار الربح والخسارة في عدد نوابه في البرلمان الاسرائيلي يمكن سحبها ايضا على المشاعر الوطنية لشعبنا او على صحة او خطأ اساليب واهداف الوطنيين؟

٣ - يصف كركبي نشاطات القوى الوطنية في منطقة عام ٤٨ بالاعمال المغامرة وشعاراتها بالشعارات المتطرفة فيكتب: «ان القيام باعمال مغامرة هنا ورفع شعارات متطرفة هنا في المحيط العربي سيؤدي الى اضعاف الرأي العام الاسرائيلي لاستنكار جرائم الاحتلال والضغط على حكام اسرائيل للانسحاب من المناطق المحتلة.. الخ ويتابع قوله: «فهل كان ممكنا تحقيق انتصار الشعب الفتنامي، بدون الحركة الشعبية الواسعة جدا لمعارضة العدوان الامبريالي الاميركي على فيتنام التي قامت بين الشعب الاميركي نفسه؟» وفي مكان اخر من مقالته يقول: «ان رفع شعارات مغامرة يلحق الضرر هو ايضا بنضال الشعب الفلسطيني البطولي من اجل حقوقه مثل شعار شعب واحد - دولة واحدة وهل اعتبار القوى الوطنية هنا لضرورة التلاحم النضالي لشعبنا الفلسطيني في منطقة عام ٤٨ (وهو الجزء) مع الكل الوطني الفلسطيني، الذي تشكل الضفة والقطاع احد امتداداته الوطنية النضالية المركزية، هو المقصود بالمغامرة والتطرف؟ وهل اعتبار القوى الوطنية الشريفة في الداخل بأنها جزء لايتجزأ من الشعب العربي الفلسطيني ونضالنا الوطني جزء لايتجزأ من نضاله الوطني هو المقصود بالتطرف؟ وهل يريدنا كركبي اذن ان نعتبر انفسنا فلسطينيين تاريخيا واسرائيليين اليوم، ونرفع الاعلام الاسرائيلية في المظاهرات؟ ثم لماذا شدد كركبي مرتين على كلمة (هنا) في نفس الجملة (مغامرة هنا ومتطرفة هنا)؟ هل لانه يعتبر ايضا ان الاعمال التي يقوم بها شعبنا هناك في الضفة والقطاع والشعارات التي يرفعها هي مغامرة ومتطرفة ايضا، ولكن ليس بمقدور كركبي ورفاقه السيطرة على اعمال وشعارات شعبنا المغامرة والمتطرفة هناك؟ ثم لماذا يكرر ماكتبه توفيق في مقالته في الاتحاد (٨٨/١/٥) حول شعار شعب واحد دولة واحدة؟ وهل يمكن وضع ذلك الا في سياق ايجاد التبريرات للقمع السلطوي ضد حركة ابناء البلد كما حدث مع حركة الارض في حينه؟ لماذا التضخيم المبالغ فيه لدور الرأي العام الاسرائيلي من جهة والرأي العام الاميركي من جهة اخرى بين هزيمة الاحتلال الاسرائيلي في الارض العربية المحتلة وهزيمة الاحتلال الاميركي في فيتنام؟ وهل هزيمة القوات

Digitized by Birzeit University Library

الاسرائيلية من الجبل والشوف وصيدا وصور ومعظم الجنوب اللبناني كان بفضل الرأي العام الاسرائيلي؟ ام نتيجة الضربات الموجعة التي كالها الثوار اللبنانيون والفلسطينيون لهذه القوات والخسائر البشرية الفادحة التي مني بها هناك؟ ان مظاهرة الـ ٤٠٠,٠٠٠ اسرائيلي في تل ابيب، بقيادة شمعون بيرس، بعد مجازر صبرا وشاتيلا، كان هدفها اساسا وكما قال بيرس نفسه في خطابه امام المتظاهرين، «اظهار الوجه الانساني لاسرائيل والصهيونية اي تجميل وجه الصهيونية والاحتلال امام الرأي العام العالمي ثم اين كان الرأي العام العالمي، ثم اين كان الرأي العام الاسرائيلي بعد احتلال اسرائيل للاراضي العربية عام ٦٧ واقتلاع مئات الاف الفلسطينيين من ارضهم؟ لماذا نزل آنذاك الاف الصهاينة الى الشوارع يرقصون ويغنون معبرين عن نشوة سكرتهم الاحتلالية ضد العرب؟ الان تلك الحرب لم تكلفهم خسائر بشرية واقتصادية كبيرة، ولم يتوجعوا منها كما في حرب لبنان؟ ان مايهم الرأي العام الاسرائيلي ليس جرائم الاحتلال ضد العرب بل واساسا مستقبل اسرائيل قوية متفوقة على العرب، ومستقبل المجتمع الصهيوني وديمومته. وهذا ماصرحت به مثلا رمز من رموز حركة «السلام» الاسرائيلية، شلوميت الوني في برنامج موكيد التلفزيوني (٨٨/٢/٣) ليس مايهمني الفلسطينيين، ان مايهمني اساسا هو مستقبل اسرائيل والشعب اليهودي،واننا نرى ونلمس كيف ان ضباط وجنود حركة السلام الان يشاركون في الجرائم الاحتلالية ضد العرب من جهة ويدعون نضالهم من اجل السلام الفلسطيني الاسرائيلي من جهة اخرى، كما حدث مثلا مع الضابط شترانجمان ـ حينما صور وهو يعتدي على مصوري نيوزويك الاجانب، فما بالك وسلوكه السلامي الان مع العرب من وراء الكاميرا التلفزيونية؟

وهل حقا أن انتصار الشعب الفيتنامي كان بفضل الرأي العام الاميركي؟ ام ان وصول عشرات الاف الجثث الاميركية ومئات الاف الجرحى والمشوهين والمرضى العقليين والنفسيين الاميركان الى ذويهم، وبداية خراب الاقتصاد الاميركي نتيجة الحرب، وتحرير مناطق واسعة من الارض الفيتنامية المحتلة، هي التي لعبت الدور الاساسي في هزيمة جيش الاحتلال الاميركي في فيتنام؟

٤ ـ يحاول زاهي كركبي الظهور بمظهر الحريص على منظمة التحرير التي تتمسك ببرنامج السلام فيقول: فمنظمة التحرير تتمسك ببرنامج السلام الذي اقر في الدورة الثامنة عشرة التوحيدية للمجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت في الجزائر في نيسان الماضي ويتابع قوله: وكيف يتفق شعارات مخالفة لبرنامج السلام الذي تتمسك به م.ت.ف والادعاء بتأييدها والتضامن معها؟

اولا: ان «برنامج السلام» لمنظمة التحرير ليس بالتأكيد ذلك الذي يتحدث عنه كركبي ويتصوره في خياله وانما هو بالتحديد عبارة عن البرنامج السياسي المرحلي في العودة وتقرير المصير والدولة الفلسطينية المستقلة، على اعتبار ان المرحلية هنا تدخل في اطار مرحلة التحرر الوطني وتشكل جزء منها.

ثانيا: على اي اساس ينصب كركبي نفسه ذلك الحريص على م.ت.ف ويدعي تأييدا لها في الوقت الذي يشكك الاطار السياسي الذي ينتمي اليه بوحدانية تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني اينما كان. حيث ان م.ت.ف تعتبر وفقا لميثاقها ومقررات مجالسها كافة وبرامجها السياسية الممثل الشرعي والوحيد للشعب

Digitized by Birzeit University Library

الفلسطيني ولا تجزىء هذا الشعب الى شعب داخل الخط الاخضر وآخر خارجه وثالث في الاردن ورابع في سوريا. بينما يطرح الحزب الشيوعي نفسه كبديل تمثيلي لذلك الجزء من الشعب الفلسطيني في منطقة ٤٨ على اعتبار انه الوصي على هذا الشعب وقيادته الحكيمة وممثله الوحيد.اذن كيف يستوي هذا الموقف المناقض لوحدانية تمثيل م.ت.ف للشعب الفلسطيني وقول كركبي بأن «ابناء البلد» يدعون تأييدهم لمنظمة التحرير وتضامنهم معها؟ مصورا نفسه انه يؤيد م.ت.ف وحريص على برنامجها ووحدانية تمثيلها. وفي فقرة اخرى يحاول كاتب المقالة الايحاء بأن القوى الوطنية هنا تزايد على انتفاضة شعبنا في الضفة والقطاع فيقول: وتؤكد الانباء الواردة من كافة المناطق المحتلة انه لم يجر رفع اية شعارات مزايدة ومغامرة مخالفة لهذا البرنامج منذ بدء الانتفاضة.نود هنا ان نسأل كركبي ورفاقه هل حقا انهم يعلمون ماهي الشعارات الوطنية التي يرفعها ابناء شعبنا في مخيمات جباليا والمغازي وبلاطه والامعري والجلزون كما في اليرموك والوحدات؟ اننا نطلب منهم ان يوضحوا لنا بالضبط ماذا يعني شعار العودة مثلا، وهو شعار من شعارات الانتفاضة بالنسبة لابناء شعبنا في هذه المخيمات؟ وماذا يعني شعار فلسطين عربية وهو ايضا شعار من شعارات الانتفاضة؟ وهل شعارات شعب الانتفاضة هذه هي ايضا شعارات مزايدة ومغامرة؟ فليعلنوا لنا اذن موقفهم الواضح والصريح من انتفاضة شعبنا في الضفة والقطاع بدون موارابة او تحايل.

٥ - يدعي كركبي بأن العلم الفلسطيني رفع في مظاهرة حيفا يوم ٨٨/٢/١٣ فيقول: اما محاولة رفع العلم الفلسطيني في اية مظاهرة ونحن نكن كل الاحترام لعلم شعبنا فموضوعيا هو عمل استفزازي يضر بالمظاهرة الخ.

اولا: هل رفع بالفعل العلم؟

ثانيا: على فرض ان العلم رفع هل المقصود بكلامه هذا الوشاية لمن يهمه الامر على من رفع العلم؟ هل المقصود فتح عيون السلطة وتحريضها مرة اخرى ضد من يسمونهم متطرفين و «مغامرين»؟ ماالذي يريده كركبي ورفاقه بالضبط؟ اعتقالات واعتقالات ادارية واقامات اجبارية اضافية لابناء البلد؟ او لهذا السبب قاطعوا الاجتماع الشعبي الذي جرى في الناصرة يوم المظاهرة الكبرى، احتجاجا على الاعتقالات الادارية لابناء البلد، ويبارسون ايضا تعتيما اعلاميا على الاجراءات السلطوية القمعية ضد ابناء البلد في هذه الفترة بالذات؟ فبدلا من فضح وتعرية الممارسات والاجراءات السلطوية القمعية ضد ابناء البلد وتسليط النار ضد هذه الاجراءات القهرية يساهمون في التحريض ضدهم ويرددون نفس التهم السلطوية ضد القوى الوطنية في الداخل. ان واجب الحزب اللينيني الثوري الحقيقي العمل على التعبئة الثورية للجماهير ضد اعدائها القوميين والطبقيين، في ظروف الغليان الجماهيري والمد الوطني الثوري، والعمل على تعميق هذا المد من جهة وتعميق التنظيمات الداخلية لجبهة العدو والتي ادى الى تفسخه وانحلاله من جهة أخرى.

وليس تهدئة وتبريد وتنفيس نقمة الجماهير وحرف نضالها الوطني - الطبقي عن مساره الثوري السليم، والتحريض ضد القوى الوطنية، ملتقين بذلك موضوعيا مع تحريض السلطة ضد هذه القوى، لتهيئة الارضية السياسية - النفسية لضربهم والقضاء عليهم.

Digitized by Birzeit University Library

سعر العدد

● لبنان ٢٥٠ ل.ل. ● سوريا ٢٠ ل.س. ● الاردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الكويت دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهما ● البحرين دينار واحد ● قطر ١٥ ريالا ● السعودية ١٥ ريالا ● اليمن ١٤ ريالاً ● اليمن الديمقراطية ٦٠٠ فلس ● مصر جنيه واحد ● السودان ٢٠٥٠ جنيه ● الصومال ٣٠ شلناً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ١٢ ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهما ● موريتانيا ١٥٠ اوقية ● ليبريا ١٫٥٠ جنيه ● اليونان ٢٠٠ دراخما ● فرنسا ٢٥ فرنكا ● المانيا ١٠ ماركات ● ايطاليا ٥٠٠٠ ليرة ● بريطانيا ٢٫٥ جنيه ● سويسرا ١٠ فرنكات ● هولندا ١٠ فلورين ● اميركا وسائر الدول الاخرى ٦ دولارات.

مكتب دمشق

الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ الازبكية ـ ص . ب ٨١٥٧

الثمن ٢٠ ل.س أو ما يعادلها

Digitized by Birzeit University Library